
سيرة روائية
أيامي في برلين
(درعمي في بلاد الفرنجة)
الدكتور محمد سيد أحمد متولي
عالم الأدب
للترجمة والنشر

أيامي في برلين

سافرت إلى ألمانيا لإنجاز أطروحة الدكتوراه، فوجدتني أدون قصة أيامي هناك، تسرية لهموم النفس في بلاد الغربة، وتزجية لوقت الفراغ، أو قل إن شئت إن ذلك كان ضربًا من الرياضة الكتابية، مارستها تلبية لهوى قديم عرفته في نفسي التي عشقت فن الكتابة منذ الصبا! فكنت أرسل العنان للقلم إرسالًا، لرصد مشاهداتي وتأملاتي، فرويت قصة أيامي وعرضت لعادات القوم وأخلاقهم وطبيعة حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وطبيعة بلادهم وجامعاتهم.

هذا الكتاب يضم مواقف حياتي ومشاهداتي وتأملاتي خلال رحلاتي العملية والترفيهية في برلين وفي غيرها من المدن الألمانية، وفي باريس وروان الفرنسية، وفي أمستردام الهولندية، وفي مدريد وطليطلة الإسبانية. كتبت لكم قصة أيامي في هذه البلاد، فلم أخف عنكم مما رأيت شيئًا، وكنت في ذلك كله أحمل مصر بين جوانحي! لم يغب طيفها يومًا عن خيالي، ولم أنسها! أسرد وقائع وحكايات، من هنا ومن هناك، وأعقد مقارنات كثيرة؛ كانت تقع مني عفوًا، بين كل ما شاهدته في بلاد الغرب وما عشته في مصر حتى ضجت هذه الصفحات بالمواقف والحكايات والمفارقات!

قارئي الكريم: أرجو أن تجد في سيرتي هذه ما ينفعك في رسمك لمعالم حياتك، أو في صياغتك لخياراتك.





الثمن: ١٠ دولار
أو ما يعادلها


ISBN 978-977-6539-29-7
9 789776 539297



info@aalamaladab.com

أيامي في برلين

(دعمي في بلاد الفرنجة)

بسم الله الرحمن الرحيم



الدكتور محمد سيد أحمد متولي



الكتـاب: ايامي في برلين (درعمي في بلاد الفرنجة)
المؤلـف: د. محمد سيد احمد متولي

عدد الصفحات: ٣٨٤ صفحة
سنة الطباعـة: ٢٠١٧م
بلـد الطباعـة: بيروت/ لبنان
الطبعـــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع

مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



هاتف: 00201099938159
بريد إلكتروني: info@aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

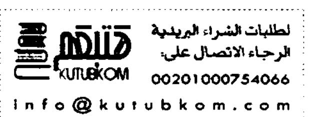
Title: My days in Berlin
Editor: Dr. Mohammed Metwally

Pages: 384
Year: 2017
Printed in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية

متولي، محمد سيد احمد
ايامي في برلين: (درعمي في بلاد الفرنجة)/ تاليف، محمد سيد احمد متولي.
القاهرة: عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٦.
٣٨٤ ص، ١٧×٢٤ سم.
١. متولي، محمد سيد أحمد - المذكرات أ. العنوان. ٩٢٠
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٥٠٦٠

ISBN: 978-977-6539-29-7







المحتويات

فانْظُرْ لِقَوْلِي تَجِدْ نَفْسِي مُصَوَّرَةً   في صَفْحَتَيهِ، فَقَوْلِي خَطَّ تِمْثَالِي

البارودي

يمكنك أن تصنع الجمال حتىٰ من الحجارة التي توضع لك عثرة في الطريق.

جوته

الإهداء

إلىٰ رُوحِ الدَّرْعَمِيَّيْنِ العظيمين:

حسن أفندي توفيق العدل .. صاحب الرحلة الدَّرْعَمِيَّة الأولىٰ إلىٰ بلاد الفرنجة.

والعلَّامة **محمد حماسة عبد اللطيف** .. الذي قرأ الحلقات الأولىٰ من هذه اليوميات، فأعجب بها وأثنىٰ عليها، ونَظَمَ في تَقْرِيظِها شعرا، وشجعني علىٰ استكمالها ونشرها في كتاب.

محبكما: محمد متولي

تقديم

سافرت إلىٰ ألمانيا لإنجاز أطروحة الدكتوراه، فوجدتني أدون قصة أيامي هناك، تسرية لهموم النفس في بلاد الغربة، وتزجية لوقت الفراغ، أو قل إن شئت إن ذلك كان ضربا من الرياضة الكتابية، مارستها تلبية لهوىٰ قديم عرفته في نفسي التي عشقت فن الكتابة منذ الصبا! فكنت أرسل العنان للقلم إرسالا، لرصد مشاهداتي وتأملاتي، فرويت قصة أيامي وعرضت لعادات القوم وأخلاقهم وطبيعة حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وطبيعة بلادهم وجامعاتهم. وقد انتهجت في ذلك نهجا سمحا ترخصت فيه في استخدام اللغة وفي سرد الحكايات حتىٰ غدا أقرب إلىٰ قول ابن قتيبة في خطبة «عيون الأخبار» حين قال: «وسينتهي بك كتابنا هذا إلىٰ باب المزاح والفكاهة . . . فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به . . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . . وكذلك اللحن إن مر بك في حديث من النوادر فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه وشاطر النادرة حلاوتها».

شرعت في الكتابة علىٰ هذا النهج، وقد أتاحت سهولة النشر عبر مواقع التواصل الاجتماعي أن يطلع بعض القراء من الأساتذة والأصدقاء علىٰ كثير مما كتبت، وكان ذلك تحت عنوان «يوميات درعمي[1] في بلاد الفرنجة»، فتقبلوها بقبول حسن، ولاقت رواجا كبيرا بينهم، ووجدها كل من قرأها قريبة من نفسه، تجتذبه ليواصل القراءة من غير ملل ولا نفور . . فحفزني ذلك كله علىٰ مواصلة الكتابة . . حتىٰ

(١) دَرْعَمِيٌّ: لَقَبٌ منحوت، يُطلق على كل من تَخَرَّج في كلية دار العلوم.

استوىٰ بين أيديكم اليوم مما سطرت هذا الكتاب!. وهو يضم مواقف حياتي ومشاهداتي وتأملاتي خلال رحلاتي العملية والترفيهية في برلين وفي غيرها من المدن الألمانية، وفي باريس وروان الفرنسية، وفي أمستردام الهولندية، وفي مدريد وطليطلة الإسبانية. كتبت لكم قصة أيامي في هذه البلاد، فلم أخف عنكم مما رأيت شيئا، وكنت في ذلك كله أحمل مصر بين جوانحي! لم يغب طيفها يوما عن خيالي، ولم أنسها! أسرد وقائع وحكايات، من هنا ومن هناك، وأعقد مقارنات كثيرة؛ كانت تقع مني عفوا، بين كل ما شاهدته في بلاد الغرب وما عشته في مصر حتىٰ ضجت هذه الصفحات بالمواقف والحكايات والمفارقات!

هذا، وإني لأرجو أن يجد القارئ في هذه الصفحات من الأنس والمتعة مثل ما وجد كاتبها عندما كتبها، فقد كانت الكتابة خير زاد استطاع به التسرية عن النفس، وخير دواء استشفىٰ به من ألم الاغتراب.

محمد سيد أحمد متولي

مطوبس، كفر الشيخ

التاسع من ذي الحجة ١٤٣٧

الحادي عشر من سبتمبر ٢٠١٦

(١)

في جو السماء

السفر إلىٰ أوروبا . . كان حلما طاف بخياله، ولكنه لم يكن يبوح به، فقد كان يخشىٰ أن يُطْلع الآخرين علىٰ ما يدور في رأسه من الآمال والطموح، وتلك كانت عادة أصيلة فيه، حرص عليها حتىٰ لا يشعر بشيء من الحرج إذا ما تبخرت تلك الآمال والأحلام لأي سبب من الأسباب! لكن الأقدار هيأت له فرصة السفر، ووطئت أقدام صاحبنا أرض مطار القاهرة للمرة الأولىٰ في صباح يوم الجمعة ٩ سبتمبر ٢٠١١، ليستقل طائرة مصر للطيران المتجهة إلىٰ برلين. وعلىٰ الرغم من إضراب عمال شركة مصر للطيران المسئولين عن حمل حقائب المسافرين في ظل موجة من الإضرابات أغرقت مصر في أعقاب ثورة ٢٥ يناير؛ فإن تأخر إقلاع الطائرة لم يدم طويلا . . وسرعان ما فارقت عجلات الطائرة تراب أرض مصر واشرأب رأسها يشق طريقه إلىٰ عنان السماء في قوة وعزم، وهوت روح صاحبنا وانسحب الدم من أم رأسه وزاغ بصره إذ رأىٰ بيوت القاهرة الشاهقة كرسوم صغيرة علىٰ خريطة صماء . . تُرىٰ هل أستطيع المشي علىٰ الأراضي الألمانية، أم أنني سأتعلم هناك المشي كالأطفال من جديد؟ ماذا ينتظرني في هذه البلاد البعيدة؟ حياة أو موت؟ نجاح أو فشل؟ عز أو ضياع؟! هبطت الطائرة هبوطا رقيقا حانيا تصاعد علىٰ إثره صوت تصفيق حاد من الركاب تحية لكابتن الطائرة المحترف الرفيق الذي لم يصدمها بأرض المطار صدمة تضع علىٰ إثرها كل ذات حمل حملها، كما حدث في رحلات طيران لاحقة.

لم يكن عمال مطار شونفيلد Schönefeld Flughafen في حالة إضراب، إذ لم تكن ثورة قد اندلعت هناك، ولم تتعال الأصوات مطالبة بمطالب فئوية أو عامة . . وصلت حقائبنا لتدور علىٰ السير المتحرك في سرعة ويسر، التقطت حقائبي ثم بحثت عن عربة

أحملها عليها، فإذا قطار طويل من العربات المجنزرة بعضها في بعض، لا تتمكن من فك إحداها ولن تسلمك قيادها حتىٰ تنقدها أويرو[1]، وليس ذلك مقابل النقل حاشا لله؛ وإنما لتضمن العربة أنك ستعيدها إلىٰ مكانها مرة أخرىٰ، وساعتها فقط يمكنك استرداد عملتك المعدنية. لم يكن بحوزتي أويرو أو حتىٰ جنيه مصري معدني. سألت مصريا يعمل في أحد المطاعم في برلين، جلس بجواري طوال الرحلة، وكان متمرسا، أن يعيرني عملة معدنية فتظاهر أنه لم يسمعني، فأعدت عليه الطلب فأعطاني قطعة معدنية .. ليست أويرو وليست جنيها مصريا وإنما هي قطعة معدنية دائرية صنع له منها حداد مصري عددا كبيرا؛ ليفيد منه في تلك المواقف ولا يكون مضطرا إلىٰ إرجاع العربة في مكانها، بل يتركها في أي مكان شاء مستغنيا عن قطعته المعدنية التي كان معه منها الكثير، فلم يكن ذلك في المطار فحسب وإنما هو نظام معمول به في كل المحلات والمولات الكبرىٰ في ألمانيا كلها.

كدت أستخدم عملته لولا أنني رأيت عربة مستقلة كانت آخر عربات القطار، التقطتها وحملت عليها حقائبي وسرت مع السائرين لأرىٰ جموعا من الناس تنتظر القادمين، بينهم شاب ذو ملامح شرقية ولحية قصيرة يرفع لافتة مستطيلة من الورق المقوىٰ كتب عليها اسمي بحروف لاتينية بخط رديء. أيقنت أنه أحد ممثلي مكتب إيراسموس موندس Erasmus Mundus. قدم لاستقبالي وتوصيلي إلىٰ حيث مكان إقامتي. صافحني في غير احتفال كبير، وبدت عليه ملامح الضيق من طول الانتظار .. وتساءل: تأخرتَ كثيرا! ... التقط عربة الحقائب من يدي يدفعها مسرعا ولم ينتظر ردي علىٰ سؤاله بأن إضراب العمال في مصر أَخَّرَ وصول الطائرة ساعة أو يزيد .. وما ذنبي!

طلب مني الانتظار دقيقة علىٰ رصيف المطار ريثما يحضر سيارته وكان قد تركها في مكان قريب، نقل حقائبي إلىٰ مؤخرة سيارته ورفض أن أساعده في حملها .. شعرت أنه يمثل دورا يتقنه تماما .. أو هو عمله المنوط به .. ولا يقبل المساعدة!

انطلقت السيارة من شونفيلد إلىٰ مكان لا أعلمه .. شوارع مستقيمة نظيفة ..

---

(١) أويْرو: هو اسم العملة الأوروبية (يورو) ولكنْ بطريقة النطق الألمانية.

خطوط الحارات البيضاء حديثة الطلاء . . أشجار كثيفة عن الجانبين كأنها غابات ما تزال تحتفظ بخضرتها رغم تساقط الأمطار إيذانا بمقدم الشتاء . .

ما السبب في تأخر وصول الطائرة؟

إنه إضراب عمال المطار احتجاجا علىٰ ضعف الرواتب.

وكيف حال مصر بعد الثورة؟

حالها سيئة إلىٰ حد كبير، إضرابات كل يوم، ومليونيات، ومظاهرات، وقتل ودماء، و . . .

Oh ... you mean everything is out of control

أعجبتني عبارته الإنجليزية . . فقد عبرت عما أردته ولم تسعفني ساعتها اللغة.

التقط علبة السجائر من تابلوه العربية، انتزع واحدة بطريقة مصرية وشرعها في وجهي متسائلا: تدخن؟

قلت: لا، أنا لا أحب التدخين!

تلعب طاولة؟ قلت، لا . .

لا سجائر ولا طاولة؟ ماذا تصنع إذا . . رددت ساخرا . . آكل وأشرب!

رأيت علىٰ وجهه سيماء الانزعاج، كان الحديث قد أخذنا إلىٰ مناطق مختلفة وقد ضل الرجل الطريق . . اللعنة علىٰ الجي بي اس . . لا يعمل بشكل صحيح، أو أنني لا أستطيع أن أضبطه . . فهذه ليست سيارتي . . استعرتها من صديق لألتقطك من المطار . . ولا أعرف أنظمتها . .

ابتسمت ابتسامة حاولت إخفاءها . . ما أسعدني الآن يا صديقي . . ليت الجي بي اس يتوقف إلىٰ الأبد . . ما أجملها من فسحة في ضواحي برلين استغرقت ساعة أو ساعتين . . كم أنت عظيم أيها الجي بي اس . . زادك الله ضلالا . . فضلالك لي سعادة وهدىٰ . . وجولة سياحية مجانية في برلين كلها . .

(٢)

في مدينة الطلاب

بعد مدة من التوهان السعيد اهتدىٰ تولجان الشاب التركي ذو الملامح العربية إلىٰ مكان إقامتىٰ، وتنفس الصعداء. أوقف السيارة أمام حاجز معدني لا يسمح إلا بمرور المترجلين. غادرتُ السيارة ونظرتُ فإذا عدد من البيوت المتشابهة، كل منها مكون من طابقين، فطنت إلىٰ أنها سكن طلابي وأنها المكان المقصود لإقامتي. جر صاحبنا إحدىٰ حقائبي وكانت مثقلة بالكتب والمعاجم جرا عنيفا علىٰ أرض حجرية، فكادت عجلاتها تنكسر، ومنعني الحياء من أن أطلب منه الرفق، ويبدو أنه كان ما زال غاضبا لأنه ضل الطريق. جررت الحقيبة الأخرىٰ لمائة متر تقريبا، ودلفنا معا إلىٰ مكتب الإدارة لنرىٰ فتاتين حسناوين مشغولة إحداهما مع أحد النزلاء، ورحبت بنا الأخرىٰ وقامت بتحرير عقد الحجرة، وقد طلبتُ أن يكون لمدة أربعة أشهر فقط، وفكرت في نفسي أنني ربما أهتدي إلىٰ مكان أفضل فيما بعد، وطلبتُ منها قبل توقيع العقد أن أنظر إلىٰ الحجرة وأراجع مكوناتها، وقد كنت حريصا علىٰ ذلك، فلطالما اعتدت هذا الأمر في مصر، فقد قضيت أربع سنوات كاملة في المدينة الجامعية، وكنت أطلب استبدال التالف من أثاثها من عامل المبنىٰ قبل التسلم، فيعبس في وجهي عبوسا شيطانيا يستحيل سعادة غامرة وانفراجا بعد أن أنقده ثلاثة جنيهات أو خمسة هي حلاوة السكن الجديد.

صحبني تولجان مسئول مكتب المنحة وقد هدأ قليلا إلىٰ مبنىٰ رقم ١٦ وكان علىٰ مقربة من مبنىٰ الإدارة. أدار السيد تولجان المفتاح في الباب ودخلنا في صالة متوسطة المساحة ينفتح فيها باب مطبخ كبير إلىٰ حد ما، وفي الطريق إليه فتاة حسناء في زي البيت التقليدي، صافحها تولجان ورحبت به، وأخبرني أنها إحدىٰ الطالبات الحاصلات علىٰ منحة قصيرة مدتها ١٠ أشهر لإنهاء مرحلة الليسانس، وأن منحتها من

نفس الجهة التي منحتني. دخلنا إلىٰ الحجرة، وكانت رقم ١، كانت ضيقة المساحة، لكن الأثاث جيد وجديد إلىٰ حد كبير . . هززت رأسي بالموافقة، وقال تولجان هي بداية علىٰ كل حال ويمكنك التغيير فيما بعد. لكننا للأسف لم نجد ما هو أفضل من ذلك. فقلت لا بأس. وذهبنا إلىٰ مكتب الإدارة مرة أخرىٰ فوقعت العقد من نسختين حصلت علىٰ إحداهما، وعلىٰ ورقة صغيرة فيها اسم المستخدم وكلمة المرور لشبكة الانترنت الخاصة بالمبنىٰ. وتركني تولجان في الرابعة عصرا تقريبا من مساء الجمعة وطلب إلي الذهاب إلىٰ مكتب الجهة المانحة يوم الاثنين لأحصل علىٰ أول راتب لي، ولأحصل كذلك علىٰ كتب كورس اللغة الألمانية الذي سأبدأ فيه متأخرا عن زملائي ثلاثة أيام لحضوري متأخرا بسبب تأخر حصولي علىٰ الفيزا.

عدت إلىٰ حجرتي مرة أخرىٰ، شغلت اللاب توب التوشيبا الذي اشتريته من مصر قبل سفري بأيام، بخمسة آلاف جنيه كنت قد اقترضت اثنين منها من أحد الأصدقاء، واشتريته علىٰ أنه آخر صيحة في عالم الكمبيوتر، لأتيه به علىٰ الألمان! ولم أتوقع أنه سيخذلني فيما بعد . . كانت المرة الأولىٰ التي أستخدم فيها الانترنت واير لس Wirless، أدخلت المعلومات التي حصلت عليها من مكتب الإدارة فلم يستجب الحاسب، فاستعنت بتلك الفتاة التي عرفني بها تولجان عندما دخلنا البيت أول مرة، فأعيتها الحيلة كذلك فاستعانت هي هذه المرة بشاب صيني يدرس هندسة الاتصالات فتمكن بعد عدد من الضغطات علىٰ الماوس هنا وهناك من تشغيل الانترنت. كلمت أخي في الكويت علىٰ سكايب، ولم يكن يصدق أنني أكلمه من برلين، ففتحت له الكاميرا وأدرتها من نافذة الحجرة ليرىٰ أشجارا كأنها غابات بين المنازل، وأعجب بطبيعة المكان، وطلبت منه الاتصال بوالدينا لإخبارهم بأنني علىٰ ما يرام. تبينت بعد قليل أن شحن البطارية أوشك علىٰ الانتهاء، وفوجئت بأن الفيشة المصرية لا تناسب المقبس الألماني، وكانت صدمة كبرىٰ . . إن النت هو المتنفس الوحيد في هذا الجو الجديد. وأنىٰ لي بشاحن في هذه البلاد الغريبة الآن.

تعجبت كثيرا من سرعة الانترنت، لأول مرة أفتح فيديو في يوتيوب فيعمل بشكل متصل دون توقف، كدت أطير من السعادة، فكثيرا ما كنت أفتح فيديو مدته ١٠ دقائق في مصر لأشاهده مقطَّعا في ساعة، أو أتركه يحمِّل ثم أذهب لأتناول الغداء ثم أعود

إليه وقد انتهىٰ من التحميل! عجبت حين فتحت مسرحية «الواد سيد الشغال» ومدتها ٣ ساعات فإذا هي تعمل وكأنني أشاهدها علىٰ التلفاز دون توقف، حاولت تحميلها فإذا هي علىٰ الجهاز في دقائق معدودة، وكانت في مصر تستغرق يومين أو يزيد، هذا لو حاولت تحميلها أصلا، فسرعة النت كانت محدودة للغاية، ٢ جيجا في الشهر ب ٤٥ جنيه، وكل زيادة في التحميل الجيجا بعشرة جنيهات . .

انتهىٰ شحن البطارية، لينهي سعادتي بالانترنت العجيب . . قلت في نفسي لا بأس، المهم أنه موجود وأمر القابس يسير إن شاء الله. شعرت بالجوع، ولم أكن حملت معي من مصر شيئا للعشاء خشية زيادة الوزن علىٰ الطائرة وقد امتلأت حقائبي عن آخرها بالكتب والملابس ولم يكن فيها متسع لشيء من ذلك. استعنت مرة أخرىٰ بهذه الفتاة التي عرفت أنها مسلمة من البوسنة، كي تدلني علىٰ سوبر ماركت أشتري منه بعض الطعام، فقررت بكرم كبير أن تصحبني إلىٰ «ألدي» ALDI وهو سوبر ماركت شهير وله فروع في كل مكان وهو أرخص المحلات التجارية هناك، فاشتريت بعض الخبز والجبن والفاكهة وحذرتني الفتاة من الخنازير التي تدخل في صناعة كل شيء . . ونبهتني إلىٰ ضرورة النظر في مكونات كل شيء أقوم بشرائه لأتأكد من خلوه من الخنزير والكحول. اشتريت موزا وتفاحا وخسا وجبنا وخبزا ونقدت الكاشير ورقة مالية قيمتها ٥٠ أويرو من ألف أويرو اقترضتها من أخي الذي يعمل في الكويت قبل السفر تحسبا للظروف، فإذا به يرد لي ٤٤ أويورو، تعجبت كثيرا من رخص الأسعار، لا تنظر إلىٰ فرق العملة، كل هذه البضاعة بستة يورو فقط، وكان كيلو الموز في مصر قبل سفري بستة جنيهات كاملة. أذهب إلىٰ الخضري في السنتر القريب فأنفق مائتي جنيه أو يزيد لأعود وقد حملت من بضاعته أشياء يسيرة تكفي يومين أو ثلاثة.

عدنا إلىٰ البيت فأهديت الفتاة بعضا من كل ما اشتريت، فشكرتني، وتناولتُ بعض الطعام ونمت مرهقا بعد سهر استمر يومين لأستيقظ في حالة من الذهول . . سرير غريب، وحجرة غريبة، اعتدت أن أفتح عيني لأرىٰ دولاب ملابسي، والتسريحة، ولعب سارة ابنتي، وقلبين أحمرين علىٰ رأس السرير نقش علىٰ أحدهما اسمي وعلىٰ الآخر اسم زوجتي . . لم أجد شيئا من ذلك . . حوائط بيضاء أحدها حجري والآخر خشبي يفصلني عن حجرة مجاورة، دولاب للملابس أبيض كذلك، ومكتب محكم الصنع أبيض هو الآخر، أمستشفىٰ هذه؟!

مكثت مستلقيا في السرير أتفحص سقف الحجرة بعينين ذاهلتين! إنني الآن في برلين! لقد تحقق حلم السفر إلىٰ أوروبا، وما كان أصعبه! فقد قلت البعثات الخارجية في مصر وأصبحت صعبة المنال! لقد درستَ كورسات اللغة الإنجليزية في الجامعة الأمريكية حتىٰ أنهيتَها، استعدادا للسفر، ودفعتَ ثمنها من راتبك النحيل! لقد حققت شرط اللغة لكن السفر ليس بالأمر اليسير! قررتُ أن أطوي صفحة الأحلام، وأن أعيش الواقع، لن أسافر، علىٰ أن أنجز رسالة الدكتوراه التي سجلتها في دار العلوم في وقت قصير . . حسمت أمري وجلست أبحث وأكتب . . لم تمض ساعات قليلة حتىٰ هاتفني صديق لي هو زميل بكلية الآثار، يخبرني بأن ثمة فرصة للسفر إلىٰ ألمانيا، للحصول علىٰ الدكتوراه من جامعة برلين. ولم يتبق علىٰ نهاية الإعلان سوىٰ أسبوع واحد. فأبديت عدم ارتياح، لأن كثيرا من الأوراق المطلوبة للسفر لم تكن بحوزتي، ولأنني قررت عدم السفر لأنجز رسالتي سريعا في مصر، لكن صديقي لم يزل بي حتىٰ استخرجت جواز السفر في ثلاثة أيام، وأرفقت خطة البحث، وشهادة اللغة، وأرسلتها في اللحظة الأخيرة قبل انتهاء الإعلان، فعلت ذلك تلبية لرغبته، ونسيت الأمر. ثم سافرت إلىٰ القرية لحضور بعض الأفراح والمناسبات الاجتماعية، ثم عدت إلىٰ بيتي في أكتوبر لأجد رسالة تهنئة في البريد الإلكتروني تؤكد قبولي لدراسة الدكتوراه في جامعة برلين! لم أكن أصدق، وظننت أن في الأمر خدعة! لقد أرفق مع الرسالة خطاب ترشيح، وعقد للمنحة يحدد مدتها وقيمة الراتب الشهري، ونظام التأمين الصحي، وشروطا أخرىٰ . . طُلِب إلي توقيع العقد وإرساله في صورة إلكترونية قبل يوم ٤ يوليو ٢٠١١، ونسخة ورقية قبل يوم ١٤ يوليو إلىٰ كارديف في إنجلترا! كان هذا التاريخ صادما! فما كنت رأيت هذه الرسالة إلا في يوم ٥ يوليو! بعد انتهاء الموعد المحدد بيوم واحد! لكنني أرسلتها لهم، متمسكا بالأمل، مرات عديدة، وفي كل مرة تصلني رسالة إلكترونية تؤكد فشل الإرسال. كان موقفا عصيبا! أن تضيع المنحة ويتبخر حلم السفر الذي بدأ يلمع من جديد، لا لشيء إلا لفتح الإيميل بعد يوم من الموعد المطلوب! يبدو أن بعض محاولات الإرسال نجحت من بين تلك المحاولات الكثيرة الفاشلة، فتلقيت رسالة تأكيد بتسلم موافقتي علىٰ العقد من السيدة المسئولة في مكتب المنحة. وبعد عدد من المراسلات المتبادلة علىٰ مدار شهرين حصلت علىٰ التأشيرة الألمانية صعبة المنال! وها أنا الآن في برلين!!

توطدت علاقتي بهذه الفتاة البوسنية بخاصة بعد أن أهديتها بعض الطعام، وجمعت بيننا روح الدين الواحد، فأنستْ إليَّ كثيرا وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها، وتدرس الأدب الإنجليزي، وأخبرتني أنها وصلت إلىٰ برلين منذ تسعة أيام فقط، فهي حديثة عهد كذلك بالمكان، لكنها تعرفت علىٰ بعض الطلاب الصينيين، ويمكننا الانطلاق معا إلىٰ جولة في المدينة عصر الأحد، وأنها ستخرج الآن لقضاء بعض حاجاتها ويمكنها أن تعيرني اللاب توب الخاص بها ريثما يتسنىٰ لي شراء قابس في جولة الغد. تعجبت من ذلك، فما كان لي أن أعير جهازي لأحد أبدا . . . لكنها فعلتْ . . وقضيتُ سحابة اليوم مستمتعا بالانترنت فائق السرعة، وترتيب محتويات حقائبي بعد إفراغها في أماكنها، في الدولاب والمكتبة الصغيرة المعلقة علىٰ الحائط . . آه يا مكتبتي الحبيبة، رغم صغر بيتي في مصر وضيق مساحته فإنني أفردت لمكتبتي حجرة كاملة، اشتريتها مع أثاث الزواج، ثلاث قوائم صنعت في دمياط وغطت حائطا كاملا في الحجرة. كم كانت زوجتي تضيق بها وتحنق عليها، وترىٰ أنها لا نصيب لها في هذه الشقة وأن كل شيء فيها يخصني!

(٣)

جولة استكشافية

في اليوم التالي، الأحد، انطلقنا عصرا لا أدري إلىٰ أين . . قالوا نستقل الأتوبيس رقم ١١٨، نتجول في المدينة. دلفنا إلىٰ الأتوبيس من الباب الأمامي، يجلس السائق وعن يمينه ماكينة صغيرة، يضغط عددا من أزرارها ليخبرها بعدد التذاكر المطلوبة، والمبلغ المدفوع، لتدفع لك بالتذكرة وباقي النقود، تعجبت فلم أر الكمسري، أين أنت يا عزيزي؟ من سيكتب لي الباقي علىٰ ظهر التذكرة بعد أن يرسلها لي مع الركاب المصطفين في الطرقة وسط الزحام ولم يجدوا مقاعد لهم، لا أدري لماذا قفزت إلىٰ ذهني صورة عادل إمام وعبد المنعم مدبولي في فيلم «إحنا بتوع الأتوبيس» . . لا أحد يصطف في الطرقة هنا، كثير من المقاعد الخالية، والفرش غير ممزق، لم يُعْمِل فيه أحد أمواس الحلاقة والكاتر ليخرج اسفنجه، ولم يكتب أحد علىٰ ظهر المقعد عبارات خادشة للحياء أو أرقام تليفونات خاصة أو حتىٰ ذكرىٰ غرامية بين حبيبين، ويرسم قلبا يخترقه سهم.

رغم وجود مقاعد خالية كثيرة لاحظت أن بعض الركاب آثر الوقوف وكأنه نوع من الرياضة . . شعرت أن رغبتي في الوقوف تتفوق علىٰ الجلوس؛ لأنه يتيح لي النظر إلىٰ الشارع واستكشاف المكان بشكل أفضل، أدرت عيني يمينا ويسارا وأعجبت كثيرا بذلك الأتوبيس الذي توقف في المحطة التالية ليميل بشكل غريب ناحية الرصيف ويفتح أبوابه تلقائيا وكأنه يرحب بالركاب، وييسر لهم الصعود، وذلك في كل محطة . . الأتوبيس في مصر لا يميل ليستقبل الركاب بل إن عتبته أعلىٰ بكثير من الرصيف، حتىٰ إن السيدة المسنة تستجير بأحد الركاب أن يأخذ بيدها حتىٰ لا تسقط تحت العجلات، وإن حدث أن مال الأتوبيس فإنما يميل لأنه اكتظ بالركاب وتعلق

عشرون منهم أو يزيد بالأبواب، يقفون علىٰ قدم واحدة ولا مكان للأخرىٰ، فيميل الأتوبيس وكأنه يزحف علىٰ بطنه.

في المحطة التالية توقف الأتوبيس ومال كذلك ناحية الرصيف، وقدم السائق إلىٰ الباب الأوسط ليرفع قنطرة معدنية ملتصقة بأرضية الأتوبيس ثم يمدها علىٰ الرصيف ليعبر أحد ذوي الاحتياجات الخاصة علىٰ عربته الأنيقة إلىٰ الأتوبيس، فعلها دون ضجر، فابتسمت وتذكرت سباب السائق والكمسريه ودفعهم للركاب (العربية فاضية جوه)، سألت الفتاة البوسنية عن ذلك فقالت إن هذا جزء من عمل السائق، مساعدة المعاقين للصعود إلىٰ الحافلة، وهو يؤديه بكل حب وإلا شكاه الناس فيفقد وظيفته. هززت رأسي وابتسمت وأدرت عيني يمينا ويسارا أستطلع الشوارع عن اليمين والشمال فاستوقفني منظر شاب وفتاة علىٰ مقعد خلفي في الأتوبيس وقد كانا في حال اشتباك عنيف من التقبيل، ولمس أماكن في الجسد محرم لمسها في الأماكن العامة، وقد مالا علىٰ الكرسي ميلا شديدا وكأنه سرير، رحم الله موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب (فحرقنا نفوسنا في جحيم من القُبَل) . . ابتسامة عفوية انفرجت علىٰ وجهي لكيل السباب الذي انطلق من فتحة وجه امرأة دميمة واقفة في طرقة الميني باص وقد عبث أحد الركاب بيده في مؤخرتها أثناء انطلاقنا من «ميدان لبنان» إلىٰ جامعة القاهرة، وطرقعة شبشب قذر علىٰ أم رأسه . . عجيب أمر هذه الحياة تحرش في ميني باص قذر مزدحم . . وعلاقة تكاد تكون تامة في أتوبيس رائق هادئ . . ولا تعليق!

إن هي إلا دقائق قليلة حتىٰ توقف الأتوبيس أمام مبنىٰ كبير هو محطة مترو «كروما لانكا». طَلَبَتْ إليَّ الفتاة البوسنية ومن رافَقَنا من الصينيين مغادرة الحافلة كي نستقل المترو إلىٰ مكان ما حتىٰ يتسنىٰ لنا شراء قابس كهربي يناسب حاسوبي. دلفنا إلىٰ محطة المترو وتلفتُّ لأبحث عن شباك التذاكر، أو ماكينات نعبر من خلالها إلىٰ حيث ينتظر القطار فلم أجد شيئا من ذلك. الطريق مفتوح بلا عوائق، يمكنك من ركوب المترو بلا حواجز ولا أدنىٰ مساءلة! تساءلت عن ذلك فقالوا كل هذه الأمور تتم بشكل آلي عن طريق التعامل المباشر مع الماكينة، ثم إن تذكرتك التي اشتريتها من

سائق الأتوبيس هي صالحة لمدة ثلاث ساعات كاملة، تركب بها كل المواصلات العامة داخل برلين بلا استثناء، فلست بحاجة إلىٰ شراء تذكرة أخرىٰ.

المترو يشبه مترو القاهرة، لا شيء جديد فيه غير أن اسم المحطة القادمة يُذكر بشكل آلي في مكبر الصوت داخل القطار، ويذكر معه كذلك كلمات بالألمانية، تساءلت عن معناها، فقالوا: حين يتوقف القطار يطلب السائق من الركاب أن يتفضلوا بالصعود، وقبل أن يهم بالمغادرة يطلب إليهم التكرم بالابتعاد عن الأبواب، يحدث هذا في كل محطة. ومن ثم لا تجد قتيلا تحت العجلات، ولا مصابا حطم القطار عظامه أو دق عنقه هنا أو هناك. ولاحظت أن المقاعد المتاحة في القطار تكفي جميع الركاب وتزيد، وعندما يتوقف القطار في المحطة لا تطأ قدم راكب أرض القطار قبل أن يغادر الراغبون في النزول جميعا، حتىٰ وإن اشتد الزحام. فتراهم ينتظرون في صبر جميل. ولم يحدث مرة أن اضطر أحد الركاب إلىٰ النزول في محطة لا يريدها عَنْوَة بسبب الزحام والتدافع، فكثيرا ما حدث لي أن تجاوزت محطة رمسيس وهي مبتغاي إلىٰ محمد نجيب أو العتبة بسبب التدافع الذي منعني من النزول. أو ربما انتظرت القطار التالي بسبب التدافع الذي منعني من الركوب.

وكثيرا ما حدث في مرات قادمة، أن خلا القطار إلا من قليل من الركاب، فكنت أستقل إحدىٰ عربات القطار الخالية من الركاب منفردا، أثناء عودتي من كورس اللغة الألمانية ليلا، وحين يسرع القطار وتصرخ عجلاته من فرط السرعة، تسنح الفرصة لي لتدريب صوتي الذي حرمت الاستماع إليه مجلجلا بآيات القرآن الكريم، أو بعض أغاني أم كلثوم المطربة بصوت عال.

إن هي إلا دقائق، حتىٰ نزلنا في ميدان كبير يسمىٰ «شارلوتن بورج» Charlottenburg مليء بمولات ضخمة ومحلات كبيرة خافتة الإنارة، بعضها للملابس وبعضها للأدوات الكهربية وكان هدفنا شراء مقبس للكمبيوتر، وإذ بنا نتذكر أن اليوم الأحد، وأن كل المحلات مغلقة ولا سبيل إلىٰ شراء المقبس. فاقترحت فتاة صينية كانت بصحبتنا أن تعيرني مقبسا زائدا أحضرته معها من الصين فهي بلد الفِيَش والمقابس!

في ذلك اليوم كنت حديث عهد بالحديث الاضطراري المطول باللغة الإنجليزية في ثالث أيامي في برلين، ولا سبيل إلىٰ توضيح مرادك إلا بها، وليس لك إلىٰ العربية من سبيل. كنت أُفْهِمُهم ولا أفهم عنهم، وبخاصة هؤلاء الصينيون. حزنت لعدم فهمي، وظننت أنني سأواجه مشكلات كبرىٰ تتعلق باللغة، لكنني لاحظت أنني أفهم الفتاة البوسنية بسهولة ويسر، وساعتها فطنت أن إنجليزية الصينيين كصينيتهم والعياذ بالله. ما سمعت قوما أقبح نطقا للإنجليزية من الصينيين. وعجت فيما بعد كيف أن إتقانهم نطق الألمانية ضرب من المستحيل. وكثيرا ما يسخر بعض سفهاء المعلمين من طريقة نطقهم في حجرات الدراسة. سخرية ذكرتني بسخرية بعض أهل مصر من إنجليزية أصدقائهم وكأنهم ولدوا تحت قبة كمبريدج ولم يبرحوها.

عدت بالمقبس الصيني العظيم الذي أعاد الروح إلىٰ حاسوبي، وأعاد لي روح الاتصال بأهلي في مصر، وأخي في الكويت. ورحت أستمتع بـ «يوتيوب» الذي أراه لأول مرة يعرض الفيديو دون توقف!

غدا الاثنين .. أول أيام الأسبوع .. أول أيامي في كورس اللغة الألمانية الذي بدأ قبل أيام ..

(٤)

في كورس الألمانية

اليوم الاثنين . . أول أيام الأسبوع . . أول أيامي في كورس اللغة الألمانية الذي بدأ قبل أيام . .

كان مكتب إيراسموس موندوس قد أرسل إلي رسالة إلكترونية يوضح فيها مكان انعقاد الكورس، وطريق الوصول إليه، ولما كانوا علىٰ علم بحال الغريب، وأنه أعمىٰ وإن كان بصيرا، فقد ذكر توماس أحد أعضاء فريق المكتب أن أحد الطلاب التابعين لهم صيني يسكن في مبنىٰ مجاور واسمه «هاوشو» وهو يرتاد نفس الكورس المقرر أن أحضره، فطلب إلي مراسلته عبر الإيميل وتنسيق موعد للقاء ننطلق فيه معا إلىٰ مكان الكورس. راسلته فرد سريعا وكان كريما رحب وتلطف ووعد باللقاء في الثامنة وعشر دقائق من صباح الغد، أمام مبنىٰ الإدارة لأن موعد الأتوبيس في الثامنة والثامنة عشرة، ويبدأ الكورس في التاسعة.

أسعدتني كثيرا خارطة مواعيد الأتوبيس، فهو يمر بالمحطات علىٰ فترات متساوية لا يتخلف عنها، يمر كل عشر دقائق في الأوقات المهمة، وفي ساعات الذروة، مثل وقت الذهاب للعمل في الصباح، والساعة التي نسميها «خروج الموظفين» بين الظهر والعصر، ويمر كل عشرين دقيقة أو نصف ساعة في الساعات المتأخرة من الليل وفي أيام العطلات.

بعد النزول من الأتوبيس ركبنا المترو في نفس الطريق الذي سلكناه يوم المقبس. غير أن الحال تغير نوعا ما، ففرق كبير بين يوم العطلة الأحد، وأول أيام الأسبوع الاثنين. فقد اشتد الزحام وكثر المشاة يهرولون من الأتوبيس إلىٰ المترو، حتىٰ إن بعضهم لم يجد مكانا للجلوس فظل واقفا.

أسعدتني كثيرا بشاشة ظاهرة في وجوه الناس، ونظرات رضا، وبشائر نعمة هذبت أخلاقهم، هدوء شديد، فلا صخب ولا ضجر ولا تدافع .. ولا تقطيب ولا عبوس، تنظر إلىٰ وجه أحد الرجال وقد علته نضرة النعيم، حتىٰ تكاد تمسك في وجنتيه صحة فتية، فلا ترىٰ خلفه في البيت أفواها جائعة ولابطونا ملتهبة، ولا ترىٰ من خلفه امرأة قاسية منغصة، ولا ديونا ينوء بحملها البعير، ولا ترىٰ مرضا قد فرىٰ كبده، ولا ترثىٰ لحاله وقد غلبه الهم وامتقع لونه .. بدت الفتيات الصغيرات في طريقهن إلىٰ المدارس في الزي الرسمي وكأنهن ملائكة تمشي علىٰ الأرض. رقص قلبي لهن، ثم رأيت سارة ابنتي بينهن تمرح وتلعب .. فابتسمت .. أما فتيات الجامعة فكن ملائكة كذلك لكن أكبر سنا بدت عليهن ملامح النضج. لهن سحر وخفة روح كما تقول صباح -ضحكن أو لم يضحكن- «بتروح لبعيد»، اهتمام شديد بالملابس وحسن المظهر، مع بساطة ظاهرة، كأنهن لنقائهن وجمال سمتهن أرواح شفافة بلا أجساد .. أو هكذا رأيتهن!

يجلس الناس في المترو علىٰ المقاعد متقابلين، وقد شرع أغلبهم صحف اليوم وجدّوا في مطالعتها، ويفتح آخرون، وبخاصة النساء والفتيات، كتبا أغلبها ضخمة، تزيد صفحاتها علىٰ ٥٠٠، تعجبت لضخامتها ثم تبينت أنها روايات .. روايات .. لا أحد عندنا يصبر علىٰ قراءة هذه الروايات المطولة، فنحن في زمن الرسائل التلغرافية ... يدق جرس محطة نزول إحداهن، فتضع ورقة مخصوصة بين صفحات الرواية في الموضع الذي انتهت عنده القراءة، تغادر القطار .. لا شك أنها ستواصل القراءة في رحلة العودة .. تجلس امرأة أخرىٰ وتخرج من حقيبتها أقلام روج مختلف ألوانها، تختار أحدها فترسم شفتيها، وتخرج أخرىٰ مسكرة لتنسيق رموشها، وتعمد أخرىٰ إلىٰ علبة كريم مرطب لتمسح يديها بطريقة مخصوصة قد تعلمنها جميعا. ابتسمت!! روج ومسكرة .. في المترو!! ربما خفف من غرابة الموقف أن رأيت أخريات شرعن في غزل الصوف وأعمال التريكوه .. وهي أمور معروفة عندنا!

بين النساء امرأة محجبة، بدت تركية أو عربية، تصادف أن جلستْ في مواجهتي، نظرت إليّ، قالت بلهجة كأنها تونسية: «أنت عربي»، وتشابه الملامح العربية الشرقية بين البيض والشقراوات من الألمان يغري أصحابها بالكلام والاتصال، قلت: «نعم

مصري»، دار حوار قصير، قبل أن أغادر القطار في المحطة المقصودة، سألتني ضاحكة: «متزوج؟»، قلت: نعم!، فضحكت وقالت «يالله . . كنت عاوزة أزوجك بنتي!»، فابتسمتُ وأشرت إليها بيدي محييا، وغادرت القطار.

إنها ثقافتنا . . لا تتبدل . . ولا تتغير كثيرا . . حتىٰ وإن قضينا عقودا في بلاد الغرب . . كهذه المرأة!

وصلت إلىٰ أحد مباني الجامعة الذي به قاعة الدرس، مبنىٰ ضخم نظيف حديث الطلاء، وكل المباني هنا لنظافتها تظنها حديثة الطلاء، لا تشغل بالك كثيرا بالزيوت السوداء والأتربة التي تزين المباني الشامخة العتيقة في وسط القاهرة في التحرير ورمسيس، والأشجار التي نحلت أدخنة السيارات أوراقها، لا تفكر في هذا الأمر كثيرا الآن فهو لا يعنينا . . فقط ليتك أيها القارئ العزيز تساعدني في الوصول إلىٰ رواية إنجليزية سمعت بها، لا أذكر عنوانها ولا اسم مؤلفها، كُتبت في العقود الأولىٰ من القرن العشرين، قال مؤلفها يصف لندن «ولندن مدينة جميلة كالقاهرة»!!

اقتربنا من مدخل المبنىٰ فانفتح الباب تلقائيا، لا أمن، ولا شرطة، ولا كارنيهك يا أستاذ، بطاقتك يا آنسة. علىٰ مقربة من الباب ثلاث سلات مهملات متجاورات، خصصت كل واحدة منها لنوع من المهملات، فإحداها للأوراق، والأخرىٰ للزجاجات والعبوات الفارغة، وثالثة للمهملات التي لا يرجىٰ النفع منها. فطنت إلىٰ أن ذلك معد لإعادة التصنيع، وقد خصصوا الأماكن منذ البداية؛ ليسهل فرز المهملات في النهاية، فلا ترىٰ كوما ضخما من القمامة المختلفة الأنواع والأشكال والألوان علىٰ عربة كارو، يعبث فيه أحد الفقراء ممزقي الملابس، بحثا عن كسرة خبز صالحة لسد الجوع. وهذا نظام معمول به في كل مكان في الشوارع ومحطات المترو والمباني، علىٰ أنك قد تجد أحيانا فقيرا ألمانيا أو غير ألماني يعمد إلىٰ بعض الزجاجات الفارغة يلتقطها من سلات القمامة ليردها إلىٰ المحلات مقابل ٢٥ سنتا هو سعرها المعروف . . . فزجاجات المياه الغازية والمعدنية والعصائر يضاف إلىٰ سعرها عند الشراء قيمة العبوة الفارغة، حتىٰ يضطرك إلىٰ ردها، لتفيد منها الدولة بعد إعادة تصنيعها.

وصلنا إلىٰ حجرة الدراسة، وقد كنت جديدا بين القرناء في الكورس، فرحبت بي السيدة يوليا شنايدر مدرسة اللغة الألمانية بابتسامة رقيقة، وتمنت لي طيب المقام في برلين، وطلبت إلي الذهاب إلىٰ أحد المكاتب المجاورة لالتقاط بعض متعلقاتي الدراسية. دلفت إلىٰ المكتب المجاور فوجدت ترحيبا كبيرا من طاقم من الفتيات البارعات الحسن ومعهم شاب وحيد، كنت أعرف أسماءهم جميعا من خلال المراسلات الإلكترونية أثناء الإعداد للسفر، ونشأت بيننا علاقة مودة دون أن يعرف أحدنا الآخر. نيكول فتاة شقراء بدينة، خفيفة الظل مرحة، لها قبول حسن، فوجئت أنها فتاة، فطوال فترة المراسلات كنت أظن أن نيكول اسم رجل!!، شتيفاني بولر مديرة المكتب، وتوماس شاب مهذب جاد الملامح، كان الترحيب حارا، لاحظته في نبرة أصواتهم وقد تهللت وجوههم وشدوا علىٰ يدي أثناء السلام. سألوني عن مصر وأحوالها فأجبتهم إجابات مقتضبة إذ لم أكن أريد تضييع حلاوة اللقاء بكلمات عن آلام بلدي. التقطت ما أعدوه لي، كتاب الكورس وكراسة أنيقة، ومجلة برلينية، وخريطة للمواصلات، وخريطة سياحية لبرلين، واستأذنتهم في الانصراف للالتحاق بالكورس.

انخرطت في الكورس عدة أيام، سعدت بهذه اللغة الجديدة، وإن كنت لم أفهم في البداية كثيرا مما يقال، ولم أدر سر شعور انتابني، أنها تشبه العربية! وقد قلل من سعادتي بالكورس أن كان كل الزملاء فيه صينيين وصينيات، فقد كنت أسد آذاني حتىٰ لا أسمع نطقهم للألمانية، وقد كادت المدرسة تلطم خديها وتشق جيوبها محاولة عبثا إصلاح نطقهم. لم أجد صعوبة كبيرة في نطق الألمانية، فإنك في العربية تجد كل الأصوات تقريبا. ففيها الشين والكاف والراء وهي حروف عويصة النطق عند الصينيين، «تكد لسان الناطق المتحفظ». رثيت لحال الصينيين إذ لم يكونوا عربا؛ من ناحية اللغة فقط بالطبع!

كانت مدة الكورس ثلاث ساعات يوميا، تتخللها فسحة قصيرة ١٥ دقيقة، للترفيه، أو لقضاء الحاجة لمن يريد! دورة المياه يا سادة نظيفة، لا فرق هنا بين دورة مياه الأساتذة والطلاب، ولا فصل بينهما أساسا، فهذه من الأمور التي لا يتفاضل فيها الناس. فالمناديل والمنظفات لا تنفد أبدا، ومن المدهش أنك لا ترىٰ عمال النظافة

أبدا أبدا، ولا أدري متىٰ يقومون بعملهم هذا علىٰ أكمل وجه وأتمه، عرفت فيما بعد أنهم ينجزون أعمالهم مبكرا جدا، أو بعد انتهاء يوم العمل، وقد يأتون خلال اليوم إذا دعت الحاجة! فلا تجلس إحداهن أمام الباب بثوب خلق طيلة النهار كما هو الشأن في المصالح الحكومية عندنا، تمد يدها طلبا لأجرة قضاء الحاجة! وربما كان هناك فرق في السعر وفقا لنوع الحاجة التي ستقضيها! لقد سئمتُ إحداهن في دار العلوم لا تكف عن طلب «الشاي»، فأعطيها وأمنعها، كلما مررت أمامها ووقعت عينها علي: «عاوزة الشاي» (تريد مالا)، سواء أدخلت دورة المياه أم لم أدخل! حتىٰ لقد داعبت صديقا لي وقد أخبرته بخبرها وآذاني استمرار صنيعها، أنني ربما حملت في جيبي بعد اليوم عددا من «فِتَل» الشاي واليانسون والكاركديه، فإذا طلبت شايا خيرتها بين ما قد حواه جيبي السحري مما لذ وطاب من المشروبات!

لقد ذكر بعض زملائي مرة، وقد تقاضىٰ راتب أحد الشهور، وكثر طلب العمال للحلاوة والعطية في كل طرقات الكلية، وهو رجل حيي ظريف يخجل من أن يرد سائلا، قال مداعبا: «أخشىٰ إن تركت نفسي لهم أن أعود لزوجتي خاوي الوفاض، فتنهرني»!

ما هذا الحديث الغريب!! أعتذر إليكم عن ذكر هذه الأمور الكريهة الرائحة، فهي لا شك مما يستقبح ذكره! ولن أذكر لكم شيئا عن دورات المياه في الأماكن والميادين العامة، لا في رمسيس ولا في ميدان التحرير ولا في غيرهما، وسأنبهكم فقط أن ثمة دورة مياه تحت الأرض أمام دار القضاء العالي، لن أسرد عليكم خبرها وأرجو منكم ألا تزوروها. وأرجو لفقراء مصر ثيابا جديدة ومالا يسد جوع البطون.

(٥)

زيـارتـان

كان من برنامج كورس الألمانية زيارتان إلىٰ مكانين مختلفين في المدينة، نمر خلالهما بالمحال التجارية والمولات والأماكن الأثرية والسياحية، وقد جعلتنا الأستاذة في مجموعتين أو ثلاثة، وأعطت كل مجموعة ورقة أسئلة بالألمانية فيها استفسار عن أسعار بعض الأطعمة في «ليدل» أو «كايزر» وهما من المحلات التجارية المعروفة، وتسأل كذلك متىٰ يفتح المحل الفلاني ومتىٰ يغلق أبوابه، وعن بعض تفاصيل الأماكن السياحية والكنائس الأثرية، تاريخ بنائها، ومن بناها وما إلىٰ ذلك. كل ذلك كان لتضطرنا إلىٰ التحدث إلىٰ المارة تدريبا علىٰ استعمال اللغة، بغية الوصول إلىٰ هذه الإجابات المطلوبة حتىٰ نناقشها معا في محاضرة الغد.

لم تنس الأستاذة أن تسلمنا مع ورقة الأسئلة خريطة للمكان، وقد ظللت لنا خط السير بلون مختلف حتىٰ لا نضل الطريق. تمكنا من الإجابة عن الأسئلة بعد جولة في ميدان ألكساندر Alexanderplatz، لم أكن أعبأ كثيرا بالإجابة عن الأسئلة وتركت الأمر للصينيين، فقد بهرني جمال التصميمات المعمارية القديمة في هذه المنطقة. كنائس قديمة تعود إلىٰ مئات السنين. وقد وقفت علىٰ حوافها العليا تماثيل متقنة الصنع. بعضها عار تماما وبعضها مستورة عورته. وكان من أطرف ما رأيت عند مرورنا تحت أحد الكباري القديمة، ينتصب علىٰ متن أحد الشوارع، أن الأعمدة التي تحمل الكوبري ليست إلا تماثيل حجرية ضخمة، لرجال غلاظ شداد، مفتولي العضلات، كل منهم قد انحنىٰ وثبت كتفه تحت أحد جوانب الكوبري، وكشر عن أنيابه لثقل الكوبري الملقىٰ علىٰ عاتقه. مشهد بديع أن يحمل الكوبري رجال بدلا من الأعمدة، وإن شئت قلت هؤلاء الرجال هم الأعمدة. لا تشم تحت هذا الكوبري رائحة بول تزكم الأنوف. لم تسوَدّ بشرة هؤلاء الرجال الأعمدة لكثرة من بالوا عليهم

من المارة نهارا أو في هدأة الليل. لم يتغوط أحد هنا. ما أعظم أسود «قصر النيل»! وما أجمل ماء النهر يجري .. «قصر النيل» لا وجود له هنا!! أسود شامخة علىٰ الكوبري تسر الناظرين، ومبولة بغيضة أسفل منه! رحم الله عبد الحليم حافظ .. لو عاش حتىٰ اليوم لما صور مشهده الشهير علىٰ هذا الكوبري المسكين.

لم يكن الشهر الأول مخصصا لكورس اللغة الألمانية فحسب، وإنما كان يعقبه كورس آخر بعد الظهر، عن «مهارات البحث العلمي»، درسه لنا شاب صغير السن طويل الشعر، يدعىٰ ألكساندر، كان لطيفا مرحا، شرح لنا أمورا مهمة كنا نعرف أكثرها، كيفية العثور علىٰ المراجع العلمية، ورقية أو ديجيتالية، كيفية الاقتباس والتوثيق، وذكر لنا كيف أن وزير الدفاع الألماني السابق فقد منصبه لأنه نقل صفحات من أحد المصادر دون أن يعزوها إلىٰ صاحبها. فعدوا ذلك سرقة وجريمة تخل بالشرف، فعزلوه، ولا مجال هنا للمقارنة مع حالنا في مصر، فالباحثون في مصر هم الشرف نفسه، ولا يليق أن ندنس طهرهم ومقامهم السامي بالذكر أو المقارنة في هذا المقام!!

كان من بين فعاليات هذا الكورس زيارة عدد من المكتبات الكبرىٰ في برلين. زرنا أول مرة مكتبة جامعة هومبولت، وهي من أقدم الجامعات هنا، والاشتراك في هذه المكتبة مجاني. تولىٰ قيادة الركب في أرجاء المكتبة مرشد أشبه بالمرشد السياحي، ولما كان من غير المقبول أن يتحدث بصوت عال في صرح علمي كبير، جلس فيه الناس علىٰ مقاعد لهم يبحثون، فقد وزع علىٰ كل فرد من أفراد فريق الزيارة سماعات أذن ومعها جهاز صغير تستمع فيه إلىٰ حديث المرشد. من أطرف ما ذكره هذا المرشد، أن كل مشترك بإمكانه الاستعارة بحد أقصىٰ خمسة وعشرين كتابا دفعة واحدة لمدة أربعة أسابيع، قابلة للتجديد، والتجديد يكون عن طريق حسابك الشخصي علىٰ موقع المكتبة علىٰ الإنترنت. ومن الطريف كذلك أنهم لاحظوا أن خمسة وعشرين كتابا ربما تكون غير كافية للباحثين فزادوا عددها ليصبح ثلاثين كتابا.

قد يهولك هذا العدد من الكتب القابلة للاستعارة إذا ما قارنته بحال مكتباتنا في مصر، لكن الأكثر عجبا أنك تعير الكتب لنفسك بنفسك، دون أن ترىٰ سحنة موظف مقلوبة عابسة بائسة. فما عليك بعد أن تشترك في المكتبة وتحصل علىٰ الكارنيه إلا أن

تجمع كل الكتب التي تريدها، وعلىٰ كل كتاب منها شفرته الخاصة (باركود)، فتمرره علىٰ الماكينة، ثم تمرر الكارت الخاص بحسابك الشخصي لتسجل الكتب جميعا باسمك. وعند ردها للمكتبة تسلك السبيل نفسه.

في المكتبة، إذا أردت الاطلاع، يتاح لك الجلوس علىٰ مناضد مهيأة لهذا، فيها مصباح كهربي، ومقبس لفيشة الكمبيوتر، وحلقة لجنزرة الكمبيوتر حتىٰ لا يسطو عليه أحد، وللكمبيوتر هنا أقفال أشبه بأقفال الدراجات. والانترنت واير لس، يعمل بجودة عالية، ثم إنك وسط هذا كله لا تسمع همسا فالكل يعمل في صمت ودأب.

وقريب من مكتبة جامعة هومبولت مكتبة أخرىٰ شهيرة هي «المكتبة الوطنية» Staatsbibliothek zu Berlin، وهي مكتبة عريقة بها عدد ضخم جدا من المخطوطات العربية، حتىٰ إنك لا تكاد تبحث عن مخطوط إلا وجدته، وكأن المخطوط في أصله ألماني!! كيف جمعوا كل هذه المخطوطات، وكيف حصلوا عليها، لا تقل لي إنهم صنعوا معها صنيعهم مع نفرتيتي الجميلة، لقد صنعوا فهارس للمخطوطات العربية في اللغة والأدب والبلاغة والتاريخ والشريعة والشعر فجاءت في حوالي سبع أو تسع مجلدات ضخمة يربو عدد صفحات كل منها علىٰ ٦٠٠ صفحة.

الاشتراك السنوي في هذه المكتبة ٢٥ يورو، تاقت نفسي إلىٰ مطالعة هذه المخطوطات، فاشتركت، وطلبت الاطلاع علىٰ بعض المخطوطات البلاغية، حتىٰ أراها بعيني، وأشم رائحة أوراقها القديمة، فدهشت للإجراءات! ينبغي لك أن تقدم طلبا توضح فيه سبب الاطلاع علىٰ المخطوط، وهل هو يتعلق بموضوع بحثك أو أنك تريد نشره أو غير ذلك من الأسباب، فإذا كنت تريد نشره فيجب عليك كتابة طلب إلىٰ المسئولين بالمكتبة تخبرهم بذلك وتطلب السماح. وعليك أن ترفق بهذا الطلب صورة من جواز سفرك أو بطاقة تحقيق شخصيتك. أدهشتني قسوة الإجراءات للاطلاع علىٰ المخطوط، وذكرت كم مخطوطة سرقت أو ضاعت من دار الكتب والوثائق القومية المصرية دون أن تهتز شعرة في رأس مسئول!

تقدمت بطلب للاطلاع علىٰ إحدىٰ المخطوطات التاريخية، كان أحد الأصدقاء بحاجة إليها، فوافقوا وقالوا تتسلمها في الغد صباحا. رجعت إليهم في الغد وسألت عن المخطوطة وكانت الموظفة ما تزال تذكرني، فأدخلتني حجرة زجاجية، بها مناضد

مخصصة للاطلاع علىٰ المخطوطات، وعليها قطع من الاسفنج هي أشبه شيء بحامل المصحف. تضع الموظفة عليها المخطوطة بين يديك، وتجلس علىٰ مقربة تباشر عملها وتختلس النظر إليك من حين لآخر وكأنها تراقبك. وهناك من هذه القطع الاسفنجية أشكال وأحجام مختلفة، كل منها يناسب حجم مخطوط معين. وإلىٰ جوارك قطعتان معدنيتان ملفوفتان في قماش من القطيفة السميكة، طول كل منها ١٥ سم تقريبا يمكنك تثبيت المخطوط بها أثناء فتحه، حتىٰ لا تمسه كثيرا بيدك فربما أصابه مكروه.

استفسرت عن إمكانية تصويره بالكاميرا فرفضت، وقالت إن قانون المكتبة لا يسمح بهذا، فالتصوير لا يكون إلا عن طريق أجهزة المكتبة. خشية أن يصيب المخطوط التلف. فتقدمت بطلب للتصوير. وطلبت أن أدفع قيمة التصوير وكانت كبيرة، فقالت إن ذلك لا يتم إلا بعد الانتهاء من التصوير، وبعد أن تتسلم النسخة المصورة عبر البريد، ثم يصلك بعد أسبوعين تقريبا فاتورة وفيها رقم حساب بنكي لتحويل القيمة الموضحة.

هذه هي القوانين المرعية عند الرغبة في الاطلاع علىٰ المخطوطات (العربية) في قسم الدراسات الشرقية بمكتبة برلين الوطنية! وقد حفزني إلىٰ الكتابة عنها إحكام صوغها ودقة أهدافها .. في وقت شاعت فيه سرقة المخطوطات النادرة من دار الكتب المصرية، وكذلك حرق المحاكم والمجامع العلمية! لا أدري كيف طرق سمعي من بعيد، بعد قراءة هذه البروتوكولات، صوت مطرب يخاطب معشوقته (المخطوطة) يقول: فحبيبة قلبك يا ولدي نائمة في قصر مرصود .. والقصر كبير يا ولدي وكلاب تحرسه وجنود .. وأميرة قلبك نائمة .. من يدخل حجرتها من يطلب يدها من يدنو من سور حديقتها من حاول فك ضفائرها يا ولدي مفقود .. مفقود هكذا تكون الحال عند محاولة الاطلاع علىٰ المخطوطات في برلين. فالباحث لا يحل له أن يخلو بالمخطوطة ولا أن ينظر إليها ولا أن يقلب صفحاتها إلا تحت عيني رقيب عتيد، يحمل إليك المخطوطة بكلتا يديه، ويمشي الهوينىٰ ضامًّا عضديه، باسطا بالكنز ساعديه. فيدخلكما معا صندوقا زجاجيا ويغلّق عليكما الأبواب، غير أنه لا يسمح للمخطوطة أن تتهيأ لك، وليس لك أن تقد قميصها من قبل ولا دبر، ولو

شاء -لفرط حدبه عليها- جعل لها من دونك سترا. ثم إنه لا يسمح لك أن تلتقط لها صورا فوتوغرافية، ولا أن تقترب منها بأنفاسك الحارة تتشمم عطرها وأنسامها العنبرية، ولا يحل لك كذلك التزوج بها فهي من المحرمات علىٰ سبيل التأبيد، فلك أن تقترب منها . . لكن (من بعيد لبعيد)، وإذا ما رأىٰ هذا الرقيب أن العروس وقعت في نفسك، ولاحظ افتتانك بسحرها، وانطلاق بصرك في أنحائها، وتوقك إلىٰ ضمها، وهو -فيما بدا لي- سليل قوم كرام، لم تعرف معاجمهم المعاصرة قسوة القلوب وغلظة الأكباد، عندها لا يتوانىٰ في أن يتيح لك منها نسخة ديجيتالية، علىٰ أن تغلي المهر وتجزل العطية! وقد سألت صاحبكم هذا الذي جرّب، أن يصف لنا حاله مع هذا المخطوط العربي الذي غَرَّب، فقال وقد لمعت عيناه، ورق قلبه وانبسط وجهه وتوردت وجنتاه: وايم الله! في حضرة المخطوط . . يكون الافتتانْ . . أشهىٰ من الخلوة بالحسانْ! حتىٰ إنك لتحصل لك السعادة كلها . . كما لم يسعد إنس قبلك ولا جان!

ويزيد من سعادتك عند مطالعة المخطوطات سلوك الموظفات بالمكتبة، حين تقارنه لا إراديا بسلوك أمناء المكتبات وموظفيها في مصر. يقول زهير بن أبي سلمىٰ، الشاعر الذي لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه، يصف كرم عربي:

تَـراهُ، إذا مـا جِـئْـتَـهُ، مُـتَـهَـلِّـلًا   كـأنـكَ تـعـطـيـهِ الـذي أنـتَ سـائلُـهْ

وهو تصوير بديع لكرم النفس وجمال الروح والسخاء، كثيرا ما يطرق ذهني هذا البيت حتىٰ تدمع عيني حين أرىٰ حال الموظفة الألمانية السيدة نيكول فورتيج، المسئولة عن قسم المخطوطات الشرقية في مكتبة برلين الوطنية، وحال أغلب الموظفات في كل المؤسسات الحكومية وغير الحكومية بهذه البلاد، رائعات، جميلات، يلقينك بوجه طلق ولا يعصين لك أمرا! لم أر واحدة منهن مرة تكشر عن ناب، أو تغلق دوني الأبواب، ولم تقع عيني علىٰ إحداهن فوق مكتبها تقشر البسلة، أو تخرط عليها الجَزَر من قلة!

تراثنا المخطوط في برلين تراث ضخم، آلاف المخطوطات في شتىٰ المجالات، بعضها كتب منتظمة مكتملة مستقيمة، وكثير منها يعاني من ارتباك شديد، حتىٰ إنك لتجد بين دفتي الكتاب الواحد عدة مخطوطات من عصور مختلفة، وتجد بينها أوراقا

مفردة لا تنتمي إلىٰ شيء! ورسائل بالعربية وأخرىٰ بالفارسية، وقصائد وأشعار، بعض ذلك منسوب إلىٰ أصحابه وكثير منه غفل مجهول! كل ذلك بين دفتي كتاب واحد! ما أشد حاجتنا إلىٰ ألف رجل كالشيخين «شاكر» و«هارون» يعكفون علىٰ هذا التراث دهرا، فيخرجوه لنا.

لست أحب أن أترك هذا الحديث قبل أن أطلعك علىٰ بعض نصوص طريفة قرأتها لأول مرة في هذه المخطوطات العربية. ومن ذلك عنوان جانبي في إحداها يقول «إذا ساد اللئام باد الكرام»، وجاء تحته: لا تمنع عن العلم أهله فتظلمهم، ولا تبذله إلىٰ غير أهله فتظلمه، كما قيل «لا تعلقوا الدرر في أعناق الخنازير». وتيقن لَبَاذِلُ المعارف إلىٰ غير أهلها مذموم في الطرائق كلها. ونُقِلَ عن أفلاطون: «لا تعلموا أولاد السِّفْلَة فإن هم نالوا الشرف حرصوا علىٰ مذلة الأحرار».

ومن طريف ما قرأت كذلك قول بعضهم: «اكتب كل ما تستنبطه من الزوائد، أو تسمعه من الفوائد، فإن العلم صيد والكتابة قيد. لكن عليك ألا تكتفي بثبته في القراطيس، ولا تتكل علىٰ إيداعه في بطون الكراريس، إذ العلم ما ثبت في صحائف الخواطر، لا ما أودع في صفائح الدفاتر. يقول الشاعر:

أضحىٰ الفقيه لجمع الكُتْبِ مُغْتَبِطا — لا بارك الله في البيت الذي جَمَعَهْ
وظلَّ يحمل أسفارًا فقلت له — أنت الحِمارُ الذي في سورة الجُمُعَهْ

وقال آخر:

إذا لم تكن حافظا واعيا — فجمعك للكُتْبِ لا يَنْفَع
أتحضر بالجهل في موضع — وعلمك فِي البيت مُستودَع

وإنما الغرض من إثبات الفوائد في الدفاتر المراجعة عليها عند عروض النسيان الذي لا يخلو عنه الإنسان.

انقضىٰ شهر سبتمبر، وأوشكت كورسات اللغة الألمانية ومهارات البحث العلمي علىٰ الانتهاء، فطلبت إلينا المدرسة أن نُحْضِرَ معنا غدا وهو اليوم الأخير بعض الأطعمة والمشروبات؛ لأن حفلا صغيرا سنشارك فيه بقية الفصول سيعقد غدا احتفالا بنهاية الكورس. انعقد الاحتفال الصغير وتناول الحضور الأطعمة والمشروبات وكان

أغلبها مما لا يحل لنا أكله ولا شربه. غير أن بعض المصريين من كورسات أخرىٰ في فصول مجاورة أصدروا فتاوىٰ في الحال تحل لهم طعام أهل الكتاب ما لم يكن خنزيرا، وربما كان الخنزير حلالا أيضا فهو من طعام أهل الكتاب والآية لم تخصص!

وكان من أوائل من عرفت من المصريين في هذه الآونة ومن أفضلهم، الدكتورة سلوىٰ، صيدلانية مصرية تعمل بالجامعة الألمانية بالقاهرة وقد حضرت لتعد رسالتها للدكتوراه في إطار المنحة نفسها، وقد كانت تحضر كورس اللغة الألمانية في حجرة مجاورة، وكذلك زوجها الدكتور عمر صقر، حفيد الدراعمة، صيدلاني مصري يعمل كذلك بالجامعة الألمانية بالقاهرة، ويعد رسالته للدكتوراه في سويسرا، غير أنه مقيم مع أسرته في برلين. كان للدكتورة سلوىٰ التي تعرفت إليها أولا أثر كبير في هدايتي إلىٰ أماكن المساجد في برلين لأداء صلاة الجمعة، وإخباري ببرنامج اتصال بالموبايل عن طريق النت رخيص السعر، ما زلت أستخدمه، اسمه «نونو»! وقد تعرفت بعد أيام إلىٰ زوجها الدكتور عمر وقابلته في صلاة الجمعة. رجل مهذب ودود مثقف، يحب العمل العام، وعقد الندوات والمشاركات السياسية والعلمية. استعنت به كثيرا في شحن برنامج النونو حيث إن بيانات Online Banking الخاصة بي لم تكن وصلتني بعد.

هذا النونو يدفعنا إلىٰ الحديث عن فتح حساب في البنك. فقد طلب إلي مكتب المنحة فتح حساب ليتم تحويل المستحقات المالية، فاستعنت بالدكتورة سلوىٰ فرشحت لي «البنك التجاري» Commerzbank وعددت لي مميزاته، وأخبرتني أنها والدكتور عمر زوجها لهما حسابان في هذا البنك. كان للبنك فرع قريب من الجامعة غير أنها رأت اصطحابي إلىٰ فرع للبنك قريب من بيتها، حتىٰ يتسنىٰ لها استقبال صغارها من الحضانة، وقد اقترب موعد وصولهم. دخلنا البنك وكانت سلوىٰ تحسن الألمانية فتحدثت مع الموظفة، فرحبت بنا ثم اعتذرت عن فتح الحساب، شعرت بالرفض أثناء الحديث من لغة الإشارة، لكنني لم أفهم السبب فقد كان الحديث بالألمانية!! تعجبت وسألت سلوىٰ، فأبدت هي الأخرىٰ تعجبها من السبب، فقد قالوا إن العميل لا يعرف الألمانية، ونحن نحتاج في بعض الأحيان إلىٰ الاتصال بالعملاء، وسنجد صعوبة كبيرة في التواصل معه بالإنجليزية. قالت سلوىٰ إن هذا غير

منطقي، وأن هذا الكلام هو أشبه شيء بما يفعله الموظف المصري الكسول الذي لا يريد أن يعمل ويقول لك بكل سهولة «فوت علينا بكرة يا سيد» وقد كانت تلك نقطة التلاقي الأولىٰ بيننا نحن المصريين، وبين بعض الألمان.

كنت مصرا علىٰ فتح الحساب البنكي في هذا اليوم. ولم أتحرك في برلين منفردا قبل اليوم. فقررت الانطلاق وليكن ما يكون، لا بأس؛ لتضل الطريق ثم تهتدي. ركبت المترو من المحطة المجاورة لهذا البنك في اتجاه فرع آخر، كنت أعرف أنه يبعد ٣ محطات، ثم فوجئت أن محطات كثيرة جدا مرت ولم تأت المحطة المطلوبة، واكتشفت بذكائي منقطع النظير ساعتها أنني أخذت المترو في الاتجاه المعاكس فبدلا من أن تصل «شتجلتس» Steglitz وصلت إلىٰ «أوسلور» Osloer Straße، أو بدلا من «المظلات» وصلت «المنيب»!!

ركبت القطار في الاتجاه المعاكس ورجعت مسرعا إلىٰ المحطة المطلوبة ودخلت البنك، فاعتذر الموظف عن فتح الحساب كذلك، ليس لأنني لا أحسن الألمانية وإنما لأن يوم العمل أوشك علىٰ الانتهاء، وفتح الحساب يستغرق بعض الوقت لشرح كل الضوابط والقواعد، فضرب لي موعدا من الغد، ذهبت فيه إليه وقمت بفتح الحساب!

كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي أفطن فيها إلىٰ طريقة استخدام خريطة المواصلات، فإنك لست بحاجة إلىٰ أن تسأل أحدا أبدا، الخريطة تهديك إلىٰ كل شيء، في المترو والقطارات والأتوبيسات، والأماكن . . لو أنك أردت الذهاب إلىٰ كشك سجائر في زقاق ضيق في عمق منطقة أبي قتادة في بولاق الدكرور لأمكنك الوصول إليه باستخدام الخريطة. هذا إذا كان كشك السجائر في برلين طبعا.

من أفضال عمر وسلوىٰ أن عرفاني برجال فضلاء من سوريا! وذلك في حفل شواء رائع علىٰ شاطئ نهر صغير في حديقة غناء، سعدنا بها. ثم دعواني ذات مرة إلىٰ عشاء فتعرفت عن قرب إلىٰ طفلتيهما «هنا» و«نور» اللتين تعلقتا بي وتعلقت بهما لشدة ما عابثتهما حتىٰ أنهكاني!! سعدت بهما وطربت لهما . . فقد كانتا رقيقتين . . عذبتين حقا . . ما زالت قلوبنا تنبت أغصانا جديدة من الحب والمودة كلما التقينا . . ربما رأيت فيهما بنيتي سارة!!

(٦)

خوف ورجاء

انقضىٰ شهر علىٰ وصولي إلىٰ برلين، والآن حان موعد اللقاء!

إنه أول لقاء رسمي مع الأستاذة المشرفة علىٰ البحث، أول لقاء يتعلق بالمهمة الرسمية التي من أجلها جئت إلىٰ هذه البلاد. . كان شهر أكتوبر المعظم قد انقضت منه عدة أيام، فاحتفلت ألمانيا بعيدها القومي في الثالث منه، واحتفلت مصر كذلك بأعياد النصر المجيد. كتبت إيميلا إلىٰ الأستاذة المساعدة باربرا فنكلر BarbaraWinckler أطلب منها تحديد موعد للقاء، فردت بعد يوم واحد تقريبا مرحبة بي في برلين الماطرة، وضربت لي موعدا كان في العاشرة من صباح الثلاثاء القادم. وتركت لي أرقام تليفوناتها وطلبت إلي الاتصال بها إذا أردت. وجدتها فرصة طيبة للاتصال لتوطيد العلاقة قبل اللقاء الأول. اتصلت بالرقم فتلقيت ردا من Answer Machine، رسالة مسجلة أغلب الظن أنها بصوتها، رسالة بالألمانية، ثم رسالة بالعربية بنفس الصوت لكن بلهجة سورية! تعتذر عن عدم الرد لأنها خارج البيت لأداء بعض المهام، فطنت من لهجتها إلىٰ أنها لا شك تعلمت العربية في بلاد الشام. وطلبتْ ترك رسالة فشكرتها، وأكدت لها أنني قادم في الموعد إن شاء الله. انتظرت يوما أو بعض يوم حتىٰ كانت ليلة الثلاثاء، وقد أخذني قلق عظيم. كيف سيكون هذا اللقاء، وبأي لغة سيكون الحوار، وماذا سيكون انطباعها عني، وماذا ستطلب مني، و. . . و . . . و . . . . أسئلة كثيرة حائرة، لم أهتد إلىٰ إجابة أي منها. فداهمني قلق عظيم!!

هذا القلق كان مبعثه أمرين: أولهما أنني حديث عهد بهذه البلاد، وهذه الجامعات، لا أعرف كثيرا مما يصنعون، لا أعرف كثيرا عن مناهجهم وطريقة

تفكيرهم في البحث العلمي، لكن عزائي أنهم قبلوا خطة البحث التي تقدمت بها، وقد رفضوا كثيرا من خطط الأصدقاء الذين تقدموا معي إلىٰ هذه المنحة. فقد كان ذلك باعثا علىٰ الطمأنينة بعض الشيء.

أما الأمر الآخر وهو الأشد خطرا، الذي لم أجد سبيلا إلىٰ التغلب عليه، فهو تلك الرهبة الشديدة التي تملكتني خوفا من الأستاذ وهيبته، كما خبرتها في مصر، فقد زُرعت في قلبي بذرة ونمت حتىٰ غدت شجرة هائلة الأنحاء. ليس ذلك في الجامعة فحسب وإنما كان ذلك منذ سنوات الدراسة الأولىٰ، فقد كنت أخشىٰ أن تقع عين الأستاذ عليّ خارج مكان الدراسة، كنت أخشىٰ أن ألقاه، ويأخذني خجل شديد ورهبة عظيمة إذا ما قابلته صدفة في أحد الشوارع! وقد كان الأمر في الجامعة كذلك، فقد كنت أخشىٰ الأساتذة حتىٰ إنني إذا ما قابلت أحدهم في بعض الطريق غيرت اتجاهي وقفلت راجعا حتىٰ يمر ويمضي إلىٰ سبيله. وقد حدث ذلك مرات كثيرة، مع أستاذ جليل، لم يكن أعظم من خوفي منه إلا حبي وإجلالي له، إنه الدكتور عبد الواحد علام ﷺ. لم يكن ذلك خوفَ فزعٍ أو كُره، وإنما هو خوف حب وإجلال، لكنه كان زائدا عن الحد! . . فوالله ما بكَيت لموت أستاذ قبل هذا الرجل، ولا بعده، حتىٰ إنني وقد علمت بوفاته المفاجئة صباح يوم دراسي من أيام الفرقة الثانية، هرعت من القاهرة إلىٰ قريته في محافظة الشرقية، لشهود الجنازة وكان معي بعض محبيه من الزملاء، وقد أنفقنا في ذلك اليوم، كثيرا من مصروف الشهر الذي كان قليلا!!

لقد اعتاد بعض الطلاب التردد علىٰ الأساتذة في المكاتب للاستفسار عن بعض الأمور المتعلقة بالدراسة أو غيرها، ولا أظن أنني فعلت ذلك مرة واحدة قط! وبخاصة مع كبار الأساتذة! سياج الرهبة يمنعني!

ولقد كان من أشد الأساتذة رهبة في النفوس الدكتور شفيع السيد، أستاذ البلاغة والنقد، وعضو المجمع اللغوي، رجل عظيم، وعالم كبير، ولم نر منه مرة ما نكره، لكنه دائما محاط بسياج من الهيبة وسور عظيم من الرهبة لم يُجعل له باب! حواجز عظيمة، أعجز عن كسرها أو تخطيها، فلا أكاد أقترب منه أبدا رغم حبي الكبير له! والعجيب أن ذلك لم يكن في سنوات الدراسة فحسب، ولكنه استمر بعد العمل معيدا

كذلك، ويبدو أن هذه الرهبة لم تضربني وحدي وإنما أصابت بعض الزملاء كذلك، فأذكر مرة كيف أنني وبعض الأصدقاء من المعيدين وقفنا بباب مكتبه وكان رئيس القسم، لسؤاله في بعض الأمور الإدارية، وترددنا كثيرا، وكان يدفع بعضنا بعضا من يطرق الباب ومن يكون أول الداخلين!

ومن ذلك أنه مرض ولزم الفراش في بيته عدة أيام، فلم أجسر علىٰ الاتصال به للسؤال عن أحواله رغم فرط حبي وإجلالي له، وكانت توثقت علاقتي بابنه صديقي الدكتور أسامة المدرس المساعد بقسم الشريعة الإسلامية، فأخبرني بمرض أبيه وقال: ألن تتصل به تسأل عنه؟ فقلت: لا أجسر علىٰ ذلك، سأكتفي بأن أدعو له! فهون علي الأمر وفاجأني بأن اتصل بوالده وأعطاني الموبايل لأكلمه، فارتبكت، وقلت من غير وعي قبل أن يجيب: «يا منجي من المهالك» فغضب أسامة وعنفني تعنيف الصديق، فاعتذرت بحسن نيتي وسبق لساني! ثم تجاسرت وكلمت أستاذي وسلمت عليه، وسعدت بصوته الأبوي الودود!! وعقبت علىٰ رد فعل أسامة: أنت لا تنزعج لأنه أبوك، أما أنا فهو عندي «شفيع السيد»!.

بعيدا عن أستاذي الدكتور شفيع السيد، وعلاقتي الطيبة به، بعيدا عن هذه العلاقة العلمية والإنسانية النبيلة . . لا أستطيع أن أنقل لكم شعور من أشقاه مشرفه، وهو لا يستطيع أن يشكو ألمه، لأن في الشكوىٰ هلاكه وضياع مستقبله!! لا أتحدث عن نفسي هنا، فالأمر كله لم يزد عن أن تأخرت عاما أو بعض عام في التسجيل للماجستير، وتلقيت تهديدات بالفصل من العمل من بعض الأساتذة من هنا، ووعيد بالدمار وضياع المستقبل وشيء من المكر من بعض آخر من هناك! لا أتحدث الآن عن نفسي، ولكن عن زملاء رأيتهم وقد تجرعوا كئوس المر!

لقد ضج الطلاب والباحثون بالشكوىٰ من كثرة المعوقات والمماطلات، والصراع بين الأساتذة حول تولي الإشراف علىٰ الطلاب! الإشراف العلمي منزلة كبيرة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون! من سيكون طه حسين عصره وعقاد زمانه، من يشرف علىٰ عدد كبير من الطلاب ليكوّن مدرسة ينشر من خلالها علمه اللدني وفكره الفريد . .

الخلافات الشخصية تطغىٰ علىٰ العلم، فيضيع العلم تحت الأقدام . . عانيت ذلك كثيرا، وعاناه كثيرون ممن أعرفهم.

عرضت خطتي للماجستير علىٰ الأستاذ المشرف فرحب بها بعد نظر ونقاش طويل، ثم رحت أستطلع آراء بقية أعضاء القسم من الأساتذة، ومنهم أعلام كبار، فعرضت الخطة علىٰ بعضهم فرحب بها أشد الترحيب، وكان يحسب أنني إنما ذهبت إليه ليتولىٰ الإشراف، لكنه ما إن علم أن سيتولىٰ غيره الإشراف علىٰ الرسالة، حتىٰ ألقىٰ بالخطة مستهينا بها، وقدح في علم زميله الأستاذ المشرف ورماه بالجهل وعدم الاختصاص، وقدح في الباحث وفي إمكانياته، وأنه لن يتعلم شيئا بدراسته لهذا الموضوع أو غيره، وسيقتصر دوره علىٰ بعض النقول من هنا وهناك ليتخلق بين يديه جسد بحث سقيم، تعقد له جلسة مناقشة، ويؤتىٰ بالأهل من البلد فرحين، ثم تطلق النسوة الزغاريد في قاعة المناقشة، ويعين الباحث في درجة مدرس مساعد، ثم يزيد راتبه الشهري سبعة جنيهات ونصفا! هذا كل ما يمكن أن يحصله هذا الباحث من دراسته لهذا الموضوع مع ذلك الأستاذ!!

أرجو أن تكونوا ذوي صدر رحب أيها القراء، فقد أطيل أحيانا فيما قد ترونه بعيدا عن لب الموضوع، لكنه فيما أرىٰ تقديم ضروري لما أريد الوصول إليه.

قضيت ليلتي محملا بكل هذه الرهبة والخشية، ولا أظنني نمت ساعة أو بعض ساعة، فلما زاد أرقي وطار النوم هاتفت صديقي الدكتور أسامة في فرنسا، أستنصحه، فأخبرني ببعض الأسس التي ينبغي أن يكون عليها الحوار، ومنها ألا أقاطع الأستاذة إذا بدأت الكلام، وألا أستفسر عن شيء جديد قبل أن تتم جوابها عن الأمر الأول، لأن ذلك قد يشوش الأفكار ويدفعها إلىٰ الصمت .. ونصحني بأن أذهب مبكرا لتناول فنجان قهوة في كافتيريا المعهد قبل اللقاء.

-ذهبت إلىٰ معهد الدراسات السامية والعربية Seminar für Semitistik und Arabistik في الثامنة صباحا، قبل ساعتين من موعد اللقاء. كنت قد عاينت المعهد من قبل، فقد ذهبت إليه مرة أو مرتين خلال دراسة كورس اللغة الألمانية، واعتدت كيف أذهب إليه سيرا علىٰ الأقدام دون أن أضل الطريق. المعهد ما هو إلا فيلا صغيرة عتيقة متواضعة لا تتجاوز مساحتها فدانا علىٰ أحسن تقدير، لها حديقة جميلة، ولها شرفات تطل علىٰ الحديقة، وقد نحتت في واجهتها بعض التماثيل، ولها أبواب قديمة، وسلم خشبي عتيق .. تحمل معنىٰ الأصالة .. وتشم فيها رائحة الثقافة

العربية وروح الشرق بعامة. وهي تحوي قاعتين دراسيتين صغيرتين لعقد السيمنارات والمحاضرات والندوات ومناقشة الرسائل وغير ذلك.

وجدت عند الباب شابا نحيلا يقف إلىٰ جوار امرأة شقراء حادة الملامح لم ترقني. عرفت فيما بعد أنه دكتور بيتر بوكل مدرس بالمعهد، وأن هذه السيدة هي السكرتيرة . . كانا يشعلان السجائر، أمام الباب، لأن التدخين ممنوع داخل المنشآت والبيوت. ألقيت التحية فرد الشاب النحيل، فعَرَّفْته بنفسي، وأنني طالب دكتوراه مصري، جئت اليوم إلىٰ موعد مضروب للقاء الأستاذة المشرفة، واستفسرت منه عن مكان مكتبها أو ما يمكن أن يكون مكانا للقاء، فتوقف عن الحوار بالإنجليزية وتحدث بعربية تخرج من فم ألماني، وقال: أهلا وسهلا أنت محمد متولي؟ قلت نعم، قال: أنا أعلم أن لك اليوم موعدا مع الأستاذة لكنه في العاشرة، لقد جئت مبكرا جدا، فقلت لا بأس حضرت أتفقد المكان . . فرحب بي ثانية، وقادني إلىٰ الاستقبال، فجلست ساعة تقريبا في حجرة بها أنتريه، وطاولة صغيرة عليها مجموعة من الكتب، وعلىٰ الحائط إعلانات كثيرة بعضها بالعربية، وبعضها بالألمانية، عن ندوات، ودورات في تعليم اللغة العربية، وطلبات للتعليم المتبادل للغة، كأن يصاحب ألماني مصريا يُعَلِّمُ كل منهما الآخر لغته الأم.

كانت نافذة الحجرة منخفضة، بحيث يرىٰ الجالس في هذه الحجرة من يمر في الشارع، رأيت امرأة عجوزا، بيضاء الشعر، لكنها رشيقة ممشوقة القوام، بيضاء، قد أحكمت عمل ميك أب فبدت أصغر سنا، تمشي في رشاقة وكأنها تتقافز كطفلة صغيرة، دخلت هذه السيدة إلىٰ حجرة الاستقبال حيث أجلس، وألقت التحية فرددتها، عرفت أنها الأستاذة أنجيليكا نويفرت Angelika Neuwirth، أستاذة الدراسات العربية والقرآنية الشهيرة، فقد كنت طالعت صورها وبعض معلومات عنها علىٰ الإنترنت. ولما كنت عربي الملامح تحدثت إلي بعربية رائقة . . أنت أستاذ متولي؟ قلت: نعم، فتهللت الأستاذة تهللا عظيما، وأقبلت محتفية، وقالت: أين أنت يا عزيزي، لقد تأخرت كثيرا، منذ متىٰ ونحن ننتظرك! سعدت كثيرا، وكدت أنظر حولي أو خلفي، وقد ظننتها تحدث شخصا آخر غيري! تنتظرني منذ مدة طويلة؟ أنا؟ فطنت إلىٰ أن ذلك كان منها من باب الملاطفة. واصطحبتني إلىٰ مكتبها، وأكرمت ضيافتي، وقالت إن

مساعدتها باربرا فنكلر علىٰ وشك الوصول، لحضور اللقاء. جلسنا في المكتب متقابلين، رحبت بي مرة أخرىٰ وسألتني إذا ما كنت أفضل القهوة، فشكرتها، فضحكت وقالت: دعك الآن من طريقة المصريين! هذا الشكر رفض أم حياء! فابتسمت، فقالت: يا عزيزي، وهذه كلمتها المفضلة عند مخاطبة كل الناس كما عرفت فيما بعد، يا عزيزي لا تخجل فنحن في هذا المكان أسرة واحدة. تسود بيننا المودة والألفة والتقارب الشديد! لا تنزعج! ثم قامت وصنعت القهوة بنفسها، وسألتني عن عدد ملاعق السكر، فقلت مبتسما: سكر زيادة، فتهللت: أوووو مصري . . لازم سكر زيادة المصريون يحبون السكر كثيرا أما نحن الألمان فلا!! . . لا أدري لم قفز إلىٰ ذهني موقف طريف قبل سفري بأيام، حين كنت مع أستاذي الدكتور شفيع السيد في مكتبه، وقد أعدت لنا العاملة «إصلاح» الشاي لي والقهوة له، وسألتني عن عدد ملاعق السكر، فقلت: ثلاث، فضحك الدكتور شفيع وتعجب، فقلت له، وقد سرت بيننا مودة عظيمة، أنا لا أشرب الشاي كثيرا، فإذا ما اضطررت إليه في حضور ضيف مثلا، فإنني أشربه وكأنه مربىٰ، سكر ثقيل، فضحك للتشبيه والدعابة حتىٰ بدت نواجذه، وقال: ما هذا يا رجل!! ثلاث ملاعق! ذكرتني بعمال البناء ومبيضي المحارة!! وذكر كذلك أن صديقه الدكتور علي عشري زايد ﷺ، الناقد الأدبي المعروف، كان يشرب الشاي سكرا كله!

لقد دأب طلاب العلم في الثقافة العربية علىٰ تقبيل أيدي أساتذتهم وشيوخهم، إجلالا لهم، واعترافا بفضلهم وجميل صنيعهم، وقد انزوت هذه الظاهرة في الأيام الأخيرة، فلم تعد تراها إلا عند بعض الأزاهرة ومن لف لفهم من الدراعمة، ومن درسوا علوم اللغة والشريعة بعامة، واتصلوا اتصالا قويا بالثقافة العربية القديمة، فإنك تجد هذه الظاهرة باقية فيهم، حتىٰ إن تقبيل اليد غدا حقا مكتسبا في نظر بعض الأساتذة، يستملحونه من طلابهم ويستطيبونه، بل ربما يصل الأمر ببعضهم إلىٰ طلبه والحث عليه. وقد سمعت مرة نفرا منهم يتساءلون وقد حكىٰ أحدهم عن لقائه قدرا بتلميذ له قديم بعد طول غياب، قالوا: أَقَبَّلَ يدك؟ فقال: نعم! فاستحسنوا ذلك، وقالوا له: الآن! والحق أنه إذا كان تقبيل اليد نابعا من نفس الطالب عرفانا بقدر أستاذه وجميل صنيعه فلا شيء فيه، أما أن يصل الأمر إلىٰ حد المباهاة والطلب

والاستحسان فيحسن بالمرء التوقف؛ لشبهة أن الأمر غدا في غير محله!

إن الأساتذة الألمان اليوم لا يُقَبِّل طلابهم أيديهم، ولا يَقْبَلون من طلابهم مناداتهم إلا بأسمائهم مجردة من الألقاب. ولا إثم عليك أن تجلس وقد وقف أستاذك، أو أن تضع ساقا علىٰ ساق في حضرته، وهو -ربما- يعد لك فنجانا من القهوة! كما صنعت الأستاذة نويفرت معي! عجبت كثيرا لهذه الثقافة المختلفة. وظننت أن هذه طبيعة الأساتذة الألمان منذ زمن بعيد، فإذا بها ثقافة عندهم مستحدثة. ذلك أن «إكْرِمَنْ» صديق الشاعر الألماني جوته (١٧٤٩-١٨٣٢) ورفيقه وجليسه وكاتب مذكراته، يروي أنه زار جوته يوما كعادته . . وعلىٰ غير العادة وجده مبتئسا مهموما. فسأله عن سر ابتئاسه وحزنه، فأجابه: كان عندي صباح اليوم ثلة من طلاب «أكسفورد» . . ومضوا يحاورونني بغير تكلف ويداعبونني كأني واحد منهم، حتىٰ إن أحدهم راح يربت علىٰ كتفي ويمازحني ويقول: كم أنت مُسَلّ ولطيف يا جوته؟!!

سأله إكْرِمَنْ: وهل أزعجك هذا؟ . . فأجابه: نعم! -عندما رحت أقارن بينهم وبين طلابنا الألمان . . فطلابنا- إذا رأوني في الجامعة انحنوا لي في خشوع يخجلني!! أما هؤلاء القادمون من بريطانيا فيعاملونني كأنني واحد من لداتهم وأترابهم . .

كانت السيدة باربرا فنكلر قد حضرت وتناولنا القهوة جميعا، وتناقشنا قليلا حول موضوع رسالتي للدكتوراه، وأخبرتني الأستاذة نويفرت، وكانت رئيسة القسم وعميدة المعهد أن أكثر دراساتها حول القرآن الكريم، وأن باربرا هي أقرب إلىٰ الرواية والأدب الحديث، وأنني سأتابع معها بوصفها مشرفا مساعدا، علىٰ أن تكون أنجيليكا هي المشرف الرئيس. كنا نجلس في مكتب به جهاز كمبيوتر، وعدد من القوائم الخشبية المحملة بالكتب، وعلىٰ المكتب إطار أنيق فيه آية قرآنية، هي قوله تعالىٰ: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»، أثارت الآية في نفسي معاني كثيرة، وتعليقها في هذا المكان جعل سيلا من الأفكار يجول بخاطري!! وقد علقت في زاوية أخرىٰ صورة رائعة للمسجد الأموي الكبير. وكنت ألمح في أرفف القوائم الخشبية المثقلة بالكتب كتبا أعرفها لطه حسين والعقاد، وعددا من تفاسير القرآن، وصحيحي البخاري ومسلم، وأعدادا من مجلة فصول، ثم نظرت إلىٰ

أقرب الأرفف إليّ، فإذا بمجموعة كتب للدكتور أحمد هيكل، وكتابين أو ثلاثة للدكتور بدوي طبانة رحمهما الله . . الآية القرآنية وصورة المسجد والكتب المألوفة ومودة ظاهرة من السيدتين الكريمتين، كل هذا هدأ من روعي وألقىٰ في قلبي السكينة، ووقعت الأستاذة علىٰ خطة البحث، كي أتمكن من إنهاء إجراءات التسجيل، وأحمد الله أنها لم تطلب مني إحضار خطابات من الكليات المناظرة لتؤكد براءة الاختراع، عفوا لتؤكد جدة فكرة البحث، وأنه لم تتم دراسته في أي كلية مناظرة من قبل، فهذا النظام معمول به في مصر فقط، ولا وجود له هنا. قامت الأستاذة أنجيليكا إلىٰ أحد الأرفف والتقطت كتابا ضخما، وأعطتني إياه، وقالت هذا هدية لك، وهو بالإنجليزية يمكنك قراءته والإفادة منه، وهو يمثل بعض إنتاجنا العلمي في هذا المعهد، ولا شك ستقف علىٰ كثير من إنتاجنا فيما بعد . . كان الكتاب بعنوان «الأدب العربي الحديث – آفاق ما بعد الحداثة» Modern Arabic Literature - Postmodern Perspectives نظرت في فهرسه نظرة سريعة فوقعت عيني علىٰ مقال عن الواقع المصري المؤسف في كتابات صنع الله إبراهيم، فقرأته بصوت مسموع فتهَلَّلَتْ، وأثنت علىٰ صنع الله خيرا، وكيف أنه أديب كبير، وشخص ودود، كثيرا ما استقبلهم في بيته في القاهرة، فكان مثالا لكرم الضيافة والمودة الخالصة!

أخبرتني الأستاذة نويفرت أنني طالب دكتوراه، وطالب الدكتوراه هنا غير مكلف بشيء، غير إعداد رسالته، وقد اقترحت علي حضور بعض المحاضرات العامة واللقاءات الثقافية والندوات وغير ذلك، وأخبرتني أنه من الضروري المشاركة في سيمنار القسم، وهو حلقة أسبوعية يناقش فيها الطلاب موضوعات بحوثهم للماجستير والدكتوراه، وكذلك مشروعات التخرج لمن هم في مرحلة الليسانس. سيكون السيمنار بالألمانية، وقالت لا بأس، يمكنك الحضور للاستماع واجعله تدريبا عمليا لتعلم التحدث باللغة الجديدة.

انتهىٰ اللقاء، تصافح ثلاثتنا بود كبير، وقفلت عائدا إلىٰ البيت، سعيدا مسرورا، أتقافز بين الأشجار المصطفة علىٰ جانبي الطريق.

(٧)

جولييت وساعات بين الكتب

مضىٰ أسبوع أو يزيد علىٰ هذا اللقاء الأول بالأستاذة المشرفة أنجيليكا نويفرت. بدأت في التردد علىٰ المعهد وقاعة الاطلاع لمطالعة محتوياتها، واكتشاف ما بها من كتب عربية جديدة . . أو قديمة قد لا أعرفها. كانت مكتبة عامرة، هي أشبه شيء بقاعة الاطلاع في دار العلوم، غير أنها أصغر حجما، تحتوي علىٰ عدد كبير من الكتب في كل مجالات الدراسات العربية، في الأدب والنقد والتاريخ والفقه والحديث والتفسير والفلسفة . . كثير منها عربي، لكنها تحتوي كذلك علىٰ عدد كبير من المؤلفات بالإنجليزية والألمانية والفرنسية، وبلغات أخرىٰ كالعبرية والفارسية والسريانية.

تعرفت في قاعة الاطلاع إلىٰ السيدة جولييت خوري أمينة المكتبة، سيدة سورية كردية الأصل، ودودة، وفدت إلىٰ ألمانيا قبل سبع سنوات، لها شغف عظيم بالعلم، ومثقفة ثقافة واسعة، تعرف الألمانية والإنجليزية والسريانية والعبرية ولغات أخرىٰ، وتتقن العربية بشكل معجب، حتىٰ إنها تعمل في تدريس العربية للألمان بكفاءة كبيرة. تعرفت إليها وآنست منها رشدا، كنا نتحادث في كل شيء. أفدت منها كثيرا في التعرف علىٰ طبيعة الحياة، ونظام الجامعة، والروح السائدة في المعهد بين الأساتذة والطلاب. كانت دائما هادئة باسمة، لا يخرجها عن هدوئها شيء، إلا حين يأخذنا الحديث إلىٰ السياسة، فيستحيل هدوءها عاصفة هوجاء قاتلة، تتعصب وتتشنج وتكشر عن أنيابها، فقد كانت ناقمة علىٰ الأنظمة العربية أشد النقمة وأقساها، ومن منا لا ينقم يا جولييت، هوني عليك!! إذا كانت قاعدة وقفت واحتدت، وإذا كانت قائمة أشارت بأصابعها وتغيرت ملامح وجهها، تعبر عن حبها لعربيتها وهويتها، لكنها ترثي للظلم والقهر والمعاناة والتخلف!! الألمان ليسوا أفضل منا . . نحن الذين دمرنا كل

شيء، حكامنا ظلمة متخلفون، وشعوبنا تغط في جهل عميق، دفعهم البحث عن لقمة العيش إلىٰ التخلي عن أدنىٰ معاني الإنسانية.

كانت هذه طبيعتها كلما تطرق الحديث بنا للسياسة، لكنها في عملها كانت ودودة، تعيرني من الكتب كل ما أريد . .

أخبرتني جولييت أن ثمة مكتبة أخرىٰ أكبر من قاعة الاطلاع هذه، في الدور الأرضي من المعهد. كأنها مخزن الكتب بدار العلوم، لكنه أصغر حجما من مخزننا الكبير، ربما كان في حجم نصف قاعة الاطلاع الدرعمية هذه المرة. سألتني عما إذا كنت أريد الاطلاع عليه، فشكرتها، فقالت إنه حقك، وهذه طبيعة عملي. سبقتني إلىٰ المخزن، فإذا هو قاعتان متجاورتان، دخلنا إحداهما، كانت مليئة بالكتب العربية، والمترجمة عنها، روايات ودواوين حديثة وقديمة، مصرية وسورية وعراقية وفلسطينية، أخبرتني أن هذا القسم خاص بالدراسات العربية، والقاعة الأخرىٰ بها مراجع الدراسات السامية، فالمعهد مخصص لهذين النوعين من الدراسات. وتفضلت بأن أطلعتني علىٰ قاعة الدراسات السامية كذلك . . كانت الكتب في قاعة الاطلاع والمخزن مرصوصة ومرقمة في هيئة معروفة كما هو الشأن في كل المكتبات . . غير أنني لمحت في جانب حجرة المراجع السامية هذه كوما من الكتب، قد رص رصا عشوائيا، لفت نظري وصرفني عن كل ما في هذه الحجرة . .

توجهت إليه، وقلبت فيه، كل الكتب لا تحمل أرقاما، وقد لصق علىٰ كل منها ورقة مكتوب عليها (مكتبة ناجي نجيب). كنت سمعت بهذا الاسم، لكن لم أكن أعرف عنه الكثير، هو أديب مصري (١٩٣١-١٩٨٧) كان من أوائل مترجمي مقتطفات من الأدب العربي للغة الألمانية وأسّس دار «أورينت» للنشر في برلين لنشر ترجماته. أذكر أنه ترجم بعض أعمال ألفريد فرج المسرحية، وبعض دواوين صلاح عبد الصبور ومسرحياته.

سألت جولييت، هل هذه مكتبة الأستاذ ناجي نجيب - أهداها للمعهد، قالت نعم! الرجل أقام حياته كلها في برلين، وله مكتبة ضخمة، وقد انتقل إلىٰ جوار ربه وأهدت زوجته مكتبته إلىٰ المعهد.

أبديت سعادتي بالمكتبة، وأخبرتها أن إهداء المكتبات تقليد معروف عندنا، فكم من أستاذ درعمي توفاه الله، فأهدت أسرته مكتبته إلىٰ الكلية صدقة جارية، وربما يكون هو نفسه قد أوصىٰ بذلك قبل الوفاة عرفانا بفضل الكلية عليه.

تذكرت كيف أنني قمت في هذا السياق ذات مرة بجهد كبير . . ذلك أن الطبيب الدكتور تيمور التونسي نجل الأستاذ الدرعمي محمد خليفة التونسي قد أهدىٰ مكتبة والده لدار العلوم . . فطلب إلىٰ صديقه الدكتور أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم أن يرسل إليه شابين درعميين إلىٰ بيته بالمقطم لحصر محتويات المكتبة، وصنع فهارس لها، فكنت أنا وصديقي الدكتور محمد الشوبري. ذهبنا إليه، وشرح لنا مراده، فقضينا مع المكتبة، وكانت ضخمة، أياما طويلة، نسجل عناوين الكتب وأسماء المؤلفين ودور النشر وتاريخ النشر . . كانت المكتبة تسكن البادروم، وكان العمل شاقا، فلم تكن الكتب مرتبة، وقد رصت رصا عشوائيا . . قضينا في هذا العمل أياما شاقة، لكنها كانت ممتعة. كنت أنسىٰ التعب كله وأجد لذة عظيمة حين أجد كتابا أهداه العقاد بخط يده للأستاذ التونسي، أو ورقات كتبها الأستاذ التونسي بيده، أو خطابا تائها بين صفحات الكتاب خطه كاتب مشهور أو شاعر معروف إلىٰ الأستاذ التونسي. أو ورقة «نتيجة» عتيقة يعود تاريخها إلىٰ عشرات السنين، ربما يكون الأستاذ قد وضعها بين صفحات الكتاب يحدد الموضع الذي انتهىٰ عنده من القراءة . . كانت متعة عظيمة، وشقاء كبيرا، حصلنا بعده علىٰ مبلغ من المال ليس بالقليل.

تذكرت كل ذلك وأنا أبحث وأقلب بين كومة الكتب من مكتبة ناجي نجيب، وكأنها مكتبة الأستاذ التونسي، فقد كانت أغلب محتوياتها كتبا مشهورة، لكن الطريف أن أغلبها كذلك كان من الطبعات الأولىٰ لهذه الكتب. وفي رؤية الطبعات الأولىٰ من الكتب الشهيرة سعادة عظيمة، وبخاصة إذا ما كانت مهداة من المؤلف ممهورة بتوقيعه. سعدت من ذلك بعدد من الروايات المهداة من يوسف القعيد إلىٰ ناجي نجيب، وعدد كبير من المجلات الأدبية والنقدية المصرية والعراقية القديمة، قلبت كثيرا وقد غلبتني سعادة غامرة، حين وقعت عيني علىٰ كتاب سلب لبي، كتاب قديم، إنه من تلك الكتب الصفراء ذات الرائحة المميزة، مطبوع عنوانه علىٰ غلافه بعناية كبيرة، ومكتوب بخط اليد، وكأنه محفور في جسم الورقة، يعرف ذلك هواة اقتناء الكتب القديمة. «كتاب رسائل البشرىٰ في السياحة بألمانيا وسويسرا في سنة ١٨٨٩

ميلادية، لحضرة مؤلفه حسن أفندي توفيق، معلم اللغة العربية في المدرسة الشرقية ببرلين، (تصريح من نظارة المعارف العمومية بطبعه علىٰ نفقتها) الطبعة الأولىٰ، بالمطبعة الكبرىٰ الأميرية، ببولاق مصر المحمية، سنة ١٨٩١ إفرنجية». سعدت بالكتاب أيما سعادة، فهو كتاب معروف، يسجل فيه أول درعمي قدم إلىٰ برلين يعلّم أهلها اللغة العربية وثقافتها في ذلك الزمان - يسجل فيه تفاصيل رحلته وسياحته في هذه البلاد. كانت معي نسخة من هذا الكتاب حديثة، مصدرة بدراسة للدكتور محمد حسن عبد العزيز الدرعمي عضو المجمع اللغوي، وقد صدرت كذلك نشرة من هذا الكتاب عن دار الكتب والوثائق القومية مع دراسة للدكتور محمد صابر عرب.

تخرج حسن أفندي توفيق العدل في دار العلوم عام ١٨٨٧، ثم اختير بعد تخرجه معلما للغة العربية بالمدرسة الشرقية ببرلين، ولعله كان أول رسول للقيام بهذه المهمة في تلك البلاد، فاحتفلت الوزارة واحتفل العلماء والأدباء بتوديعه، وتمنوا له النجاح، وعلقوا الآمال علىٰ سفرته هذه، فحقق رجاءهم وأمانيهم، وكانت رحلته كلها درسا وعلما وإفادة. مكث في برلين خمس سنوات أو يزيد، علم فيها كثيرا من المستشرقين الألمان، ممن ذاع صيتهم بعد ذلك، وكان خير داع لسمعة مصر، وكانت سيرته في ألمانيا عاطرة يعرفها رجال الدين والسياسة، حتىٰ إنه أثناء إقامته في برلين ألقىٰ قصيدة في جمعية اللغات الشرقية نوه فيها بفضل إمبراطور ألمانيا (فيلهلم) فكان لها وقع حسن في نفوس الألمان جميعا بعد أن ترجمت إلىٰ الألمانية، وقد استدعاه الإمبراطور لمقابلته علىٰ أن يكون بزيه الشرقي. فتوجه الشيخ حسن إلىٰ مقابلته وهو بهذا الزي، وبعد أن سأله عن مصر وأهلها طلب إليه أن يسمع قصيدته بالعربية، وإن لم يكن يعرفها؛ لأنه يريد أن يتبين ملامح هذه اللغة وآثارها عند إلقاء القصيدة علىٰ لسان الشيخ حسن ووجهه، فألقاها بالعربية وترجمها إلىٰ الألمانية، وبعد حديث طويل، قام الإمبراطور فقلده بيده وسام التاج الملوكي وسلمه براءته بنفسه. وكان الشيخ حسن توفيق العدل رحمه الله شديد الإعجاب بالمستشار الأكبر «بسمارك» وكان يعده أعظم سياسي في الدنيا، وترجم له ترجمة ضافية في «الرحلة البرلينية»، وقد بعث إليه بسمارك يشكره علىٰ ما كتبه عنه.

قبل أن يترك برلين إلىٰ مصر أمضىٰ عدة أشهر متنقلا في أوروبا بهدف الوقوف علىٰ طرق التعليم والتربية في المدارس الكبرىٰ، فزار جامعات كامبردج وأكسفورد وغيرها، ثم عاد إلىٰ مصر مفتشا بوزارة المعارف ومدرسا بدار العلوم. ولما قدم الدكتور براون إلىٰ مصر وأمضىٰ بدار العلوم مدة من الزمن سنة ١٩٠٣، وقع اختياره علىٰ حسن أفندي توفيق العدل ليقوم بتعليم العربية في كامبردج. فسافر العدل إلىٰ إنجلترا في العاشر من أكتوبر عام ١٩٠٣، ولم ينته العام حتىٰ صار أستاذا للغة العربية في كامبردج.

وفي يوم الثلاثاء ٣١ من مايو بدأ امتحان الطلبة وانتهىٰ ظهر يوم الجمعة ٣ من يونيو ١٩٠٤، ولم تنتصف الساعة الخامسة حتىٰ وَقّعَ علىٰ كشف الدرجات، فكان هذا التوقيع هو آخر ما سطره ذلك القلم الذي أدىٰ للعربية خدمات جليلة، حيث انتقل إلىٰ جوار ربه في العاشرة من مساء ذلك اليوم إثر نوبة مرض حاد لم يعرفه الأطباء إلا بعد وفاته. واهتزت لموته أركان دار العلوم، وحزن عليه كل من عرفه من الإنجليز والهنود المقيمين بإنجلترا وغيرهم، واهتزت أسلاك البرق بنعيه إلىٰ مصر، فقررت وزارة المعارف أن ينقل جسده علىٰ نفقتها، ليدفن في مقابر أسرته، وقد قدرت النفقات بنحو ٣٠٠ جنيه. وبرهنت الوزارة بذلك علىٰ اعترافها بفضل رجالها، ووزعت في صباح يوم ٢٧ يونية ١٩٠٤ نشرة تخبر فيها أنه سيحتفل في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٨ يونية ١٩٠٤ في محطة مصر العمومية، بتشييع جنازة فقيد العلم حسن أفندي توفيق العدل، الذي كان أستاذا للغة العربية بجامعة كامبردج.

وقد انطلقت الجنازة من محطة مصر، وجابت شوارع القاهرة حتىٰ ميدان السيدة زينب حيث أقيمت عليه صلاة الجنازة هناك، وتم دفنه بمقابر الأسرة في السيدة نفيسة. وقد شيعه الوزراء وكبار الموظفين والعلماء، وعلىٰ رأسهم الشيخ الإمام محمد عبده رحمه الله، وكبار رجال الإنجليز في مصر، وأصدقاؤه ورجال السياسة، ومن بينهم مصطفىٰ كامل رحمه الله. ولعل هذه الحفاوة الكبيرة بالجثمان وتشييع الجنازة، كما تشيع جنازة الوزراء والأمراء، كانت مظهرا من مظاهر إجلاله وتقديره والاعتراف بفضله العظيم. حتىٰ لقد قيل إن الإمام محمد عبده حين رأىٰ هذا الاحتفال وبهرته مناظره، قال: يا بختك يا حسن!! وحق له بهذا أن يقول: «حتىٰ علىٰ الموت لا أخلو من الحسد».

ومن مؤلفاته رحمه الله البيداجوجيا «عالم التربية»، ورسائل البشرىٰ في السياحة بألمانيا وسويسرا، ورحلة حسن أفندي توفيق (الرحلة البرلينية)، والحركات الرياضية البدنية، ومرشد العائلات إلىٰ تربية البنين والبنات، وأصول الكلمات العامية، وتاريخ آداب اللغة العربية، وسياسة العقول في تثقيف العقول. رحمه الله وأحسن إليه لقاء ما قدم!

وكانت له أشعار تعرض لموضوعات كثيرة، منها هذه القصيدة التي يذكر فيها آلام الغربة والفراق، والصبر في طلب العلم:

يا مصر مهلا في الوداع وأجْمِلي ... فلغير وصلك عنك لم أتَرَحَّلِ
ودعي فتىٰ عَشِقَ الفضائل يدّرع ... سيفا يضارع ماضي المستقبل
لا أرتضي بسوىٰ هواك وإن لي ... يا مصر قلبا ليس عنك بمنسلي
أمسىٰ وأصبح في العلوم ولم أقل ... يا أيها الليل الطويل ألا انجل

وقد كان رحمه الله من أصحاب الفضيلة في بلاد الغربة، ويبدو أن حسناوات أوروبا كن يناوشنه، يقول:

وأنا امرؤ لا يستميل بي الهوىٰ ... لذوي القدود ولا ذوات المِحْجَل
وإذا رنا ظبي بعادل قَدِّه ... فأرىٰ العدالة أن أكون بِمَعْزِلِ
وإذا انثنت شمس المحاسن أنثني ... عنها، وأذكر شيمتي وتجملي
ولقد شربت من الصبابة أكؤسا ... إن الفضائل حِلْيَةُ المتَجَمِّل
واعتضتها بهوىٰ الفضائل والعلا ... فوجدت منها الشهد شِيبَ بحنظل

حسن توفيق العدل صاحب هذه الرحلة عاد من ألمانيا ليدرس تاريخ الأدب لطلاب دار العلوم، في مذكرة أصبحت نواة لكتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» الذي طبعته نظارة المعارف عام ١٩٠٦. ولعل من أشهر إنجازات هذا الرجل أنه نقل إلينا طريقة تقسيم الأدب العربي إلىٰ عصور عند تدريسه، وفي ذلك يقول أحمد أمين: «أما تقسيم تاريخ الأدب إلىٰ عصور، وترجمة شعراء كل عصر وخصائصه؛ فشيء لم يكن معروفا حتىٰ أتىٰ الأستاذ حسن توفيق العدل -وقد تعلم في ألمانيا- فأدخل العلم علىٰ هذا النمط في مدرسة دار العلوم؛ إذ كان أستاذا فيها؛ مسترشدا بما كتبه الألمان في تدريس أدبهم».

سعدت بهذه الطبعة العتيقة من «رسائل البشرىٰ»، فالتقطتها، وطلبت إلىٰ جولييت استعارتها، فرفضت في أول الأمر؛ بحجة أنها طبعة قديمة ومثل هذه الطبعات غير مسموح بإعارتها، خشية أن يصيبها التلف، ثم إنها ضمن مكتبة ناجي نجيب المهداة، وهي لم تتم فهرستها، ولم تحمل أرقاما مسلسلة بعد. أبديت إصرارا عظيما علىٰ استعارة الكتاب، وقد كان نشأ بيننا من المودة والثقة ما سمح لجولييت بأن تعيره لي بشكل غير رسمي، وقد داعبتها قائلا إن الرجل ﷺ درعمي وأنا درعمي كذلك، وأرىٰ أنني أحق الناس به! ولا خشية مني علىٰ الكتاب لقدمه، فهو مني بمنزلة القلب![1]

فطنت فيما بعد إلىٰ سر خشية جولييت علىٰ الكتاب، ورفضها الأولي إعارته لي، فهي ممن يعتقدون، بل يؤمنون إيمانا جازما بأن سرقة الكتب حلال؛ إذا تمت سرقتها بغية العلم والمعرفة! وأن كثيرا من الطلاب هنا يسرقون الكتب إذا غفلت عينها عنهم! دهشت لذلك، وحاولت إقناعها في شيء من الدعابة بأن السرقة سرقة، ولا سبيل عندي إلىٰ قبول هذه العقيدة الشوهاء! لكنها لم تمتثل! عجبت لها تعمل أمينة المكتبة وهي علىٰ هذه العقيدة المنافية لطبيعة عملها، وأقسمتُ لها أنني لو آمنت بعقيدتك هذه لتركت مكتبة المعهد خاوية علىٰ عروشها بعد أيام قليلة، فضحكت!!

أخذت الكتاب وصعدنا معا إلىٰ الطابق العلوي حيث قاعة الاطلاع .. التقينا صدفة عند بابها بالأستاذة أنجيليكا نويفرت فرحبت بي كثيرا وتهللت، بخفة روحها المعهودة .. كأنها رأت عزيزا للمرة الأولىٰ بعد غياب وشوق عظيم، واحتضنتني وطبعت قبلتين علىٰ جانبي وجهي، فدهشت لذلك كثيرا ولم أتوقعه، أعتقد أن حمرة قد علت وجهي لبقية من خجل ربما كانت هناك. أعلم أن ذلك من العادات الراسخة في أعرافهم. فالقبلات بين الأصدقاء من الرجال والنساء عند كل لقاء أكثر من القبلات بين أبناء الجنس الواحد. يفعلون ذلك بعفوية شديدة، والتقبيل عندهم بين الجنسين آية الصدق والمودة والإخاء! لكنني لم أتوقع أن تقبلني! فأنا رجل شرقي!

---

(١) نبهني بعض الأصدقاء إلىٰ أن كثرة الخوض في أحاديث الكتب والمكتبات يبعث علىٰ الملل ويفل همة القارئ ويفت في عضده!! قد أوافقه علىٰ هذا، فالنفس تميل إلىٰ التسلية والتشويق. لكنني هنا باحث، حياتي بين الكتب ومعها. فاسمحوا لي أن أدخل بكم إلىٰ المكتبة مرة أو مرتين ثم نخرج معا مرة أخرىٰ إلىٰ الشارع حيث الحياة والناس والحكايات المسلية.

قلت في نفسي لا بأس، إنها سيدة كبيرة، سبعينية، من القواعد من النساء، ثم إن زوجي المصون لم ترني! فأبشرتُ بطول السلامة! وقد كان ذلك ديدنها معي لبعض الوقت، ومع كل من تعرف من الناس من الأساتذة والطلاب، وكانت بينها وبينهم مودة، تقبل الجميع في ود صاف وإقبال كبير . .

التقبيل . . نعم إنه شيء غريب . . لكنه هنا ليس بشيء!!

يبدو أن التقبيل من سنن الحياة!! نعم . . إني لأذكر قبلات تطبع علىٰ وجوه الجميع من الكبار والصغار تحت قبة المجلس الأعلىٰ للثقافة المصرية، يوزعها الشعراء والنقاد وكثير من رجال الثقافة المصرية، علىٰ كثير من الحاضرات من المحجبات قبل السافرات! كنت أعجب لذلك كثيرا! نحن في مصر يا سادة . . لنا أعراف وتقاليد . . لكن للثقافة المصرية أعرافها وتقاليدها. طاب مساؤك سيدنا الكريم، الشاعر الفحل أستاذ الأدب العظيم، ما كان أبهجك إذ لم تكتف بقبلات في قاعة المجلس، فحييت بالتقبيل مازحا حسناوات عربيات بارعات الحسن في قاعة الرسائل في قلب دار العلوم عقب إحدىٰ المناقشات! بينما أقف منك غير بعيد مشدوها مبتسما، وقد جدّ صديقي أسامة شفيع في معابثتك عقب فعلك المدهش الغريب![1].

---

(١) تَحَفَّظَ بعض الأصدقاء علىٰ طرقي لموضوع تبادل القبلات بين الرجال والنساء في المحافل العامة، والحق أنني إنما أردت شيئا من الدعابة، للتسلية ودفع الملل! وأعلم أن القلم قد يدفعني إلىٰ ارتياد مناطق لا أريدها، ثم يبالغ فيها كثيرا وقد عصفت بي حمىٰ الكتابة! ثم إن أحسن الشعر أكذبه، وربما يكون أحسن النثر كذلك!

(٨)

خضراء الدمن

أخبرتني الأستاذة نويفرت أنها تود الحديث معي في أمر مهم، فتبعتها إلىٰ مكتبها، فقالت إنها تريد عقد حلقة بحث قرآنية أسبوعية، في التاسعة من صباح كل أربعاء، وأنها تريد الحديث في الحلقة الأولىٰ عن «أمثال القرآن»، وترغب في هذا السياق أن تُعَرِّجَ علىٰ الأمثال العربية. فطلبت إلي إلقاء محاضرة عن الأمثال العربية القديمة في أقدم مصادرها المعروفة، وهو كتاب الأمثال لأبي عبيد .. فأبديت سعادة كبيرة وموافقة أكيدة. وأخبرتها أنني وإن كانت رسالتي للدكتوراه عن الرواية المصرية فإنني مولع بكتب التراث العربي، ولي بالأمثال العربية القديمة شغف عظيم. فتهلل وجهها؛ وسعدت لسرعة موافقتي علىٰ طلبها، وكان قد حضر الدكتور بيتر بوكل أحد مساعديها وهو مدرس بالمعهد حصل علىٰ الدكتوراه في أدب الجاحظ، وانتدب لإلقاء عدة محاضرات في القاهرة، بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، فطلبتْ إليّ الأستاذة كذلك مساعدته في ترجمة محاضراته إلىٰ العربية ومراجعتها قبل إلقائها في مصر، فأبديت موافقتي علىٰ طلبها هذا بالسعادة نفسها التي وافقت بها علىٰ إلقاء محاضرة الأمثال. قرأت سعادة عظيمة في عيني الأستاذة لسرعة استجابتي لما طلبته مني، حتىٰ إنها قالت لي: «أنت خلوق أستاذ متولي ولست متكبرا ولا مغرورا مثل فلان» وذكرت اسم أحد طلابها العرب كنت أعرفه. ثم شكرني الدكتور بيتر وخرج لقضاء بعض شئونه.

عما قليل طرق الباب ودخل علينا فجأة والتر سكوت!

لا لا .. لا تذهب عقولكم بعيدا!! ليس هو .. ليس هو الروائي الأسكتلندي الشهير الذي ملأ الدنيا في القرن الثامن عشر وشغل الناس!! وكيف يكون هو .. لقد مات الرجل منذ أكثر من مائة وثمانين سنة! إنه تشابه أسماء!

والتر سكوت شاب أمريكي من أصل بولندي، طويل القامة، نحيل، له حنجرة قوية، صوته مرتفع دائما، تسمع صوته من بعيد فتعلم بوجوده وإن لم تره .. يشمر البنطلون الجينز عن إحدىٰ ساقيه حتىٰ الركبة، ويترك الأخرىٰ منسدلة .. لا أدري لماذا! واستحييت أن أسأله، وكيف لي أن أتدخل فيما لا يعنيني! أكتفي بالابتسام حين أراه .. فحسب .. يدرس سكوت في المعهد في مرحلة الليسانس، ويعمل مساعدا للأستاذة نويفرت. وهو يتحدث العامية المصرية بمهارة كبيرة، هذا إلىٰ جانب الإنجليزية والألمانية بالطبع. قابلته أول مرة فتعرف إلي وعرف أنني مصري، فرحب بي كثيرا وقال كلمات بالعامية المصرية لا تجدها إلا في حواري شبرا وبولاق الدكرور. بعضها سوقي، وكثير منها قبيح .. يستقبح ذكره، وكأنما أراد الفتىٰ بذلك أن يخبرني بتمكنه من معرفة العربية واللهجة المصرية بخاصة. فتعجبت لذلك وسألته عن مصادر تلك الكلمات، فقال إنه زار مصر مدة من الزمن، تعلم العربية هناك، وكل من صادقهم كانوا من شبرا، فساحوا علىٰ المقاهي وزاروا الغرز وشربوا البانجو والحشيش! لقد ذكر سكوت كلمات لا يجمل بقارئي الجميل أن تقع عينه عليها!

رحبت الأستاذة أنجيليكا بسكوت، وطلبت منه الاشتراك معي في إعداد هذه المحاضرة عن كتاب الأمثال، فأبدىٰ موافقته. ثم عدت إلىٰ البيت وشرعت في إعداد المحاضرة، وطلبت من سكوت أن يطالع كتاب الأمثال كذلك، لنتعاون معا في عرضه ومناقشته .. توقعت أن سكوت سيجد صعوبة كبيرة في فهم لغة الكتاب، فضلا عن نصوص الأمثال نفسها، فأبو عبيد رحمه الله، لم يزر شبرا ولم يكتب بلغة أهلها .. بهذه العبارة داعبتُه حين أرسل إلي إيميلا يعتذر فيه عن المشاركة، لأنه وجد صعوبة كبيرة في استيعاب الكتاب. أعددت محاور المحاضرة وحدي، وفيها عرض لمحتوىٰ الكتاب ومنهجه، وانتقيت بعض النماذج من الأمثال الواردة به لتوضيحها وشرح غريبها وبيان مورد المثل ومضربه. واستعرت كتابا بالألمانية للمستشرق الألماني رودولف زيلهيام Rudolf Sellheim، عن الأمثال العربية القديمة، كانت الأستاذة قد ذكرت اسمه عرضا في سياق الحديث فعلق بذهني. كان الكتاب قديما فراقني قِدَمه وأسعدتني جودة طباعته، صدر عام ١٩٥٤. كنت حديث عهد بالألمانية، فلم أفهم منه شيئا .. لكنني تمكنت من الوقوف علىٰ منهج الكتاب والتقاط بعض أفكاره بنظرة في الفهرس، وتقليب يسير في الصفحات!

ثم سعدت سعادة كبيرة حين هداني البحث عن الأمثال علىٰ الإنترنت إلىٰ أن هذا الكتاب الألماني الذي بين يدي، قد نقل إلىٰ العربية. نقله علم كبير، هو الدكتور رمضان عبد التواب ﷺ، بعنوان «الأمثال العربية القديمة مع عناية خاصة بكتاب الأمثال لأبي عبيد». أفدت من هذه الترجمة إفادة عظيمة، وساعدتني كثيرا في إعداد محاضرتي، ووجدت في نفسي! إذ كيف لم أقف علىٰ خبر هذا الكتاب ونبأ تلك الترجمة من قبل!

ذهبت إلىٰ المعهد في الموعد المحدد للقاء، وقد كان قبل عيد الأضحىٰ بأيام، ظهر كرم الأستاذة في حلقتها بأن دارت فناجين الشاي علىٰ الحاضرين من الطلاب، وكنت معهم، فارتشفت رشفة من الشاي، ثم رشفت أخرىٰ، أبقيتها في فمي، لم أبلعها، وغادرت المكتب مسرعا فألقيتها، عدت فاعتذرت عن ذلك، فقد كنت صائما .. ابتسمت الأستاذة وقالت لا بأس! لكنني رأيت امتعاضا بدا علىٰ أحد الوجوه الحاضرة!! شاب إسرائيلي كنت أعرفه، حضر لكتابة رسالة ماجستير عن الشاعر العراقي المهجري «سركون بولص».

طلبت إلي الأستاذة البدء بإلقاء المحاضرة، فسألت الحضور إن كان من بينهم من يجد صعوبة في فهم العربية، حتىٰ أوضح ما قد يغمض أحيانا بالإنجليزية، فردت الأستاذة بذكاء كبير ترفع من شأن طلابها وقد شعرت في سؤالي بشيء من التلويح بضعف عربيتهم وإن كان -علم الله- غير مقصود: هم جميعا باحثون في القرآن، ولاشك يعرفون العربية بالقدر الذي يمكنهم من فهم ما تقول! بدأت الحديث فعرّفت بأبي عبيد وأبواب كتابه، وشرحت لهم نماذج متعددة للأمثال القديمة مما ورد فيه، وقد طربوا لكثافة بنية الأمثال واكتنازها وفيض دلالتها، وطربوا كذلك لطرافة موارد الأمثال وقصص سوقها للمرة الأولىٰ! استوقفتني الأستاذة أنجيليكا فجأة مستفسرة عن أمثال القرآن! وهل ثم علاقة بينها وبين هذا النمط الذي أحكي لهم عنه، لا شك أنها تعرف فهي أستاذة عظيمة باحثة كبيرة طائرة الصيت وعلىٰ علم كبير، لكنها ربما أرادت أن يقف طلابها علىٰ هذه المسألة. فأوضحت لهم كيف أن بنية المثل في القرآن تختلف عن هذه الأمثال العربية الواردة في كتب الأمثال من حيث طبيعة بنائها وتركيبها ودلالتها، فأمثال القرآن، هي غالبا من باب ضرب المثل، وتقوم علىٰ التشبيه بمفهومه

الاصطلاحي البلاغي أو بدلالته اللغوية العامة، «ألم تر كيف ضرب الله مثلا»، «مثل الذين كفروا»، «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا»، دار حوار علمي مثمر مفيد حول بعض هذه الآيات ومعانيها، حتىٰ إذا جئت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ . . . ما إن شرعت في تلاوة هذه الآية حتىٰ استوقفتني الأستاذة قبل أن أتمها وطرحت فكرة أدهشتني تقول: ألا ترىٰ أن القرآن دائم الحط من شأن الإنسان؟ ولا يرفعه مكانا عليا أبدا؟ فقلت لها وقد أخذني العجب: كيف هذا؟ فقالت في التوراة شُبه الإنسان بكامل هيئته، بشحمه ولحمه، بالشجرة الطيبة؛ إعلاء لشأنه وتقديرا له، فهو أعظم المخلوقات وأشرفها، أما هنا فالقرآن يشبه الكلمة الطيبة فقط، وهي بعض الإنسان أو شيء من صفاته، أو إحدىٰ خصائصه، بالشجرة الطيبة، وليس ذلك للإنسان كاملا. هذه واحدة! ثم انظر إلىٰ قول القرآن: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ . . الإنسان هذا الكائن الجميل الرائع لماذا يكون في خسر بهذا الإطلاق؟ هذه الآية غريبة حقا . . الإنسان أشرف المخلوقات وأنبلها في خسر!، الكلام مؤكد بإن!! كيف لي أن أقبل هذا . . . يا عزيزي القرآن يحط من شأن الإنسان!!

فقلت وقد أخذني العجب من فهم للقرآن أسمعه لأول مرة: إن القرآن -فيما أرىٰ- لم يحط من شأن الإنسان بل رفع قدره، فينبغي ألا نتوقف عند آية سورة العصر منتزعة من سياقها بل ينبغي أن نتم قراءة السورة إلىٰ نهايتها! لنعلم أن الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. ثم لننظر إلىٰ قوله سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي حط من شأن الإنسان في هذا؟ فابتسمت . . ولم ترد . . غير أنها ما تزال تجد في نفسها من آية العصر هذه!!

عللت ذلك لنفسي بأنها ربما تجد أن هذه الآية تنطبق عليها وعلىٰ كثير من الحضور، فهم ليسوا من الذين آمنوا المعنيين في السورة الكريمة، ومن ثم فهم أصحاب الشطر الأول منها. أكد هذا التعليل لي ما جرىٰ بيننا ذات يوم وقد عابثتنا مرة في رمضان إذ قابلتها وبعض الأصدقاء ونحن صيام، وكانت تتناول شيئا من الطعام، فأخفته عنا في طرف ثوبها معتذرة بابتسامة حيية، وقالت بخفة روحها ودعابتها

المعهودة أعتذر إليكم عن الأكل . . فأنتم صائمون . . سامحوني فإنني من الكفار!

استطلعت الأستاذة آراء طلابها الحاضرين فأقروها جميعا علىٰ ما ذهبت إليه!! حتىٰ إن ذلك الطالب الإسرائيلي دانيال استشهد بقول ذكرته في الأمثال التي عرضت لها وهو أن «الناس سواسية كأسنان الحمار»، (هكذا ذكره أبو عبيد ولم يذكر المشط)، فقال: الإنسان ليس في خسر آمن أو لم يؤمن، فالإنسان جميل وكلنا سواسية، واستدل بحديث ينسب إلىٰ النبي ﷺ، وكان مما ناقشته في المحاضرة كذلك مما أورد أبو عبيدة من أمثال، هو قوله: «**إياكم وخضراء الدمن، قيل: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟!، قال: المرأة الحسناء في منبت السوء**»! فهذا في رأيه غير مقبول، لأننا جميعا سواسية، كل المنابت واحدة، سيئة كانت أو طيبة!!

الناس سواسية في أصل الخلقة نعم . . لكنهم يتفاوتون بعد ذلك فيما آتاهم الله من فضله من العلم ومن المكانة ومن الأخلاق . . فلا يستوي الكريم واللئيم، ولا يستوي الجاهل والعالم، ولا يستوي السفيه والحكيم، ولا يستوي الطالب والأستاذ، هل نتساوىٰ نحن الطلاب مع الأستاذة أنجيليكا؟! ألا ترىٰ أي فرق بيننا؟! «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات» أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك! رأيت في هذا الإسرائيلي عقلا منغلقا عن قبول هذه الحقيقة فكففت عن الحوار معه! ورحت أردد في نفسي قول المتنبي:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره … إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وقوله:

وليس يصح في الأذهان شيء … إذا احتاج النهار إلىٰ دليل

وقوله:

وكَمْ من عائِبٍ قوْلًا صَحيحًا … وآفته من الفَهْمِ السّقيمِ

وقول الإمام أبي الحسن التميمي منصور بن إسماعيل:

ما ضر شمس الضحىٰ في الأفق ساطعة … ألا يرىٰ نورها من ليس ذا بصر

كان الموقف غريبا، والشعور غريبا، فلم نعتد مناقشة القرآن والنصوص المقدسة بهذه الطريقة! فهي ليست محل نقد عندنا، لا نتناولها إلا لبيان رفعتها وإعجازها،

لا نتناولها كما نتناول الشعر والرواية نبين فيهما المحاسن والعيوب، لكنهم هنا يفعلون!

أيها القارئ العزيز . . لا يتبادر إلىٰ ذهنك أن الأستاذة نويفرت من غلاة المستشرقين سيئي السمعة عندنا، فهي لا تهاجم القرآن، ولا تحط منه، وكيف يكون ذلك وقد وقفت حياتها التي تجاوزت السبعين عليه، دراسة وبحثا وتفسيرا! لقد سألتها مرة: ألا ترين أن هذه الجلسة القرآنية طويلة جدا، وفي طولها مشقة عليك وعلىٰ طلابك، وكانت تُعقد من التاسعة صباحا حتىٰ الثانية بعد الظهر، فابتسمت وقالت: «القرآن يستحق أستاذ متولي»! شعرت بالخجل إذ مللت جلستها الشائقة وهي بعد صابرة مثابرة!

حلقتها عامرة بالقرآن، يحضرها كثير من الطلاب من بينهم مسلمون من العرب والألمان، مناقشات مثمرة، وتفسيرات عقلية معجبة لا تأباها اللغة وإن خالفت بعض ما تواتر عند المفسرين! لقد سعدت بها كثيرا، حتىٰ إنني تذكرت قول النبي ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»** . . سألت نفسي . . والآن أسألكم: أترىٰ يصح الاستشهاد بهذا الحديث في هذا المقام؟!

انتهىٰ اللقاء . . شكرتني الأستاذة علىٰ المحاضرة الضافية التي أثارت شغبا كثيرا وهو فيما قالت دليل ثرائها! عدت إلىٰ البيت ثم استلقيت أفكر فيما جرىٰ، حضرت إلىٰ ذهني صورة كتاب «أمثال القرآن» لابن حبيب النيسابوري، قرأه وعلق عليه أستاذنا الدكتور زكريا سعيد علي، رحمك الله شيخنا الجليل، لقد أهديتني نسخة منه بيدك، كتبت عليها إهداء رائقا بقلمك الجميل!

(٩)

الجمعة الأخيرة

هون عليك أيها القلم! لقد رفعك القراء الأساتذة والأصدقاء مكانا عليا، تستحقه أو لا تستحقه، أعلم أن هذا السؤال لا يشغلك الآن، فثمة ما هو أجل وأعظم خطرا! لقد رفعوك علىٰ قمة جبل، ليس لك عنها محيد، تشعر بدفء الشمس وقد أثبتوك تحتها دون حجاب، لكن ريحا تعوي وتصفر وبرودة في الأطراف تأخذك، فإما أن تثبت وإما أن تهوي بك الريح في مكان سحيق! أعلم أن رهبة عظيمة أخذتك، فقد أدهشتك آراؤهم، حتىٰ تكاد لا تصدق ما قيل في حق ما سطرت، فكاد يرتج عليك، وتنحبس فيك الكلمات، هون عليك واخرج بهم من هذا المكان الوعر، انج بنفسك واصطحبهم في رحلة ترفيهية بعيدة عن هذه الأجواء التي أوغلت فيها ليومين. أشعر بك ترتعش، تخشىٰ ألا تحقق اليوم ما يرنون إليه من نجاح! لا بأس خذهم في رحلة أخرىٰ إلىٰ منطقة أخرىٰ بعيدة هادئة، بلا عواصف، كي تهدأ نفسك وتستجمع قواك، ثم انطلق مرة أخرىٰ، فإنما الحياة كر وفر! ولن يخذلك الله إن شاء أبدا! ومن يدري . . ربما حققت في هذه الأرض الجديدة شيئا من النجاح!

اليوم أحدثكم عن صديقي كريستيان يونجىٰ . . هل تعرفون المقولة الذائعة «رب أخ لك لم تلده أمك»؟! نعم . . أعلم أنكم تعرفونها، لكنني أردت أن أقول إن صاحبها إنما قالها في صديقي كريستيان يونجىٰ، أو في من هم علىٰ شاكلته من الأصدقاء! إنكم لا تعرفونه، ولذا سأتلو عليكم منه ذكرا!

حين تلقيت رسالة تهنئة من الجهة المانحة بقبول خطة بحثي، وأنني علىٰ موعد مع السفر إلىٰ ألمانيا، لم أكن أصدق نفسي من فرط السعادة، فدخلت إلىٰ صفحة جامعة برلين الحرة، ومنها إلىٰ صفحة معهد الدراسات العربية، وفيها قائمة بأسماء هيئة

التدريس جميعا، وفيها صور شخصية لهم، وبيانات لوسائل الاتصال بهم، الإيميلات وأرقام الهواتف. كتبت رسالة بالإنجليزية عرفت فيها بنفسي وبموضوع بحثي، وشكرت فيها من قبلني منهم لأن أكون هناك وهي الأستاذة فنكلر. أرسلت الرسالة لها، وأرسلتها كذلك في حركة هوجاء وجدتها تعبر عما انتابني من سعادة، إلىٰ كل أعضاء الهيئة!

مضىٰ وقت غير قصير ولم أتلق إلا ردا واحدا، كان من أصغر أعضاء الهيئة سنا ودرجة علمية، شاب اسمه كريستيان يونجىٰ، ثبتت صورته إلىٰ جوار اسمه علىٰ الصفحة، بدا شابا ألمانيا خالصا، أشقر، طويل الشعر، أزرق العينين، شعرت في هيئته ساعتها بميوعة لم أرتح لها! لكن سيرته الذاتية المرفقة، تنبئ بغير ما أنبأت به صورته . . فله علىٰ حداثة سنه عدة مقالات نقدية منشورة، في موضوعات مختلفة من الأدب العربي الحديث، وتحمل عناوين تشي بالجدة وعمق التناول. يكفيك أن تعرف أنه قد سجل رسالته للدكتوراه عن دينامية التعليم والجنس في كتاب «الساق علىٰ الساق فيما هو الفارياق»، لأحمد فارس الشدياق، وهو كتاب وعر المسلك، لا يحسن يخوض غماره إلا ذو حظ من العلم والمعرفة بالعربية عظيم.

كان رده وقودا أضرم نار السعادة التي كادت تخبو لتأخر رد الأستاذة المشرفة. هنأني كريستيان يونجىٰ بحصولي علىٰ هذه المنحة، وأعرب عن سعادته وكل أعضاء هيئة التدريس بقدومي إلىٰ برلين، وأثنىٰ علىٰ فكرة بحثي كثيرا، وقال إن باربرا فنكلر قد أخبرته بها، وأن حوارا حولها قد دار بينه وبينها. وأنهم في انتظار قدومي إلىٰ برلين الماطرة. هكذا يحلو لهم أن يصفوها في رسائلهم! ترىٰ أيرجع ذلك إلىٰ معرفتهم وهم المستعربون، بأن المطر في ثقافتنا رمز الخير والنماء، وهو يوحي بهدهدة المشاعر، وطيب النفس وحسن المقام . . ربما كان الأمر كذلك! وأرجو ألا يحدثني أحد الآن، وقد جرىٰ ذكر المطر، عن المنَخَّل اليَشكري! ذلك الشاعر الجاهلي الذي دخل علىٰ الفتاة الخدر في اليوم المطير . . فعنه قد يأتي حديث طويل . . فقد طالما زار هذه البلاد وضرب أوتاد خيمته بها، وقد اشتد المطر، حتىٰ لقد ظننت أن العام كله له!

حين وصلت إلىٰ برلين، وانتهيت من كورس اللغة الألمانية في سبتمبر، وبدأت أتلمس الطريق إلىٰ المعهد والأساتذة المشرفين، كما أخبرتكم من قبل، كان من بين

من سعيت إلىٰ التواصل معهم هذا الصديق القديم الذي لم أره كريستيان يونجىٰ. وقد بقي في حلقي بعض من حلاوة رده القديم الذي آنس روحي ساعة كانت برلين مني في عالم الغيب!

أرسلت إليه رسالة إلكترونية أشكره فيها علىٰ رده القديم، وأطلب إليه اللقاء والتعارف، فرحب وشكر وأرسل إلي رقم هاتفه، تواصلنا واتفقنا علىٰ لقاء أمام المنزا Mensa في الواحدة ظهرا، والمنزا هذه هي مطعم الجامعة، يفد إليه الطلاب والأساتذة في وسط النهار لتناول الغداء ثم يواصلون عملهم البحثي. هذه المنزا لا يروقني طعامها كثيرا، ولا أفد إليها إلا إذا عضني جوع عظيم، وقد عزت سبل إسكاته بأطعمة أخرىٰ من مكان قريب، حينها .. ألجأ إلىٰ المنزا لجوء المضطر!

يا ليت لنا منزا في جامعتنا، تقدم أصناف طعامنا المصري الشهي للطلاب بأسعار مخفضة، فقد كنا نجوع بين المحاضرات، ثم نصبر حتىٰ نعود إلىٰ المدينة الجامعية عصرا لتناول الغداء، ولولا حلاوة حديث أبي همام وعذب إيقاعه وجمال وقعه في النفوس، ما كنا لنفهم عنه شيئا، وقد عضنا هذا الجوع الكافر!

وقفت أمام المنزا في الساعة المحددة فإذا شاب قادم وسط الزحام، أدركت شيئا من ملامحه، تذكرتها في صورته القديمة، وقلت كأنه هو، كان شابا طويل القامة، رشيقا، ما زال يحتفظ بملامحه الألمانية التي رأيتها، غير أنه تخفف من شعره الطويل، ولما كنت الواقف الوحيد أمام المنزا بين السائرين، ثبت الشاب القادم عينيه في عيني وابتسم، لأنني الوحيد هنا ذو الملامح الشرقية، فقد أدرك ولم يرني من قبل أنه أنا!

أنت محمد؟ وأنت كريستيان؟ أهلا وسهلا .. تصافحنا بحرارة، وقد بدت في مُحيَّاه روح مصرية خالصة، شعرت بها في عينيه، يتحدث بعربية ألمانية، أقصد أنها عربية بلسان أعجمي، لكنها راقتني كثيرا، كنت وطنت نفسي علىٰ الحديث معه بالإنجليزية، لكنه أدهشني بلهجته المصرية العامية (الألمانية)، اصطحبني إلىٰ مقهىٰ داخل الجامعة قريب، شربنا قهوة، تجاذبنا أطراف الحديث، سألني عن مصر بعد الثورة، فله شغف عظيم بمصر، وبأحوالها السياسية والاجتماعية، لا يتابع الأخبار فحسب، وإنما يرصد حركة المجتمع الموارة من بين سطور الروايات، وبخاصة

روايات الكتاب الجدد من أبناء جيل التسعينيات . . فهو يجد لذة عظيمة في الغوص في كتاباتهم . . والوقوف علىٰ ما ترمي إليه رموزهم، وأنماطهم الجديدة في الكتابة. لقد كتب كريستيان رسالته للماجستير عن مصطفىٰ ذكري، وجدت في نفسي من ذلك! من مصطفىٰ ذكري هذا؟! إننا معلقون دائما بأهداب الكبار، نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، ونتوقف غالبا في تناولنا للأدباء عند جيل الستينيات أو السبعينيات علىٰ أحسن تقدير.

فتح كريستيان عيني علىٰ مناطق جديدة في الأدب العربي هي جديرة حقا بالنظر والدراسة، فهؤلاء الكتاب الجدد لا يقلون أهمية عن جيل الرواد والكتاب الكبار . . بل إن لهم ميزة كبيرة تضعهم في صفوف هؤلاء العظماء، ذلك أنهم صنعوا لأنفسهم في الكتابة طريقا غير مطروقة، تتناسب مع مقتضيات هذا العصر القاهر المضطرب غير الرتيب، هي طريقة في الكتابة لا يألفها القارئ العادي، ممن يرجون التسلية والحبكة الروائية الخطية التي تسلم فيها الأحداث بعضها إلىٰ بعض. ومن ثم انصرف عن هذه الكتابات الجديدة وقد نفرت نفسه منها. غَيَّر كريستيان عقيدتي الدرعمية حول هذه القضية شيئا فشيئا، وقد كان محقا، فكل جيل هو ابن زمانه، ولما كان الزمان دائم التغير والتبدل فإن من حق كل جيل أن يعبر عن عصره بالطريقة التي يرىٰ! فغير مقبول أن نحاسب مصطفىٰ ذكري ونورا أمين بمقاييس الفن التي رسمها نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم! أعارني كريستيان بعض إنتاج أبناء هذا الجيل الجديد من الكتاب، حتىٰ مالت نفسي الآن إليهم شيئا كثيرا.

توطدت علاقتي بكريستيان كثيرا، نتناول الغداء معا في المنزا، نشرب القهوة، نناقش الواقع المصري المضطرب الكئيب في أعقاب الثورة، إبان حكم المجلس العسكري . . كريستيان كتب ورقة بحثية أسماها «أدب الكفاية»، مصطلح سكه بنفسه، وهو ماهر جدا في صوغ العبارات المسبوكة وبخاصة بالإنجليزية والألمانية، ساعدني كثيرا في صوغ عناوين رئيسية وفرعية في فصول بحثي، وفي بعض الأوراق الأخرىٰ، يصوغ عنوانا يدهشك، وهو في الوقت ذاته جامع مانع، لا يند عنه شيء من المحتوىٰ ولا يقصر دون الوفاء بالمعنىٰ. لقد خط كريستيان ورقة بحثية عن «أدب الكفاية»، وهومصطلح قريب مما نسميه نحن «أدب الرفض»، ولعله اشتقه من اسم «حركة كفاية»

الذائعة الصيت في المعارضة السياسية. راح في ورقته يبحث عن إرهاصات ثورة يناير في كتابات الجيل الجديد، كتبها بإتقان شديد، وعرضها في بعض المؤتمرات العلمية والندوات فلاقت استحسانا كبيرا.

صدقوني لن آخذكم اليوم إلىٰ حديث الكتب مرة أخرىٰ، فقد أعلم أنكم جميعا أو كثيرا منكم سئمتموه، فما قولكم في أن نذهب معا إلىٰ السينما؟ إنني الآن مع صديقي كريستيان، بعد يوم طويل من العمل والحديث عن الأدب وهموم مصر، وهو شاب ظريف، وللشباب انطلاقاته و«شمخاته» .. فهيا بنا إلىٰ السينما!

ما أكثر الأفلام المعروضة الآن، فهو وقت انعقاد مهرجان برلين السينمائي، أتذكرونه؟ نعم هو .. هو ذلك المهرجان البرليني الكبير الذي قبّل فيه الدكتور محمد البرادعي الممثلة العالمية أنجيلينا جولي، فطار ذكر قبلته هذه بين الناس! ما رأيت قبلة أشهر منها! لله درك أيها البرادعي!

أكان مهرجان برلين السينمائي؟ لالا أعتذر إليكم .. لم يكن هو .. بل كان «مهرجان الفيلم العربي» في برلين، دعاني إليه كريستيان، لمشاهدة أحد الأفلام، تركت له حرية اختيار الفيلم والزمان والمكان، فاختار فيلما أردنيا اسمه «الجمعة الأخيرة»، نذهب إليه مساء السبت في التاسعة، وأخبرني بأن صديقا له تشيكيا، يعرف العربية، سيرافقنا إلىٰ السينما.

تقابلنا هناك في ألكساندر بلاتس، أمام صرح عظيم هو مجمع ضخم لدور السينما، لافتات ساطعة، وإعلانات سينمائية باهرة، وجوه أبطال ونجوم عالميين لا أعرف أكثرها، وكيف أعرفها وأنا المولع بالسينما المصرية الكلاسيكية، فريد شوقي والمليجي، وزكي رستم .. أنصح لكم بمشاهدته في فيلم الفتوة، قد تكون المشاهدة رقم ألف منكم لهذا الفيلم .. لكن لا بأس .. ستسعدون به .. لا تشاهدوه الآن .. فنحن في برلين .. لقد عم المكان سنا يكاد يذهب بالأبصار، قاعات عرض كثيرة، وزحام شديد، دخلنا إلىٰ إحدىٰ هذه القاعات، كانت بلا شك مغطاة مغلقة، فقد اشتد المطر وبدأ البرد يمد يده إلىٰ عظامنا في نوفمبر، مقاعد السينما حمراء وثيرة، كل منها كأنه عرش مصر الذي يتناحرون عليه، تبا لكم .. تعالوا إلىٰ برلين، فما أكثر العروش هنا! دخلت قاعة السينما فشعرت بجلال وهيبة

شديدة، علىٰ أرضيتها فرش غليظ يئط تحت قدمك وكأنه سجادة غزيرة في قصر هارون الرشيد، لم يبدأ العرض بعد، بقيت دقائق قليلة، امتلأت الكراسي بالمشاهدين، إلا أماكن يسيرة، جلس ثلاثتنا في الصف الثالث من الأمام، لا أحب الصفوف الأمامية في السينما، فهي وإن مكنتني من رؤية جيدة . . لكنها ترهق عيني وترج مخي، لكثرة الحركة والنظر يمينا وشمالا لمتابعة حركة الممثلين علىٰ الشاشة الكبيرة . . لا بأس . . أخذنا مقاعدنا، وتعلقت العيون بالشاشة الكبيرة، فلا تسمع حتىٰ همسا! لا أحد هنا ينادي من الخلف علىٰ صاحبه الجالس في الصفوف الأمامية بصوت عال، «يا علي»، تذكرت كيف نادىٰ عادل إمام علىٰ محمود الجندي في قاعة السينما في فيلم «اللعب مع الكبار»، فابتسمت، تذكرت مشاهد كثيرة مشابهة من أفلام أخرىٰ . . ولم تكن مشاهد الأفلام هذه إلا تعبيرا عن واقع رأيته بعيني في عروض أفلام قليلة حضرتها في السينما، منها «فول الصين العظيم»، و«عايز حقي»، وأفلام محمد سعد الأولىٰ!

كان بالقاعة، ساعة دخولنا، بصيص نور يسمح للمشاهدين بالحركة دون تخبط لاتخاذ أماكنهم، دون أن يقودك أحدهم ينير لك الطريق بالبطارية . . تذكرت كيف أنهم في مصر، يطفئون النور تماما، فتبدو القاعة وكأنها قبر، رغم أن العرض لم يبدأ بعد، وهذا ليس لشيء إلا لكي تنقد صاحب المصباح الذي يقودك إلىٰ أحد المقاعد جنيها أو اثنين!

أطفئت أنوار القاعة، وقد انتظم الجمهور في أماكنهم وبدأ العرض، لن أحكي لكم قصة الفيلم، فيمكنكم مشاهدته علىٰ يوتيوب أو شراء الأسطوانة إن كنتم من هواة اقتناء النسخ الأصلية . . وهل في مصر أحد يقتني النسخ الأصلية؟! فيلم مأساوي إلىٰ حد كبير، يصف واقعا مؤلما، ويعرض مشكلات كبرىٰ أهمها الفقر والبطالة، والأمية، والتسرب من التعليم، والمخدرات، وضياع حقوق الإنسان، حتىٰ إن نهاية الفيلم كانت رمزية، تذهب فيها النفس كل مذهب، تصور البطل يسير بين المقابر، يبحث عن قبر عائلته بينها فلم يجده! حتىٰ الموت لا حق لك فيه ولا مكان أيها المواطن العربي المسكين!

فطنت إلىٰ أن اسم الفيلم «الجمعة الأخيرة» مأخوذ من تلك الجمعات والمليونيات الكثيرة التي ابتكرناها وأطلقنا عليها أسماء كثيرة إبان ثورة يناير. جمعة الغضب،

جمعة الرحيل، جمعة الـ . . . . . ، هذه هي «الجمعة الأخيرة»، [جمعة الموت]! أكد لي هذا التفسير أن الفيلم كان يعرض بطريقة عفوية أثناء الأحداث موجز الأخبار من قناة الجزيرة، يتحدث عن خطابات مبارك ورد فعل الشارع المصري تجاهها.

طرب كريستيان كثيرا، لهذا الفيلم الذي يقدم صورة واضحة المعالم للواقع العربي، بعيدا عن الروايات التي غرق فيها حتىٰ أذنيه، وإن كان واقعنا في الروايات ليس بأحسن حالا من هذا الفيلم! كريستيان . . ما رأيك أن تكتب شيئا عن «سينما الكفاية»؟!

انتهىٰ الفيلم، تناقش ثلاثتنا، أنا وكريستيان وصديقه التشيكي، ونحن جلوس في هذه المقاعد الوثيرة -ننتظر خروج الناس من القاعة ليخلو الطريق- حول هذه النهاية. عرض كل منا وجهة نظره، وكان حوارا مثمرا أضفىٰ إلىٰ صورة الفيلم في ذهن كل منا أبعادا جديدة!

ما هذا . . كريستيان! لقد ألهاني شغفك بدراسة واقعنا المرير عن أن أوضح لمن يتابعوننا الآن من القراء، أن أحدا لم يصخب في قاعة السينما في فترة الاستراحة، وقد اشتعلت الأنوار. لم تتعال الأصوات، لم يدخل أحدهم: «حاجة ساقعة ببس»، «لب يا أستاذ، سوداني يا هانم»! لم يحدث شيء من ذلك! شيء واحد لا أعرفه!! حال دون معرفتي له جلوسي في هذا الصف الأمامي الكئيب! ترىٰ ماذا كان يجري في الصف الأخير، لقد عهدته في سينما مترو مرتعا للحب والغرام، يكاد يسيل لعاب الجالسين فيه، لفرط ما يجري بينهم، فيغرق أحذية الجالسين في الصفوف الأمامية.

كان الفيلم قد بدأ مبكرا في الساعة السادسة، وخرجنا من دار السينما في التاسعة تقريبا. اليوم السبت، وغدا عطلتنا الرسمية، ومعنا بعض الوقت يمكننا من السهر دون أن نخشىٰ الاستيقاظ متأخرين . . يمكننا الذهاب إلىٰ أحد المقاهي التىٰ اكتظ بها المكان حول مجمع السينمات، نشرب شيئا ونتجاذب أطراف الحديث. خرجنا من دار السينما، وقد اشتد البرد، وبدأ مطر خفيف يندي وجوهنا، يبلل ملابسنا، ويرطب الأرض من تحت أقدامنا! لمحنا مقهىٰ قريبا فتوجهنا إليه، يلوح علىٰ بعد مائة متر تقريبا، وقد خفتت الإضاءة بداخله، يقع المقهىٰ قريبا من إحدىٰ النواصي عند تقاطع شارعين كبيرين.

علىٰ ناصية الشارع عند التقاطع وقفت فتاة، لفتت نظري، رغما عني، غرابة

ملابسها، الجو برد شديد، وهي تلبس ملابس قصيرة جدا، ومزركشة بألوان متعددة، تشبه في تعدد ألوانها بدلة شعبان عبد الرحيم، غير أن الألوان كانت نسائية زاهية، ماجاء بذكرك الآن يا شعبان؟! ليس لك الآن نصيب يا شعبان! اذهب فإن وجودك لا يناسب الجو النفسي الذي نحن فيه! إنها حسناء في ثوب غريب مريب، تقف تحت المطر وقد نصبت علىٰ رأسها شمسية تقيها الماء وقد بدأ يهطل. كان طريقنا للمقهىٰ، يضطرنا للاقتراب من هذه الفتاة الغريبة، أحول نظري عنها ثم أعيده إليها لا لشيء إلا لغرابة ملابسها، ووقفتها المثيرة، لاحظت الفتاة اختلاف نظري إليها، فنظرت هي الأخرىٰ إلي وابتسمت، تعجبت منها، أتعرفني؟! كان كريستيان قد سبقني بخطوات وأخذه حديث سياسة مولع به دائما مع صديقه التشيكي. رد فعلها تجاه اهتمامي بمنظرها العجيب، قذف في قلبي شيئا من الخوف والقلق، وثارت في نفسي الظنون، أهي ..؟ معقول؟ ربما! وجدتني أسرع الخطو لألحق بصديقيّ، لحقت بهما علىٰ الناصية تماما حيث تقف الفتاة، ما زالت الفتاة تنظر إليّ وتبتسم وتلقي بنظرات ذات مغزىٰ، تعلقت بذراع كريستيان كأنما أعتضد به من هول المفاجأة! كريستيان إنها تنظر إليّ وتبتسم؟ ما هذا؟ أهي ..؟ قال: نعم .. هي كذلك! .. فتاة ليل!

خرب الله بيوتكم! لقد أريتمونا وجوه المومسات، ضحك كريستيان، وقال: يبدو أنك لم تزر شارع الهرم كثيرا، قلت له، بل زرته كثيرا لكنني لم أر شيئا من ذلك، وإن كنت أسمع بعض الحكايات عنه لكن لا أظنها تصل إلىٰ هذا الحد من الفجور!!

دلفنا إلىٰ المقهىٰ، انتحينا جانبا، جلس ثلاثتنا علىٰ طاولة عالية، كتلك التي نراها كثيرا في الأفلام المصرية القديمة، حيث كان يجلس رشدي أباظة كثيرا، وتدور معارك شديدة بين فريد شوقي ومحمود المليجي! غير أن هذا المقهىٰ لا توجد به راقصات ولا شجار! الجو بارد .. ماذا تحب أن تشرب؟ أنت معزوم! قالها كريستيان! شربت كوكاكولا، وشربوا بيرا! دار حوار حول أحوال مصر المضطربة، فلم يكن كريستيان وحده قد شغفه حب مصر، وإنما هذا التشيكي كذلك، فقد زار مصر مرات وعمل مرشدا سياحيا هناك! دار حديث طويل عن نظرية المؤامرة التي آمنتُ بها في ذلك الوقت ورفضها صديقاي بشدة! رأيت أيادي غربية وأمريكية تعبث بأمن مصر، تؤيدها أياد داخلية في ظل حكم العسكر وغيره، (ملحوظة: لم يكن

الدكتور مرسي قد وصل إلىٰ الحكم بعد، حتىٰ يجري ذكره للأصابع التي تعبث بمصر هنا في موضع المقارنة وخلق الفكاهة) . . لقد خالفني الرجلان الرأي، وهدما نظرية المؤامرة، ورأيا أن الغرب أشرف البلاد! ولم لا؟!

خرجنا من المقهىٰ إلىٰ الشارع، بعد أن دفع كريستيان الحساب، لقد كنا تركنا فتاة ليل واحدة علىٰ إحدىٰ النواصي، قبل الدخول إلىٰ المقهىٰ، أما الآن، فقد كثرت البغايا علىٰ كل ناصية من النواصي الأربعة، وقد ارتدين ملابس متشابهة وكأنها يونيفورم. دهشت للمنظر، أين الحياء، أين الرقابة، أين الآداب . . شارع الهرم؟ خرب الله بيتك يا كريستيان، لو رأىٰ الناس في مصر ما يجري هنا لاتخذوا من شارع الهرم مصلىٰ!

ما هذا يا كريستيان أين البوليس؟ ضحك كريستيان وقال: أي بوليس؟ كل فتاة من هؤلاء تحمل ترخيصا رسميا من الدولة، لممارسة هذه المهنة، فهي مهنتها التي تقتات منها، بل إنها تدفع كذلك مبالغ كبيرة من الضرائب للدولة! ضرائب! علىٰ الدعارة . . قال نعم، ومن ثم فهي ملتزمة بأسعار معينة، فلا تبرح مكانها لتنطلق مع أحد الفتيان إلا بعد أن تتفق علىٰ مبلغ يحقق لها أجرها وما تدفعه من ضرائب . . أذهلني كلامه، وأخذتني نوبة من الضحك المر، ودفعني فضول عظيم لمعرفة الأسعار، فهو من تمام معرفة ثقافة هذه البلاد، فسخر كريستيان وقال: «اسألها» . . دفعتُه بكتفي وانصرفنا، وقلت إنك ابن البلد، وإنك وإن لم تجرب لكنك لا شك علىٰ علم بالأسعار! علت ضحكته، وكنا قد وصلنا محطة المترو، وطلب إلي الاقتراح والتخمين! ولما كان اليورو وقتها بثمانية جنيهات، وأنا المصري حديث العهد بالمكان، وقد أشقتني في مصر أسعار الخبز والفاكهة، قلت: ١٠ أو ١٥ يورو . . فصخب كريستيان، وضج بالضحك، وقال لي كعادته حين يدهش لكلامي: «يخرب بيتك . . أنت مجنون» . . شارع الهرم أغلىٰ من ذلك، إن الأسعار هنا لا تقل عن مائة أو مائة وخمسين يورو بحال من الأحوال!

مائة وخمسون أويرو، هيا بنا كريستيان، هيا إلىٰ بيوتنا! إن المرأة في مصر قد تحترف البغاء، لا لشيء إلا لجوع عض صغارها في البيت واعتصر قلبها صراخهم، هيا كريستيان . . وحياتك . . لو كانت جارية حسناء زمن هارون الرشيد لما دفع فيها عربي هذا المبلغ!

(١٠)

تاندم - Tandem

توطدت العلاقة بيني وبين كريستيان يونجىٰ، حتىٰ صرت آنس به في هذه البلاد الغريبة، كما كنت آنس في مصر بأخلاء لي أوفياء . . أستشيره في كل شيء يعرض لي هنا، فلا شك أن أهل مكة أدرىٰ بشعابها، وأهل برلين أيضا!

أردت مواصلة دراسة اللغة الألمانية، وهي لغة صعبة عتية، لا يغنيك في تعلمها شهور طويلة، حتىٰ لقد يروىٰ في صعوبة تعلمها أقوال مأثورة، ومنها قول ريتشارد بورسون Richard Porson (1759-1808): "Life is too short to learn German!" فاستشرته في هذا، فعرض علي طريقين معلومين، لأختار أحدهما، فأما الأول، فهو الالتحاق بإحدىٰ المدارس التي تعلم الألمانية لغير الناطقين بها، كما هو الشأن في مصر، فما أكثر المراكز التي تقوم علىٰ تدريس اللغة العربية للأجانب بها. وقد التحق كريستيان نفسه بأحد هذه المراكز في مصر مدة من الزمن، تعلم فيها الفصحىٰ، والتقط العامية من الشارع. وأما الطريق الآخر، فهو تبادل اللغات، ويسمونه «تاندم» Tandem، ويقصد به أن تَصْحَبَ ألمانية أو ألمانيا، تعلمه العربية، ويعلمك الألمانية! كانت فكرة طريفة منطقية، وإن كنت لم أرها في مصر، قد يكون لها وجود، لكنه فيما بدا لي ليس بهذه الصورة الكبيرة المنتشرة في ألمانيا وبخاصة بين طلاب الجامعة، وقد كثرت أعدادهم، وتباينت جنسياتهم وهوياتهم.

قد يرىٰ البعض شيئا من الغرابة في كلمة «تاندم»، فيسأل عن معناها، أو قد لا يجد غرابة ولا يريد معرفة معناها، ولكني أزعم أن ذلك قد حدث من بعضكم حتىٰ أتيح لنفسي فرصة أن أشرحها لكم، وقد وجدت في نفسي هوىٰ لأخبركم بأصل هذه الكلمة ودلالتها. فهي تعني دراجة ترادفية، أي دراجة لها مقعدان ومحركان يكون

أحدهما خلف الآخر، يركبها شخصان معا، يردف أحدهما الآخر خلفه، ألا يذكركم ذلك بأحاديث نبوية كثيرة، يرويها صحابة كرام، يقول معاذ بن جبل «كنت رديف النبي» وفي حديث «احفظ الله يحفظك» يقول ابن عباس: «كنت خلف النبي». هذه هي الدلالة اللغوية للكلمة، وقيل إنها تعني كذلك عربة يجرها جوادان. فالمعنىٰ ظاهر إذن في السياق الذي نحن بصدد الحديث عنه، يترادف اثنان، لا ليقودا دراجة أو يجرا عربة معا، وإنما من أجل أن يعلّم كل منهما الآخر ما عنده.

أعجبتني الفكرة، وقلت لكريستيان وأنّىٰ لي الآن بهذا الألماني أو تلك الألمانية، فأخبرني بأن الأمر يسير، كل ما عليك هو أن تكتب إعلانا، تشرح فيه مرادك وتترك فيه رقم هاتفك وبريدك الإلكتروني، وتعلقه علىٰ لوحات الإعلانات في أماكن متفرقة، في المبنىٰ الرئيسي للجامعة، وفي معهد الدراسات العربية، وفي معهد الدراسات الإسلامية، وفي كل المظان التي تتوقع أن تظفر فيها بمرادك!

طلبت إلىٰ كريستيان أن يكتب لي هذا الإعلان في صيغة جذابة، فما كان لي أن أكتبه ساعتها بالألمانية خاليا من الأخطاء، فكتبه، ولما أراد أن يضفي عليه شيئا من الفكاهة تجذب القراء أضاف جملة أخذها عني، قال: «معي لن تتعلم العربية فحسب، وإنما ستنعم كذلك بأطباق من المحشي المصري الشهي»! كتبها كريستيان وعلقتها في أماكن مختلفة من الجامعة.

جدير بالذكر أن للإعلانات في الجامعة هنا أماكن مخصصة، ولا أحد ينزعها أو يعبث بها، وكل يبحث فيها عن ضالته، فباحث عن ألماني يتبادل معه اللغة مثلي، وباحث عن مصحح لغوي إنجليزي أو ألماني يراجع له أطروحته، وطالب غريب ضاقت به سبل العيش، فيعرض علىٰ الألمان أن يعلمهم لغته الأم بأجر يسد به رمقه، أو باحث عن فرصة عمل، إلىٰ غير ذلك من الإعلانات.

مضت عدة أيام ولم أتلق أي اتصال بهذا الشأن، كنت أرقب الإعلان من حين لآخر، فأجده مثبتا في مكانه! قررت الالتحاق بمدرسة لتعليم الألمانية للأجانب، وانتظمت فيها، لكنني لا أريد أن أخبركم اليوم بنبأ هذه الكورسات، ففيها حكايات طريفة يطول الحديث عنها. نرجئها إلىٰ وقت قريب، لنواصل حديثنا عن التاندم، فهو عندي أشد طرافة وأكثر ثراء!

فلما لم أتلق أي اتصال، سألت بعض الفتيات في مكتبة المعهد، وكنت أختلف إليها من حين إلىٰ آخر بعد الانتهاء من كورس الألمانية، سألتهن، وقد تعرفت إليهن في حلقات علمية مع الأستاذة نويفرت، عن السر في أن أحدا لم يطلب إلي تبادل اللغة، وقد علقت الإعلان منذ وقت طويل! فضحكت إحداهن، وقالت: لا أظن أنك ستجد طلبك بسهولة!؛ لأن السيد "تاندم" هذا سيء السمعة، ظاهره تَعَلُّم اللغة وباطنه من قبله الفساد، فما من طالب تاندم رجل، إلا ويسعىٰ لإقامة علاقة مع فتاة التاندم التي ظفر بها، فلما شاع ذلك وافتضح أمره، كفت الفتيات عن القيام به مع الرجال، واقتصر التاندم علىٰ الفتيات فيما بينهن، إلا أن تظفر إحداهن برجل حسن السيرة، معروف بين الناس بالصلاح! وهو هنا أندر من الياقوت الأحمر! ولما كنتَ رجلا، فلا تنتظر أن تتصل بك فتاة لهذا السبب الذي ذكرته لك، ولا أخفيك .. لا تنتظر أن يتصل بك رجل كذلك، فكل رجل يطلب التاندم لا شك يبحث عن فتاة!!

أيها القراء الأعزاء: اعلموا أنني والله لم أكن أبحث عن فتاة .. وإنما أردت تعلم اللغة! من صدقني منكم فليتم قراءة ما كتبت، ومن أساء الظن بي، فلينصرف مغضوبا عليه، «مزعولا» منه!

مضىٰ وقت طويل، لا أذكر عدد أيامه أو أسابيعه، حتىٰ وصلتني مكالمة من رجل مسن، ذكر أن عمره سبعون عاما، وأنه قرأ ورقتي ويرغب في تبادل اللغة إن لم أكن قد حصلت علىٰ رفيق، فإن تاريخ الإعلان قديم! أخبرته أنه أول من جبر خاطري واتصل بي! فوافقت والتقينا للمرة الأولىٰ في المعهد، في مكان الاستقبال الذي التقيت فيه بالأستاذة نويفرت للمرة الأولىٰ!

كان رجلا عجوزا بدينا، يلبس علىٰ عينيه نظارة عجيبة، علىٰ عكس نظارات الدنيا كلها، ذلك أن «شنبرها» متصل من خلف رأسه بشكل دائري، وإذا أراد خلعها فصل عدستيها من المفصل الرقيق المستقر فوق أنفه! وللألمان في نظاراتهم شئون!

اتفقنا علىٰ أن يكون اللقاء مرتين أسبوعيا، ولما كان رجلا مسنا، فقد طلب إلي أن تكون إحداهما في بيته وكان قريبا من الجامعة، فقبلت. فسألني هل نلتقي يوم الأحد القادم في العطلة في بيتي فوافقت، فقال انتظر حتىٰ تأذن زوجتي! تعجبت له، يستأذن زوجته في أن يزوره صديق! وقد أبدىٰ لهذا الأمر كبير اهتمام، وقد رأيت علىٰ وجهه

شيئا من الارتباك، أخرج المحمول من جيبه وهاتفها فكلمها بأدب جم، كلاما طويلا، فوافقت علىٰ الزيارة في الثانية عشرة ظهر الأحد، العطلة الرسمية!.

لا أدري لم شعرت أنه يخشىٰ امرأته! ولا يحيد عن أمرها، تذكرت سي السيد للحظات، ثم ابتسمت وقلت: ذاك عهد مضىٰ، ومن منا لا يخاف اليوم من زوجته يا سادة!

توجهت إليه في الموعد المحدد، يسكن في شقة في الدور الرابع من عمارة كبيرة. ضربت الجرس وانفتح الباب، رحب بي وزوجته معه ترحيبا كبيرا. في الشقة أماكن كثيرة تصلح للجلوس، فخيرني فيما بينها، فاخترت حجرة المكتبة وكانت ظاهرة أمامي بابها مفتوح في الصالة، مكتبة عامرة بالكتب، لفت نظري أنها ليست من الخشب، وإنما صنعت من الزجاج ومعدن فضي بهي. أظنها غالية الثمن إلىٰ حد كبير. متقنة الصنع، ليست كمكتبتي الخشبية التي دفعت فيها ذات يوم كل ما أملك! جلسنا، وجاءت امرأته بالجاتوه والشاي، ولاحظت أن بالبيت عددا لا حصر له من الآلات الكاتبة القديمة، تجدها في كل مكان، علىٰ الأرض وعلىٰ الأرفف وعلىٰ المكاتب والمناضد، وفي الدواليب، وبين الكتب! سألتهما عن ذلك، فضحكت امرأته وقالت إنها تهوىٰ جمع الآلات الكاتبة القديمة . . وتلك هواية عندها عظيمة! كنت سمعت عن هواية جمع الطوابع، أما جمع الآلات الكاتبة، فذاك شيء طريف. سألتني بشيء غير قليل من الفخر والزهو: هل تعرف كم عندي من الآلات الكاتبة؟ فقلت، لا! قالت خمن، قلت: خمسين، ستين، فضحكت وقالت، لقد أبعدت يا رجل، إن عندي أربعمائة آلة كاتبة! وضحكت! لاحظت أن الزوج يضحك إذا ضحكت، وإن لم يكن شيء يدعو للضحك، ويصمت إذا صمتت!!

بعد شيء من الكلام والطعام يسير، انصرفت المرأة، وتركتنا لحلقتنا التعليمية المتبادلة، اتفقنا أن يكون اللقاء ساعتين في كل مرة، نقتسمها ساعة وساعة، قلت له: أنت صاحب البيت، ولنبدأ بالعربية! فأبىٰ فداعبته قائلا: إن للشاي والجاتوه حقا، ثم إنني رجل عربي كريم وقد آثرتك علىٰ نفسي! فوافق وضحك، وقام ليحضر ورقا وأقلاما . . دارت عيني في ساحة البيت الذي خلا إلا منه وامرأته العجوز. كان البيت أشبه شيء بمتحف صغير، أثاثه قديم متقن الصنع، لون الخشب يوحي بالقدم

والأصالة، ونقوش الأرابيسك تذكر بالآثار الإسلامية القديمة في المساجد العتيقة. وعلىٰ مقربة منا كان هناك بيانو كبير، رأيت عليه الفنانة صباح تعزف في أحد الأفلام القديمة، وعلىٰ الحوائط لوحات ضخمة مرسومة لفتيات عرايا، وفوق الباب عُلق صليب كبير، وعلىٰ الحوائط كذلك ساعات حائط قديمة كبيرة الحجم مختلفة الأشكال والتصميم، لها بناديل متباينة الأحجام والأنظمة تدق أجراسا مختلفة الأصوات! وعلىٰ المناضد فازات عتيقة، وأطباق زينة قديمة لا أدري أوقّع نابليون عليها أم لا، ولا يوجد عندهم «الواد سيد الشغال» ليكسر أطباقهم! وقد استقر علىٰ مقربة من البيانو ذلك الجهاز القديم الذي يذيع أغاني محمد عبد الوهاب المسجلة علىٰ أسطوانات ضخمة في حجم أرغفة الخبز الفلاحي! نعم هو «فونوغراف» أو «غرامافون»، أظنكم تعرفونه فقد رأيناه كثيرا في الأفلام القديمة! سعدت بهذا البيت المتحف .. لا أدري سر حبي لكل ما هو قديم! حتىٰ الآلات الكاتبة! وإن ضجرت لكثرتها هنا .. فالبيت مثقل بها إلىٰ حد غير معقول![1]

عاد هورست، ومعه الأوراق والأقلام، وأخبرني أن له مدرسا خصوصيا للعربية، من أصل سوري وهو كاتب معروف، لكني لن أخبركم باسمه، لأن هورست أخبرني أنه يكلفه مبلغا كبيرا من المال في كل حصة، ولذا فهو لا يرغب في الاستزادة من حصصه، ويكتفي منه بلقاء واحد في الأسبوع. ومن ثم راقته فكرة التاندم هذه .. فلن تكلفه شيئا!

طلب إلي هورست مساعدته في قراءة نص عربي وترجمته وشرحه، كان هذا واجبه المنزلي الذي كلفه به أستاذه في الجامعة، التقطت منه النص، وكان في ورقة مصورة، فإذا هو فقرة من الفصل الأول من أحد الكتب، عرفت من نمط خطه أنه طبع في «دار المعارف»، فلها نمط خاص من الخط عند الطباعة، لا تغيره من قديم، ولا تخطئه

(١) علق صديقي الدكتور أسامة شفيع علىٰ هذا المقطع يقول: «براعتك في وصف بيت هورست، وعنايتك بذكر تفاصيله أذكرتني ما كنت قرأته من وصف ديستويفسكي لبيت القاتل في رائعته «الجريمة والعقاب»! وسر الحسن في هذا الوصف أنه ليس مقصودا لذاته، وإنما ليبلغ بك المعنىٰ الذي أردت، وهو ما أوجزته بقولك: «البيت المتحف»، وما وراء ذلك من معان يسع المرء أن يحدس بها فيما يخص شخصية صاحبك وامرأته!

العين. سألته عن اسم الكتاب فلم يعرفه، فطلبت إليه أن يأتيني به، فإذا هو «في الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه» للدكتور إبراهيم بيومي مدكور. قرأت الفقرة فأخذتني لغة الرجل ﷺ، وطرافة الفكرة التي عرض لها يقول: «لقد وُضعت الفلسفة الإسلامية موضع الشك زمنا، فأنكرها قوم وسلم بها آخرون، وكانت موجة الشك فيها طاغية طوال القرن التاسع عشر، فَظُنّ -في تحامل ظاهر- أن تعاليم الإسلام تتنافىٰ مع البحث الحر والنظر الطليق، وأنها تبعا لهذا لم تأخذ بيد العلم، ولم تنهض بالفلسفة، ولم تنتج إلا انحلالا موغلا، واستبدادا ليس له مدىٰ، في حين أن المسيحية كانت مهد الحرية، ومنبت النظم النيابية، وقد صانت ذخائر الفنون والآداب، وبعثت العلوم بعثا قويا، ومهدت للفلسفة الحديثة وغذتها».

عفوا أيها السادة، لقد كاد قلمي، بنقل هذه الفقرة الفلسفية، يجر علي سخطكم، وإن كنت أرىٰ رجالا هناك قد أخذتهم فكرتها. إنما أردنا التسلية والتعرف علىٰ ما جرىٰ، فإذا به يأخذنا إلىٰ نقل أفكار فلسفية عميقة تثير نقاشات طويلة وجدلا واسعا، لا شأن لنا به الآن. فمن شاء منكم فليراجع الكتاب، فهو كتاب معجب لغة وفكرا!

توطدت علاقتي بهورست والتقينا كثيرا، فله شغف عظيم بالثقافة العربية، وإن كان لا يحسن اللغة العربية، لكنه قرأ واطلع عليها بالألمانية والإنجليزية، فله إلمام كبير بالتاريخ الإسلامي وحضارته، ودارت بيننا حوارات طويلة، أخبرني خلالها أنه رجل لاديني، وما أكثر اللادينيين هنا! يستمتع بحياته، ولا يعبأ بالموت، فقد لا يأتي، وإن جاء فلا شيء بعده! فلننعم بحياتنا! كانت هذه فلسفته، في الوقت الذي كانت فيه زوجته سيدة مسيحية متدينة، تتردد علىٰ الكنيسة كثيرا لأداء الصلوات والطقوس.

أخبرني أن كل صاحب دين عليه أن يدفع ضريبة الدين للدولة، لترعىٰ بها الكنائس والمعابد. إنه لا ديني ليس لأنه لا يريد أن يدفع الضريبة، وإنما هي عقيدة تبناها بعد فكر وروية. وأخبرني كذلك أنه لن يموت! فضحكت وقلت له بل ستموت! فرفض الفكرة تماما، وقال مبتسما: أنت تموت . . أما أنا فلا! فضحكت منه! فأخبرني أنه قد مات مرة منذ سنين، ولن يموت مرة أخرىٰ، ثم قام فكشف لي عن صدره، وكان

قد أجريت له عملية قلب مفتوح مريعة، قال إنه مات فيها لمدة يوم ونصف، ولن يموت بعدها أبدا!

تسألونني المزيد عن السيد هورست؟! أقول لكم: إني سمعت الديك صاح! وما سيأتي ذكره .. ليس من الكلام المباح! وفي حلقة قادمة .. سأتلو عليكم منه ذكرا!

(١١)

«كلب مفقود!» Vermisst!

نواصل اليوم يا سادة حديثنا عن هذا الشيخ البرليني الظريف . . هورست!

لفتني ذات مرة وكنت في الطريق إليه، إعلان صغير علق في مكان بارز في ميدان Hohenzollernplatz، فيه صورة كلب، وعنوانه Vermisst! «مفقود!» تعلن فيه سيدة، يبدو أنها سيدة، عرفت ذلك من رسم خطها الأنيق، فهو يشبه خط بيرجت فولر Birgit Wöhler أستاذة اللغة الألمانية التي تعلمت منها الكثير، وربما حدثتكم عنها لاحقا، تعلن السيدة فيه عن كلب لها سُرِق، ولمن جاء به حمل بعير.

تقول إن الكلب سرقه راكب دراجة، اختطفه صباح يوم ١٤/٦/٢٠١٣ من أمام محل «ميرا سكندهاند» Mira Secondhand في شارع أولاند Uhlandstrasse. وأضافت أن الكلب مريض وهو بحاجة ماسة إلىٰ الدواء، تسأل الناس المساعدة في البحث عنه والعثور عليه، ورصدت لمن يأتيها به مكافأة سخية قدرها ٧٠٠ يورو. أثار الإعلان في نفسي شيئا من السخرية وغير قليل من الشفقة[١].

فأما السخرية فمعلوم لماذا هي! وأما الشفقة فلحال كلاب مصر وأهلها. فلا كلاب ضالة هنا أصابها الجرب، ولا بطون جائعة! لندع الكلاب الآن فليس

---

(١) علق الدكتور أيمن عيسىٰ يقول: «شفقتهم علىٰ الحيوان ليست خالصة لوجه الله والإنسانية وإنما هي في إطار المنفعة. فهؤلاء يعانون خواء ووحدة واغترابا شديدا يدفعهم إلىٰ مصادقة الحيوان والأحجار بل إلىٰ إقامة علاقات شاذة معها بدلا من صداقة الإنسان. أما الرفق الحق بالحيوان فتأمله هنا عن عبد الله بن مسعود، ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما قال: فجاءت الحمرة إلىٰ رسول الله ﷺ وهي تصيح فقال النبي ﷺ: «من فجع هذه بفرخيها؟» قال: فقلنا: نحن. قال: «فردوهما». وروي أن رجلا قال يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها -أو قال إني لأرحم الشاة أن أذبحها- فقال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله».

الوقت وقتها، فإن لها حديثا آخر قد يأتي عما قريب! إذ إن للألمان بالكلاب كلفا وعناية تفوق عناية الأم برضيعها، حتىٰ إنك تجد الألماني، وقد اشتد البرد، قد نعل كلبه أربعة خفاف ملونة تخطف الألباب لفرط جمالها وبهائها، ويكسوه صدارا رائعا أو جاكتا أنيقا صنع من أجله يقيه البرد وبأس الشتاء . . الكلب -أعزكم الله- الذي إذا ولغ في إناء أحدكم غسله سبع مرات إحداهن بالتراب، تجد الألماني يُرَبِّتُ علىٰ ظهره ويمسح علىٰ رأسه، ولا يَتَوَرَّع أن يقبل فمه، بل ربما لعق لسانه وهو يُطْعِمُه بفمه كِسْرَةَ خُبْزٍ أو قطعة لحم. كنا نركب المترو في الطريق لصلاة الجمعة، وقد كثرت الكلاب فيه، فإذا تأففتَ وأبديتَ انزعاجك منها خشية أن تلمسك فتنقض وضوءك، ضجر منك الألماني لصنيعك وغضب عليك ولعنك . . تقرأ كل ذلك وأكثر منه في تعبيرات وجهه! وإذا ما ابتسمت لكلبه تهلل لك وانتشىٰ! الكلب عندهم له ثياب تحمي جسده، وله خفاف تقي أقدامه البرد في الشتاء، الكلب هنا إذا مرض يعاد، وإن شفي يحتفل بشفائه، وإن مات يعزىٰ فيه! وإن ضل عن صاحبه أو مات عنه مالكه؛ فإن الدولة قد اتخذت للكلب الضال بيتا يُؤْويه! رحم الله الشيخ الإمام أبا بكر محمدا بن خلف بن المرزبان، حين صنف كتابا أسماه «فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب» تُرىٰ هل صنفه ﷺ في فضل كلاب الألمان! لأننا لم نعد نرىٰ لكلاب العربان فضلا! ولذا لن أحدثكم عن كلاب مصر وضلالها، وأكلها الرمم ونتنها، بل كيف أنها تُسَمّم وتضرب بالرصاص! رحماك يا رب بكلاب مصر وأهلها! هل رأيتم عبث الأطفال بالكلاب في بلادنا في موسم التزاوج، حين يتصل الذكر بالأنثىٰ اتصالا لا يرجىٰ انفصاله، فيوسعهما الأطفال ضربا وجلدا ويطوفون بهما شوارع القرية إلىٰ أن يقضي الله أمرا كان مفعولا! ما هذا . . ما دفع بنا إلىٰ هنا . . ليس الوقت وقت حديث عن الكلاب . . لندعها إذن . . هيا بنا نسرع إلىٰ الشيخ البرليني هورست Horst Kippe، فالرجل في الانتظار!

دخلت عليه، فسلم وسلمت، ثم ذكرت له ما كان من أمر الكلب المسروق، وكنت قد التقطت للإعلان وفيه الكلب صورة بكاميرا اشتريتها حديثا، فسخر من الإعلان سخريتي منه، وقال إن المبلغ المعروض كبير، يبدو أن لهذا الكلب عند صاحبته منزلة كبيرة، يبدو أنه كل أهلها في هذه الدنيا . . وكثير من النساء هنا كذلك، لا أهل

ولا ولد! إنه كلب عزيز غال! يبدو أنها قضت معه سنوات طوالا! وما أصعب الفراق في ظروف كهذه! ولذا رصدت لمن يأتيها به هذه الجائزة الكبيرة، ما رأيك يا صديقي! هيا بنا نَجِدّ في طلبه، فنظفر إن وجدناه بالجائزة! أتهزل يا رجل! فضحك وضحكت وشرعنا في الدرس!

كان هورست قد التحق بمعهد الدراسات العربية لتعلم اللغة، وقد كان الكتاب المقرر سعوديا، كثر فيه الحديث وطال عن أركان الإسلام، وذكر العبادات والحج والوضوء والصلوات! وليس للرجل بهذه الأمور كلها حاجة، وقد شكا لي مُرَّ الشكوىٰ من محتوىٰ الكتاب، فالكتاب يخبره كيف يتوضأ فيغسل اليدين ثلاثا، مرة إلىٰ الرسغ وأخرىٰ إلىٰ المرفقين، والوجه ثلاثا، ويطوف بالبيت سبعا، ويسعىٰ بين الجبلين سبعا، و .... و ... لقد ضجر الرجل ومل وشكا! أنا لا أتوضأ ولا أصلي ولا أحج فما حاجتي إلىٰ كل هذه الأشياء! أريد تعلم العربية لا الإسلام! فأشفقت عليه مما يعانيه! وأهديته كتابا كان معي عنوانه «تعليم اللغة العربية لغير العرب» للدكتور أحمد شلبي رحمه الله! فيه قصص قصيرة طريفة من التاريخ الإسلامي وحياة الصحابة والتابعين، اختارها الشيخ رحمه الله بعناية! ولا ذكر فيها للوضوء ولا للحج والعمرة! أهديته إياه عسىٰ أن تأنس نفسه وتهدأ فورته!

تناولت معه في هذا اللقاء نصوصا عدة من هذا الكتاب تحكي عن عدل عمر وفضل أبي بكر وبطش الحجاج، وحدث أن تكلمنا عن نص يذكر ما كان من سيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهما حين أرادا أن يعلِّما شيخا كبيرا الوضوء، وكان لا يحسنه، من غير ما إساءة إليه، فابتكرا حيلة ليعلماه، فطلبا إليه أن يقوم بينهما حَكَمًا، أيهما يحسن الوضوء وأيهما لا يحسنه، فلما أحسنا الوضوء جميعا، فطن الشيخ إلىٰ جهله، وتعلم منهما الوضوء، وأدرك ذكاء حيلتهما وشكرهما لرفقهما وحسن أدبهما!

ذكرتُ ذلك للشيخ البرليني، وطلبت إليه أن ينظر إلىٰ رفق الصّبيّين بالشيخ الذي لا يحسن الوضوء، ودماثة خلقهما معه، وكيف أن صنيعهما هذا صار مضرب المثل في حسن الأدب!

سمع الشيخ حديثي فمصمص شفتيه، وأعرض ونأىٰ بجانبه، وقال: أي أدب في هذا! وحياة رأسك إنه لمضرب المثل في سوء الأدب! لقد خدعاه وسلحا عليه واستهزآ به بحيلتهما هذه! إني لا أرىٰ في صنيعهما شيئا من الأدب! بل هو وربك قلة الأدب!! صدمت لحديث الرجل! لا يقيم لمقدساتنا وزنا في الحديث، وتذكرت ذلك الإسرائيلي الذي رفض حديث خضراء الدمن!

لقد أخطأتُ خطأ فادحا حين أهديتك هذا الكتاب أيها الرجل الغريب! (ياللك من شنقيط!) ليتني تركتك تستذكر كُنْهَ الوضوء ساخطا عليه، وتحصي تائها ناقما مرات الطواف والسعي! ولو كان الأمر بيدي لجعلت السعي لك ألفا بين جبلين في تهامة بينهما مسيرة سنة!

(١٢)

المقامة الحيزبونية

قال لي الشيخ البرليني ذات مرة، وقد تعددت لقاءاتنا، وسعد بطريقتي في الشرح والتوضيح، إنه يفكر في الاستغناء عن معلمه الخصوصي، ويكتفي بحلقات التاندم التي نعقدها معا، فنهيته عن ذلك لأن هذا المعلم ربما كان بحاجة إلىٰ أجر هذه اللقاءات، ثم إنني قد تشغلني عما قليل بعض الشواغل العلمية فأنصرف عن لقائه، أو قد نلتقي علىٰ فترات متباعدة، لا تبل أوامه، ولا تروي ظمأه للعربية، فامتثل الرجل لما أقول وأبقىٰ علىٰ أستاذه!

لقد بلغ من سعادة هذا الشيخ البرليني بطريقتي في تعليمه، وقد توثقت عرىٰ العلاقة بيننا، أن وشىٰ لي بزوجته! قال إنه حين أخبرها بأنه عثر علىٰ شاب مصري يتبادل معه اللغة، قالت له وما أدراك به؟ لعله ضعيف لا يحسن تعليم لغته فتلقي بنفسك معه في بحر من الأغلاط كبير، دون أن تدري! فقال لها سنلتقي مرة أو مرتين، ننظر بعدها، أماهرٌ هو بالعربية أم أنه من الخائبين. فسخرتْ منه زوجته، وسفهت رأيه وقالت له: تحكم عليه! من أنت في العربية حتىٰ تدرك علمه بها من جهله! إنك ما زلت في العربية كمن يرفل في قماطه! من أنت يارجل، إنك لا تميز فيها التمرة من البعرة. وقالت كلاما كثيرا من هذا. عافىٰ الله مسامع القارئين!

رثيت لحال الرجل! فما أقسىٰ الحياة علىٰ رجل كريم النفس تتسلط عليه امرأة تعنف به وتقسو عليه! وتجعله يمشي يتلفت حوله، تبا لكل امرأة عفية! تقتل زوجها في كل يوم مائة مرة! وتسلقه أمام الناس بلسان حاد، دونما وازع من دين يردع أو ضمير يصفع!

الحقيقة أنني لاحظت ذلك منذ أول يوم تعرفت فيه إلىٰ هورست! زرته أول مرة يوم

الأحد، ولم أزره يوم الأحد مرة أخرىٰ! أتدرون لماذا؟ لأن أوامر عليا صدرت إليه من القيادة بأن الأحد يوم الإجازة وغير مسموح لك بلقاء أحد فيه، فأنت في هذا اليوم ملك لي! تتفرغ لي . . أصنع بك ما أشاء! تحادثني وأحادثك! تلاعبني وألاعبك! تعابثني وأعابثك! نخرج معا ليلا لحفل راقص! نلهو ونلعب . . نشرب ونسكر! أهذا كثير علىٰ زوجتك الحبيبة في يوم عطلتها!

لقد طلبَتْ إليه ألا نلتقي معا في بيتهما أبدا إلا في أوقات عملها، وهي خارج البيت، تعمل مديرة لإحدىٰ مدارس تعليم الألمانية للأجانب! علىٰ أن يكون ذلك اللقاء في الصباح قبل أن تسطع شمسها المشرقة في البيت بعد العصر وقد عادت من العمل! لقد لاحظت في لقاءاتنا أن الرجل ينتفض إذا ما رن جرس التليفون . . تتصل به تطمئن علىٰ حاله! فيهرع للرد عليها . . الرجل بالمعاش . . فقد ترك العمل بجمرك المطار منذ وقت بعيد، يرعىٰ مصالح البيت، يشتري الخضروات والخبز والفاكهة، ويعجن ويخبز! نعم يعجن ويخبز . . لا تذهب بكم العقول بعيدا . . لا فرن هنا ولا غاز ولا حطب! إن هي إلا آلة صغيرة تعجن رغيفين أحدهما له والآخر لزوجته، ينضجان في فرن كهربي صغير معد لذلك! ما أجمل حياة الألمان! لكل شيء آلة! إنهم لا يحتاجون إلىٰ الغاز، فلا أنابيب عندهم تنفد فيضجرون! ولا أرياف يتكالب الناس فيها علىٰ أعواد الحطب، يبكرون فيجمعون!

كنا نلتقي في الثانية عشرة ظهرا، نقضي ساعتين معا نروح ونغدو فيهما بين العربية والألمانية، وأغادر قبل مجيء الزوجة، ولما اطردت اللقاءات لم أعد بحاجة إلىٰ أن أهاتفه قبل كل موعد للتأكيد، إلا أن يكون أحدنا قد أصابه عارض مرض أو عمل فيعتذر عن اللقاء!

في إحدىٰ المرات ذهبت إليه في موعدنا، ولما كنت علىٰ بعد مترات قليلة من بيته، اتصل بي يعتذر عن اللقاء! فانزعجت وسألته عن السبب، فارتبك واعتذر وقال إن زوجته تركت عملها اليوم بالمدرسة فجأة وعادت إلىٰ البيت مبكرا لعارض ملل أصابها! وهي الآن هنا! وأنت تعرف . . . . تعرف كل شيء!

قبلت كلامه كاظما غيظي، وقدرت موقفه علىٰ مضض شديد، وقفلت راجعا إلىٰ البيت؛ لكن نارا اشتعلت في أم رأسي! أنا آتيك إلىٰ بيتك! وأنت تعتذر لسبب واه غير

مقبول! تبا لك ولزوجك! سلط الله عليها شيطانا يخرجها من الجنة فتشقىٰ!

عدت إلىٰ البيت فأمسكت بالقلم، وأقسمت لأكتبن في هذه الزوجة الباغية شيئا يصير في الناس مثلا، ولأجعلنها وزوجها لغيرهما من الناس آية! فكتبت مقامة أطلقت عليها «المقامة الحيزبونية»! وليسمح لي بديع الزمان بهذا، فإنما نحن أبناؤه، وكم تعلمنا منه، وليغفر لنا إن قصرنا عنه ولم نبلغ شأوه! .. قلت فيها:

المقامة الحيزبونية

في ذكر انكسار ألماني تحت جبروت ألمانية

نعوذ بالله -معاشر الرجال- من كيد النساء ومكرهن، ونستجير به -سبحانه- من سطوتهن وبطشهن، ونسأله العافية من قهرهن وقتلهن. فما علمت أقسىٰ علىٰ نفس الكريم -بعد الرق- من أن تذله امرأة، تحصي عليه أنفاسه، فإذا هو خرج من البيت للراحة كانت عليه عساسة، وإذا ما عاد تَشَمَّمَتْ عن عطر النساء لباسَه، وإن صدق حَدْسُها فيه أَبْلَتْ علىٰ رأسه مداسه!

وقد كنت ظننت ذلك والله عادة مصرية، فإذا هي في بنات حوا فطرة وسجية، ذلك أنني حين نزلت برلين، وتعرفت بها إلىٰ بعض الرجال الطيبين، بهرني ما رأيته من حسن أخلاقهم، وما وقفت عليه من جميل صفاتهم، حتىٰ إن أحدهم ليضرب أكباد الإبل في طريق المروءة فيبلغ منتهاه، ويكر هائجا في ميدان الشجاعة فيقول عنتر: ياه! ما أقواه!. حتىٰ إذا استوىٰ أحدهم واقفا أمام امرأته، خارت قواه وانكفأ علىٰ منسأته. فتأخذ اللعينة في صفعه علىٰ أليتيه، وتلطم الخدين منه وتقرص وجنتيه، فلا تتركه حتىٰ تلين عظامه، ويشرم الشَّفَةَ من شدة الجَبْذِ خطامُه، فيأخذ الرجلَ الحياء، ويرجو أن لو كان ساعتها محض هواء، أو كان في بركة آسنة قطرة ماء، ويتمتم بكلام صعب لا يُنال: هلا حفظت هيبتي أمام الرجال؟ فتجيب تلك الحيزبون، ميِّتَة الوجه كالليمون: الرجال؟ ومتىٰ كنت معدودا فيهم؟ أتظنك نلت من صفاتهم إلا مخاصيهم! قُبِّحْت من هِرٍّ سقيم، لا يعدل المعوج ولا يُقيم، فيستحيل الفارس عندها ناقة حبلىٰ فيجثو علىٰ ركبتيه، ويستمر الصفع مطرا علىٰ مؤخرته وعلىٰ قدميه، وهي لا تقبل فيه شفاعة الشافعين، ودبر أذنها كل لوم اللائمين![1].

---

(١) لما وصلت أخبار هذه المقامة إلىٰ أرض مصر رجوت السلامة، فقد رد بعض أهلها علي بمقامة قدمني =

ولما كان الرجل قليل الحيلة، علىٰ هذه الحال التي رأيتم، فقد تبنىٰ نظريات في الحياة لا حول لها ولا سند ولا قوة! سأنبئكم بتفصيلها، وأرجو أن تستطيعوا معي صبرا!

علمت أن هذا الرجل تزوج تلك المرأة الحيزبون، بعد زواجها الأول من رجل رزقت منه ببنات. ولم ينجب صاحبنا هذا منها شيئا! ولم يُرِدْ! فهو يحب الاستمتاع بحياته بلا منغصات، منغصات!! لله أنت يا رجل لقد أضحكتني! وهل هناك حياة أشد كدرا من هذه! لقد كبرت بنات زوجته في حجره . . فكن له بنات وكان لهن أبا!

في إحدىٰ جلساتنا دار حوار بيني وبينه، عن الإنجاب، وحب الناس إنجاب

= فيها إلىٰ قاضية مصرية، حكمت علي بالسجن وأحكام أخرىٰ عتيّة، فدفعتُ عن نفسي من غير صبر ولا روية:

- يا سيادة القاضية: تلك إذن ضربة قاضية، دعيني أدع ناديه، ولا تدعي الزبانية، إنني أطلب الدفاع، فلست من قوم رعاع، حتىٰ أوسر أو أباع.

- قل ما شئت ولا تُطِل، فإنا لا نحب العطَل، وما أراك إلا تبغي المَطَل!

- يا أعدل الناس، كفي عني أيادي الحراس، فهذا الذي وشىٰ وسواس خناس، والنسا عندي، ورب الكعبة، أغلىٰ من الماس. إن ما جرىٰ لم يكن خوضا في الحكومات، ولست أرىٰ فيه كما رأين إهانة للذات، ألم تعلمي أنني رجل مزواج، وأنَّي يُهينُ المرأة من بيته من زجاج؟!

يا سيادة القاضية: إنني لا صبر لي علىٰ فرقة الزوجات، إنني أحبهن كحب الذات، وَوَدِدْتُ لو اجتمع تحتي منهن المئات!

يا سيادة القاضية: إن عشقي للنساء شديد، معهن أبدأ وأعيد، كجهنم تقول هل من مزيد، إنني في محرابهن مريد، وفيهن جهادي وأي جهاد غيرهن أريد؛ ألم تسمعي قول جميل: «كل قتيل بينهن شهيد»!

يا سيادة القاضية: إنني أرْفَقُ الناس بالقوارير، أحبهن في البر والبحر والجو، وفوق السَّدير، لكنني أكره منهن من كانت «غفير»، تقتل زوجها وهو لا يظلمها النقير، ألم تعلمي أنهن يكفرن العشير، تصفع القاسية بعلها كأنه عبد حقير، وهو مسكين لا يملك القطمير. أما أنت يا سيادة القاضية، فما أراك عاتية، إن أنت إلا غانية! إن لك وجها هو بدر الصباح، سبحانك ربي فالق الإصباح! إن رمت سجني فاجعليني معك، فالسجن معك براح، وأي سجن أنت فيه في العشية والرواح! هل تراني بعد هذا أطلب السماح؟!

- قالت القاضية وقد سال لعابها، ولمع من بين الثنايا رُضابها، إنك معسول الكلام، تُحسنُ تَرْفَعُ الملام، وقد طلبتُ لك شفاعة المدام، فقالت: إنه طيب القلب، إنه رجل بقلب غلام. فعد إليها لتهنأ يا بدر التمام.

الذكر؛ لأنه رفع لذكرهم بعد الموت، وذكرت له كيف أن هذه الثقافة مسيطرة علىٰ عقولنا في مصر مطبقة عليها إطباق الثمرة علىٰ النواة! فذكر أن ذلك سائد هنا أيضا في هذه البلاد، لكنه يرىٰ في هذا الأمر رأيا لم يسبق إليه! فقلت هات ما عندك يا أخا العرب! عفوا يا أخا العجم . . بل يا أخا الألمان!

فتنحنح الرجل وهز رأسه، ثم شهق وزفر، وشرع يقول: اعلم يا صديقي . . أنه لا ينجب الذكور إلا الرجل الضعيفة شخصيته، المنسحقة تحت وطأة امرأته! فمثل هذا الرجل تهبه الطبيعة ذكورا يستعين بهم علىٰ بطش زوجته به وقهرها له، ولا ينجب الإناث إلا الرجل القوي، المهزولة امرأته المنكسرة تحته! فكأنما تريد الطبيعة أن تجبر بهن كسرها تحت وطأة هذا الزوج العاتي! فالمسألة كلها قائمة علىٰ خلق التوازن في هذه الحياة . . ألا تصدقني! فصفقت له استغرابا وطربا وسخرية!

فقال علىٰ رسلك أيها الفتىٰ المصري! ألك شيء من الولد؟! قلت: ابنتان! فقال: وهذا دليل قوتك، وشدة بأسك وسطوتك! حتىٰ إن امرأتك لتهابك، وتكاد تفري يديها فركا، أمام مهجعك، خوفا، قبل أن تطرق عليك بابك!

قلت له علىٰ رسلك أيها الشيخ البرليني، لقد جئت بكلام، ما سمعنا به في آبائنا الأولين! قال دعك من الأولين، وكن مع الآخرين، وانظر إلي، ألم تر أن لي ابنتين! قلت هما ابنتا زوجتك، قال: بل هما ابنتاي لأنهما، بعد زواجي بأمهما، حملتا اسمي! قلت هات ما عندك! قال: (هما عندي وفق نظريتي . . . آية بطشي وظلمي وسطوتي!) فقلت: صلاة النبي أحسن!

لن أطيل في هذا الحديث أكثر من هذا، فقد شعرت بالرجل الآن لقسوتي عليه يتململ في مضجعه، وكأنه جواد جُرح فأُمْسك عن الكر وبات ينزف في مرتعه! لنترك الآن هذه المسألة، ولنترك السجع أيضا والبلبلة!

(١٣)

«القلب يعشق كل جميل»

Das Herz liebt alles Schöne

وجدت في نفسي من الشيخ البرليني لبعض الوقت، بسبب ما كان منه ومن زوجته، لكنني لم ألبث طويلا حتىٰ عادت مياه الصداقة بيننا إلىٰ مجراها، فهو لا شك رجل ظريف، وأنا أحب الظرفاء! عدت إلىٰ زيارته في بيته بعد أن اعتذر عما كان من زوجته، وكيف لا أقبل اعتذاره، لقد رأيت كثيرا من سطوة النساء وبطشهن بالرجال، ما أقسىٰ أن تكون المرأة غالبة والزوج مغلوب علىٰ أمره! إنني اليوم ألتمس العذر لكل الرجال!

حدث أن هاتفني صباح يوم الثلاثاء يعتذر عن لقائنا، ويطلب إلي أن نرجئه إلىٰ الغد لأن صديقا له توفي، وعليه القيام بواجب العزاء. عزيته في وفاة صديقه ووافقت علىٰ اللقاء غدا، فما كان لي أن أرد طلبه، وقد مات صديقه وغلبه الحزن عليه! فلما كان الغد ذهبت إليه، وشددت علىٰ يديه، وسألته عن صديقه الذي مات، وكيف كان حاله معه، وسألته كذلك عن مراسم الوفاة والدفن، فقد كنت رأيت مقابر كثيرة في أماكن مختلفة من برلين، وكأنها الجنان، تجثم القبور مفعمة بالحياة بين أشجار يانعة، وتعلوها خضرة ندية، لو دفن فيها مصري، بعيدا عن مقابرنا الموحشة، لعادت إليه الحياة! لما سألته عن دفن صاحبه، أذهلتني إجابته، قال: إنهم أحرقوه صباحا! أحرقوه! قال: نعم، أحرقوه .. إنه نظام معمول به هنا! سألته: ألاديني هو مثلك؟ فقال لا بل مسيحي! قلت له إنني سمعت عن عقيدة حرق الموتىٰ في بعض ديانات الهند غير السماوية، أما في المسيحية فلا، فكم من مسيحيين في مصر يموتون فيدفنون ولا يُحرقون!، فقال: إن الحرق أسرع وأيسر، والأهم أنه أرخص ثمنا! أرخص؟

قال: نعم! الدفن يكلفك الكثير، فكم ستدفع في شراء مقبرة أو استئجارها، وكم تدفع في سيارة نقل الموتىٰ، وكم يتكلف التابوت الذي توضع فيه الجثة! الحرق أيسر بكثير، وهناك أفران عدة في المدينة، لحرق الموتىٰ! لا تستغرق الجثة كثيرا حتىٰ تكون حفنة من رماد أسود! تعبأ في زجاجة وتوضع في شق جدار، أو في مكان مهجور.

تعجبت لكلام الرجل، وكنت نسيت كلاما قريبا منه أخبرني به صديق مصري كيميائي، قال لي إن مشرفه علىٰ البحث مات، وذهب إلىٰ العزاء، فعلم هناك أنهم أحرقوا الجثة، وقد كان الأستاذ المشرف أوصىٰ بألا تدفن جثته، أوصىٰ بأن تحرق وأن يعبأ ما تبقىٰ من رمادها في زجاجة، ولا توضع في شق جدار أو مكان مهجور، وإنما توضع علىٰ التسريحة في حجرة نومه، وأوصىٰ زوجته أن تحتفظ بها، وألا تعبث بها أبدا وفاء لما كان بينهما من طول الحب والوصال.

الكلام عن حرق الجثث هذا بدا لي وكأنه حكاية رعب تُحكىٰ لطفل صغير! لم ترتعد فرائصي لذلك، فلا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها، وإنما مثار الجدل حول اختلاف العقائد، أو التخلي عن العقائد أحيانا والسير وفق النظام السائد. قفزت إلىٰ ذهني صورة محارق هتلر وأفرانه التي أكلت الملايين فلم تبق منهم لحما ولا عظما! يبدو أنهم ورثوا هذه الطريقة عنه! لكنهم لم يعودوا يحرقون الأحياء!

كان بيننا من الود والدعابة ما سمح بأن أسأله، وماذا عنك بعد موتك؟ أتريد أن تدفن أو تحرق، فقال إن هذا الأمر لا يشغله الآن، ثم إنه يعتقد أنه لن يموت ومن ثم فلا مجال عن حرق ولا دفن! قال ذلك مبتسما، فرأيت مجالا يسمح بمزيد من الدعابة، فداعبته قائلا: ماذا تفعل لو أن زوجتك توفيت أولا، وأوصت بأن توضع زجاجة رفاتها المسحوقة علىٰ التسريحة! كي تظل تَرْقُبك وتحصي عليك أنفاسك حية وميتة!!

لم يكن يصح أن ألهو معه هكذا في حديث الموت والحرق والدفن للأجساد، فإن للموت حرمته، لكن غرابة الحدث أذهلتني!

أيها الشيخ! هيا بنا نخوض في حديث غيره، عن النحو والصرف والكتابة، فقال: أنظرني لحظة، ثم قام إلىٰ أحد أرفف مكتبته، فأحضر كتابا بالألمانية، عليه صورة

سيدة الغناء أم كلثوم، وفيه ترجمة لروائع أغنياتها، وعنوانه بالألمانية هو ترجمة حرفية لاسم رائعتها «القلب يعشق كل جميل» Das Herz liebt alles Schöne، طلب إلي أن أملي عليه النص العربي لهذه الأغنية! فأمليتها عليه، وكنت أحفظها، فهي من أحب أغنياتها إليّ! فلما فرغ من الكتابة اعتدل في جلسته وقال لي: عندي سؤال واحد، ولا أعرف الإجابة عنه! قلت هات ما عندك! فقال: لماذا يصفق الجمهور بحرارة لأم كلثوم حتىٰ إن أياديهم تكاد تلتهب، إنهم يطربون لها ويصخبون صخبا شديدا من قبل أن تغني، فهم يهتفون عند ظهورها ساعة انفراج الستار، ويهتفون عند سماع مقطوعات موسيقاها! قلت له: ليس لك إلىٰ إدراك ذلك من سبيل إلا أن تكون عربيا، بل أن تكون مصريا! فإن لنا روحا وإحساسا بثقافتنا لن تجد شيئا منه في قلبك، كما لا أطرب أنا لكثير مما تكادون أنتم تسجدون له طربا! أسمعته مقطعا من الأغنية فقد كانت معي علىٰ الموبايل فطربت لها وطرب هو لطربي! ولم يفهم منها شيئا! فشرحت له المعاني، وأكدت له أن الشعر لا يترجم، حتىٰ وإن كان عاميا. ورحم الله الجاحظ فقد أظنه أول من قال بذلك! «الشعر لا يُستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل»!

تحدثنا كثيرا عن بعض قضايا اللغة العربية، وكان الرجل يجد سعادة كبيرة في الحوار معي حولها، وكنت أسعد كذلك حين يجد الرجل ضالته عندي! حدث ذلك كثيرا، حتىٰ جاء يوم تطرق الحديث فيه إلىٰ تنوين النصب! وتنوين النصب كما تعلمون هو فتحتان معا توضعان علىٰ آخر حرف في الكلمة، ويكون ذلك في مثل قول الله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فتوضع الفتحتان علىٰ الهمزة. واستشهدت كذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ذكرت له ما أعتقده من أن صحة رسم التنوين هنا إنما تكون علىٰ الميم لا علىٰ الألف بعدها كما اعتاد الناس. فرد رأيي وقال إن الأستاذ الخصوصي أخبره بغير هذا، فطلبت إليه أن يراجعه وأن يذكر له حججي، ومن أوضحها أن التنوين يرسم علىٰ الحرف الأخير في الجر والرفع، وكذلك في حال النصب في الكلمات التي لا تختم بألف!

قلت له سَلْه، ولا تذكرني عنده! فإن من أدب الفتيا في ثقافتنا ألا تذكر للمستفْتَىٰ رأيا يخالف رأيه تنسبه إلىٰ آخر! لم يقبل الرجل كلامي وسخر منه، وقال هنا يضيع العلم! فلا بد من النقاش والسؤال! فقلت نعم ولا بد كذلك من احترام الشيخ

وإجلاله، ومعرفة قدره! وفي هذا الصنيع ما قد يوغر صدره فيجد في نفسه! فرفض رأيي .. لقد كاد هذا الشيخ البرليني يغير قناعاتي وآرائي حول قضايا كثيرة!

أثناء الدرس .. استوقفني .. وأخبرني أنه رزق بحفيد جديد ذكر، وأنه سعيد بذلك سعادة غامرة، فهنأته علىٰ ذلك، وقلت له لا شك أن ابنتك، وفقا لنظريتك العظيمة، امرأة قاسية ذات سطوة وبأس شديد، تلهب ظهر زوجها صباح مساء، ومن ثم فقد وهبتها الطبيعة ولدا ذكرا يكون سندا لأبيه في مواجهة بطش أمه! فابتسم وقال: أبوه؟! قلت: نعم. قال: ومن أبوه؟ إنه لا أب له! إن لابنتي ثلاثة من الولد، تقوم علىٰ رعايتهم وتربيتهم، ولا زوج لها، قلت: وهل كانوا جميعا من أب واحد؟ قال ومن أدراني، ولا أظنها هي الأخرىٰ تعرف! لم كل هذه الأسئلة؟! إنما أخبرتك عن سعادتي بحفيدي الجديد، الذي سيحمل اسمي! وغدا نذهب أنا وزوجتي إلىٰ أمه في المستشفىٰ نبارك ونحمل الهدايا! ولذا فلن أذهب إلىٰ المعهد غدا!

فلما كان الغد، رأيته في المعهد! ما جاء بك إلىٰ هنا أيها الشيخ العزيز؟! ألم تذهب إلىٰ المستشفىٰ لزيارة ابنتك، (ورفع الأذان في سمع حفيدك الجديد)! فأبدىٰ الرجل امتعاضا كبيرا، لقد اتصلنا بها، فرفضت زيارتنا لها، وقالت إنها مريضة ولا ترغب في لقاء أحد حتىٰ يتم شفاؤها. تعجبت لقسوة قلب المرأة، وانعدام شعورها، وكيف أنها أطفأت الفرحة في قلب الجد! وتذكرت كيف أن المرأة عندنا لا تلد إلا في بيت أمها، طلبا للراحة والأمان والسكينة والدعة!

أيها الشيخ .. إنني ما زلت أتعجب لامرأة تقوم علىٰ شأن أولاد لا أب لهم! من يكفلهم! فقال: وما حاجتها إلىٰ الأب! إن الدولة تعولهم، الدولة تدفع للأطفال راتبا شهريا، حتىٰ يبلغوا أشدهم، بأب كانوا أم بغير أب! ومن ثم لا حاجة للأب، وإذا شب الطفل عن الطوق، فإنه يستغني عن أمه كذلك، ليعيش حياة مستقلة، فإن له من الدولة مالًا يكفيه!

يا لها من حياة غريبة .. أي حياة هذه .. أين نحن منها .. وأين هي منا! لقد حضرني الآن موقف غريب! سأرويه لكم، فما عهدتني كتوما! ولو كنت كتوما لما بُحْتُ لكم بشيء من ذلك.

لقد روت لي زميلة مصرية، تعد رسالتها للدكتوراه كذلك في الفنون الجميلة، تسكن مع أسرة ألمانية، في شقة مستقلة في بيتهم الكبير، لكنها كثيرا ما تزورهم، تقضي معهم المساء. رجل وامرأة ولهم ابنة في الرابعة عشرة. دخلت الفتاة علىٰ أبيها ذات مساء وقد جلس وأمها أمام التلفاز. فبشرتهم بأنها نجحت اليوم للمرة الأولىٰ في إقامة علاقة كاملة مع زميل لها. فانتفض الأب واقفا، لا ليصفعها ولا ليقتلها كي يغسل عاره، كما يفعل الشرقيون وأبناء الصعيد! وإنما احتضنها وطار بها فرحا! فقد كبرت ابنته وأصبحت قادرة علىٰ فعل ما يفعله الكبار! ومن عجب أن هذا الرجل إيراني الأصل يزعم أنه مسلم شيعي! لكن له علىٰ ربه مآخذ يود لو أنه نزل من السماء حتىٰ يوضحها له ويبين له أخطاءه!

رحم الله طه حسين . . ورحم زمن «دعاء الكروان»! رحم الله هنادي! كم أشفقت علىٰ هذه الفتاة وكثيرات مثلها! أين ذهب هذا الممثل الكئيب (خال هنادي) الذي قتلها في فيلم دعاء الكروان! ليته يزور برلين أياما يعلم الناس العفة!

في هذه البلاد، كثر الأولاد الذين لا أب لهم، فليس شرطا عندهم أن تدعو الأولاد لآبائهم! هل تذكرون تلك الآية القرآنية «ادعوهم لآبائهم»، كلنا ينتسب لأبيه، أما هنا فلا، فيمكنك الانتساب إلىٰ من شئت وفي أي وقت تشاء! فكما أن المرأة تغير اسمها بعد الزواج لتنتسب إلىٰ زوجها إن أرادت، فإن من حق الجميع فعل ذلك كذلك! صديقي كريستيان له ابنتان، تنتسبان إلىٰ أمهما، عن طيب خاطر منه، بل إنه أخبرني أنه يسعد بذلك، ولا يحب أن تنسب بناته إليه! بنات زوجة هورست انتسبن إليه بعد وفاة أبيهما، ومن العجيب أن إحداهن حين تزوجت، ورأىٰ زوجها من زوج أمها ما رأيته أنا منه من ظرف وفكاهة، فأعجب به وغير اسمه وانتسب إليه! وقد صار ذلك مثار فخر واعتداد بالنفس من ذلك الشيخ البرليني الظريف.

(١٤)

على متن السفينة

إن صاحبنا الشيخ البرليني هذا له شغف عظيم بالسفر والترحال، تشجعه علىٰ ذلك زوجته النشيطة المتطلعة، الراغبة دائما في الانطلاق والسعادة والسهر، والشرب والرقص والموسيقىٰ، إنها تأرن كما يأرن المهر، ولا يعوق الزوجين كبر سنهما عن الاستمتاع بالحياة أبدا .. لم يحدثني الشيخ السبعيني هذا مرة عن خشونة في المفاصل، أو أَلَم في الرّكب! ومن أين تأتيه تلك الآلام التي تفتك بأغلب أهلنا في مصر شيبا وشبانا. إنه رجل رياضي، يكثر من ركوب الدراجة لمسافات بعيدة، ويواظب علىٰ جلسات المساج والعلاج الطبيعي الأسبوعية! من أين تأتيه آلام المفاصل وهو يتعرض للتدليك بأيدي الحسان بشكل دوري. هل تذكرون ذلك الرجل المسن في الفيلم المصري القديم، الذي كاد يبكي لألم في ركبتيه، فأشفقت عليه بطلة الفيلم، وأخذت تدلكهما برفق وحنان فقال لها بصوت غلب عليه التشنج والبكاء، وقد سرىٰ دفء الحياة من نعومة يديها في أوصاله فدبت فيه النشوة .. ما زال صوته يطن في أذني! «إيدك حنينة يا بنتي»! لم أعد أذكر اسم الفيلم ولا اسم البطلة، لكنه مشهد شهير![١]

إنهم قوم مقبلون علىٰ الحياة، يركبون الطائرات كما يركب المصري الميكروباصات أو «يتشعبط» في الأتوبيسات! فتراهم في كل عطلة لهم ولو كانت قصيرة يزورون بلدا، أوروبيا أو أمريكيا، شرقيا أو غربيا، بالطائرة أو بالسفينة. فأما السفر بالطائرة فهو معلوم، وأما السفر بالباخرة فالحديث عنه ذو شجون. ذلك أن

---

(١) أخبرني بعض الأصدقاء أن الفيلم هو «صباح الخير يا زوجتي العزيزة»، والبطلان هما الفنانة نيللي والفنان صلاح ذو الفقار.

رحلات بحرية تقوم بجولات سياحية عظيمة في أوروبا كلها، تستغرق من الزمن أسبوعين أو يزيد. يقضي السائحون أغلب الأيام في البحر ولا ينزلون إلىٰ البر إلا لزيارات قصيرة في هذه الدولة أو تلك، ويقومون كذلك بشراء هدايا تذكارية وقضاء حاجات لهم. ثم يواصلون الإبحار إلىٰ دولة أخرىٰ. لم أكن معهم في تلك الرحلات حتىٰ أحكي لكم كل شيء، وإنما أروي لكم ما عرفته من ذلك الشيخ البرليني.

ولما كان لهذا الرجل شغف كبير بالقراءة والمطالعة، ولا يلجأ إلىٰ الشرب والرقص والسهر إلا حين تضطره زوجته إليه، فقد كان يخلد دائما إلىٰ كتاب يقرأه علىٰ متن السفينة في عرض البحر تحت أشعة الشمس الذهبية الدافئة. إلىٰ الذين لا يحبون حديث الكتب أقول: لتقبلوا منا هذه المرة حديثها، فالرجل اليوم ضيف عندي وللضيف حق، وقد طلب إلي أن يساعدني في كتابة شيء في يومياتي بخط يده، حتىٰ يخبركم بصدق ما رأىٰ من غير زيادة أو نقص، وليريكم من نفسه إلىٰ أي درجة وصل في إتقان العربية، وقد قضيت في تعليمه إياها زمنا! لقد فرغ الشيخ البرليني الآن من قهوته، وهو إلىٰ جواري متحفز متهلل لمنحي إياه تلك الفرصة النادرة لأن يكتب شيئا لقراء عرب! فهو محل اختبار حقيقي له! سيتولىٰ الشيخ عرض ما قرأ من كتب علىٰ متن السفينة. علكم تجدون فيها ما يفيد. وقد طلب إلي أن أترك له القلم حتىٰ يسطر ما يريد. ها هو الآن معكم!

(أهلا بكم أصدقاء صاحبي المصري . . لقد أردت أن أمرن قلمي علىٰ كتابة شيء بالعربية بعد أن ألممت بطرف منها، ساعدني عليه صديقكم صاحب هذه اليوميات. ولذا أردت مساعدته في كتابتها، اعترافا بفضله علي، وأردت أن أتيح لنفسي كذلك فرصة مواجهة الجمهور بشيء لي مكتوب لأرىٰ رأيهم في مدىٰ إتقاني للعربية. ثم إني أشهد أنني سعدت مثلكم بيومياته، وإن لاحظت أنه بالغ كثيرا في سرد أحداث جرت بيننا، فناقشته في ذلك، فقال: إن هذا أمر تقتضيه طبيعة الكتابة وجذب القراء، فاغفره لي فغفرته له!

لا أريد أن أطيل كثيرا، فقد أخبرني أن الحيز المتاح لي للكتابة قليل، ومن ثم نذهب مباشرة إلىٰ التعريف بموضوع الكتب التي قرأتها علىٰ متن السفينة، فقد كانت كتبا عن تاريخ إسرائيل، كتبها مفكرون ومؤرخون إسرائيليون، لكنهم معادون للسياسة

الصهيونية ويهاجمونها. ويرون أن الدولة الصهيونية ظالمة جائرة وهي لا شك إلىٰ زوال، والحقيقة يا أصدقاء أن هذا الرأي رأيي! فلا يغرنكم أنني رجل غربي ألماني، وأنني قد أنصر الصهاينة علىٰ العرب، لا .. كلا وألف كلا! ليس كل الألمان كذلك! فإن منهم منصفين. إنني لا أقول إلا الحق! وأنصح لكم بقراءة واحد من هذه الكتب التي قرأتها في رحلتي البحرية وهو كتاب «تفكيك إسرائيل» The Unmaking of Israel لـ «جيرشوم جرونبرج» Gershom Gorenberg أحد الكتاب الصحفيين والمفكرين اليساريين الإسرائيليين، وهو من أصل أمريكي. يناقش فيه قضايا كثيرة لعل أهمها تلك الهوة السحيقة بين الصورة المثالية التي يرسمها الغربيون لإسرائيل في عقولهم، وبين إسرائيل ذلك الكيان القمعي الظالم في حقيقته وواقعه وممارساته الفعلية. إنه كتاب كاشف للبنية القمعية للدولة الإسرائيلية. يلقي المؤلف فيه أضواء كاشفة علىٰ ظلمها، ومعاداتها للحريات. لا تغرنكم أبواق الإعلام والدعاية الكاذبة، إنها دولة فاشية، تقمع سكانها العرب وتحرمهم حقوق المواطنة، وتفرض عليهم العزلة والتهميش وما تزال تجبرهم علىٰ بيع أراضيهم رغما عنهم، وبالأسعار التي تحددها الدولة .. كل ذلك وتزعم أن المواطنين جميعا سواسية لهم كافة الحقوق والحريات!

وإذا كنت سأصدمكم بأن أقول لكم إننا نحن الألمان والغربيون بعامة، لا نرىٰ فيما تتغنون به، وتزعمون أنكم حققتموه في أكتوبر، نصرا، سامحوني في ذلك، فالأمر كله كان خدعة كبرىٰ، لا مجال للحديث عنها الآن، فقط أقول: من ذا يهزم عدوه ويسحقه ويقضي عليه، ثم يهرع إليه في عقر داره يسترضيه ويتوسل إليه! هل أحصيتم في الحرب عدد قتلاكم؟ هل عادت سيادتكم كاملة علىٰ أراضيكم؟ ما لكم كيف تحكمون! ليتكم تراجعون كتبنا المنشورة ومواقعنا الإلكترونية لعلكم تهتدون! أقول: إذا كنا نحن الغربيين نرىٰ ذلك ونؤمن به، فإن جيرشوم جرونبرج كذلك يرىٰ أن ما حققه الإسرائيليون في يونيو ١٩٦٧ كان خسارة كبيرة وهزيمة منكرة؛ فقد كان لهذه الحرب أسوأ الآثار علىٰ بنية المجتمع الإسرائيلي رغم أنها في ظاهر الأمر انتصار عسكري كبير)[١].

---

(١) علق الصديق عامر أحمد عامر يقول: حاول الدكتور متولي أن يلجأ هذه المرة إلىٰ حيلة روائية كتلك =

انتزعتُ القلم من يد هورست بعد هذه الفقرات، فقد خاض الرجل في حديث السياسة المحرم، ما دفعك إلىٰ هذا يا رجل! لعمري . . لولا أنني وعدتك ألا أحذف مما سطرت شيئا وألا أعدل فيه حرفا، لحذفته كله ولا أبالي! أتشكك في انتصارنا المجيد يوم العبور! تبا لك من هادم للذات مخيب للرجاءات! لا تحاول إيقاظنا من ذلك الحلم الجميل!

دارت تلك الأفكار برأسي لكنني لم أخبره بها، وإنما تعيّن علي أن أشكره! أشكرك أيها الشيخ علىٰ ما سطرت، لقد أرحت أصابعي لبعض الوقت من الإمساك بالقلم. وأمهلتني حتىٰ شربت فنجانا من القهوة وأكلت بعض الكيك. وأرجو ألا يكون القراء قد وقعوا في كتابتك علىٰ هنات تنفرهم من اليوميات! والآن دعني أواصل الكتابة!

أيها الشيخ البرليني! إنني وإن كنت غاضبا منك بعض الشيء لطريقتك في تعليمي اللغة الألمانية، وواجدا في نفسي لعدم امتثالك لرغبتي كما كنت أصنع معك في تعليمي إياك العربية، رغم ذلك كله فإنني سأكافئك! لأرسلن لك دعوة لحضور لقاء مع السياسي المصري حمدين صباحي هنا في برلين. هنا في مقهىٰ مصري. في الفيلم بونة، Filmbühne في ١٢ شارع هاردن برجست، Hardenbergstr. 12, 10623 Berlin في الثامنة والنصف من مساء السادس والعشرين من أكتوبر. إنه لقاء للمصريين فقط دعت إليه مؤسسة ميادين التحرير للتنمية البشرية والتثقيف السياسي. لكني سأسعد برؤيتك هناك، فأنت الآن رجل مصري بالصداقة والولاء! تهلل الشيخ البرليني للدعوة، وقال إنه سيصحب معه زوجته، فقلت علىٰ الرحب والسعة، وهل تجرؤ علىٰ الذهاب بغيرها!

لما رأيت سعادته وتهلله للدعوة، أردت أن أنتهز الفرصة لبثه شيئا من شكواي من طريقته في تعليمي الألمانية قبل أن أنصرف. قلت له: أراك سعدت بالدعوة . . لكنك

= التي يلجأ إليها المخضرمون من الرواة، ذكرني ذلك بصنيع يوسف زيدان في عزازيل . . أوهمنا د.متولي أن صديقه البرليني يكتب بنفسه وساق رؤاه علىٰ لسانه، لكنه كما أرىٰ وقد أكون مخطئًا لم ينجح في ذلك نجاحا كاملا، فقد أفسدت هذه الحيلة لغة د.متولي التي لم نعد نخطئها تلك المطعمة بكثير من الاقتباسات القرآنية غير الخافية، وأمور أخرىٰ لن أطيل حديثي بها!

لم تسألني فيم الغضب منك!. فقال: لقد أذهلني حبي لمصر وأهلها وهذه الدعوة العظيمة عن كل شيء. هات ما عندك! قلت له: إنك رجل ألماني ماهر بالألمانية مهاراتي بالعربية أو يزيد، وقد فهمت عنك الكثير، قلت ذلك أمدحه تمهيدا وتوطئة لما أريد، وهذا أمر مستحب علىٰ كل حال، وطرقتني ساعتها عبارة أحبها وأكررها كثيرا «إن أبا سفيان رجل يحب الفخر»! فلا تحرموا الناس شيئا من المدح والثناء لا يضرهم ولا يضركم شيئا، ولكنه يطيب النفوس . . استطردت: لا أنكر مهارتك بالألمانية أيها الشيخ، لكنك يا صديقي رجل عجوز قديم، شهدت أطوارا مختلفة من الألمانية، ما زلت تذكرها جميعا، فألمانيتك اليوم ألمانيات كثيرة، لقد أرهقتني يا رجل بذكر تاريخ الكلمات وما طرأ عليها من تغير عبر السنين. أتراني باحثا في تاريخ لغتكم؟! إنني رجل مبتدئ . . ولا حاجة لي بذلك! أعلم أنك تسعد بهذا الصنيع، فكنت تستعرض علي معرفتك بلغتك، وكنت لا أستوقفك حتىٰ لا أحرمك سعادة رأيتها في عينيك! وكنت أسعد بكلامك أيضا، فما كنت لأجده عند غيرك من الشباب المحدثين. لكنه أرهقني كثيرا، فإنني في الألمانية بعد طفل حدث صغير! وعلىٰ كل حال، لا تتأخر الليلة عن تلك السهرة السياسية الغنائية مع المرشح الرئاسي السابق حمدين صباحي.

سعد الرجل برأيي، لكنه لا يسكت عن شيء أبدا، متىٰ حضره جواب! قال: لا تؤاخذني! فالألمانية ليست كالعربية، الألمانية تتغير تغيرا كبيرا من حين لآخر، وتجب علينا متابعتها، أما العربية فلا، فإن قرآنكم حفظها، إن القرآن من العربية بمنزلة رمانة الميزان، لا تكاد تحيد عنه حتىٰ ترجع إليه لينضبط حالها! سعدت برأي الرجل وحركت له رأسي بالموافقة!

لبثت ساعات حتىٰ إذا جاء المساء ذهبت إلىٰ مكان اللقاء، فوجدت الشيخ البرليني وزوجته يجلسان متجاورين علىٰ إحدىٰ المناضد في المقهىٰ، وقد جدا في شرب كاسات العصير، تهللت لرؤيتهما ورحبت بهما. وجلست معهما. أدرت عيني في ساحة المقهىٰ فلم يكن وصل كثير من الخلق بعد. علىٰ مقربة رأيت الأستاذ محمد شاويش، وهو كاتب ومفكر فلسطيني معروف، تعرفت عليه في معهد الدراسات العربية، وقد كان حريصا علىٰ حضور الندوات، وإلقاء محاضرات تثقيفية أدبية

وسياسية كثيرة كذلك، في المعهد وفي كثير من المحافل الثقافية في برلين. وهو سوري من أصل فلسطيني، ذو آراء مناهضة للنظام السوري من قديم. اضطرته آراؤه المناهضة للأنظمة العربية إلىٰ اللجوء إلىٰ ألمانيا والاستقرار بها. وله عدد من المؤلفات أشهرها «نهضات مجهضة - جدل الهوية والفاعلية»، يقدم فيه مجموعة من المحطات التاريخية الحضارية المجهضة بفعل الظروف التي أحاطت بكل واحدة منها، ويهدف من وراء ذلك إلىٰ بسط تجاربها بكل ما اكتنفها من آمال وما أحاط بها من إحباطات؛ لاستخلاص الدروس التي تجنب حصول مثلها لنهضات المستقبل. وفي الكتاب خمس محطات لستة أعلام: عمر مكرم، وعبد الكريم الخطابي، وعبد الله النديم، ومصطفىٰ كامل، ومحمد فريد، وحسن البنا. حاول الرجل من خلال تحليل تلك المحطات الوصول إلىٰ نتائج تفيد في الواقع الراهن.

استأذنت الشيخ البرليني وزوجته في الذهاب إلىٰ هذا المفكر العظيم لمصافحته والترحيب به، فقد جمعت بيننا مودة كبيرة منذ قدمت إلىٰ برلين. ذهبت إليه فأخبرني بشيء من الدعابة عرفتها فيه، أنه لم تكن لديه رغبة في الحضور إلىٰ هذه الندوة، فهو ليس مصريا، وقد خصصت الندوة للمصريين، وإنما جاء ليستمع إلىٰ حمدين صباحي، فينظر ماذا يقول في السياسة المصرية، ولم يكن مضىٰ علىٰ اعتلاء مرسي عرش مصر ثلاثة أشهر. دار حوار قصير، طلب إليّ الأستاذ بعده الانصراف للجلوس مع الضيوف الألمان الشيخ البرليني وزوجته، فهما أحق بي منه، ثم إنه كان بصحبة زوجته وأناس آخرين. ذهبت فجلست مع الشيخ وزوجته، ولمحت علىٰ مقربة منا إسلام شبانة، شاب مصري تخرج في جامعة الأزهر، حضر لإعداد رسالته للماجستير عن تعليم الألمانية للناطقين بغيرها. لقد كان هو من أخذني رغما عني إلىٰ السفارة المصرية ببرلين لانتخاب مرسي في المرة الثانية وكنت أفكر في المقاطعة. حدثني في هذا الأمر طويلا حتىٰ اقتنعت بأن انتخاب مرسي هو الطريق الوحيد للتخلص من دولة شفيق. رأيت كذلك علىٰ منضدة أخرىٰ سلسبيل الرجيلي، طالبة دكتوراه مصرية سكندرية من كلية الفنون الجميلة، تعد رسالتها للدكتوراه بقسم تاريخ الفن. وهي من أشد المعارضين لمرسي وسياسة الإخوان. صافحني فجأة أحد الحضور بحرارة وإقبال شديد، لم أتبينه جيدا، فأخبرني أنه محمد متولي! نعم إنه محمد متولي رجل

مصري ظريف تعرفت عليه علىٰ فيس بوك، جمع بيننا تشابه الأسماء، فسعد لذلك، وأخبرني أنه ظن أنه محمد متولي الوحيد في برلين، فإذا بي أفسد عليه بحضوري هذه الميزة النادرة، وتضاحكنا. مضىٰ وقت قليل، أوشك حمدين صباحي علىٰ الحضور، والجلوس علىٰ منصة صغيرة أعدت له، وقد امتلأت القاعة علىٰ بكرة أبيها. وقد أخبرنا بعض أعضاء الجمعية أن في الحفل فاصلا موسيقيا بديعا، وعزفا علىٰ العود مطربا، وغناء شرقيا رائعا، سيشدو به مطرب مصري عظيم هو الفنان ناصر قلادة. فزاد ذلك من سعادتنا بالحفل، وطرب الشيخ البرليني لذلك طربا شديدا، وسعدت زوجته أيما سعادة، فلها عناية كبيرة بالموسيقىٰ، ألم أحدثكم من قبل عن ذلك البيانو الضخم في ساحة بيتهم!

تأخر حمدين صباحي عن الحضور لدقائق، فوجدها الشيخ البرليني فرصة سانحة ليحدثني عن شوقه لمصر، وحبه لأهلها، وكيف أنه زارها كثيرا، وسعد بزيارة الأماكن الأثرية والشواطئ كلها، غير أنه لم يعد يزورها كثيرا في السنوات الأخيرة، فقد ساءت أحوالها، وزاد فقرها! لقد أكد الرجل أن السبب الرئيس لتوقفه عن زيارة مصر في الحقبة الأخيرة، هو كثرة الشحاذين والمتسولين ذوي الوجوه البائسة! إن هيئتهم تؤذي نفسه كثيرا، هو يعطيهم بعض المال، لكنه لن يغنيهم شيئا! فامتنع عن الزيارة حفاظا علىٰ حالته النفسية! وجدتُ مرارة في حلقي من كلماته! فأنا أعرف ما يتحدث عنه حق المعرفة! وكثيرا ما شعرت به! حاولت الخروج من المأزق بشيء من الفكاهة عرفها فيّ، فقلت له: أنا علىٰ يقين من أنك ستزور مصر كثيرا في السنوات القادمة، لأن حمدين صباحي «واحد مننا» ولن يدخر جهدا في حل مشكلات الفقراء!

صعدت علىٰ المنصة فتاة جميلة، ضاحكة مستبشرة، لها خفة روح عظيمة، إنها مي هوبر، فتاة مصرية ألمانية، لأب نمساوي وأم مصرية، هي رئيسة مؤسسة ميادين التحرير، لم أكن أعرف أنها منظمة الحفل، فقد عرفتها من قبل في معهد الدراسات العربية. وتوطدت العلاقة بيننا إلىٰ حد كبير. فقد كانت مساعدة للأستاذة نويفرت. دائمة الابتسام، تقرأ في وجهها كل معاني الحياة، ولها قبول عظيم من كل من عرفها .. قدمت مي في كلمات قصيرة السيد حمدين صباحي وضج المقهىٰ ترحيبا بالضيف الكبير.

اتخذ حمدين صباحي مكانه علىٰ المنصة، وكان قد ارتدىٰ بزته القشيبة، بدلته السوداء القاتمة، والقميص الأبيض، والكرافات الأحمر . . لطالما غبطته علىٰ أناقته! هل تذكرون أن بعضهم رشحه للرئاسة لا لشيء إلا لوجاهته .. فعلا شكله رئيس جمهورية!

جلس حمدين علىٰ المنصة بين الأستاذة نادين عبد الله ناشطة سياسية وصحفية بالمصري اليوم، مقيمة في برلين، وعلىٰ الجانب الآخر للمنصة أحد أعضاء منظمة ميادين التحرير. تحدث عضوا المنصة حديثا قصيرا ثم شرع السيد حمدين في الكلام.

السيد حمدين هو ابن بلدتي، وكنت ترددت كثيرا في ترشيحه للرئاسة في المرحلة الأولىٰ، ثم عدلت عنه إلىٰ أبو الفتوح، كما عدل كثيرون، فقد رأيت في أبي الفتوح رجل المرحلة، لأنك تجد فيه كل ما تريد، رأيته صاحب توجه إسلامي ليبرالي معتدل لأول مرة معا! قلت إنه أقدر المرشحين علىٰ احتواء جميع طوائف الشعب في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها البلاد.

تحدث السيد حمدين صباحي وقد أسكرته نشوة الأصوات الكثيرة التي حصل عليها في الانتخابات، فتحدث بثقة رئيس جمهورية فاز في الانتخابات عن جدارة واستحقاق. لم يكن قد مضىٰ علىٰ حكم مرسي ثلاثة أشهر، لكن نبرة النقد والهدم لنظام مرسي في حديث حمدين كانت عالية! وقد أعانه علىٰ ذلك أن أغلب جمهور الحاضرين كانوا ليبراليين. تحدث عن أخونة الدولة، والسيطرة علىٰ مفاصلها، وتحدث عن خطط له عظيمة في النهوض بمصر. وأن مرسي لا شك فاشل في إدارة البلاد .. قال إنه يتمنىٰ أن يسير الإخوان في الناس سيرة العدل، وأن يعتدل ميزان مرسي حتىٰ نكون جميعا وراءه، لكنه لم يلبث أن أضاف .. لكنني لا أتوقع أن يحدث ذلك، ولا شك أن الشعب المصري سينتفض قريبا للقضاء علىٰ هذا النظام الجائر!

خلال تلك المحاضرة، كنت أهمس للشيخ البرليني وزوجته بألمانية عرجاء موضحا أهم الأفكار التي تحدث عنها السيد حمدين، حتىٰ أدفع الملل لطول اللقاء، فقد كان الحديث لا شك بالعربية ولم يفهموا منه شيئا. تلقت المنصة عددا من الأسئلة والمداخلات، دار معظمها في إطار مرسي والإخوان والسيطرة علىٰ الحكم،

ولا يعنينا كثيرا أن أفصل فيها، فقد كانت تقليدية، أما الملاحظة الأهم التي أخذها الشيخ البرليني، فهي طول المداخلات أحيانا، بحيث يمكن وصفها بأنها محاضرة موازية .. لقد ضجر الشيخ البرليني، فالألمان لا يعرفون تلك المداخلات المطولة التي يغلب عليها الاستعراض وحب الظهور. فالمداخلة عندهم إنما تكون بطرح سؤال قصير في دقيقة واحدة أو دقيقتين!!

ضجر الشيخ وتململ كثيرا في جلسته وهم بالانصراف غير مرة، فقد تأخرت الفقرة الموسيقية كثيرا .. وكنت أبعث فيه وفي زوجته الأمل بوشك الانتهاء! وأمنعها برفق من الانصراف! انتهىٰ اللقاء فتنهد الشيخ وزفرت زوجته، وأخذنا فاصلا قصيرا، نزل فيه السيد حمدين إلىٰ القاعة فهجم الناس عليه يصافحونه ويقبلونه .. أعجب كثيرا حين يتأبط بعض العامة رجلا من المشاهير ليبدو في الصورة معه وكأنهم أصحاب من قديم، يضع أحدهم ذراعه علىٰ كتفه، ويمسكه آخر من يده ويميل عليه، ويحتضنه ثالث ويكاد يقبله من فمه، والسيد حمدين يوزع الابتسامات هنا وهناك .. تحركت فيّ رغبة في أن تلتقط لي صورة معه، فعشقي للصور والذكريات كبير، سألت هورست عن ذلك، فقال لك هذا! فقلت له لكنني أستحيي من صنيع هؤلاء .. وأخجل من أن تلتقط لي صورة أحاول فيها أن أبدو وكأن بيني وبين حمدين علاقة قديمة بحيث نكون تربينا معا وأكلنا المش والجبن علىٰ طبلية واحدة!

انتظرت حتىٰ خف ضجيج الناس، وأخذ حمدين طريقه إلىٰ مؤخرة القاعة ليجلس فيستمع إلىٰ الحفل الموسيقي، وتصادف أن مر في طريقه بالمنضدة التي أجلس عليها مع الشيخ البرليني، فرأيتها فرصة سانحة كي أصافحه وأرحب به، سلمت عليه وعرفته بنفسي، فتهلل واحتضنني في حركة معروفة يصنعها كل المشاهير حين يلتقون بأبناء قراهم، إذا كانت بهم حاجة إلىٰ الفوز في الانتخابات. لاحظت ذلك كثيرا مع مرشحي مجلس الشعب في قريتي.

انتحىٰ حمدين جانبا في القاعة، وجلس في زاوية يصعب الوصول إليه فيها، وقد اتخذ درعا من النساء الحسناوات. أخذني خجل عظيم من أن أشق طريقا وسطهن كي ألتقط صورة تذكارية معه. وجدت في قلبي منه إذ احتمىٰ بهؤلاء الحسناوات. لقد جلستُ إلىٰ جواره إحداهن لا يشق لجمالها غبار، حتىٰ لقد خشيت علىٰ قلبي أن

يتوقف إن حاولت الدخول هناك! إن خوفي قديم من كل امرأة تبالغ في استعمال الميك أب، إنني أحسب لها ألف حساب قبل أن أحدثها بكلمة واحدة! وتلك عادة قديمة عرفتها في نفسي! يكون مبعثها عادة الخجل!

تبا لك يا حمدين، وسحقا للحسناوات اللائي حرمنني من أنس الاقتراب إليك والحديث الشخصي معك، والتقاط الصور التي أحرص عليها دائما!

علا فجأة ضجيج في القاعة .. كان الفنان ناصر قلادة قد صعد علىٰ المنصة، ومعه آلاته الموسيقية الشهيرة، العود والطبلة، عزف عزفا منفردا راقيا، وغنىٰ غناء وطنيا رائعا طربت له، وكان مما غنىٰ تحية للسيد حمدين أغنية الفنان سيد مكاوي ﷺ «الغالي علينا غالي»، وغنىٰ كذلك «بلدي يا بلدي» وعددا من الأغنيات الوطنية كانت مطربة حقا، حتىٰ إنهم حملوا حمدين إلىٰ المنصة للمشاركة في الغناء، وهناك تمكنت من التقاط بعض الصور معه وقد خف عنه النساء أو خف هو عنهن! .. وأعلن الفنان ناصر قلادة في نهاية اللقاء عن حفل له قريب .. قررت أن أحضره، فهذه الأجواء الموسيقية الشرقية تعيدني إلىٰ حضن مصر، و«ليالي التلفزيون» و«ليالي أضواء المدينة».

كان الشيخ البرليني قد انصرف وزوجته بعد الأغنية الأولىٰ، يبدو أن صخب المصريين ورقصهم الصعيدي لم يرقهما، فقد اعتادا الحفلات الموسيقية الكلاسيكية التي يتعين علىٰ الحضور فيها ارتداء زي رسمي كما هو الشأن في دار الأوبرا المصرية. عدت إلىٰ البيت بعد منتصف الليل، يدور بذهني كثير من الأفكار والآراء التي طرحها حمدين صباحي. لا أدري لماذا تذكرت تقرير الذمة المالية لحمدين قبل الانتخابات .. ٧٠٠٠ جنيه! يا لك من مسكين! أشفقت عليه! كيف وصلت إلىٰ برلين .. إن التذكرة الاقتصادية إلىٰ برلين علىٰ مصر للطيران ٣٥٠٠ جنيه، وأظنك، وأنت السياسي الكبير، حجزت درجة رجال أعمال ٦٠٠٠ جنيه مثلا! وماذا عن تذاكر الوفد المرافق لسيادتك! لا شك أنه اقترض من بعض الجيران قبل السفر! لا أدري لم فكرت في ذلك! ربما لأنني كنت أرغب في السفر لزيارة أهلي في مصر، فكنت أتابع أسعار التذاكر وأرقب عروض شركات الطيران![1].

---

(١) علق الصديق الدكتور محمد سعد شحاتة يقول: كتابة رائقة وسرد جميل كما عهدنا منك يا دكتور. =

كانت معي بعض الصور التقطتها لي معه صديقتنا الفنانة سلسبيل أثناء التمايل علىٰ صوت الفنان ناصر . . لكنني لم أرد أن أنشر منها شيئا علىٰ فيس بوك! ولن أنشر!

= لكنك، أخي الكريم، ذكرت أن هناك جهة داعية وراعية لسفر حمدين إلىٰ برلين . . وما أعرفه أن الراعي والداعي هو من يتكفل بنفقات الانتقال والإقامة! فكر معي في هذا العرف وأنتظر رأيك المنصف حول فقرة ثمن تذكرة السفر . . ولك التحية. فكفاني صديقي الدكتور أيمن عيسىٰ مؤنة الجواب، قال: الأخ الفاضل محمد شحاتة لا أظن أن الدكتور متولي يقصد الحديث عن الإنفاق الباذخ المعروف للسيد حمدين نصير الفقراء ولا جولاته الكثيرة أو يقصد الخوض في ذمة أهله وبنيه المالية إنما هو يحدثنا عن هاجس دار فعلا في رأسه ليلتها اقتضاه رغبته في السفر إلىٰ مصر وعجزه عن ذلك، والهواجس التي تستدعيها المواقف في ذهن الإنسان قد يصدقها الواقع أو ينفيها وهذا لا يغض من قيمة السرد الجميل الذي ينقل لنا فيه مشاعر حية بعيدا عن قضية الصدق والكذب دمت بخير.

(١٥)

أسـويـاء!

ألم تقابل في برلين كلها غير هذا الشيخ البرليني وزوجته! لقد أشعرتنا أنك وقفت حياتك هناك عليهما، وصدعت رءوسنا بطول الحديث عنهما! هيا يا رجل . . خض معنا في حديث غيره!

حسنا . . لكم هذا يا أصدقاء! . . هل تذكرون كيف كانت بداية الحديث عن هذا الشيخ البرليني؟! إنه الحديث عن التاندم، أحد طرق تعلم اللغة! وكنت قد أرجأت الحديث عن كورسات اللغة إلىٰ حين! واليوم أشرع فيه! فأذكر لكم ما جرىٰ، وما زال يجري!

التحقت بمدرسة لتعليم اللغة الألمانية للأجانب، تسمىٰ «هارتناك شولا» Hartnackschule في قلب العاصمة في ميدان نوليندورف Nollendorfplatz، يفد إليها الطلاب من كل حدب وصوب، يأتون إليها رجالا وعلىٰ كل ضامر يأتون من كل فج عميق. من مختلف الجنسيات وشتىٰ الألسنة! المدرسة تتكون من مبنيين عظيمين أحدهما قديم شديد القدم متوسط الارتفاع، والآخر حديث الإنشاء شديد الارتفاع! كان الكورس في الطابق الأول من هذا المبنىٰ الجديد. ذهبت إليه مبكرا، فدخلت القاعة رقم ١٠٤ المخصصة فوجدت المعلم. شاب صغير في عقد الثلاثين.

صغر سن المعلم لا يروقني، قد يرىٰ البعض في ذلك قربا من الطلاب، وقدرة كبيرة علىٰ التواصل، لكنني أرىٰ أنه يحرمهم خبرة الأستاذ الشيخ، وعمق معرفته وتمكنه، وإدراكه أبعاد القضايا من غير ما جهد كبير يُبذل، ولا قلق علىٰ الوجه يلوح. إنني تهتز ثقتي كثيرا في كل معلم يحضر إلىٰ قاعة الدرس قبل طلابه! فهذا الصنيع عندي دليل عجز، واعتراف منه غير ظاهر بعدم إمساكه بزمام الأمور. وكأنما يرىٰ في

هذا الحضور المبكر، حيث تراه أول من يدخل الفصل في كل يوم، يرىٰ في هذا اعتذارا للطلاب عما قد يبدر عنه من نقص أو تقصير. وقد خبرت ذلك كثيرا، في كورسات اللغة الإنجليزية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وفي كورسات الألمانية هنا ببرلين.

إنني أذكر الآن شيوخا في دار العلوم كنا نأخذ العلم عنهم وكأنه عطر زهرة يفوح منها من غير جهد منها ولا عناء! إن الزهرة لا تحتشد ولا تعصر أحشاءها لتبث عطرها فينعشنا، وإنما يصل إلىٰ نفوسنا هكذا عفوا من غير تكلف منها ولا منا. إني لأذكر محاضرات النحو لشيخنا حماسة[1] في الفرقة الرابعة، وأذكر كلمات كنا نهمس بها نحن الطلاب في محاضرته وهو شامخ علىٰ المنصة نقول: لو أن لنا عقل هذا الرجل! إنه يعرف النحو كله! وقد كان ذلك منا؛ لأننا كنا نرىٰ من الشيخ عجبا! ذلك أنه إذا عرض لمسألة نحوية في إطار الموضوعات النحوية المقررة كان لها اتصال جزئي بقضية أخرىٰ، نراه يفصل القول في هذه القضية الأخرىٰ بعفوية شديدة وعمق كبير، من غير أن يفلت منه الخط الرئيس للمحاضرة. إننا كنا نرىٰ النحو معه رأي العين؛ شبكة متصلة محكمة الغزل والنسج، موثوقة العرىٰ، يسلم بعضها إلىٰ بعض. لقد كنا نطرب لهذه السمة في محاضراته طربا لا حدود له. حتىٰ لقد حقق الرجل بيننا مجدا، وترك فينا دويا يقول المتنبي في مثله: كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر!

ألا نضر الله دار العلوم وأيامها! لكن الحديث الآن عن السيد قسطنطين، هذا المعلم الشاب الصغير، إنه يتقافز كثيرا في المسافة الخالية بين مقاعد الطلاب والسبورة. يكاد لسرعته وخفة حركته وتقافزه يصعد علىٰ المقاعد ويهبط كطفل صغير أو هو كقرد يعبث ويتقافز بين الأغصان. رحب بنا السيد قسطنطين وعرفنا بنفسه، إنه ليس ألمانيًّا .. هو بولندي الأصل! ما جاء بك إلىٰ هنا يا رجل ألا تجد في نفسك من هتلر الذي دمر بلادكم وحرق عليكم دوركم! بولندي نعم! لكنه قضىٰ ردحا طويلا من حياته هنا في ألمانيا فتعلم الألمانية وعرفها كما يعرفها أهلها؛ لم أكن أراه كذلك. لكنه هكذا زعم! قل ما تشاء يا سيد قسطنطين!

---

(١) هو العالم اللغوي الجليل الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، ونائب رئيس مجمع اللغة العربية.

الصف به خمسة عشر طالبا وطالبة أو يزيد قليلا، لكن العدد لا يزيد عن العشرين بحال! قلة العدد تمكن المعلم من التعرف إلىٰ الطلاب بأسمائهم وجنسياتهم! لكم الله طلاب مصر في مدارسها وجامعاتها! منكم من يجلس ومنكم من لا يجد مكانا للجلوس فما الفصل المدرسي ولا المدرج الجامعي إلا أتوبيس مصري كبير! بدأ التعارف بأن يذكر كل طالب وطالبة الاسم واللقب والحالة الاجتماعية وموضوع الدراسة أو التخصص، والسبب في دراسته اللغة الألمانية، أهي للالتحاق بالجامعة أو للحصول علىٰ فرصة عمل أو غير ذلك.

بدأ التعارف بفتاة جلست في جواري . . تالا جفاد Tala Jawad، إيرانية . . طالبة ماجستير في فن الموسيقىٰ، في جامعة بوتسدام Potsdam لن أزيد في تعريفها عن هذا! لأنني لن أقوىٰ علىٰ المزيد! ولكن دعوني أزعم زعما أكاد أقطع بصحته، وهو أن جمال أعين الفارسيات وسحرها كان أحد أهم أسباب اتصال الحضارتين العربية والفارسية من قديم. هذه الفتاة شرقية مثلي، لكنها بيضاء، ذلك البياض الشرقي المحبب إلىٰ النفس، إنها ليست شقراء كالألمان! لها شعر فارع فاحم، وحاجبان فاحمان مزججان كحد السيف، وقىٰ الله السامعين شر نصالهما، إن لهما في القلب أثر الحراب يقذف بها عبد مفتول العضلات لا يعرف قلبه الرحمة، لا يخشىٰ العقاب ولا يهاب! لفتني هذا الجمال الآسر، فنظرت إليها مرة أو مرتين وكانت تجلس إلىٰ جواري! لقد عرفت أن اسمها بالفارسية يعني «وجه القمر» رحماك يا رب يا مثبت القلوب والألباب!

توطدت العلاقة بيننا، حتىٰ إن شيئا من الفكاهة سرىٰ، فرأيتها فجأة وبلا مقدمات ترقص لي حاجبيها! فانخلع قلبي لترقيصهما! ماذا تصنعين يا قاتلك الله! فضحكت! وقالت: إن بيننا شبها عظيما في الحواجب! وإن لك حاجبين عظيمين كذلك! ألا تعرف ذلك في نفسك؟! قلت بل أعرف غير أني لا أزججهما كما تصنع النساء! إني أطلق حاجبي إطلاق الشيوخ للّحىٰ! فضحكت وقالت: وهذا سر سحرهما! أخذني خجل عظيم قرأته هي في وجهي، فرقصت حاجبيها مرة أخرىٰ! فضحكت هذه المرة وقد زادت ضربات القلب وخف الخجل! وقلت لها إن ترقيص الحواجب «عيب» كبير في ثقافتنا، يفعله الرجال يبدون به إعجابهن بالنساء، ويحاولون لفت أنظارهن،

وإغراء ضعاف النفوس منهن، ويسمونه «بصبصة» ويقولون للرجل «بصباص» وما سمعت منهم في المرأة بصباصة! قالت لكنني لا أرىٰ شيئا في ذلك إنما هي الدعابة وخلق شيء من المرح . . هل تستطيع ترقيص حواجبك! قلت أستطيع . . لكنني لن أفعل! فضجت بالضحك، وسدرت في غيها وقالت: هل تستطيع فعل هذا، قالته وقد شرعت في تثبيت أحد الحاجبين وتحريك الآخر بالتناوب في حركة بهلوانية عجيبة وقوة تحكم لم أر مثلها . . كدت أموت ضحكا، وأذوب خجلا في آن . . أخذت الفتاة تلح علي في أن أحرك حاجبي . . فحركتهما مرة أو مرتين مثنىٰ وفرادىٰ! كانت تلك حركة صبيانية تعجبت منها فيما بعد حين تذكرتها، وكنت فعلتها لا لشيء إلا لأنفي عن نفسي العجز عن القيام بمثل صنيعها. فعلتها . . ثم طرقتني عظات مشايخنا العظام من ذوي اللحىٰ الكثة! الذين يصدحون ليل نهار بتحريم النظر والتذكير بغض البصر . . حتىٰ لقد كان لعظاتهم في النفس أبلغ الأثر . . صحيح أن مشايخنا لم يقولوا شيئا في حكم ترقيص الحواجب؛ لكنني وجدت في نفسي منه، وصنعت قياسا فقهيا فألحقته بالمحرمات! فاستأذنتها في الانتقال إلىٰ مكان آخر . . انتقلت فجلست إلىٰ جوار «علي صادق». إنما جئت لتعلم الألمانية لا لترقيص الحواجب!

لقد ابتعدت تماما . . واكتفيت فيما بعد بشيء من الفكاهة عُرِفْتُ به، ذلك أن الأستاذ حين علمنا شيئا من الصفات والألوان، كان يطلب إلينا إدخالها في جمل، كعادتنا في تعليم العربية، فكنت أتحين الفرصة وقد ساد في الفصل ملل بسبب طريقة الأستاذ الكئيب، فأدخل الكلمات في جمل مثل: أسود كشعر تالا، أبيض كحقيبة تالا، أحمر كبلوزة تالا، حسن كوجه تالا . . فكان يضج الفصل بالضحك ويأخذنا طرب كبير.

ما رأيت آسر لنفس الرجل ولا أخلب للبه من بنات الفرس وبنات الترك! يكاد يكون الجمال فيهن سمة أصيلة لا تتخلف! وفي كثير من بنات الألمان خير. أما بنات العرب هنا فلهن حظ من الجمال عظيم، غير أنني وددت لو تكف ميسون اللبنانية زميلة الكورس ومعها كثيرات من العرب والخليجيات تراهن في كل مكان، وددت لو يكففن عن حلق حواجبهن وإعادة رسمها بالقلم في غير أماكنها! لا أدري سر إصرار الخليجيات وكثير من اللبنانيات علىٰ تغيير خلق الله الذي أحسن كل شيء خلقه!

ساورتني أفكار كثيرة من هذا القبيل .. فتذكرت أمي .. وكيف لا أتذكرها فلها في هذا الأمر معي باع كبير .. لقد طالما حذرتني حين انتقلت إلىٰ القاهرة للدراسة بدار العلوم علىٰ طريقة الصعايدة في المسلسلات والأفلام: «خلي بالك من بنات مصر»، كانت تقولها هازلة، لكنني كنت أعلم أنها تقصدها تماما! وقد عملت بنصيحتها رغما عني، ولا أدري لماذا، فكنت أحذرهن أشد الحذر. غير أنني كنت أرىٰ فيهن الملائكة، ملائكة ذوي أجنحة، تطير ولا سبيل إلىٰ الظفر بها .. فكنت أمنع عنهن نفسي وإن كادت تميل إليهن ميلا عظيما .. هكذا كنت أشعر! وظلت خشية الاقتراب من الفتيات بحديث أو بغيره ملازمة لي طوال سنوات الدراسة بدار العلوم، حتىٰ إذا التحقت بالجامعة الأمريكية تبدد الخوف هناك وزرعت في النفس بذور الجسارة. ولا أزعم أنني سعيت هناك للتعرف إليهن لبقايا خوف كانت في نفسي، ولكنهن دفعنني بتلقائية وعفوية يمارسنها بمهارة إلىٰ التخفف من ذلك الخوف!

إنني لأذكر فتاة جزائرية حسناء اسمها «فايزة بوصيلحة» نعم بوصيلحة، ولا أدري سر انتشار هذه الكلمة «بو» في أسماء الجزائريين، جميلة بوحريد، عبد العزيز بوتفليقة، الأمر حقا يحتاج إلىٰ نظر .. فايزة بوصيلحة كانت فتاة طيبة، لم تكن محجبة، نشأت بيننا علاقة دراسية في الكورس حتىٰ إنني أردت مرة سؤالها رقم هاتفها لأسألها إذا ما تغيبت مرة، عن الواجب المنزلي. تحرجت كثيرا لذلك، فقرأت الفتاة الخجل في وجهي، فما إن أدركت بغيتي حتىٰ ضجت بالضحك لخجلي مما لا يخجل منه، والتقطت الهاتف من يدي وسجلت فيه رقمها بنفسها! عددت ذلك ساعتها من جنون المرأة! وتذكرت «ذراعان» قصة قصيرة لأبو المعاطي أبو النجا! أنصح لكم بالبحث عنها وقراءتها لتعرفوا كيف تعتمل مشاعر الشاب الريفي وتمور بداخله الخواطر إذا ما آنس قربا من إحدىٰ فتيات المدينة، وبخاصة «بنات مصر»!

تبا للخواطر حين تنثال! تأخذنا بعيدا عن الخط الأساسي للحكاية! ولولا أنني أخشىٰ الاستطراد فأبتعد كثيرا عن كورس الألمانية هذا؛ لحكيت لكم حكاية طريفة ذكرني بها اسم فايزة .. ذلك أن لنا شيخا عظيما في دار العلوم فيه ظرف شديد، حكىٰ لنا أنه وقع في صباه وكان في المعهد الأزهري في حب فتاة اسمها «فايزة»، فلما درس بيت «جميل»:

لا لا أَبُوحُ بِحُبِّ بُثْنَةَ إِنَّها   أَخَذَتْ عَلَيَّ مَواثِقًا وعُهُودا

قرأ البيت فطرب له، وكان ملك حب فايزة ابنة الجيران هذه عليه أقطار نفسه، فاستبدل بـ «بثنة» في بيت جميل «فايزة» وكتب البيت علىٰ اللوح:

لا لا أَبُوحُ بِحُبِّ «فايْزَة» إِنَّها   أَخَذَتْ عَلَيَّ مَواثِقًا وعُهُودا

فما كان من والده حين رأىٰ البيت علىٰ اللوح إلا أن تهدده ولاقىٰ علىٰ ذلك ما لاقىٰ من العقاب!

لا شك أن ثقافتنا واحدة منذ زمن .. ولم تتغير حتىٰ اليوم!

كفانا استرسالا ولنمسك بالخط الرئيس للأحداث مرة أخرىٰ .. انتقلت بعيدا وتركت ذات الحواجب! وجلست إلىٰ جوار علي صادق .. وهو شاب إيراني أسمر أصلع قارب الأربعين، متزوج ولم ينجب بعد، حصل علىٰ الدكتوراه في هندسة الإلكترونيات، ويبحث عن عمل! كان كثيرا ما يقول بألمانية واضحة: "Ich suche eine Stelle" «أنا أبحث عن وظيفة»! حفظت هذه العبارة عنه من كثرة تكراره لها! والحق أنك لن تستطيع العثور علىٰ فرصة عمل جيدة مع الألمان حتىٰ تتقن لغتهم إتقانهم لها! وإذا لم تتقنها فلا عمل إلا في المحال التجارية ومع العرب في المراكز الإسلامية إن تيسر، وفي المطاعم والمطابع والمدابغ والمغاسل وصالونات الحلاقة وما شابه!

دارت عجلة التعارف بين الطلاب، فانطلقت إلىٰ فتاتين توأمين روسيتين في العشرين من عمرهما. بارعتي الحسن، تذكرت صديقا لي مصريا قضىٰ في روسيا خمسة عشر عاما، تزوج خلالها كثيرا من الروسيات، فأثنىٰ عليهن خيرا في طيب المضاجعة وحسن التبعل! وأقسم أنه لم يجتمع منهن تحته مرة أكثر من أربعة! وكيف لا وهو رجل دين يقيم شرع الله!

قضت الفتاتان اليوم الأول من الكورس متجاورتين في مقعد واحد، ثم اتخذت كل واحدة منهما صاحبا لها في اليوم التالي! وكان صاحباهما إيطاليين. صدقت يا صديقي المصري إنها شارة مبكرة ودليل علىٰ قرب المأخذ وطيب المعشر وحسن التبعل! لو عاش بشار بن برد هنا لما أسعدنا بقوله:

لا يؤنِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ   قول تغلظه وإن جرحا

عـــســر الــنــســـاء إلـىٰ مــيــاســـرة   والصعب يسهل بعدما جمحا(١)

لو عاش بشار هنا ما قال من ذلك شيئا، فالنساء هنا لسن عَسِرات! ولك في هاتين الروسيتين آيات!

دارت عجلة التعارف مرة أخرىٰ حتىٰ وصلت إلىٰ شابين غريبين، لبسا ملابسا رقيقة شفافة أشبه بملابس النساء، وقد لبس أحدهما حلقا في إحدىٰ أذنيه، وآخرَ كالخطام في أنفه. تحدث أحدهما فقال: اسمي «إيتاي جوريفتش»، إسرائيلي من أصل روسي، جئت من إسرائيل لتعلم الألمانية والبحث عن عمل، متزوج! وتحدث الآخر فقال: أنا «تال ديكيل» إسرائيلي كذلك حضرت لتعلم الألمانية، والبحث عن عمل، لكن السبب الرئيس لحضوري إلىٰ هنا هو مرافقة زوجي إيتاي!

كان وقع كلامهما علي وعلىٰ جاري الإيراني كالصاعقة! رجلان متزوجان!! . . كنت أعرف أن القانون الألماني يبيح الزواج بين المثليين، لكنني لم أكن أعلم أن الأمر وصل إلىٰ هذا الحد من الإعلان والمجاهرة . . كان في صاحبي الإيراني ظرف وجرأة لم أجدها في نفسي لهول المفاجأة؛ فسألهما: ألكما أطفال! فضج الفصل بالضحك! ووكزته فسكت غير أني لم أقض بوكزتي علىٰ سورته! فاستطرد يسألهما بصوت خفيض: من منكما الرجل ومن يقوم بدور المرأة؟! قالها فلم يسمعها غيري، فضحكت ووكزته فسكت!

انتهت الحلقة الأولىٰ من الكورس في ذلك اليوم ولم نصنع أكثر من التعارف . . التعارف نعم . . ليتنا لم نتعارف! لقد تعرفت إلىٰ إسرائيليين متزوجين! تعجبت للأمر كثيرا، فأخبرني الزميل الإيراني وكان سبقني بسنوات إلىٰ برلين، فعرف كثيرا من شئونها وأحوالها. قال وفيم العجب من ذلك . . إن نسبة المتزوجين من المثليين

---

(١) علق الصديق الشاعر هشام زغلول يقول: تناصُك مع جرير وبشار غير ناب عن النص الإطار . . مشتبك بلحمته وسداه . . وإن من حسنات هذا التناص البشاري أن ذكرني بمقطوعة «بخيتية» [يقصد أنها للشاعر أحمد بخيت] طال عهدي بها . . اسمح لي بذكرها لقرب نسبها من موضوع يوميتك الشائقة:

سـافِـرْ فـإنْ قـابَـلْـتَ فـي الـدنـيـا   قَـمَـرًا فَـرِيـدَ الـضَّـوْءِ . . كُـنْ فَـلَـكَـهْ
لا تَـرْتَـجِـفْ مِـنْ جَـفْـوَةِ امْـرَأَةٍ   واذْهَـبْ لَـعَـلَّـكَ تُـوقِـظُ الـضَّـحِـكَـهْ
فـي كُـلِّ سَـيِّـدةٍ مُـرَاهِـقَـةٌ   عُـرْيَـانَـةُ الإحـسـاس مُـرْتَـبِـكَـهْ
فـي لَـحْـظَـةٍ كـالـسِّـرِّ غـامِـضَـةٍ   تـأتـي إلـىٰ صَـيَّـادِهـا الـسَّـمَـكَـهْ

رجال برجال أو نساء بنساء تكاد تتفوق علىٰ نسبة زواج الأسوياء!

حاشا لله . . أي أسوياء! كل الناس هنا أسوياء وكلهم سواسية كأسنان الحمار، لا فضل لطبيعي علىٰ شاذ، ولا فضل لمسلم علىٰ مسيحي أو يهودي، ولا فضل كذلك لعربي علىٰ أعجمي لا بالتقوىٰ ولا بالعمل الصالح، فكل الناس هنا وفق مقاييسهم أتقياء أنقياء صالحون!

أمام المبنىٰ الجديد للمدرسة الذي انعقد فيه الكورس يقف مبنىٰ ضخم متقن الصنع، علىٰ واجهته لافتة كبيرة تحمل اسمه "goya"، وقد نحتت في هذه الواجهة العريضة تماثيل كثيرة لرجال ونساء عرايا، في أوضاع مخلة بالآداب، لقد وقفوا علىٰ واجهة المبنىٰ وقد صدروا للمارة مؤخراتهم وصدورهم وهم في حال من الاشتباك عظيم. حتىٰ إن التماثيل لفرط الإتقان في صنعها يخيل إلىٰ الناظر أنها تسعىٰ! وانتصب أمام البيت عمود طويل مدبب الرأس وكأنه مسلة مصرية فرعونية؛ غير أنه سداسي الشكل أو ثماني بحيث يبدو مستديرا، عرفت أنه شارة الشذوذ، نصبت أمام هذا البيت المعد للمثليين يقضون فيه حاجاتهم في حفلات كتب علىٰ المدخل أنها تقام يوميا (٣٦٥ يوما في السنة) . . ذكرتني تلك المسلة المصرية التي هي الآن شارة الشذوذ برايات حمراء كانت تضرب أمام بيوت العاهرات والبغايا في الجاهلية ليفد إليهن من يريد. كنا درسنا ذلك في دار العلوم في تاريخ الجاهليين!

شغلني الأمر شيئا ما وتعجبت له، لكنني انطلقت فركبت المترو في طريق العودة إلىٰ البيت، جلس في المترو في مقعد مجاور شابان أحدهما ملتح كثيف شعر الشارب واللحية، والآخر حليق، وقد أخذ أحدهما يقبل الآخر تقبيلا شديدا، حتىٰ إن أحدهم ليلتقم شفة صاحبه لفرط النشوة! لقد ضربني غثيان شديد كادت أمعائي علىٰ إثره تقفز من فمي!

لقد اعتدنا رؤية التقبيل الحار في كل مكان بين الرجال والنساء في هذه البلاد، حتىٰ لم نعد نرىٰ في الأمر شيئا، وألفنا كذلك أن تقبل المرأةُ المرأةَ تقبيلا من هذا النوع . . قد يبدو غريبا، لكنه يُقْبَل من النساء . . فلا شيء كبير يجده الرجل في نفسه حين يرىٰ قبلات حارة بين النساء، وإن كانت شاذة. أما أن يحتدم لقاء بين رجلين في المترو أو في الشارع فذلك ما لم تسطع نفسي عليه صبرا!

عدت إلىٰ البيت وقد انتابتني حالة من الغثيان شديدة . . شارب أحدهما في فم الآخر . . لن أتناول العشاء الليلة . . اتصلت بأحد الأصدقاء الألمان، لأستوضح الأمر، وليتني ما فعلت!

هل تذكرون عادل إمام في مسرحية «الواد سيد الشغال» حين أخذ يخلع عن الرجال والنساء في الحفل الشعور الزائفة ويلقي بها! فاكتشف أنه لا أحد من المدعوين حضر بشعره الطبيعي . . كل الشعور زائفة . . إن ما حدث كان قريبا من هذا . .

لقد كنت أتوقع أن هذه الظاهرة فردية، ولا بأس فهي موجودة في كل بلاد الدنيا حتىٰ في مصر، غير أن الأمر كان مفزعا . . لقد علمت أن عمدة برلين، محافظ العاصمة الألمانية، السيد كلاوس فوفرايت مبتلىٰ بهذه الآفة، إنه متزوج من صديقه المثلي، الطبيب «جورن كوبيكي». إنه يستغل آفته هذه للفوز في الانتخابات، بأن يعلن عن إتاحة حرية كبرىٰ للشواذ في ممارسة حقوقهم. ولما كان الشواذ يمثلون نسبة مؤثرة في المجتمع فإن الرجل ينجح في الانتخابات في كل مرة. لقد سنت القوانين قبل خمس سنوات تقريبا تبيح الزواج بين المثليين. ولم يتوقف الأمر عند عمدة برلين وحده، وإنما تجد وزير الخارجية الألماني «جيدو فيسترفيله» كذلك، متزوج بصديقه «ميشائيل مرونتس»! ويذكر أن المستشارة الألمانية «أنغيلا ميركل» كانت من أوائل المهنئين بزواج نائبها ووزير خارجيتها.

قد يجد أحدكم في نفسه مني . . كيف تصرح يا رجل بأسماء هؤلاء هكذا! إن الله حليم ستير . . أقول لكم إن هذا ليس بشيء . . فالأمر هنا يناقش علىٰ شاشات التلفزيون والصحف، وكأنه تحليل خطاب سياسي لمرسي أو لأحد تسريبات السيسي. لقد ناقشت حلقة تلفزيونية مرة لماذا لا يصحب السيد وزير الخارجية زوجه معه في الاحتفالات الكبرىٰ، بينما تصحب السيدة ميركل زوجها، ويصحب كل الوزراء زوجاتهم!

وكانت الصحافة الألمانية قد حذرت قبل إعلان تشكيل الحكومة الألمانية من تعيين (فيستيرفيله) لمنصب وزير الخارجية وذلك لصعوبة زيارته لعدد من الدول العربية والإسلامية، ذُكر منها باكستان واليمن والسعودية، التي ربما تصل عقوبة الشذوذ الجنسي فيها إلىٰ الإعدام بالرمي من فوق أعلىٰ المباني بحسب تعبير بعض الصحف

الألمانية. غير أن وزير الخارجية الألماني، قد أعلن أن كونه «مثليا» لا يسبب له أي نوع من الحرج، وتوقع أنه لن يلحق به أي ضرر خلال جولاته الخارجية.

لو توقف الأمر عند السياسة والسياسيين لهان! لكنني عرفت أناسا من المشاهير من أساتذة الدراسات العربية، مصابون كذلك بهذه الآفة، إنما أقول آفة وهي عندهم ليست بشيء! فهم يصرحون بها وكأنها نوع من الطعام يفضلونه! أو ماركة من السجائر جديدة يودون تجربتها. فالدكتور «ب. ب.» أعد رسالته للدكتوراه عن «الخصيان في أدب الجاحظ»، وهو متزوج من صديق له ويعيشون معا في شقة في شتجلتس، يعيشون عيشة الأزواج. والأستاذ الدكتور ت. ب. الحاصل علىٰ كبرىٰ جوائز البحث العلمي الألمانية في الدراسات العربية، ويعمل في جامعة مونستر، متزوج من رجل كذلك، وله بحوث عن أبي نواس، والحياة تسير بسلام، ولا شيء يعكر صفوها. وكأن آفة خطيرة لا تهصر أعوادهم .. ويستمر الإنتاج العلمي والتقدم في الحياة!

ولا يتوقف الأمر في ذلك علىٰ ألمانيا فحسب، فقد عرفت أستاذا في جامعة ليدز بإنجلترا، عرفت أنه متزوج من صديق له مصور سينمائي، وقد تبنيا طفلة صغيرة، هي ابنة إحدىٰ الشابات المقبلات علىٰ الحياة، فلا وقت عندها ولا قدرة علىٰ رعاية طفلتها، فأسلمتها إلىٰ هذين المثليين ليقوما علىٰ رعايتها وقد اتخذاها ابنة لهما. وهي تأتي لزيارتها والاطمئنان علىٰ أحوالها مرة واحدة في الشهر. وإذا كان القانون الإنجليزي يبيح التبني للمثليين من الرجال، فإن القانون الألماني لم يتح ذلك بعد! وما تزال المطالبة بذلك مستمرة!

ضقت بهذا الأمر كثيرا، حتىٰ إنني صرحت لأحدهم مرة بأنه عندنا غير مقبول! فالتفت إلي التفاتة شديدة وكأنني نطقت هجرا، وما غير المقبول في ذلك! قلت كلاما نعرفه جميعا من أن الطبيعة الإنسانية تأباه وكذا! لا شك أنه لا سبيل لذكر نصوص دينية تحرمه هنا فهم غير مسلمين! غضب من كلامي واحتد وقال ما ذنب من اضطربت هرمونات جسده ولم يعد يجد راحته إلا في ذلك! أليس من حقه أن يسعد كما يسعد من أسميتهم أسوياء! كلنا أسوياء يا عزيزي، ولا مجال للحديث والنقاش!

لقد طلبتم إليّ الخوض في حديث بعيد عن هذا الشيخ البرليني، فكان هذا الحديث، ليتني لم أحد عنه فقد كانت سيرته مطربة لي ولكم، لكنني أعدكم بعدم

العودة إلىٰ مثل هذا الحديث! وإنما أردت به أن أقدم لكم لوحة جديدة عن المجتمع الأوروبي، تمثل جانبا مهما من ثقافته وتشغل حيزا كبيرا من اهتمامه لكنها قد تكون غير واضحة المعالم في كثير أذهان[1].

---

(١) عاب عليَّ بعض القراء طرح مثل هذه القضايا والخوض فيها، لكن بعضهم علق، وأراني أتفق معه يقول: أعتقد أنه لا عيب في الحديث عن هذا الموضوع. فكما أنك تقوم بالحديث عن مميزات الألمان ونقاط القوة فيهم، ينبغي أيضًا أن تتحدث عن عيوبهم «أو ما نراه نحن من العيوب!». كل هذا يُعد جزءًا من ثقافة هذا الشعب، وعليك أن تتحدث فيه وتصفه حتىٰ تصلنا الصورة كاملة كما هي بدون تجميل أو تعديل.

(١٦)

وفاز باللذة الجسور

أيها القراء الكرام، كنت قد حدثتكم في الحلقة السابقة عن أمرين أقاما الدنيا ولم يقعداها، وأضرما نارا ما زال أوارها لم يخب مضطرما، وكلما هممت بمواصلة الكتابة أقعدني هم عظيم، لما خضت فيه معكم من حديث الشذوذ وترقيص الحواجب الإيرانية في كورس اللغة الألمانية! ليتني ما حضرت هذا الكورس اللعين ولا رأيت هناك شذوذا ولا شهدت ترقيصا للحواجب! لقد حاولت مواصلة الحديث عن الكورسات، لكنني لم أستطع، فحديث الكورسات لا شك يأخذنا إلىٰ الحديث عن الجميلات، وفي ذكرهن عند البعض ما يسوء! ولذا أستميحكم العذر في الابتعاد عن هذه المنطقة الوعرة إلىٰ حين، والانتقال إلىٰ منطقة أخرىٰ سهلة رخوة، يسهل فيها الحديث ويحلو، ويطرب إليه القارئ دونما قلق يصيبه أو مسحة من ورع تعتريه. فلا شذوذ ولا حواجب بعد اليوم!

لعلكم تذكرون لقائي الأول بالأستاذة نويفرت، الذي أخبرتكم بأنها وقَّعَتْ فيه علىٰ خطة البحث؛ حتىٰ أتمكن من إنهاء إجراءات التسجيل كما هو الشأن في الجامعات المصرية. حملت أوراقي وذهبت إلىٰ مكتب التسجيل فاستقبلتني هناك سيدة فاضلة تدعىٰ «رجينا رام» Regina Rahm، هي المسئولة عن تسجيل الطلاب الأجانب بالجامعة، سيدة ألمانية بدينة، لها قبول حسن، تبدو في الخمسين من عمرها، لكنها كثيرة الكلام، تطنب في الشرح وتطيل، حتىٰ ليصيب المرء لتكرارها وإلحاحها علىٰ الفكرة ملل عظيم. ليتني أتمكن من عقد لقاءات تاندم مع هذه السيدة لتعلم الألمانية، فلا شك أن كثرة كلامها وتكراره يمكنني من معرفة الألمانية علىٰ نحو سريع وبلا جهد كبير. ثم إنها من القواعد من النساء، فلا حرج ولا خوف من لقائها، إذ ليس يتوقع

معها شيء فوق التاندم كما هو الشأن مع كثير من الفتيات! لكنها بلا شك لا حاجة لها في تعلم العربية!

ليس الوقت وقت حديث عن اللغة، وإنما هي خاطرة وردت لأن المرأة كانت ثرثارة لا تكف عن الكلام .. أخذت أوراقي وشهاداتي، وكنت قد حرصت علىٰ توثيقها قبل السفر من الجامعة ومن مكتب التوثيق التابع لوزارة الخارجية المصرية، بـ «أحمد عرابي» بالمهندسين، قضيت هناك يوما طويلا أعاني شدة الحر ورائحة الزحام. وكنت صنعت شيئا من ذلك من قبل لأخي الذي يعمل في الكويت، إذ طلبوا إليه توثيق شهادات له، فتوثيق الشهادات لدول الخليج أمر لا شفاعة فيه. لأنهم يخشون تزوير المصريين! فلما جئت إلىٰ هنا بشهاداتي المختومة، عجبت السيدة لكثرة الأختام علىٰ الأوراق، أختام مختلفة الأحجام والأشكال والألوان، في وجه الأوراق وعلىٰ ظهرها، فسألتني عن هذا فشرحت لها أهمية الأختام عندنا، فضحكت وقالت إننا لا يعنينا شيء من هذا، بل إنني لن آخذ منك إلا صورا لهذه الأوراق، وأما الأصول فهي كلها ملك لك، وليس لنا أن نحتفظ بشيء منها في مكتب التسجيل. رتبت السيدة الأوراق وكانت مكتملة، فأخبرتني أنه لم يتبق من إجراءات التسجيل شيء إلا دفع الرسوم الجامعية، ٢٣٠ أويرو لستة الأشهر الأولىٰ. كتلك التي يدفعها الطلاب المصريون للحصول علىٰ بطاقة الجامعة، الكارنيه.

أتحصل علىٰ بطاقة جامعية كطلاب الليسانس في مصر وأنت باحث دكتوراه؟! نعم .. فكل من يدرس في هذه البلاد طالب، منذ مراحل التعليم الأساسي حتىٰ الحصول علىٰ درجة الدكتوراه، كلهم طلاب علم، وكلهم سواسية في الحقوق والواجبات والمعاملات. حين طلبت السيدة قيمة الرسوم، ضربت يدي في جيبي وأخرجت مبلغا كبيرا حملته معي من مصري فاق ما طلبت عدة مرات، ثم بللت أصبعي من فمي في شيء من الدعابة كما هي عادة التجار عندنا، يفعلون ذلك في غير قليل من المباهاة، وعددت لها المبلغ المطلوب، فقالت: ماذا تصنع؟ نحن لا نتقاضىٰ الرسوم نقدا، وإنما يتعين عليك دفعها لماكينة الجامعة المخصصة لتحصيل الرسوم، ثم عليك أن تأتيني بالإيصال الذي تخرجه لك الماكينة بعد السداد.

أخبرتها، وهي تعلم، أنني حديث عهد بالمكان ولا أعرف أين تكون هذه

الماكينة، ولا أعرف كذلك كيف أتعامل معها، ثم إن الأمر خطير، فالأمر يتعلق بالمال، وما أدراني إذا ما أسأت استخدام الماكينة، أو ضغطت أزرارا خاطئة، فربما سرقت الماكينة ما نقدتها من المال جملة ثم منعتني الإيصال! كم كان ظريفا هذا التفكير الفلاحي في ذلك الوقت. ضحكت المرأة، واستبشرت، وكانت قد سعدت سعادة كبيرة بأن مشرفتي هي الأستاذة أنجيليكا نويفرت، وقالت إنك محظوظ، فهذه الأستاذة مشهورة في ألمانيا وفي العالم كله، ولا بد لي أن أساعدك لسعادتي بك. لآتين معك لأساعدك في الدفع وأشرح لك طريقة التعامل مع الماكينة. ظننت أن الماكينة هذه في مكتب مجاور أو في طابق آخر من المبنىٰ، فإذا بها في مكان بعيد، ركبنا له المترو، بعد مشي استغرق بضع دقائق، تعجبت للمرأة التي أغلقت مكتبها، وتركت عملها، وجاءت لتساعدني! دار بيننا في الطريق حوار عن مصر وعن الأهل وعن الجامعة ونظام الإشراف. كلام كثير طويل .. الثرثرة تكون مفيدة أحيانا حين تدور في أمور نجهلها. وصلنا إلىٰ المكان المقصود. أعطيت المرأة المال، فألقمته فم الماكينة، وضغطت عدة مرات علىٰ أزرارها فاستخرجت الإيصال واحتفظت به لتضمنه ملفي بالجامعة، وطلبت إلي التقاط باقي النقود التي دفعتها لي الماكينة في جيب لها أمامي، وقالت هكذا انتهىٰ أمر تسجيلك! مع السلامة!

مع السلامة! .. كيف هذا! إنني لا أستطيع أن أتحرك أكثر من خمسين مترا مربعا أتوه بعدها وأضل الطريق. إنني لا أعرف كيف أعود إلىٰ البيت من هنا .. أعرف الطريق إليه إذا ما انطلقت من حيث تعملين في مكتبك أما من هنا فلا! إنني أعرف العنوان لكنني لا أستطيع الوصول إليه منفردا، فابتسمت المرأة مرة أخرىٰ، وقالت هيا بنا فقلت إلىٰ أين؟ قالت إلىٰ بيتك! تعجبت لصنيعها وشكرتها كثيرا. ركبنا المترو خمس محطات أو يزيد في الاتجاه المعاكس، فنزلنا في محطة كروما لانكا، وأوصلتني إلىٰ محطة الأتوبيس رقم ١١٨ وأخبرتني باسم المحطة التي أجد عندها بيتي ثم عادت إلىٰ عملها!

عدت إلىٰ البيت وقد غلبني شعور عظيم من الفرحة والنشوة بهذا الأسلوب الراقي النبيل، سيدة كبيرة تترك عملها وتنطلق معي لإنجاز أموري الخاصة دون أن أطلب

منها، وإنما كان ذلك لأنها لاحظت غربتي في المكان، ففعلت ذلك بسعادة كبيرة دونما ضجر أو تقطيب.

والحقيقة أن هذا صنيع أكثر الناس هنا من الألمان وممن طالت عشرتهم لهم من الأتراك والعرب والجنسيات المختلفة، فلم أطلب من أحد مرة هدايتي إلىٰ مكان ما أجهله، إلا ذهب معي، ولو سرنا مسافات بعيدة! حدث هذا مرات كثيرة في أزمنة متباعدة وأماكن مختلفة من البلاد. وكنت أسعد به وأعجب له أشد العجب! حين أتذكر ذلك السلوك المصري المشين، حين يعمد أحدهم إلىٰ تضليل غريبٍ سأله عن بعض الأماكن، فيصف له طريقا خطأ عكس المراد، لا لشيء إلا لخلق دعابة سخيفة مع أصدقائه بعد أن ينصرف الغريب: «أنا بَعَتّ الزبون»، ويمضي الغريب في طريق من الضلال بعيد، يلجمه عرق الصيف ويزكم أنفه ترابه وتألم أقدامه من غير ما طائل.

دائما أجدني مأخوذا لمقارنة ما أراه هنا في هذه البلاد بأحوال مصر، فأقول إن الأمر لا يتوقف عند تضليل السائلين، ولكن انظروا إلىٰ سلوك الموظفين. عدت إلىٰ البيت وقد غلبني هذا الشعور النبيل تجاه صنيع تلك المرأة الكريمة. استلقيت، وفي السرير دائما ترد إلىٰ الذهن الذكريات! هذا الشعور الجميل الذي عدت به من مكتب التسجيل بالجامعة ما لبث أن تبدد حين قفزت إلىٰ ذهني صورة السيدة المسئولة عن إنهاء إجراءات السفر بالعلاقات الثقافية بجامعة القاهرة، وكنت ذهبت إليها وفي قلبي قلق عظيم بثه أحد الأساتذة يحذرني مخلصا، شفقة منه علي، من مغبة السفر للدراسة بالخارج، لأنني قد أسافر ثم أرجع من هناك بخفي حنين، كفلان وفلان وفلان، ثم إنني وإن رجعت بالدكتوراه، فلا يخلو الأمر من مخاطرة شديدة كذلك، فقد لا تقبل جامعة القاهرة معادلة الدرجة التي حصلت عليها، وهو ما حدث مع فلان الذي فقد عقله لهذا السبب في جامعة أسيوط، وذاك الذي أصابه الشلل وفقد الحياة في جامعة المنيا، وطلب إليَّ التفكير في الأمر والانصراف عنه جملة. وذكر أمثلة كثيرة ممن ماتوا حسرة لما أصابهم بعد العودة من الخارج.

كادت كلمات الأستاذ هذه تفت في عضدي، غير أن جسارة تدب في نفسي أحيانا تبلغ بي حد الجنون دفعتني إلىٰ تجاهل ما قال، وتذكرت قول بشار:

مَنْ راقَبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ... وفاز بالطَّيِّبات الفَاتِكُ اللَّهِجُ

وقول الآخر وقد نظر إلىٰ بيت بشار:

مَـنْ راقَـبَ الـنَّـاسَ مـات غَـمًّـا وَفَـازَ بِـالـلَّـذَّةِ الـجَـسُـورُ

لن يثنيك هذا الكلام عن عزمك! أتذكر يوم كنت في الرابعة عشرة، ودخل المعلم الفصل يعلن عن رحلة مدتها أسبوع، تنظمها مديرية التربية والتعليم بكفر الشيخ إلىٰ مدينتي الأقصر وأسوان، يجتمع فيها طالب واحد من كل مدرسة من مدارس المحافظة، فلم يمنعك قلق أصاب كل زملائك في الفصل في تلك القرية النائية، من رفع يدك بالموافقة والتسجيل في الرحلة، وزيارة المدينتين الخالدتين مع أناس لم ترهم من قبل! وكانت زيارة ماتعة كدت تكتب عنها «قصة مدينتين» كما فعل تشارلز ديكنز! اثبت يا رجل وليكن ما يكون!

ذكرت شيئا من ذلك القلق الذي ساورني بعد حديثي مع الأستاذ للسيدة المسئولة بالجامعة، وسألتها عن جامعة برلين هذه، وهل هي من الجامعات المعروفة التي تقبل جامعة القاهرة شهاداتها، فقالت إنها لا تعرف عن جامعة برلين شيئا! وأردفت هكذا متفضلة علي بمزيد بيان: إن كثيرا من الباحثين يسافرون إلىٰ الخارج للحصول علىٰ الدكتوراه، فيحصلون علىٰ شهادات من جامعات «تحت السلم»، أو يزورون شهادات لهم، ثم يأتون فيعينون مدرسين في كلياتهم، بعد أن يكونوا قد تقاضوا مبالغ كبيرة من البعثات المصرية، وكلفوا الدولة الشيء الكثير، وذكرت أنها تنفق علىٰ أولادها في المدارس الخاصة آلاف الدولارات! .. آلاف الدولارات .. موظفة مصرية في مكتب حكومي .. لا أدري لماذا ساورتني شبهة الرشوة والفساد حول هذه المرأة .. لا أدري ما دفعها إلىٰ كل هذه الكلمات التي لا طائل من ورائها! رأيت في عينيها حقدا كبيرا لا أعرف سببه! يبدو أنها نظرت إلىٰ قيمة راتب المنحة الألمانية المثبتة في العقد، فمارت في نفسها كوامن شعور دفين! ثم إنها أوقعتني بجهلها أو بسوء نيتها في خطأ إداري كبير لم أستطع التغلب عليه إلا بصعوبة شديدة وبعد وقت طويل، وذلك أنها أخبرتني أنني حاصل علىٰ منحة ألمانية، ولا علاقة لقطاع البعثات المصرية بها، فليس من الضروري أن تخبر الإدارة العامة للبعثات بسفرك! فسافرت وعرفت بعد مدة طويلة من الزملاء المصريين في برلين أن إخطار إدارة البعثات بالسفر أمر ضروري، وأن معادلة الدرجة بعد العودة لن تتم إلا بخطاب رسمي من إدارة البعثات تؤكد فيه

أنني كنت تحت إشرافها العلمي! وبدون هذا الخطاب ربما كان مصيري كما توقع ذلك الأستاذ الذي استشرته بشأن السفر!

لقد زادت السيدة بكلامها الغريب من مخاوفي، فسألتها كيف أتثبت من أن جامعة برلين هذه ليست من جامعات «تحت السلم»، وأن جامعة القاهرة ستقبل شهادتي منها، فقالت يمكنك الذهاب إلىٰ «قسم المعادلات» في المجلس الأعلىٰ للجامعات، وسلهم عن هذه الجامعة، وهل حصل أحد منها من قبل علىٰ درجة الدكتوراه. لا شك أنني كنت أعرف الكثير من المشاهير وغير المشاهير تخرجوا فيها منهم عمرو حمزاوي مثلا، والدكتور الفارس علي من دار العلوم نفسها! ذهبت إلىٰ المجلس الأعلىٰ للجامعات فأخبرني الموظفون بعد لأي شديد ببعض أسماء من تخرجوا فيها فاطمأن قلبي شيئا قليلا.

عقدت مقارنة سريعة بين موقف الموظفتين الألمانية والمصرية، وكنت في حال بين النوم واليقظة، فتحركت أمعائي في بطني! وذهب عني النوم. رغم أنني عرفت مؤخرا أن جامعة برلين احتلت في هذا العام المركز الثالث عشر بين جامعات العالم في ميدان العلوم الإنسانية، بينما لم تقرب جامعة القاهرة المائة الخامسة في الترتيب. ولله في خلقه شئون!

لم ينته أمر التسجيل علىٰ ما أنجزته السيدة رجينا رهم، فقد كان دورها يقتصر علىٰ إلحاقي بالجامعة، أما التسجيل للدكتوراه فله مكتب آخر، فيه فحص ونظر وله متطلبات كثيرة. ذهبت إليهم، فإذا موظفة ألمانية هي شديدة الشبه بالرجال. ترتدي قميصا وبنطلونا، قصيرة الشعر، جادة الملامح، مخيفة. وكأنها الفنانة ليلىٰ فوزي في فيلم «ضربة شمس»، فقد قضت الفيلم كله صامتة تظهر من حين لآخر تبث الرعب في قلوب المشاهدين. السيدة ترفض الحديث بالإنجليزية، أو هي لا تعرفها، فلا سبيل إلىٰ الحديث معها إلا بالألمانية وكنت ساعتها أحسن الألمانية شيئا قليلا لا يعينني علىٰ الفهم والإفهام. عرفت منها أن التسجيل يتطلب أمورا منها شهادات الليسانس والماجستير، وشهادات تشهد بمعرفتك عدة لغات. قد كنت حملت كل هذا معي! ففحصت الأوراق بعناية شديدة، ووقفت هناك عقبتان. الأولىٰ أن شهادة الماجستير لا تخبر بغير عنوان الرسالة والتقدير، وهذا عندنا كل شيء. لكن المرأة ألحت في

طلب درجات الكورسات. أي كورسات قاتلك الله، فلا شيء من ذلك عندنا. نظام الدراسة مختلف! قالت لا بد أن تأتيني بدرجاتك في مواد الماجستير. رحت أحاول إفهامها عبثا أن نظام الماجستير في مصر يختلف عنه في ألمانيا. فالماجستير في برلين هو عدد من الكورسات يدرس فيها الطالب عددا من المواد المختلفة في التخصص، ثم يمتحنه الأساتذة امتحانا تحريريا وترصد له درجات، ويعد في النهاية بحثا صغيرا تتراوح صفحاته بين الخمسين والستين. أما في مصر فلا توجد كورسات، والماجستير ليس إلا كتابة الرسالة.

لم تقنع المرأة بكلامي، وعدته ضربا من الجنون أو الفهلوة المصرية، فأخبرتها أنني يمكنني الاتصال بجامعة القاهرة طلبا لوثيقة تثبت صحة كلامي، فأنكرت ما قلت، وقالت إن كان شيء من ذلك، فلا يصح أن يتم عن طريقك بشكل شخصي، وإنما يتم بخطاب رسمي يجري بين الجامعتين. فقلت لها: الأمر إليك! لكنني أعرف أن الأمر صعب، ففي جامعة القاهرة لا يردون علىٰ الرسائل، وقد أخبرني من قبل صديقي كريستيان يونجىٰ أنهم في معهد الدراسات العربية قد أرسلوا إلىٰ دار العلوم إيميلات كثيرة في مسائل تتعلق بالتبادل العلمي والثقافي، ثم انتظروا الرد انتظارا طويلا لطموا علىٰ إثره الخدود وشقوا الجيوب فلم يظفروا بردّ حتىٰ الآن!

وأما العقبة الأخرىٰ، فهي اللغات، فهم يشترطون في طالب الدكتوراه في الدراسات العربية معرفة عدة لغات لاتينية وهندوأوروبية، من بينها اللغة التي ستكتب بها الرسالة وستكون بها المناقشة في النهاية، ويطلبون فيها درجة إتقان عالية..

فأما لغة كتابة البحث فكانت الإنجليزية، وحملت معي لإثبات معرفتي بها شهادة الجامعة الأمريكية بالقاهرة التي وصلتُ في دراسة اللغة الإنجليزية فيها إلىٰ المستوىٰ المتقدم، غير أن المرأة لم تقرّها، وقالت إننا نطلب درجة معينة من الإحاطة باللغة، ولا بد من فحص شهادتك هذه وتقييمها ومعادلتها، والنظر ما إذا كانت تتفق مع المعايير الجامعية هنا أو لا. واستطردت تسألني عن معرفتي باللغات الأخرىٰ! فهي تريد شهادات تثبت ذلك، وإن كانت لا تطلب درجة عالية من الإتقان. داخلني قلق عظيم لهذا، ثم تذكرت شهادة اللغة الألمانية التي كنت درستها لمدة شهر واحد في ذلك الوقت، وحملت معي شهادة تثبت دراستي للفارسية ثلاث سنوات بدار العلوم،

وللفرنسية عامين في الثانوية العامة، هذا بالإضافة إلىٰ العربية، لغتي الأم التي لا أحمل شهادة تثبت معرفتي بها! رأت السيدة أن هذا العدد من اللغات كاف وفقا للمعايير، وكان زميل ألماني سوري الأصل يدعىٰ «عثمان الحجار» قد حضر فشهد الموقف، فأردف يعزز موقفي قائلا: إنه يعرف كذلك العامية المصرية! فالعربية عندهم عربيتان، عامية وفصحىٰ، ظننته يهزل فإذا الأمر جد! فالعامية المصرية كذلك لغة معترف بها، ويفد الطلاب الألمان أحيانا إلىٰ مصر لتعلمها والحصول علىٰ ما يفيد بإتقانهم لها، ثم إن لها كتبا تعليمية منشورة رأيتها فيما بعد في أيدي بعض من يتعلمونها من الألمان.

كم سعدت الآن بدراستي للفارسية في دار العلوم، وللفرنسية في الثانوية، لقد كنا نظن ألا فائدة من وراء ذلك، وها أنا اليوم أفيد!

استغرق الأمر شهرا أو يزيد، عُرِضَت فيه الأوراق والشهادات وخطة البحث علىٰ لجنة علمية متخصصة كلجنة الدراسات العليا عندنا، ثم تلقيت بعد ذلك خطابا يفيد بموافقة الجامعة علىٰ اعتمادي رسميا طالبا للدكتوراه. ولا أظن أن المرأة راسلت جامعة القاهرة في شيء، وإنما هي البيروقراطية الألمانية التي تشبه الحال في مصر أحيانا.

(١٧)

الجمعة الأولى

لما التحقت في أيامي الأولىٰ في برلين بكورس اللغة الألمانية، لم يكن يتيسر لنا أداء صلاة الجمعة، فالجمعة ليست عطلة رسمية كما هو الحال في مصر، وإنما هي عندهم يوم عمل شأنه شأن بقية أيام الأسبوع. فكان الكورس ينعقد في وقت الصلاة، ثم إن الطريق إلىٰ أقرب مسجد للجامعة فيما علمت من الأصدقاء وقتها يستغرق ساعة من الزمن أو يزيد. كنت أجد في نفسي من ذلك، فأرسلت رسالة إلكترونية إلىٰ رجل عالم بالدين اسمه «خضر»، أخبرني بأمره صديقي علي فتح الله، وقال إنه يدرّس العربية وعلوم القرآن بجامعة برلين، وهو عضو بارز كذلك في اتحاد العلماء المسلمين بأوروبا. أرسلت إليه أسأله عن أحوال الجامعة ونظام الدراسة بها، فرد الرجل ردا قصيرا، يخبرني فيه أنه يخطب الجمعة غدا في «مسجد الرحمة» مسجد الشيخ مندور، في محطة مترو Boddinstraße، وطلب إليَّ إذا ما كنت في برلين أن أذهب للقائه هناك عقب الصلاة، وكان ذلك يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر ٢٠١١.

ذهبت إلىٰ الصلاة في العنوان المذكور، فرأيت مسجدين متجاورين، أحدهما «مسجد الرحمة» هذا الذي أخبرني به الشيخ خضر، ولم يكن مسجدا بهذه الهيئة المعروفة للمساجد في مصر، وإنما هو دور أول في بناية عظيمة عرفت أنه مستأجر من صاحب العمارة واتخذه المسلمون مسجدا. وأما المسجد الآخر فيدعىٰ «دار السلام»، ورغم أنه مبنىٰ مستقل، فإنه ليس في هيئة المساجد كذلك، فعجبت له، وسألت عنه فعرفت أنه في الأصل كنيسة ابتاعها المسلمون من الألمان واتخذوها مسجدا، غير أن الطراز الكنسي في البناء واضح جلي. فكرت لدقائق كيف يبيع الألمان كنيسة للمسلمين! وهل يحل للمسلمين بيع مسجد للنصارىٰ! جالت في ذهني خواطر حول التسامح والتعصب، وما يسمونه في مصر «الفتنة الطائفية»!.

دخلت «مسجد الرحمة» للصلاة ومقابلة الشيخ. جلست بين المصلين مدة أجول ببصري في المسجد، وعما قليل صعد الشيخ المنبر. رجل طويل القامة، قوي البنية، حسن الثياب، شرع في الخطبة فحمد الله وأثنىٰ عليه، وأخذ يستعرض موضوع الخطبة فطربت لعربيته، وحسن تعبيره، وقدرته العظيمة علىٰ صوغ المعاني في عربية رائقة آسرة. بعد الصلاة تعرفت إليه فكان كريم النفس ضاحكا مستبشرا، رحب بي وأثنىٰ علىٰ الدراعمة خيرا، وأخبرني أنه رجل أزهري . . وأنه يعد رسالته للدكتوراه في المعهد نفسه الذي التحقت به، ومع الأستاذة المشرفة نفسها أنجيليكا نويفرت، وموضوع أطروحته عن «أسباب النزول». لله أنتم أيها الأزاهرة! إن لكم في بلاد الغرب دورا عظيما! تهتز لكم أعواد المنابر في كل مكان! عجبت للغة الشيخ خضر ذلك الخطيب الماهر بالعربية، وكنت افتقدتها في خطيب المسجد الذي كنت أرتاده إلىٰ جوار بيتي في مصر، كل شيء في هذه البلاد متقن وجميل! حتىٰ اللغة العربية! إذا أردت أن تسعد بها، فاترك خطباء مصر واستمع إلىٰ خطباء ألمانيا! إنني لأذكر مسجد قريتي الصغير، إنني لأراه الآن يغط فيه الناس أثناء خطبة الجمعة في نوم عميق، بعد أن أجهدهم العمل في الحقول، حتىٰ إن بعضهم تعالىٰ «شخيره» مرة، فغضب لذلك الخطيب علىٰ المنبر، وقد أصاب الناس من طريقته في الخطابة سأم عظيم، فصاح بهم: «اصحوا يا عباد الله» فاستفاق كثير منهم مشدوهين لقوة نداء الشيخ، وقد اتسعت أحداقهم لهول المفاجأة يتمايلون وهم جلوس ويتخبطون، وأقبل بعضهم علىٰ بعض يتساءلون «مين . . إيه . . فين . . إزاي . . حصل إيه»!

معاشر الخطباء: ليتكم تحسنون اختيار موضوع خطبكم ليتناسب مع أفهام المصلين. فخطيب القرية ليس كخطيب المدينة. وخطيب العوام يختلف عن خطيب أصحاب العلوم والأفهام! ما ذنب فلاحين بسطاء في الاستماع إلىٰ حديث طويل عن خلاف فقهي في مسائل دقيقة. ينتهي الشيخ بعد تفصيل طويل فيه إلىٰ صحة المذهب الذي ينتصر له. حتىٰ لقد سمعته بأذني يزهو علينا في المسجد صاخبا علىٰ المنبر: «لقد أقمت الحجة عليكم . . أهه . . لقد أقمتها»، أقمت الحجة علىٰ من؟ أيها الرجل الطيب! ثم أي حجة هذه التي أقمتها لتصخب هكذا؛ حتىٰ ليشعر السامع أنه ستريه

هذه الحجة رأي العين! ماذا دهاك يا شيخ رفقا بالعباد ففي شقوق أقدامهم طين الحقول وبعض أعواد من برسيمها!

راقتني لغة الشيخ خضر وحسن بيانه حتىٰ إنني تذكرت أخطاء للخطباء في مصر قاتلة! أزعم أنها توجب إقامة الحدود عليهم، ولا يمنعني عن تأكيد هذا الزعم إلا علمي بجهلهم. من ذلك أن هاج أحدهم علىٰ المنبر مرة وصخب، وأخذ يروي لنا للعبرة والموعظة قصة ذلك الرجل الذي زنا وجاء يخبر النبي ﷺ بفَعْلَتِه، ويطلب إليه أن يقيم الحد عليه، بدأها بقوله: «جاء رجل من المسلمين إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في المسجد وقال له: (لقد زنيتَ يا رسول الله)[1] ودق المنبر بيده عند ذكر الزنا دقة كادت ترديه، وكانت في الوقت ذاته صفعة قوية علىٰ قلبي وقلوب كل من أدرك المعنىٰ، حيث نسب الرجل الزنا جهلا منه بقواعد العربية إلىٰ النبي! لقد رأيت خطأه اللغوي ساعتها أبشع من الزنا! ومنه أيضا ذلك الشيخ الكبير اللحانة العجانة، يصخب ويصول ويجول، ويظن أن له علما لَدُنِّيًا، أو أنه أوتي جوامع الكلم حتىٰ ليزهو علينا ويسجل الخطبة لنفسه بجهاز يحمله في يده اعتزازا بما يقول، وكان قد تحدث عن الحج فقال: أيها الحاج، ينبغي أن يكون مالُك من حلال، وراحلتك من حلال، ثم زاد صخبه وعلا صوته واشتد: وإذا كنتَ قد ظلمتَ (إنسانٍ)! فلا تسافر إلىٰ الحج (قبل أن تمكنَّه من نفسك)!

ما هذا يا قاتلك الله! ألا تعرف دلالة هذه الكلمة الأخيرة في أذهان الناس! . . إنك بعبارتك غير الواعية هذه تردنا إلىٰ موضوع الحلقة البائسة من هذه اليوميات (عن المثليين) دون وعي منك! عافانا الله وإياكم من أخطاء الخطباء وفداحة خطبها الجلل!

---

(١) هكذا نطقها بفتح تاء الفاعل!

(١٨)

هجرة غير شرعية

كان الحديث في الحلقة السابقة قد أخذنا إلىٰ الخطابة والخطباء، وقد رأيت أن أواصل معكم في هذه الحلقة الحديث عن المساجد في برلين، وما يجري فيها، وما يدور حولها، فأروي لكم طرفا من طَرَائِفِها ومُلَحِها، وكذلك عذاباتها وويلاتها!

لقد أخبرني الشيخ خضر أن مسجد الرحمة هذا هو مسجد الشيخ مندور. والشيخ مندور هو شيخ مصري أسس هذا المسجد قبل سنين، ويعمل فيه إماما وخطيبا، وإنما خطب فينا الشيخ خضر في هذا المسجد جمعة أو جمعتين لأن الشيخ مندور كان في زيارة لمصر عاد منها بعد قليل ليتولىٰ أمر الخطابة في مسجده. عاد الشيخ مندور عبد الواحد فإذا هو رجل من أهل التقوىٰ والصلاح، عرفت ذلك في بهاء طلعته، وحسن منطقه، وفي كلماته التي لا يعوقها عن الوصول إلىٰ قلوب الناس شيء! تعرفت إلىٰ الشيخ مندور، وهو كما أخبرني رجل أزهري من مركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة، سعدت بهذا الشيخ سعادة عظيمة، إنك إذا ما رأيته واستمعت إليه، فإنك لا تملك إلا أن تحبه، فهو علىٰ علمه وأدبه، لا يزال يحتفظ بفطرته المصرية الريفية النقية وطريقة كلام أهالينا في القرىٰ كذلك! إنه يخطب فينا فنشعر كأننا بعض أفراد أسرته، فكل المصلين أبناؤه وآباؤه وبعض من أهله. يحنو علىٰ الجميع، ويرفق بنا كثيرا، ويدعونا إلىٰ الله مخلصا في هذه البلاد، وكأنما يريد صادقا أن يأخذنا جميعا في شفقة الأب الحاني إلىٰ الجنة! فكان إقبال الناس عليه عظيما.

وإذا ما أكثر الخطباء في مصر من الحديث عن أن يوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين، فكنا نسمع الكلام ولايكاد يمس قلوبنا؛ أي عيد هذا الذي يأتي كل سبعة أيام! يصيب الناس فيه ملل عظيم حين يضطرون إلىٰ سماع كلام طويل مكرور من شيخ

عيي لا يكاد يبين! لم أشعر أن الجمعة عيد إلا في هذه البلاد، ولا يرجع هذا إلىٰ جودة الخطباء ومهارتهم فحسب، وإنما لأن الجمعة هنا مثلت زادا روحيا لا مثيل له، يعالج شيئا من ذلك الخواء الروحي الكبير، الذي تعانيه طيلة سبعة أيام لا ترىٰ فيها المسجد، ولا تسمع الأذان تتجاوب أصداؤه بين المآذن في شتىٰ الأرجاء كما هو الشأن في مصر العامرة، وإنما تسمعه فقط داخل المسجد حين تزوره يوم الجمعة! حقا إن الجمعة هنا عيد، ننعم فيه برؤية الأصدقاء، ونتزود بزاد روحي غير قليل، ونأكل كذلك ساندوتشات الطعمية التىٰ لا وجود لها في برلين إلا في مطعم لبناني صغير بجوار المسجد . . قد يعجب البعض من هذا الكلام، لكنه حقيقة واقعة . . ومن ذاق عرف!

لقد كانت للشيخ مندور عادة لا تتخلف، وهي أنه يتحدث إلينا قبل أن يصعد المنبر، يوجه رسائل مختصرة محددة يُذَكّر بها في كل مرة، وهي أن نتفسح في المجلس، وأن نغلق المصاحف، وأجهزة المحمول، ويؤكد أن تشبيك الأصابع وقعقعتها من المكروهات أثناء الاستماع إلىٰ الخطبة. ومن قال لأخيه أنصت فقد لغىٰ ومن لغىٰ فلا جمعة له . . ربما كان كلامه تقليديا معروفا مطروقا كذلك، لكنني كنت أجد فيه شيئا يأخذني، ربما كانت نبرة صوت الشيخ المصري الريفي، ودعابته الرقيقة، ووده الظاهر. فكنا نمتثل بحب لأوامره تلك، إلا قليلا منا لا يستجيبون، تصخب هواتفهم أثناء الخطبة!

تميزت موضوعات خطب الشيخ مندور بالجدة والطرافة، حتىٰ إنه ألقىٰ مدة من الزمن خطبا حول سورة يوسف وراح يستخلص منها العظات والعبر، فكنت أعجب لقدرته علىٰ تخليق المعاني واستنباط الدروس المستفادة من الآيات. لقد كان بارعا حقا حتىٰ إنني كنت أدعو كل من يفد إلىٰ برلين من الأصدقاء الجدد ويسألني عن مسجد لصلاة الجمعة، اذهب إلىٰ مسجد الشيخ مندور!

أمضيت في الاستماع إلىٰ خطب الشيخ قرابة عامين! حتىٰ حدث ما لم يخطر لي ببال!

كنت أجلس بين أصدقاء لي دعوتهم للمرة الأولىٰ ليسعدوا بسماع الشيخ مندور، فخطبنا الشيخ خطبة عظيمة، وبعد جلسة الاستراحة أنشأ يقول: رُوّاد المسجد

الكرام، أعلم أنكم تأتون إلي من كل مكان، بعضكم يعرفني وكثير منكم لا يعرفونني، فدعوني أعرفكم بنفسي، أنا فلان ابن فلان، من بلدة كذا، والدي ﷺ شيخ حامل للقرآن، ولي عدد كبير من الإخوة كلهم من حفظة كتاب الله، وما كان لي أن أكذب أبدا ابتغاء عرض زائل من هذه الدنيا! إن هذه هي آخر خطبة لي في هذا المسجد، هذا المسجد الذي أسسته قبل سنين، وتحملت مسئوليته علىٰ عاتقي، وحملت منبره هذا علىٰ كتفي من منطقة كذا، لا مكان لي فيه بعد اليوم، وقد تقدم مجلس إدارته بشكوىٰ إلىٰ القضاء الألماني يتهمني بالاحتيال لسرقة أموال التبرعات! إنهم يحملونني ديون المسجد التي قدرتها المحكمة بخمسين ألف أويرو! وها أنا أقدم لكم كشف الحساب، ثم نشر الشيخ من فوق المنبر شريطا ورقيا طويلا صنعه من صفحات الحساب، أوله في يده علىٰ المنبر وآخره علىٰ الأرض بين الناس في الصف الأول! إنني علىٰ استعداد تام لمراجعة كشف الحساب، فمن شاء منكم محاسبتي فليأت بعد الصلاة، لكنني اتخذت قرارا بالمغادرة ولا رجعة فيه، فعلا ضجيج الناس لاستبقائه، فطلب إليهم الصمت وقال: أرجو ألا يحدثني أحد في هذا الشأن بعد الصلاة، ثم دعا الله، وقال للمؤذن: أقم الصلاة!

غادر الشيخ المسجد، فغلبني هم عظيم، والله أعلم بما كان! لم أتقص الأخبار، وداخلني حزن كبير لحال العرب والمسلمين! يا لسوء طويتهم وحقد نفوسهم! ما أكثر المكايد والدسائس بينهم، ثم إنهم قوم لا يخجلون من فضيحة لهم يجري ذكرها بين الألمان أو غيرهم. وجدت في نفسي من إدارة المسجد التي شكت الشيخ، وإني لأحسبه من الصالحين .. ثم غادرت المسجد من يومها إلىٰ المسجد الآخر، «دارالسلام»، ذلك المسجد الذي كان في الأصل كنيسة ابتاعها المسلمون، فما كنت أطيق أن أرىٰ علىٰ منبر الشيخ مندور خطيبا آخر بعد ما كان!

هونوا عليكم أيها القراء! فلا يجد أحدكم في نفسه مما جرىٰ للشيخ مندور، ولا يحملن أحدكم في نفسه منه شيئا، فالله أعلم بما كان، وإني لأحسبه من الصالحين، وهيا بنا الآن نروي لكم ونقص ونحكي أطرافا مما جرىٰ بين هذين الموقفين، بين أول لقاء بالشيخ وآخر خطبة له!

إن البرد كما تعلمون في هذه البلاد شديد، ففي أكثر المساجد ماء ساخن للوضوء

ومناشف كثيرة للتجفيف بعد الفراغ منه. خصصت لتلك المناشف غسالة ألمانية عظيمة! ليتنا نصنع ذلك في مصر لندفع عن المصلين البرد والبلل والزهد في الوضوء فنحبب إليهم الصلاة.

ذهبت لصلاة الجمعة ذات مرة، وبينما أنا مطرق لصوت مياه الصنبور في الوضوء، أنعم بدفء مائه الذي قتل حدة البرد التي أكلتنا في الطريق إلىٰ المسجد، نما إلىٰ أذني صوت مصري بين الشوام، وأكثر الناس هنا من فلسطين وسوريا ولبنان، لهم لهجة في الحديث معروفة، وصل ذلك الصوت المصري إلىٰ أذني فدق قلبي له ولم أره! كان صوتا قلقا حائرا، دفعني إلىٰ الإسراع في الانتهاء من الوضوء لأذهب وأتعرف إليه! فهو مصري مثلي! رفعتُ رأسي من الوضوء بعد أن فرغت، ورحت أجفف الماء بواحدة من تلك المناشف! فإذا شاب بدا في الأربعين أو أقل قليلا، عليه سيماء البؤس والشقاء! ذو هيئة رثة، وملابس قديمة غير أنها لم تكن بالية، رأيت فيه مئات من أبناء قريتي كنت أعرفهم جميعا، يجوبون الحقول نهارا يجرون مواشيهم، طعامهم كسرات خبز يابسة، وقطعة جبن قديمة مالحة، وحبة طماطم ربما كانت لطول العهد لينة ذات رائحة!

اقتربت منه وابتسمت في وجهه وحييته، أهلا بأهل مصر! سمعها مني فَقَرّت عيونه الزائغة علىٰ عيني، وابتسم، وكأنما وجد في التشابه الذي بين لسانينا شيئا من الطمأنينة!

ما اسمك أيها الرجل الطيب؟ قال: «جمعة». ومتىٰ جئت إلىٰ برلين؟ وصلت منذ ثلاثة أيام، وأبحث عن عمل أقتات به، فدلني الناس علىٰ المسجد، وقالوا: إنك لا شك واجد فيه من يعينك علىٰ قضاء حاجتك! وها أنا قد جئت!

كان يقف معنا بعض أصحاب الوجوه المألوفة لي في المسجد من أهل الشام! فطمأنوه ودعوه إلىٰ عدم القلق ووعدوه بأن يدبروا له أمره. وقال أحدهم: كل ما عليك هو أن تعطينا أوراقك، جواز السفر، بطاقة تحقيق الشخصية، تأشيرة الدخول، وستكون الأمور علىٰ ما يرام! قال جمعة: إنني لا أملك شيئا من ذلك، فلا جواز سفر معي ولا تأشيرة، لقد جئت عن طريق البحر مهاجرا، علىٰ قارب صغير حمل مائة رجل أو يزيد قضىٰ بنا في البحر أربعة أيام!

قالها فانصرف الناس عنه، وقالوا إن في الأمر صعوبة كبيرة! فلا أوراق معه، والأمر إذن يحتاج إلىٰ شيء من النظر والاحتيال طويل! فمن ذا صاحب العمل الذي يقبل في عمله رجلا لا يعرفه!

إن جمعة قضىٰ أربعة أيام في البحر علىٰ ظهر مركب صغير . . قضاها بين الحياة والموت! أخذتني شفقة عظيمة عليه، وتذكرت أربع ساعات أقضيها علىٰ متن طائرة مصر للطيران، في الطريق من القاهرة إلىٰ برلين أو العكس، وكيف أن مللا عظيما يأخذني لطول السفر حتىٰ لأشعر بميل إلىٰ القفز من الطائرة رغبة في سرعة الوصول . . فحمدت الله، وطلبت إلىٰ جمعة أن يكمل لي قصته!

قال جمعة إن المركب ملك لجماعة من الصينيين، يعملون في تهريب العمالة إلىٰ أوروبا! انطلق المركب من سواحل الإسكندرية، وسار لبعض الوقت موازيا للساحل يلتقط مهاجرين آخرين من دول أخرىٰ، ولا أعرف كيف كان اتجاهه، هل اتجه إلىٰ سواحل ليبيا ناحية الغرب، أو اتجه إلىٰ غزة ناحية الشرق والله لا أدري!! كل ما أعرفه أنه حين عج بالركاب حتىٰ كاد يغوص في الماء، لاحظت أن الساحل الذي كنا نسير بمحاذاته أخذ يبتعد شيئا فشيئا فأدركت أننا آخذون في طريقنا إلىٰ أوروبا أرض الأحلام!

لقد وصلنا إلىٰ سواحل ألمانيا ولم نغرق! لقد نجحت رحلتي وها أنا ذا هنا! وصلنا إلىٰ الساحل فنزلنا من المركب، ومشينا قليلا، وأشرت بيدي إلىٰ صاحب سيارة فالتقطني من علىٰ الطريق وأوصلني إلىٰ داخل البلدة، ولما رأىٰ حالي، أشفق علي وأعطاني خمسين أويرو! وتعرفت إلىٰ رجل مغربي عند وصولي إلىٰ هذا الحي، رثىٰ لحالي كذلك وطلب إلي أن أشاركه حجرته في المبيت ريثما ينصلح الحال!

وما دفعك إلىٰ كل هذه المخاطرة يا جمعة؟! سألته وقد بدأ قلبي يدق بقوة وتسارعت ضرباته، فإنني أعرف القانون الألماني! إنه لا يرحم أمثال هذا البائس المهاجر غير الشرعي! ربما سجنوه أو رَحّلوه! لماذا فعلت ذلك يا جمعة؟ . . . وماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك؟!

لا تقلق يا جمعة . . إن ألمانيا بلد الرحمة، وبرلين مدينة البر واللين! فلن يكون شيء من ذلك إن شاء الله! فما عهدنا علىٰ القوم بطشا ولا ظلما!

انصرف الشوام عنا بعدما عرفوا ما كان من أمره وأخذ جمعة يحكي لي ما تبقىٰ من حكايته! إنها قصة مصريين كثيرين! جيراني وجيرانك، بعض أهلي وبعض أهلك، في الشارع الجانبي والشارع الخلفي، إنها قصة أناس تقرأ البؤس في وجوههم في مواقف سيارات الأجرة في عبود وفي محرم بك وفي دسوق وفي غيرها، سائقين وركابا! أنا من المحلة، أعمل سائق ميكروباص في الإسكندرية، ولا أحسن شيئا في الدنيا غير هذه الصناعة، قيادة السيارات. ولي زوجة وولد، نعيش في حجرة واحدة من الطوب اللبن، وإلىٰ جوارها حجرة أخرىٰ علىٰ قطعة أرض صغيرة لعمي يريد بيعها وأريد شراءها لأوسع بها علىٰ أهلي! طلب عمي فيها ثمانين ألفا، ثمن الحجرة وما تحتها وحولها من أرض! لا أملك ذلك الثمن، وأريد توسيع بيتي لأضمن مستقبل ولدي!! جئت إلىٰ هنا! لقد دفعت لمن يسر لي هذا السبيل وهو سمسار سفر غير شرعي من الإسكندرية أربعين ألف جنيه تسلفت أكثرها من الناس!

ألم يكن بوسعك أن تقيم في مصر مشروعا بهذا المبلغ بدل أن تخاطر بحياتك؟ فابتسم وقال إن المبلغ قليل ولن يغني عني شيئا، وقد رأيت تحقيق حلمي في هذه البلاد! وقد اخترت طريق المغامرة! مغامرة .. ترىٰ هل سمعني جمعة حين ذَكّرْت نفسي من قبل بقول بشار: «من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز باللذات الفاتك اللهج»! لا أدري .. ولا أظنه سمع! لكنها جسارة المصري حين تقتله ضغوط الحياة حتىٰ لم يعد يكترث لشيء!

كنت حديث عهد بالبلاد، ولم أكن أدري ماذا أصنع لهذا الرجل المسكين! فطلبت إليه أن يهدأ، علىٰ أن أكلم الشيخ مندور في أمره بعد الصلاة، فقد أمضىٰ الشيخ في هذه البلاد سنين عددا ولا شك مر عليه شيء من هذه المواقف وإنا إن شاء الله لمهتدون ..

جلسنا نستمع للشيخ، فأفاض في حديث عذب عن حسن المعاملة، وأورد آيات وأحاديث وقصصا عظيمة طربنا لها، وأردف يقول: طرق باب شقتي أمس جيران لي في العمارة من الألمان، وهو يقيم في العمارة فوق المسجد، فأذنت لهم في الدخول فقالوا كلاما عجبا! قالوا إنك شيخ الإسلام هنا، وأنت إمام المسجد، ونحن نعلم أن لك علىٰ المسلمين والعرب في المنطقة كلها سلطانا عظيما! أيها الشيخ الكريم إن

أبناء المسلمين يضربون أبناءنا ويقذفونهم بالحجارة، جيئة وذهابا، غدوة ورواحا، فهلا حدثتهم في ذلك ليكفوا أذىٰ أبنائهم عن أبنائنا! لقد لجأنا إليك أولا إبقاء علىٰ أواصر المودة بيننا وحفظا لحقوق الجوار، فأكثر أهل هذا الحي كما تعلم من العرب، ونحن لا نريد شيئا من العداوة والبغضاء يسري بيننا! ولئن لم ينتهوا لنطلبن الحماية من البوليس والقضاء!

قالها الشيخ مندور وسخر في شيء من الدعابة والمرارة معا، سخر من حسن ظن الألمان بأن للشيخ كلمة مسموعة بين المسلمين، وقال إنهم لو عرفوا الحقيقة لما جاءوا إلي، فأخذ الناس شيء من الابتسام! لا أدري من ذا الذي ضحك عليهم وأخبرهم أن لي سلطانا عليكم! تالله لو علموا الحقيقة لرثوا لحالي! وأخذ الشيخ ينبه إلىٰ ضرورة حسن الجوار وحسن المعاملة، وذكر كيف أنه هو نفسه قد بصق عليه أحد الألمان من النازيين العنصريين في المترو، وكان في طريقه لقضاء بعض حاجاته مرتديا العمامة وذلك الزي الأزهري المهيب، فما كان منه إلا أن ابتسم في وجه النازي الألماني ابتسامة رضا امتص بها غضبه وأفثأ بهاحقده الدفين! وذكر الشيخ كيف أن الألمان قوم طيبون، يهش أحدهم لك ويبتسم إذا ما ابتسمت في وجه كلب له يجره معه، ويقطب ويحزن إذا ما أبديت انزعاجك وقلقك من هذا الكلب! لقد أوصىٰ الشيخ مندور العرب المصلين بالألمان خيرا!

انتهت الخطبة وكان جمعة قد جلس علىٰ مقربة مني بين الصفوف، يختلس النظر إلي أحيانا وكأنما يخشىٰ أن أضيع منه بين الزحام، وقد رأىٰ فيّ في هذه اللحظة المنقذ والمخلص أو صمام الأمان! أو هكذا شعرت به! عقب الصلاة، اصطحبته إلىٰ الشيخ مندور، وعرفته به وأخبرته بحاله في غير قليل من الانزعاج. لاحظ الشيخ مندور ذاك القلق في وجهي فقال هون عليك، إن كثيرا من المصلين في هذا المسجد ممن ترىٰ، قدموا إلىٰ هذه البلاد بلا أوراق، فليس جمعة فريدا بينهم، وبإمكانه أن يصنع صنيعهم، يطاردهم البوليس بلا شك، لكنهم سرعان ما يطلبون اللجوء السياسي أو الإنساني، ويزعمون أنهم مضطهدون في بلادهم، وأن الموت ينتظرهم إذا عادوا! ولن تجد في الناس من هم أرق قلبا وأحرص علىٰ حقوق الإنسان من الألمان، فسرعان ما يمنحونهم الإقامة أو اللجوء بعد شيء من الوقت والإجراءات! هدأت

نفسي شيئا ما وتعجبت لكلام الشيخ ورحت أتصفح وجوه الحاضرين ترىٰ من منهم يحمل أوراقا ومن منهم مطارد من البوليس! هذا الشيخ البدين هناك! ذاك الشاب الأسود هنا .. تحسست بطاقة الإقامة في جيبي وحمدت الله![1] واستبشر جمعة لكلام الشيخ!

من العجيب أنني عرفت فيما بعد، أن كثيرا من العرب يسافرون إلىٰ ألمانيا بطريق شرعي ووثائق سليمة، ثم يحاولون الحصول علىٰ الإقامة الدائمة أو الجنسية، فإذا تعذر عليهم ذلك، فإنهم يقومون بتمزيق جواز السفر الخاص بهم، ويخفون كل ما معهم من وثائق تثبت شخصياتهم، وتوضح انتماءهم، ويزعمون أنهم جاءوا بطريق غير شرعي، وأنهم مضطهدون في بلادهم، ولا يدرون كيف يصنعون! فيسمح لهم باللجوء والإقامة طبقا للقانون الألماني بعد اتخاذ بعض الإجراءات!

كان جمعة قد أخبرني أنه عمل أمس لمدة يوم واحد في مطعم لبناني، ولما علم صاحب المطعم أنه مهاجر غير شرعي وأنه لن يقدر علىٰ شيء، فاستغله أيما استغلال، ونقده عشرة أويرو مقابل يوم طويل من العمل، وهي في الأصل مقابل ساعة واحدة، عجبت للعرب قاتلهم الله يستغل بعضهم بعضا، ويسرق بعضهم إن استطاع قوت بعض! أعطيت جمعة كل ما كان في جيبي، دامعا، فتأبىٰ قليلا ثم قبل، وكدت أسأل الناس له! ثم أعطيته رقم هاتفي للاتصال بي عند الضرورة .. وانصرفت!

هاتفني جمعة بعد ذلك عدة مرات، وقد استقرت أحواله! شعرت في اتصاله بقدر عظيم من الوفاء!

---

(١) علق الصديق أحمد عبد الغني في هذا الموطن بقوله:
ذكرني قولُك: «تحسست بطاقة الإقامة في جيبي وحمدت الله!» بما كتبته إيمان مرسال -وهي مقيمة ببرلين أيضا- في «جغرافيا بديلة»:
خمسةُ أطفال تائهين بين قدمَي أم محجبة وأب يرتعش
ينتظرون الرجلَ الآمن خلفَ جدار من الزجاج
الرجل الذي سيحدد لهم بأية أرض سيموتون
خبأتُ جوازَ سفري في جيبي وأنا أمرُّ ..
هكذا لا يكلف ادعاء الإنسانية أكثر من تذكر الطفولة.
«لا يجب أن يأكل الواحدُ حلوىٰ أمام محرومين».

متىٰ ينصلح حالك يا مصر، لا لنصبح كالألمان، فذاك حلم بعيد، ولكن ليجد الناس قوت يومهم! ولا يفقدوا في أعماق البحار حياتهم!

في طريق العودة من المسجد إلىٰ البيت في هذا اليوم اصطحبت زميلين لي مصريين، أحدهما باحث في علوم الكمبيوتر من جامعة الفيوم، لم تكن تروقني خصاله ولم أسعد يوما بمعرفته، والآخر من الجامعة الأمريكية يعد الدكتوراه في الفقه المقارن . . جلسنا في المترو متقابلين. جلس الزميلان متجاورين، وجلست وإلىٰ جواري مقعد خال، صورة جمعة ما تزال تزايلني، أنظر من النافذة الزجاجية الشفافة النظيفة والقطار يسرع بين مروج خضراء، سرت دعابة بين الزميلين فتضاحكا. جلسْت إلىٰ جواري في المقعد الخالي سيدة ألمانية شابة. علا صوت الزميلين بالكلام والضحك، فابتسمت السيدة لشدة ضحكهما، وكلما زاد ضحكهما زادت ابتسامتها، لعلها بابتسامتها لصخبنا إنما تشاركنا الشعور العام، فقد طالما اعتدنا ذلك من الألمان، رغم أنهم لا يفهمون ما نقول!.

ما زلت هائما في جمال الطبيعة الظاهر من النافذة، تحجبه عني قليلا صورة جمعة وشكل ملابسه البالية، ثم تعود إلىٰ ناظري تلك الخضرة اليانعة، أردت قطع ذلك الخيال الحزين فقلت مبتسما: «ما أجمل الجمال الألماني»! فظن باحث الفيوم هذا أنني أعبر عن إعجابي بجمال السيدة الألمانية الجالسة إلىٰ جواري، فقال متماديا في صخبه ودعابته: أي جمال هذا الذي تتحدث عنه في ألمانيا، ألا ترىٰ هذه التي تجلس إلىٰ جوارك، أي جمال فيها «دي مضروبة بالنار . . مضروبة بالجزمة» فتوقفت المرأة عن مشاركتنا الضحك ونطقت بعربية واضحة: «علىٰ فكرة أنا بعرف عربي» كاد الزميلان لهول المفاجأة يقفزان من القطار لولا متانة الزجاج الألماني الشفاف، وقد دقه أحدهما بيده، منعتهما!

كانت امرأة لبقة، لم تعرج علىٰ ما كان منهما، واستمرت في الحديث وكأن شيئا لم يكن، لتخبرنا بأنها عملت خمس سنوات في جامعة المنوفية، في شيء ما يتعلق بالآثار. وتعلمت العربية هناك! تحدثت دقيقة أو دقيقتين، ثم غادرت القطار في المحطة التالية. توقعت أنها غادرت في مكان لا تريده ولم تكن تقصده، وقد فعلت

ذلك دفعا للحرج، فأنىٰ لها أن تجلس معنا وقد تلقت هذه الإهانة الشديدة بل تلك الصفعة القاتلة، من ذلك الفيومي الآثم!

تلقينا جميعا درسا قاسيا في الأخلاق، ولا أظن أن أحدا منا عاد إلىٰ شيء من ذلك فيما بعد، فلا يغرنك الشعر الأصفر والأعين الزرقاء، فلعل أصحابها علىٰ علم بالعربية فصيحها وعاميها وسوقيها يفوق معرفتك بها!

(١٩)

عنصرية ..

عاتبني بعض القراء في الحلقة السابقة قائلا : ذهبت إلىٰ برلين لتحدثنا عن المساجد والأئمة؟! إن مصر بلد المساجد والشيوخ! حدثنا عما لا نجده عندنا، اذكر لنا شيئا عن الألمان وأخلاقهم وجوانب من حياتهم، ودع الحديث عن المساجد فلا حاجة لنا به! قبلت عتاب هؤلاء القراء علىٰ مضض، فقد خضت من قبل في أخلاق الألمان وحياتهم، فلاقيت من وراء ذلك ما لاقيت، وحين ذكرت المساجد لم يَرُقْ ذكرها الكثيرين، فتذكرت قصة جحا والحمار، وأيقنت أن رضا الناس غاية لا تنال! فقررت أن أكتب هذه الحلقة استكمالا للحديث الذي بدأته عن المساجد وحكاياتها؛ ليقين وقر في قلبي أن ليست كل المساجد سواء، وما يجري هنا ليس هو عينه ما يجري هناك، فشتان ما بين البلدين، وفرق ما بين الحالين. فنحن اليوم في المساجد وما حولها؛ علىٰ أن نعود للحياة الألمانية في الحلقة القادمة.

إن المساجد في برلين تقوم علىٰ أموال التبرعات، فلا توجد هنا وزارة للأوقاف والشئون الدينية. فالتبرعات يُدفع منها إيجار المسجد وثمن استهلاك المياه والكهرباء والتدفئة، وتُدفع منها أجور الأئمة ومقيمي الشعائر والعمال وأعضاء مجلس الإدارة، وفي كل مسجد يحث الخطيب الناس في كل جمعة علىٰ التبرع للمسجد، حتىٰ لا يتم إغلاقه إذا ما عجزت الإدارة عن القيام بأعبائه. والحق أن في الناس خيرا كثيرا؛ فهم يتبرعون بمال يقوم بأمر هذه المساجد، إلىٰ جوار بعض أنشطة أخرىٰ تدر دخلا رمزيا للمسجد مثل مدارس تعليم اللغة العربية، وفصول تحفيظ القرآن الكريم، ومطعم صغير لتقديم بعض الأطعمة الشرقية السريعة كذلك!

والحقيقة أن دور التبرعات لا يتوقف عند القيام بنفقات المساجد الداخلية

فحسب، وإنما يلجأ بعض الأئمة إلىٰ جمع تبرعات لشراء مسجد بأكمله، فقد حدث أن أخبرنا الشيخ مندور مرة أن جماعة من المسلمين في مدينة دريسدن Dresden يريدون شراء مسجد في المدينة يكون أول مسجد فيها، ومعلوم أن هذه المدينة قُتِلَتْ فيها السيدة المصرية مروة الشربيني علىٰ يد متطرف ألماني قبل سنوات. وببناء هذا المسجد يكون الإسلام قد بنىٰ هناك ركنا ركينا يحد به من عنصرية الألمان وربما عرفهم طبيعة الدين الإسلامي السمحة. وأخبرنا أن القائمين علىٰ أمر هذا المسجد الجديد سيحضرون إلىٰ برلين طلبا للتبرعات من أهل الخير، وودوا لو حضروا في هذه الجمعة لكنه أرجأهم إلىٰ الجمعة القادمة، فما كان له أن يفاجئ أهل الخير من رواده رواد المسجد بهذا الطلب وهم لم يعدوا له عدتهم.

فلما كانت الجمعة التالية تغيب الشيخ مندور، وأظنه خطب الجمعة في مسجد آخر، فصعد المنبر ذلك الشيخ المسئول عن المسجد الجديد، وهو -كما أخبرني بعد الصلاة- أستاذ بجامعة المنوفية. تحدث عن فضل بناء المساجد، وذكر في ذلك آيات وأحاديث، وحث الناس علىٰ التبرع لبنائها وإعمارها، ولما كان أكثر رواد هذا المسجد من أهل فلسطين وسوريا ولبنان، فقد خطبنا الشيخ عن فضل الشام، وأكثر من وصفها بـ «شام رسول الله»، لقد رفع الشيخ بلاد الشام مكانا عليا، وذكر في فضلها كلاما لم أسمعه من قبل، حتىٰ إنه فضلها علىٰ مصر وعلىٰ كثير من بلاد الله! ولم يذكر مصر بشيء إلا ترضية للمصريين؛ فقال إنها ذُكِرَت في القرآن مرات «عشان إخوانا المصريين ما يزعلوش». وجدت في نفسي من كلام الشيخ، ومعي غير قليل ممن حضر من المصريين، فنحن نحب بلاد الشام، ونحب مصر، ونحب كل بلاد الإسلام، وبلاد الألمان أيضا، لكن لم يرقنا أن يركب الشيخ متن الشطط في الثناء علىٰ بلدة استجداء لأهلها! حتىٰ وإن كان الهدف بناء مسجد. أخذني هذا الشعور أثناء الخطبة، فلما قُضِيَت الصلاة وانتشر أعضاء اللجنة يجمعون التبرعات ومعهم الشيخ الخطيب، ذهبت إليه وتعرفت إليه وهمست في أذنه بما دار في نفسي، فابتسم وضغط يدي وأقرني علىٰ ما رأيت، وذكر أن بناء المسجد مهم، وأن اختيار موضوع الخطبة علىٰ هذا النحو كان مهما كذلك لخدمة هذا الغرض. ثم جَدَّ الناس في جمع التبرعات ففرشوا عددا من سجاد الصلاة، علت فوقها أكوام كبيرة من العملة الورقية الأوروبية

ذات الفئات الكبيرة. فجمعوا مبلغا عظيما ساعد كثيرا في سداد ثمن هذا المسجد الجديد.

ذكرتُ أن طلب هذه التبرعات لا يتوقف في كل صلاة، فإن لم تكن لدعم هذا المسجد فهي لشراء مسجد آخر، أو لدعم الفقراء أو كفالة الأيتام، وكثيرا ما يجمعون تبرعات للمتضررين من أهالي سوريا والبلاد الإسلامية الفقيرة. ومن الطريف في جمع الصدقات أن رجالا من العاملين بالمسجد يقفون عند الأبواب بصناديق ينادون الناس يحثونهم علىٰ التبرع، وتتنوع نداءاتهم بين: «ما نقص مال من صدقة»، «المال مال الله»، «أنفق أنفق عليك»، «تصدق من مال الله» كل هذا كلام جميل، غير أن أحد هؤلاء يقف يجمع التبرعات في صندوق، ويبيع خطوط محمول وكروت شحن، وأرغفة خبز، للمصلين، كنت ظننت أنه يأخذ ربح البيع لنفسه، وخشيت أن يختلط مال الصدقة بمال التجارة، وبخاصة أن نداء هذا الرجل لجمع الصدقات كان غريبا، كان يقول لكل من وضع شيئا في الصندوق: «الله يعوض عليك!»، وهذه العبارة فيما أعلم عندنا في مصر لا تقال إلا في حال الخسارة وضياع المال وذهابه وعند نزول المصائب. كنت أضحك وأقول في نفسي كل من دفع شيئا لهذا الرجل، الله يعوض عليه! أي «ضاعت صدقته» فهذا الرجل لا شك يأخذ كل شيء لنفسه! ضحكت من ذلك وسألت عنه فعرفت أنه رجل صالح، وأن التبرع والبيع والتجارة كل هذا إنما هو للمسجد، وأن هذه الجملة الغريبة عندي إنما هي من رجل غير مصري، فلا بأس، «وعَوّضَ الله علىٰ المتبرعين»!

لقد ذكر لي القائمون علىٰ مسجد قريتنا مرة أنه لم يجتمع في صندوق التبرعات به بعد جُمعات كثيرة، أكثر من جنيهين اثنين، كانت الحاجة أم إبراهيم قد نذرتهما لله إذا ما شفي حفيدها من علة أصابته، فأرسلت بهما طفلا صغيرا فوضعهما في الصندوق، وقبل فتح الصندوق للاطلاع علىٰ ما فيه اجتمع شيخ المسجد ومقيم الشعائر والعمال وبعض الفضلاء، في حضور مفتش وزارة الأوقاف، ليفتح الصندوق علىٰ رءوس الأشهاد، وتنتفي شبهة السرقة أو السطو علىٰ التبرعات!

تبسم الحضور لقلة المبلغ في الصندوق! وكيف لهم أن يتوقعوا أكثر من هذا في مسجد أغلب رواده من الفقراء والعمال والفلاحين البسطاء الذين يعملون بأجر يومي.

وسادت عقيدة عظيمة بين أهل القرية أن «خير الناس في المدن»، فهم أغنياء وموظفون في الحكومة ويقدرون علىٰ التبرع والإنفاق مما آتاهم الله، أما نحن فلا.

لقد ذكرتني مسألة التبرع هذه بموقف طريف قديم، حين التحقت بالمدرسة الإعدادية، في قرية كبيرة تتبع لها قريتي الصغيرة، وكانوا يسمون هذه القرية «البلد» لكبرها النسبي عما حولها من قرىٰ صغيرة تابعة لها، وكان زملاء الدراسة يعيرونني بأنهم من «البلد» وأنني أجيء إليهم من عزبة صغيرة نائية! كنت أجد في نفسي من ذلك، حتىٰ إن أحدهم أخذ يتيه علي مرة بهذه القرية العظيمة فقال: إن بلدنا خير من بلدكم، إنها مذكورة في القرآن! ألا تعلم ذلك؟ فقلت: لا والله! وأين ذكرت؟ فقال: ألم تسمع أن النبي قال: «**خير أمتي في المدن**»! فعجبت أشد العجب لهذا القرآن الذي هو من قول النبي، ثم إن النبي لم يقله أصلا! كل ذلك في آن! أتلف الله رءوس الجهلاء!

ومن طرائف الفخر بين البلدان كذلك مما يتناسب في هذا المقام مع خطبة الشيخ عن فضل بلاد الشام علىٰ ما عداها من البلدان، ما سمعته من شيخ جزائري، أنه حين احتدمت الأزمة الكروية بين مصر والجزائر في تصفيات بطولة الكأس الأخيرة، أخذ أحد الجزائريين يلوم مصريا، يقول: أنتم أيها المصريون تزعمون أن بلدكم خير البلاد، وأنها ذُكرت في القرآن خمس مرات، هونوا علىٰ أنفسكم ولا تغلوا، فإن أهل الجزائر ذكروا في القرآن كذلك، فقال له أين؟ فقال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾! قالها الشيخ ثم أخذه شيء من الضحك عظيم!

نعم إن في المدن خيرا كثيرا، وفي مدن هذه البلاد الغنية بخاصة، فإنك لا تكاد تجد فيها فقيرا في هيئة الفقير التي نجدها في مصر، هنا شحاذون نعم، لكنهم يتسولون من باب الترف والصعلكة، فكل مُعْوزٍ له مأوىٰ وراتب من الدولة يكفيه!

جمع الناس التبرعات لشراء هذا المسجد الجديد، وعادوا إلىٰ دريسدن، حتىٰ إذا كانت الجمعة التالية، صعد الشيخ مندور المنبر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، وشكر رواد المسجد علىٰ كرمهم وإنفاقهم السخي في سبيل الله في الجمعة الماضية. ولما كان رواد المسجد من جنسيات مختلفة، فليسوا جميعا من العرب، وإنما فيهم الألماني والتركي، وغيرهما من الألسنة، فقد حرص المسجد علىٰ توفير خدمة الترجمة الفورية

للخطبة إلىٰ اللغتين الألمانية والتركية. خاض الشيخ في الحديث عن أمر خطير، فطلب إلىٰ المترجمين أن يتحروا الدقة في النقل عنه، لأن هذا الحديث لا شك يصل إلىٰ السلطات الألمانية، وقد يُحْدِث الخطأ في الترجمة بلبلة عظيمة نحن في غنىٰ عنها!

أخبرنا الشيخ بأن عددا من الألمان من النازيين العنصريين المعادين للإسلام، قد قرروا القيام بعدد من المظاهرات والوقفات الاحتجاجية ضد الإسلام والمسلمين، يطوفون خلالها أمام عدد من المساجد الكبرىٰ في برلين، وقد خصص للوقوف أمام كل مسجد منها وقت معلوم، وأُخطرت الشرطة والسلطات الألمانية بذلك، لتتخذ من الإجراءات ما يكفل سلامة الجانبين وضمان عدم الاشتباك والحث علىٰ كظم الغيظ وامتلاك النفس عند الغضب. وتحدثت السلطات إلىٰ الشيخ مندور في هذا الشأن وطلبت إليه أن يحث المسلمين علىٰ ضبط النفس والتزام الهدوء والتحلي بالصبر والحلم وتجنب ردود الأفعال الطائشة. لقد ذكر الشيخ أن ثلاثة مساجد كبرىٰ في برلين رفعت دعوىٰ أمام محكمة برلين الإدارية لوقف هذه المظاهرات وإلغائها، حفاظا علىٰ مشاعر المسلمين التي قد تثور ولا يستطيع أحد السيطرة عليها، فرفضت المحكمة ذلك وقالت إن منع هؤلاء أمر غير مقبول فهو يتعارض مع القانون والدستور الألماني الذي يؤكد «حرية التعبير»؛ فهؤلاء من حقهم أن يعبروا عما يعتقدون كيفما يشاءون!

حاول الشيخ بث الطمأنينة في قلوب الناس، وذكَّرهم بأن النبي كم أوذي وصبر، وأن الإسلام أكبر من هؤلاء، ثم إننا في بلاد غريبة، فلا ضرر من وقفة يقوم بها عدد قليل، قد لا يتجاوز عددهم الثلاثين أو الخمسين علىٰ أكثر تقدير. ثم إن الوقفة لن تتجاوز دقائق قليلة! فالصبر عليها أهون من اندلاع العراك واحتدام الصراع الذي ربما إن هو وقع دفع السلطات الألمانية إلىٰ إغلاق المسجد! فضرر الوقفة أهون من ضرر غلق المسجد. فللمسجد دور عظيم في هذا الحي الذي يكثر فيه العرب والمسلمون. وذكر أنه ناقش الأمر مع بعض الفضلاء قبل الصلاة، فأقروه علىٰ رأيه، وبلغ من حلم أحدهم وتسامحه أن اقترح عليه أن يهدي المسلمون كل واحد من هؤلاء النازيين المعادين للإسلام وردة، وهم وقوف يرفعون لافتاتهم الرافضة؛ لأن في ذلك دليلا

علىٰ سماحة الإسلام، فوجد الشيخ مندور في نفسه من ذلك الرأي، وقال إننا سنملك أنفسنا ونمنعها من الغضب، لكن لا أجد في نفسي من التسامح ما يصل بي إلىٰ أن أهدي من أساء إلىٰ النبي والإسلام زهورا. يكفي أن نملك أنفسنا! ونهىٰ الشيخ في هذا السياق كذلك، مجتهدا، عن سلوك يحلو للبعض القيام به، وهو توزيع المصاحف علىٰ الألمان من المسيحيين واليهود واللادينيين وغيرهم، ويعدون ذلك من السير في طريق الدعوة، نهىٰ الشيخ عن ذلك وقال إنكم لا تعلمون ما يصنع هؤلاء بالمصحف، فربما أحرقوه أو ألقوه في مكان لا يليق به، فعلينا أن ننزه قرآننا، وأن نعز ديننا، والإسلام معروف، فمن رأىٰ الانضمام إلينا فأهلا به، أما أن ننزل إليهم بقرآننا فلا!

تحرك في اليوم التالي السبت جمع من هؤلاء الألمان الرافضين للإسلام قدموا من مدن مختلفة، ورفعوا أعلاما ألمانية ولوحات من الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة، ولافتات تبرر، من وجهة نظرهم، عدم انتماء الإسلام إلىٰ أوروبا. وفَصَلَ عدد كبير من أفراد الشرطة من برلين وولايات ألمانية آخرىٰ مجاورة بين الجانبين، قدر عددهم في ذلك اليوم بـ ١٨٠٠ جندي. وكان المناوئون قد اتخذوا لمظاهراتهم عنوانا هو «الإسلام لا ينتمي إلىٰ أوروبا .. أوقفوا الأسلمة» ورفع المشاركون في هذه المظاهرات لافتات تتهم الإسلام بعدم التسامح والعداء لليهود واضطهاد المسيحيين، كما رفعوا صورا تؤيد حظر المساجد. بينما رفع بعض المتظاهرين من حزب "Pro Deuthschland" لافتة تدعو إلىٰ عدم الزواج من المسلمين. هذا وقد انتهت الوقفة بسلام دون أن يدفع الغضب أحدا إلىٰ الاشتباك.

بعد هذه الوقفة النازية بقليل، اجتاحت العالم العربي والإسلامي حالة من الغضب العارم واندلعت مظاهرات عنيفة في مختلف الأرجاء رفضا للفيلم المسيء للنبي محمد صلىٰ الله عليه سلم الذي تم إنتاجه بالولايات المتحدة الأمريكية، وما أعقبه من رسوم مسيئة للرسول في إحدىٰ المجلات الساخرة في فرنسا. فكانت محاولات كثيرة لحرق عدد من السفارات الأمريكية والاعتداء عليها في كثير من البلدان، وحدث أن قتل السفير الأمريكي في ليبيا بشكل وحشي مريع، وشهدت ألمانيا كذلك مظاهرات ترفض هذا المسلك المشين، لكنها جميعا جاءت في إطار من السلمية. وأثبتت أن المسلمين

في هذه البلاد على وعي كبير، ولهم من سعة الأفق حظ وافر، وهو ما دفع المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل في كلمة ألقتها على أعضاء حزبها المسيحي الديمقراطي إلى تأكيد أن الإسلام أصبح جزءا من نسيج المجتمع الألماني، مطالبة المواطنين الألمان بضرورة إبداء روح التسامح تجاه المسلمين الذين نأوا بأنفسهم عن أعمال العنف التي شهدتها التظاهرات الغاضبة بسبب الفيلم المسيء للرسول محمد، وكانوا مثالا للرقي والتسامح وسعة الأفق(١).

قد يظن البعض أن هذه النظرة العنصرية منتشرة في ألمانيا إلى حد كبير، والحقيقة غير ذلك، فإنما هي -فيما أرى- حالات فردية، لا تكاد تذكر، ثم إنك لا تكاد تلمسها إلا في كبار السن ممن شهدوا هذه البلاد في صباهم أيام كانت كومة رماد، بعد الحرب العالمية الثانية، فإنهم ما يزالون على دين آبائهم، ويدينون بالولاء لـ(هتلرهم) العظيم، ولعل قلة عدد أصحاب هذه الوقفة دليل على حجم ما تبقى من النازية في هذه البلاد، ثم إنهم لا يجرءون على التصريح بأنهم نازيون، وإنما يتحركون تحت أسماء أخرى كحزب الـ«برو دويتشلاند»، فالقانون يجرم كل ما هو نازي، حتى إنه يجرم رفع إشارة هتلر النازية المتمثلة في رفع الذراع إلى الأمام وبسط الكف بهذا الشكل المعروف، ويعدونها من التجاوزات غير المقبولة، لأنها شارة مشينة بكل المقاييس الإنسانية، فهي ترمز لأبشع أنواع العنصرية ومعاداة السامية ولم يعد لها مكان في هذه البلاد. إنني لم ألحظ شيئا من هذه العنصرية هنا إلا مرات قليلة عند دفع الحساب مثلا في المحلات، فإنك قد تجد رجلا شيخا كبيرا يقف أمامك أو خلفك

---

(١) الجدير بالذكر أن حريقا كبيرا اندلع بعد أيام في مسجد «مولانا» الذي يقع في حي «كروسبرغ» جنوب برلين، وهو حي يعرف بتعدد الثقافات والأديان، غير أن سكانه يغلب عليهم الطابع الإسلامي؛ لوجود كثير من المهاجرين من العرب والأتراك. ومسجد مولانا مسجد تركي جديد ما زال قيد الإنشاء، ولم يُعرف سبب الحريق. وقالت الشرطة الألمانية إن الحريق دبره مجهولون ولهذا فإن النيابة العامة تجري التحريات اللازمة من أجل التأكد من وجود أسباب سياسية وراء الجريمة. ونظمت الجالية المسلمة في برلين مؤتمرا صحفيا ووقفة جماعية للمراكز الإسلامية، ممثلة بأئمتها وإداراتها وبعض روادها، وقفة تضامنية مع مسجد «مولانا»، الذي تعرض لعمل تخريبي وإجرامي وعنصري مشين. وكان عدد من المتطرفين النازيين قد قاموا بإحراق المسجد قبل يومين أثناء الليل، والجدير بالذكر كذلك أن هذا هو رابع مسجد يتعرض للحرق في أقل من شهر في مدن مختلفة من ألمانيا، وهو الأمر الذي ينبئ عن تحول خطير في طبيعة المجتمع السلمي الألماني، حسب قيادات إسلامية ألمانية.

في الطابور فلا يروقه لونك غير الألماني، تقرأ ذلك في عينه وهو ينظر إليك شزرا، حتىٰ إنه ود لو منعك من الشراء، وحرمك الطعام والشراب، أما فيما دون ذلك، فشباب الألمان مبتسمون منطلقون مقبلون علىٰ الحياة في ود كبير.

لكن الإنصاف يقتضي أن أذكر أن العنصرية وإن كادت تختفي في هذا المجتمع إلىٰ حد كبير، فإن لها آثارا ما تزال باقية وإن خفت حدتها، من ذلك أنني ركبت المترو مرة في الطريق إلىٰ الجامعة، فقابلت شابا أعرفه هو ابن لشيخ لبناني صديق، فسألنىٰ وسألته إلىٰ أين تذهب؟ إلىٰ الجامعة؟ فضحك وقال: أي جامعة؟ وما حاجتي إليها؟ إنني لم ألتحق بها، واكتفيت بالثانوية، وكذلك كثير من أهالينا هنا. إن من يلتحق بالجامعة إنما يريد أن يحصل علىٰ فرصة عمل بعدها، أما نحن فلا فرصة لنا للعمل في الحكومة هنا! فقلت له: ألم تولد هنا وتحمل الجنسية الألمانية؟ فقال نعم ولكن شعري أسود وبشرتي ليست بيضاء! وهذان كفيلان بأن تحرم من العمل في وظيفة حكومية حتىٰ وإن حملت الجنسية الألمانية. إنني يا سيدي أعمل في محطة بنزين ومغسلة للسيارات، ولا حاجة بي للوظائف الحكومية الألمانية. حزنت لذلك، فسألت عن الأمر وتبينت أن حدة هذه العنصرية خفت كثيرا، ولم يتبق منها إلا شيء يسير نتخذ حالة هذا الشاب اللبناني الأصل دليلا عليه. أما قبل سنوات فقد كانت العنصرية صارخة![1].

---

(١) علق الصديق الدكتور حجاج أنور، وكان عمل ببعض دول الخليج زمنا، يقول: العنصرية في الشرق. وعند العرب بالتحديد وعلىٰ وجه الخصوص. أكبر منها في الغرب، بكثير جدا، ولو قدّر لك السفر إلىٰ إحدىٰ البلاد العربية الشقيقة -كما يقولون- لرأيت العنصرية الحقيقية ظاهرة ومتجسدة في كل شيء، فأنت أجنبي، هكذا يلقبونك، ويتعاملون معك، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقد آزره الصديق الدكتور محروس بريك وكان يعمل هناك كذلك يقول: صديقي الدكتور حجاج أنور:

صدقت ونكأت الجرح. من هان في وطنه فهو في غيره أشد هوانا، ومن عز في بلده فهو في غيرها أكثر عزة؛ فالوافد العربي في دول الخليج يعاني، في حين أن الأمريكي -وهو الغريب الوجه واليد واللسان- يجد في دول الخليج من التدليل ما لم يكن ليخطر له علىٰ بال. وبعبارة أخرىٰ: الوافد العربي والآسيوي إلىٰ دول النفط هو من تمارس ضده كل أنواع العنصرية.

وقد نفىٰ الدكتور فضل يوسف هذه العنصرية قائلا: للإنصاف لا أشعر بهذه العنصرية التي تحدث عنها كل من الدكتور حجاج والدكتور محروس؛ فأنا أعيش في «سلطنة عمان» للسنة السابعة، ولا أشعر =

إن العنصرية ضد العرب والمسلمين خفت حدتها كثيرا، فيما علمت، فلم نسمع بحالة قتل بدافع الدين أو الجنس هنا من يوم قتلت السيدة المصرية مروة الشربيني علىٰ يد متطرف في درسدن، إلا مرة واحدة شهدتها، ذلك أنني ذاهب إلىٰ المسجد في جمعة تالية فوجدت عددا كبيرا من المسلمين، يقفون خارج المسجد وقد امتلأ المسجد عن آخره، وقد انتشر عدد كبير من عناصر الشرطة الألمانية من النساء والرجال في كل مكان، يحملون أسلحتهم! فراعني المشهد، وتبينت أن شابا فلسطينيا صغيرا يدعىٰ يوسف العبد تعرض لضربة سكين من شاب ألماني في وسط المدينة، أدت إلىٰ وفاته علىٰ الفور وقد قدمت الشرطة إلىٰ مكان الحادث وضربت طوقا حول المنطقة وعثرت علىٰ الجاني وقدمته إلىٰ المحكمة، غير أنه سرعان ما أطلق سراحه وحصل علىٰ البراءة، وكأن شيئا لم يكن، وتم ترحيله من المنطقة خشية أن يتم التعرض له من قبل أهل القتيل وأصدقائه، وقد حدث ذلك في الرابع من مارس ٢٠١٢. وقد أقيمت للفقيد جنازة مهيبة شهدها جمع كبير من المسلمين شاعت فيهم مشاعر الغضب والسخط! وطرقني شعور بالغضب والشفقة علىٰ هذا الشاب الفلسطيني الذي فر بنفسه من القتل في بلده، ولجأ إلىٰ ألمانيا ليلقىٰ حتفه هنا! خرجت الجنازة المهيبة من المسجد وتم الدفن في مقابر المسلمين في كلومبيا دام.

إن للمسجد دورا عظيما في حياة المسلمين في هذه البلاد، في أفراحهم وأتراحهم، وفي تقويم سلوكهم، وإدارة أزماتهم، وتزويدهم بذلك الزاد الروحي المطلوب في هذا المجتمع المادي. والحقيقة أن المساجد لا تدخر وسعا في ذلك. فهي تعمل علىٰ إثراء حياة المسلمين، وتسهم في عقد دورس وندوات، وتقيم أمسيات وسهرات، وتنظم رحلات للمشاركة في مؤتمرات تناقش أحوال المسلمين داخل ألمانيا وخارجها. ولا يقتصر دورها علىٰ المشاركة في الأحداث الكبرىٰ فحسب وإنما تسهم كذلك في تقويم سلوك الأفراد. ومن ذلك أننا كنا في الصلاة، وكان

= بهذا مطلقا، بل علىٰ العكس من ذلك تماما فمثلا تم اختياري رئيسا لقسم المتطلبات العامة في كلية العلوم التطبيقية التي أعمل بها علىٰ الرغم من وجود أساتذة عمانيين في القسم علىٰ كفاءة عالية. وقد رد عليه الدكتور حجاج أنور قائلا: لشتان -أخي الكريم الدكتور فضل- ما بين عمان وغيرها من بلاد الخليج الأخرىٰ، فاحمد الله إذن علىٰ أن نجاك من تلك العنصرية البغيضة.

الشيخ مندور يتلو آيات في الركعة الأخيرة، فسمعنا صوت ارتطام شديد بالأرض توقعت أنه أحد المصلين في الصفوف الخلفية، أغشىٰ عليه فسقط، فاستمر الناس في صلاتهم إلا أن أحدهم ويبدو أنه كان يقف إلىٰ جوار هذا الرجل المغشي عليه، قطع صلاته وراح يُجري اتصالات عدة بالإسعاف لينقذ هذا الرجل الذي سقط، أجرىٰ اتصالات كثيرة بصوت عال شوش علىٰ الإمام والمصلين. فما إن انتهت الصلاة، حتىٰ أسرع الناس إليه وهجموا عليه هجوما شديدا حتىٰ كادوا يفتكون به لولا أن الشيخ مندور أسرع إليهم وشق طريقه بين الزحام ومنعهم وكف أيديهم عنه، وذكّرهم بذلك السلوك النبوي الكريم حين بال رجل في المسجد فهَمَّ الصحابة بضربه والفتك به فنهاهم وطلب إليهم أن يريقوا علىٰ بوله سجلا من ماء!

أعجبني ذلك من الشيخ، فكم كان نبيلا حصيفا، وعجبت للمصلين تأخذهم الحمية في هذا الأمر الهين! الذي ما دفع الرجل إليه إلا الرحمة والشفقة علىٰ هذا المريض، كادوا يفتكون به وهم في الوقت ذاته ربما يرتكبون الموبقات! فكم نبه الشيخ مندور إلىٰ ضرورة أن يكون المصلي يقظا حتىٰ لا تسرق أمتعته، ونبه إلىٰ أنه رغم كثرة كاميرات المراقبة في المسجد فإن سرقة قد تحدث والمسجد غير مسئول! وذكر الشيخ موقفا مخزيا، وهو أنه شهد دخول شاب ألماني الإسلام في مسجد عمل فيه إماما قبل هذا المسجد، ولما فرغ الناس من اللقاء الذي أعلن فيه الشاب إسلامه، وهموا بارتداء ملابسهم الثقيلة في الشتاء وكانوا علقوها في حوامل في المسجد أعدت لذلك، تبين هذا الشاب الألماني الذي دخل الإسلام حديثا أن هاتفه المحمول قد سرق من جيب سترته المعلقة!! فحمدت الله أن هذا الشاب لم يرتد عن الإسلام في نفس الجلسة في اليوم الذي دخل فيه إليه بعد هذا الموقف المشين!

علىٰ الرغم من هذه المواقف المخزية والسلوك غير القويم، وكذلك رغم تردىٰ أحوال المسملين، فإن دخول الألمان في الإسلام كثير، وقد شهدت مرة لقاء في المسجد عقب صلاة الجمعة أعلن فيه شاب ألماني اعتناقه الإسلام، وسمىٰ نفسه «بلال» فسعد الحضور بذلك سعادة كبيرة وهللوا وكبروا، وحين هممنا بالخروج من المسجد سمعت أحد المصلين يهمس في أذن صاحبه ساخرا: ما دفع هذا المجنون إلىٰ دخول الإسلام؟ ألا يرىٰ أحوال المسلمين وفساد أخلاقهم! إنني مشفق عليه

متعجب من صنيعه، فابتسم له صاحبه وانصرفا! خرجنا من المسجد فرأيت شابين مصريين تعرفت إليهما، ودار بيننا حديث تعارف قصير عرفت أن أحدهما ناقم علىٰ مصر أشد النقمة، فقد أفنىٰ من عمره عدة سنوات يجمع المال من إيطاليا، وعاد إلىٰ مصر فأقام مشروعا تجاريا خسر فيه كل ما جمعه من المال، وعاد إلىٰ أوروبا صفر اليدين ساخطا ناقما يحاول جمع المال من جديد، وأقسم بالله مرات أنه لن يتردد في السفر إلىٰ إسرائيل لو أتيحت له الفرصة، ولن يتردد في العمل جاسوسا لصالحها لو تيسر له ذلك. قال ذلك وقد أعماه الغضب! حاولت تهدئته وقد استشاط فلم يستجب فانصرفت!

حتىٰ إذا جاء شهر رمضان وجاءت ليلة القدر . . .

لقد استقدم الشيخ مندور في رمضان قارئا مصريا بارعا هو الشيخ علىٰ المصري، كنا نطرب له أيما طرب، كان صوته الندي يجلجل في أرجاء المسجد ومن قبلها يهز أعماق القلوب. كان يقرأ القرآن قبل صلاة الجمعة ويؤمنا في الصلوات. حتىٰ إذا جاءت ليلة السابع والعشرين . . . توجهت إلىٰ المسجد مبكرا وتناولت الإفطار هناك مع المصلين من أهل الحي، فموائد المسجد عامرة، ولما وصلت مبكرا وعلمت أن الزحام شديد في هذه الليلة، فالكل قدم مثلي يحاول غسل آثار عام من الذنوب والآثام، فقد اتخذت مكانا قريبا من المحراب في الصف الأول، وشرعت في قراءة شيء من كتاب الله. فتبينت أن بعض الحاضرين من الوجوه المألوفة لي في المسجد من كبار السن خاصة، ضاقوا بجلوسي في هذا المكان، فقد احتكروه لأنفسهم، وأخذوا علىٰ مقربة مني يتجاذبون أطراف الحديث ويثيرون شيئا من الدعابة، فلما لاحظوا ضجري لارتفاع صوتهم، طلب أحدهم إلي الذهاب إلىٰ مؤخرة المسجد، فالمكان هناك أكثر هدوءا، وأكثر مناسبة لقراءة القرآن، لأنهم هنا لن يكفوا عن الحديث واللغط وأنه لي ناصح أمين، وأخبرني بعضهم كذلك أن هذه الأماكن الأمامية محجوزة لهم، ويبدو أنهم اعتادوا أن يتصدروا الصفوف. غضبت من كلام الرجل، واعتذرت عن الامتثال لطلبه، وثارت في حلقي مرارة شديدة كنت تجرعتها قبل سنين في مسجد قريتي. ووجدت في نفسي شيئا من الألم؛ فقد كنت أذهب إلىٰ المسجد صغيرا، وكان الكبار إذا ما أقيمت الصلاة، وبخاصة أيام الجمعة وفي صلاة

التراويح حين يكثر الناس، يطردوننا ويدفعوننا إلىٰ مؤخرة الصفوف عنوة بشكل مهين! وكأن ذلك نوع من العقاب علىٰ جرم لم ترتكبه، وهو أنك بعد صغير، لقد كانوا يضربون بعض الأطفال ضرب غرائب الإبل، ويشد أحدهم يده علىٰ عضد الطفل حتىٰ يكاد يعصره، ينهره ويزجره، ويعدون ذلك من وسائل التأديب وزرع خلق الالتزام في نفوس النشء الصغير، فهم إنما يمتثلون بذلك لهدي النبي! ألا قاتل الله تلك الأيام! وقاتل من ذكرني بها من شيوخ برلين إذ أرادوا أن يدفعوني بغلظة باردة إلىٰ مؤخرة المسجد، كما كان يفعل معي وأترابي إخوة لهم من قبل . . لكنني اليوم كبير . . ولم أعد طفلا أيها الكرام!

ربما أعتذر عن أصحاب هذا السلوك القديم بأن كثيرا منا ونحن أطفال كنا نسعد حين يتلو الإمام في الصلاة شيئا من القرآن حفظناه في المدرسة، فنحاول ترديده معه في شيء من المباهاة لنظهر للمصلين أننا علىٰ علم بما يقرأ، فكنا نتلقىٰ علىٰ ذلك بين الركعات أشد العقاب! ما زلت أجد في نفسي منه، وأذكر الناس بأسمائهم وقسمات وجوههم، من مات منهم ومن هو علىٰ قيد الحياة!

لقد كانت ليلة كريمة سعدنا فيها في الصلوات بصوت الشيخ علي المصري، الندي، وبأحاديث وعظية صادقة باكية للشيخ مندور، وظللنا علىٰ هذه الحال حتىٰ انبلج فجر يوم جديد!

(٢٠)

هوية ضائعة

ألم يأن لك أن تصل ما انقطع من حديث كورسات اللغة، وأن تحكي لنا طرفا من طرائفها ومُلَحِها، فإن أخبارها كانت عندنا أشد طرافة من أحاديث المساجد وأخبار المسلمين هناك، تتشوف النفوس إليها، وتهفو القلوب لما فيها من ذكر الحسان، وأخبار الأساتذة والطلاب مختلفي الجنسيات والألسنة! . . . ألم يَأْنِ؟! . . بلىٰ آن!

استمرت لقاءاتنا بالسيد قسطنطين معلم اللغة، وهو يتقافز بين المقاعد في محاولة للفت أنظارنا عن عجزه عن القيام بمهمته، وقد كان يظن أننا لحداثة عهدنا باللغة سينطلي علينا خداعه. لم يبح أحد منا له بمكنون نفسه، لكنه كان ذكيا؛ ففاجأنا ذات يوم قبل أن ينتقده أحد منا، بأنه سيقتسم أيام الأسبوع في التدريس لنا مع السيدة بيرجت شميت Birgit Schmidt. يدرس لنا ثلاثة أيام، وتدرس السيدة شميت يومين. لقد استعان بهذه الأستاذة، فيما بدا لي، ليرفع بها خسيسته! بيرجت شمت سيدة ألمانية، حاصلة علىٰ الدكتوراه في تعليم الألمانية لغير الناطقين بها، عِلمها بالألمانية كعلم سيبويه وعلم الخليل بالعربية! بل ربما أنزلها البعض منزلة أبي عمرو بن العلاء، الذي قيل إنه أعلم الناس بالقرآن واللغة والشعر وأيام العرب! كنا نثمل لشدة إتقانها الشرح والدرس. واضحة هادئة. تحسن اختيار الأمثلة والتعبيرات، بل إنها تصنعها صنعا مسبوكا يفي بمرادها دونما تقصير، أو زيادة تشتت عقولنا! تُجري حوارا بيننا، تضطرنا جميعا إلىٰ المشاركة فيه حتىٰ تجري اللغة علىٰ اللسان. وهي لا تسبب حرجا لأحد، من انطلق لسانه بالكلام سعدت به وشجعته، ومن أعيته اللغة ساعدته وقومته في رفق ولين. إنها لم تكن تجري حوارا عاما فحسب بل تجعله أحيانا ثنائيا، يُمَثّل فيه اثنان من الطلاب موقفا معينا من الحياة اليومية، كضيف ونادل في مطعم، أو صاحب حاجة وموظف في مكتب، أو بين موظف وصاحب عمل. وقد يكون حديثا فرديا،

يقف فيه كل واحد منا أمام الجميع يتحدث عن بلده في جمل قصيرة دالة. يذكر حدودها ومساحتها وعدد سكانها وطبيعة مناخها، وأهم آثارها.

إن التحدث في مواجهة جمع من الناس لا شك له رهبة كبيرة، يزيد منها أنك تتحدث بلغة لا تتقنها، لكن السيدة بيرجت شميت أستاذة عظيمة وهي تدرك أن ذلك سبيل جيد للتعليم علىٰ كل حال. اقتنعتُ بوجهة نظرها لكنني حزنت كثيرا ألا سبيل إلىٰ اكتساب هذه المهارة في مصر في كثير من معاهدنا وجامعاتنا، ففي دار العلوم نادرا ما يقوم طالب أو طالبة ليطرح علىٰ الأستاذ سؤالا في المحاضرة علىٰ مرأىٰ ومسمع من الجميع. ومن أين تأتيه الجرأة، وقد توقّع أن يسخر منه الأستاذ، أو ربما ضج الجميع بالضحك لخطأ قد يقع منه. إن الطلاب يلجأون إلىٰ التعبير عما في جِعابهم بكتابة أوراق يرسلونها للأستاذ علىٰ المنصة، يجدون في ذلك خلاصا من أزمة المواجهة! لكن هذا المسلك يغرس في نفوسهم الجبن والخنوع وانعدام الثقة. وربما كان له أثر سيء في أن يتجرأ السفلة من الطلاب علىٰ الأساتذة بكلمات إهانة يكتبونها بيسراهم! وقد يكون الأستاذ من الفطنة بحيث يتحاشاها ويتفادىٰ الموقف، ومنهم من تقعد به فطنته فيقرأ الورقة علىٰ الملأ فيفضح نفسه!

إن معي من أمثلة فضائح الأساتذة الذين أذاعوا إهانات الطلاب لهم في أوراقهم شيئا كثيرا، لكنني لن أذكر منها شيئا، فإن الله حليم ستير، لكن دعوني أنقل لكم شيئا من فطنة أستاذ للشريعة الإسلامية كبير، جلس علىٰ المنصة يشرح أحكام الميراث والوصية، وأخذ يبدأ ويعيد، وكان وقع في نفس فئة من الطلاب منه شيء، فكتب أحدهم إليهم يسبه، ويرميه بالجهل والضلال والفساد، وأنه من شيوخ السلطان، وأنه لا يقول الحق وقد علمه، ذكر الطالب في ورقة أرسلها إليه مطوية شيئا من ذلك كثيرا مهينا، فلما قرأ الشيخ ورقته، أخذه غضب شديد لكنه لفطنته وحكمته تجاسر واعتدل في جلسته، وكانت في الشيخ حدة عظيمة عرف بها، فمصمص شفتيه وحوقل وهلل وكبر، وقد بلغ به الغيظ مبلغه، وأخذ يقرأ مضمون الورقة ويخبر الطلاب بما جاء فيها، فكان أن قال: أيها الأبناء، إن أحد زملائكم يسألني في أمر يندىٰ له الجبين! ولا أدرىٰ كيف بلغت به جرأته أن يسألني في أمر كهذا، يقول إنه ابن عاهرة، وأن أمه تزني بكل رجال الحي، وأن هذا المسلك منها قديم، وهو يعلم ذلك منها لكن والده

لا يعلم من الأمر شيئا، وزميلكم، يا أبنائي، يخشىٰ أن يكون ابن أمه من رجل غير أبيه، فأنىٰ له أن يرثه بعد عمر طويل! وقد كان من سلوك أمه ما علم! ذكر الشيخ ذلك علىٰ رءوس الأشهاد، وأوحىٰ إليهم أنه يقرأ الورقة التي وصلت إليه، وطلب إلىٰ صاحب السؤال أن يأتي إليه في مكتبه ليخبره برأي الدين في ذلك، فإن في الأمر تفصيلا لا يتسع له وقت المحاضرة.

قاتل الله تداعي الأفكار، فكم يستدرجنا إلىٰ ما لا نريد ذكره ولم نكن ننوي البوح به! إذا عددت هذا، علىٰ ما فيه من غلظة وفجاجة، من فطنة الأستاذ في الرد علىٰ إهانة الطالب، فما قولكم في أستاذ قرأ إهانته بنفسه في جمع من الطلاب، فألصق بنفسه تهمة وعارا لا سبيل إلىٰ محوه! عافانا الله وإياكم!

طلبت إلينا السيدة بيرجت شميت أن يخرج كل واحد منا ويواجه الجميع فيروي لهم شيئا عن وطنه، وله أن يستعين بما شاء من وسائل تعليمية، كأن يرسم خريطة بلده علىٰ السبورة مثلا ليسهل بيان حدودها وجيرانها، والحديث عن طقسها ومناخها. حدثتهم عن مصر، وآثارها وذكرت طرفا من تاريخها وفق ما أسعفتني اللغة ساعتها، لكن دعوني أقرر حقيقة خبرتها ولا أظنها تقبل الجدال، وهي أن عدم إتقانك اللغة، وعدم معرفتك بطرائقها في التعبير، وكذلك ضعف حصيلتك اللغوية من مفرداتها، كل ذلك قد يضطرك إلىٰ قول ما لا تريد. وقد يبلغ بك الشطط أن تذكر الغرب وقد أردت الشرق، وربما تحدثت عن الصيف وأنت تريد الشتاء، وقد يكون الأمر أقل خطرا، فيأتي حديثك وقد ابتعد عن الدقة بحيث يبدو أنه جانبه الصواب! من ذلك أنني حين تحدثت عن جو مصر ذكرت أن درجة الحرارة في الإسكندرية أقل من القاهرة، فجوها «بارد جدا» تصل الحرارة هناك أحيانا إلىٰ ٢٢ درجة. فضج الفصل بالضحك، لأن ٢٢ هذه لا يمكن أن تكون باردة جدا. فهذه الدرجة لا تصلها برلين في قلب الصيف إلا نادرا. والحرارة في الشتاء غالبا تتراوح بين عشر الدرجات تحت الصفر وعشر الدرجات فوقه! فإذا كانت الإسكندرية باردة جدا، فماذا نقول عن برلين! تقبلت ضحكاتهم، وعذرتهم، فهم لم يصطلوا بحر القاهرة ولا بنار أسوان! ولم يدروا أنني قلت «بارد جدا» رغما عني، فلم أكن أعرف في وصف الجو غيرها!

لقد سعدنا بالسيدة شميت التي خففت عنا شيئا من عبث السيد قسطنطين الذي أخذ

يسرق منا الوقت بألعاب تعليمية كأوراق الكوتشينة، وكرة نتقاذفها يسرف بها في تضييع الوقت! وعمل مجموعات من العمل الفردي يطول فيه الحديث عن أمور بعيدة عن الألمانية، كحديث السياسة مع هذين الإسرائيليين المثليين، اللذين لم أتوقع أن أتفق معهما علىٰ شيء. وكثر حديثهما عن كلمات استعارتها إسرائيل من لغة المصريين، إنها كلمات شهيرة تصف البغايا والعاهرات، كان هذا الشاذان يطربان لها، ويظنان أنهما بمعرفتهما لها قد حازا ثقافة مصر والمصريين!

وجدير بالذكر هنا، أن تحدثك بلغة أجنبية لا تتقنها إلىٰ حد كبير، أمر يسبب لك بعض الشقاء، ومن ثم كنا نتناصح فيما بيننا -نحن العرب- إذا ألمت بأحدنا ملمة، أن يأوي كل إلىٰ أهل بلده يتحدث إليهم بلغته الأم. ليبثهم همومه، فالتحدث باللغة الأم يشعرك بالراحة ويذهب عنك العناء. لأن تعبيرك عن آلامك ومعاناتك بلغة أجنبية يضاعف من شقائك؛ ذلك أنك تشقىٰ بشقاء نفسك المتعبة، وتشقىٰ بالتفكير في رصف عبارات لغة لا تتقنها لتبث بها الناس مكنون نفسك، ثم تصوغها بعد لأي بكلمات لا تفي بمرادك، ولا تنقل صحيح شعورك! ولذا كنا نتناصح فيما بيننا أن يأوي كل منا إلىٰ بني جلدته يبثهم آلام الغربة وعذابات الشوق والفراق، فإن ذلك أيسر علىٰ اللسان وأهون علىٰ القلب.

من طريف ما صنعته السيدة بيرجت شميت لتجبرنا علىٰ الحديث؛ حتىٰ تجري اللغة علىٰ اللسان، أنها كانت تلجأ إلىٰ بعض الطرق الكوميدية، من ألعاب الطفولة، وذلك بأن يخرج أحد الطلاب خارج الفصل، وتخفي الأستاذة قلما أو كراسا أو جهاز محمول أو ما شابه في مكان ما في الحجرة، خلف النافذة، فوق المنضدة، في حقيبة أحد الطلاب أو جيب ملابسه، فيدخل من بالخارج ليسألنا في عبارات ألمانية قصيرة عن ماهية الشيء المخفي ومكانه حتىٰ يهتدي إليه: أهو في الجانب الأيسر من الجحرة أم في الأيمن منها؟، أهو في حقيبة أم وراء النافذة؟ . . . كنا نصنع ذلك، في غير قليل من المرح والفكاهة ونتعلم الكلام في الوقت ذاته بلا جهد كبير، ودون عقل محتشد!

لكن الطريف أن كان بيننا أحد الطلاب من أوكرانيا، شاب أربعيني لم أسمع صوته مرة واحدة خلال الدراسة، يأتي ليجلس في مؤخرة الفصل ثم ينصرف، ولا يجيب

عن سؤال يطرح عليه أبدا، فلما رأت الأستاذة شميت منه ذلك رأت أن يخرج ثم يدخل فيسألنا عما أخفيناه، فيقول بذلك شيئا! لكن صاحبنا لم يدرك المراد من اللعب، وظنه لعبا لمحض اللعب، فخرج ودخل فاتحا عينيه الواسعتين، ضاما شفتيه، يهز رأسه، يحرك عينيه بشكل دائري مضحك، تقرأ فيهما غير قليل من المكر والدهاء، وتوجيه اتهامات صامتة؛ كأنه أحد رجال المباحث، حضر ليبحث عن جسم الجريمة! لم ينطق الرجل بكلمة واحدة، وأخذ يبحث عن «الأستيكة» في حقائب البنات، وتحت المناضد وفوقها، وكاد يفتشنا تفتيشا ذاتيا، وهو لا يعي ما يصنع ولم يدرك المغزىٰ من اللعب! والفصل يضج لصنيعه بالضحك ويعلو صخب كبير. حتىٰ عثر علىٰ «الأستيكة» في حقيقة الفتاة الإيراينة بارعة الحسن التي سبق ذكرها، ويبدو أنها رقصت له حواجبها فأرشدته إلىٰ مكانها حتىٰ ينتهي الموقف ونكف عن الضحك قبل أن تتوقف قلوبنا! رجل أربعيني يَجِدُّ في البحث عن أستيكة، في صمت تام!

سعدنا أياما بصحبة السيدة شيمت والسيد قسطنطين المتقافز حتىٰ أوشك الكورس علىٰ الانتهاء. فلما كان اللقاء الأخير، تحدث إلينا السيد قسطنطين بكلام طيب، وأثنىٰ علينا خيرا، وتمنىٰ لنا مستقبلا مشرقا، لكنه أردف أنه يريد أن يعرف رأينا فيه، وفي طريقة تدريسه! ما هذا يا قاتلك الله! أتبحث عن حتفك بظلفك! إن في سؤالك هذا عن رأينا هلاكك! ألا تخشىٰ أن ينهال عليك سباب كالجحيم! تتلظىٰ تحت وطأته وتصطلي بناره سنة أو بضع سنين، كما حدث مع صاحب لنا قديم! لكن الله أراد بصاحبنا خيرا، فلم يرد أحد منا أن يسبب له حرجا أو يترك له ذكرىٰ سيئة فكان منا بعض ثناء عليه، وذكرنا أننا سعدنا معه! وأنهىٰ اللقاء سريعا جرس نهاية الدرس!

كيف لي أن أنتقل بكم من هنا دون أن أخبركم بنبأ صاحبنا هذا القديم، وقد أثرت فضولكم لمعرفته، فالحقيقة أن سؤال الأستاذ عن رأي طلابه فيه في اللقاء الأخير له معي ذكريات بعضها حسن وكثير منها مؤسف مشين، ذلك أن معلم الفرنسية فعله من قبل في الثانوية العامة، وصنعه كذلك بعض شباب المعيدين في دار العلوم في آخر محاضراتهم. وهذا الصنيع عندي قد يكون دليل ثقة زائدة بالنفس، يريد الأستاذ من خلاله أن ينتزع من الطلاب اعترافا بما يجده في نفسه من القوة وثبات القدم في ميدان العلم، وقد يكون كذلك دليل قلق وخوف وانعدام ثقة! يريد الأستاذ به أن ينتزع من

الطلاب ما يثبت به فؤاده! ولذا لا أحبه في الحالين ولا أركن إليه، وبخاصة أنك لا تأمن مكر الطلاب وسلاطة ألسنتهم.

من ذلك ما رواه لي عن نفسه زميل صعيدي عزيز، من جامعة جنوب الوادي، طلب إلىٰ طلابه إبداء رأيهم فيه، يريد أن يسمع مدح نفسه بأذنيه، وقد علم من نفسه أنه ماهر بمادته، فسمع من ذلك الثناء شيئا كثيرا أثلج صدره، ولا شك أن النفس تميل إلىٰ المديح، ومن منا لا يطرب إلىٰ المدح والثناء! لكن الرياح قد تأتي بما لا يشتهي السفن! جاء الدور علىٰ طالبة هي فتاة قاهرية حسناء، ساقها مكتب التنسيق إلىٰ الصعيد، عندها من الجرأة ما قد يعده البعض من قلة الحياء. إذ لم تعتد فتيات الصعيد الجرأة في الكلام أو هكذا ظني بهن! وقفت وتوقع الأستاذ أن يسمع ثناءها عليه كما فعل زملاؤها، فقالت: لي سؤال واحد، وأريد إجابة عنه شافية! فقال هات ما عندك! قالت: لماذا كنت ترقبني طوال العام بعينيك؟! لماذا كنت تتحين الفرصة لتجري حوارا معي، بسبب وبغير سبب، لماذا سألتني مرة عن مكان سكني، وطبيعة حياتي، وعمل والدي! تعالت الأصوات في القاعة، وغلب الأستاذ حياء عظيم، وأرتج عليه، فلم يكد يبين، وغادر القاعة حزينا كاسف البال! ألا خيبة الله عليك يا صاحبة العينين النجلاوين! فقد أرديت الرجل صريعا أمام الناس، ولعله كان يريد خيرا، لكنه لم يكن يعلم أنك واقعة في عشق ذلك الشاب (المعيد) في الليسانس منذ سنين! من قال إن مصارع الرجال تحت بروق الطمع؟! لو شهد صاحب هذا القول ذلك الموقف لقال: مصارع الرجال تحت لهيب (القمر)!

انتهىٰ الكورس ولما كنا قطعنا في تعلم اللغة شوطا كبيرا، قررت الالتحاق بالكورس الذي يليه، علّ اللغة تلين! ودعوت الله أن يكفيني شر الحسان! فلا حاجة لنا ببنات الفرس ولا بنات العرب، يُذهبن عقولنا ويُغفلن قلوبنا عن العلم والدرس. نريد كورسا من الرجال! تنتفي فيه تلك الحركات الصبيانية للفتيات اللائي يختلن في ميعة الصبا ويَتِهْن علينا في فورة الشباب، فلا حاجة لنا بترقيص للحواجب الإيرانية، ولا زواج لمثليين من بني صهيون! فاستجاب الله لدعائي بعكس المراد!

فرحناز .. فتاة إيرانية .. أظنها كذلك من أسباب توطيد العلاقة بين العرب والفرس من قديم! بارعة الحسن ساحرة الجمال .. يغلب عليها الحياء، وليس شيء

في المرأة آسر لنفس الرجل من جمال يتوجه الحياء! ملاك جميل تهفو إليه النفوس وتطرب إليه القلوب، هيا بنا نتركها الآن، لنتحدث عن غيرها، فربما أطلنا النظر إليها وسرحنا في وصفها فنقع في المحذور، إلىٰ جوارها جلس بشير أبو طه، شاب عربي، وعن يمينه عمر عوض شاب عربي، خلفهما عمر حمداني شاب عربي، وإلىٰ جواره سفيان أبو طالب شاب عربي كذلك! ما كل هؤلاء العرب! هناك في طرف الحجرة رجل خمسيني .. نحيل .. مشعث الشعر له أنف طويل .. إنه أجنبي! حضر السيد جيرت ليسكر Gert Läsßker مدرس اللغة الألمانية للكورس الجديد! كنت أعرفه، فقد قابلته من قبل في مكتب التسجيل ودار بيننا حوار قصير. رجل عجوز، عظيم البطن، عيناه ضيقتان، بينهما تقارب شديد، لولا أن أنفا دقيقا امتد ليفصل بينهما ظننتهما عينا واحدة! جلس السيد ليسكر في مقعده وأطلق آهة عظيمة حزينة تنبئ عن ألم كبير في الظهر، وخشونة في المفاصل انتابته عند الجلوس! أطلقها في معرض الدعابة، لكنها كانت حقيقة تعبر عما ألم به من جراء السنين! رحب بنا السيد جيرت ليسكر، وعرفنا بنفسه تعريفا موجزا اكتفىٰ فيه بذكر اسمه! وطلب إلينا أن تدور عجلة التعارف كما هي العادة في كل الكورسات! اذكر اسمك وبلدك، وسبب دراستك للغة!

تحدثت فرحناز الإيرانية، لكنني أقسم لكم ألا أخبركم بشيء عنها، وهل جُننت! كيف أشرع في وصفها وأنا لا أضمن متىٰ يتوقف القلم إذا ما بدأ! يكفي ما ذكرته لكم عن سحر جمالها وأن الطلاب العرب كانوا في كل يوم يتبارون؛ من يحضر مبكرا لينعم بالجلوس إلىٰ جوارها، فقد تُنعم عليه بكلمة أو بنظرة أو بابتسامة صامتة يخيل إلىٰ المسكين أن لها صوتا سمعه؛ فيتوقف قلبه وتدور به الدنيا! دعونا من فرحناز وأرجو ألا يلح علي أحد في ذكر أخبارها! فإن سيرتها غير مضمونة العواقب! يكفي أن أخبركم بأن الأصدقاء راحوا يتتبعونها في كل مكان حتىٰ رأوها في وقت الراحة بين فترتي الدرس مع صديق لها إيراني يحتسيان القهوة قالوا إنه حبيبها، وتعجبوا كيف أن حبك الشيء يعمي ويصم! كيف للغراب أن يتزوج يمامة! بل كيف لليمامة أن تتزوج طائر الرخ! احكم سيدي القاضي! انطق سيدي الرئيس! حقا إن مرآة الحب عمياء!

انظروا .. الآن موقف رهيب .. لا أدري كيف أحكيه لكم، ولا أستطيع كيف أنقل لكم هذا الكم الهائل من التوتر والتوجس والخوف والمشاعر المختلطة، أي

موسيقىٰ تصويرية يصنعها فنان حاذق تقدر علىٰ نقلنا إلىٰ أجواء هذا المشهد الذي سأرويه لكم الآن!

عجلة التعارف ستدور، وأي شيء في ذلك، لقد عرفتنا أن في الكورس معك أربعة رجال من العرب، وآخر أجنبي . . . نعم . . وأضيف إليهم بعض الصينيين والكوريين والإيطاليين، والأمريكيين! لكن الخطورة لا تكمن هنا!

مكمن الخطورة في تعارف العربيين: بشير أبو طه، وعمر عوض! نعم . . هما عربيان! لكن بشير فلسطيني من غزة، وعمر إسرائيلي من عرب ٤٨! وهذا الأجنبي إسرائيلي يهودي من أصل أمريكي! أقسم لي عمر بالله ثلاثا أن هذا الرجل جاسوس، فكل شيء فيه ينطق بهذا! تعرف ثلاثتهم قبل بدء الدرس! لم أعلم ساعتها بشيء من ذلك! فقد أخبرني عمر بكل شيء فيما بعد! لمحت عيون عمر زائغة، كل منا يصرح بجنسيته، أنا مصري، وهذا إيطالي وذاك صيني! عمر لا يدري ماذا يقول! إن قال إنه إسرائيلي، ربما وكزه زميله بشير فقضىٰ عليه! أو ربما وجد في نفسه منه، إذ كيف يتخلىٰ عن وطنه وهويته، ويتبرأ من فلسطين المحتلة ويعتز بنسبه للعدو المغتصب! وإن قال إنه فلسطيني ربما طعنه الإسرائيلي طعنة غادرة! أو وشىٰ به عند الحكومة هناك، فيحرم العمل بعد الدراسة وربما حرم الحق في الحياة! كيف تنتسب إلىٰ فلسطين وفي جيبك جواز السفر الإسرائيلي! وقع عمر في حيرة قاتلة!

حمدت الله أنني مصري، صحيح أن مصر الآن متردية في وهدة كبيرة، أرجو أن يرفعها الله منها، لكنني لا أجد ما يمنعني من أن أقول بملء فيّ . . في كل وقت وفي كل مكان . . إنني مصري، حفيد الفراعنة بناة الأهرام، إن الألمان يحبون هذه الأشياء كثيرا! وإن لم يعد لها بريق أمام عيني، فرغيف الخبز عندي أهم منها وأجدىٰ! لكن قليل من الفخر لا يضر!

لا مجال للحديث عن مصر الآن! فلنكمل حكاية هذه الورطة الكبيرة، زاغ بصر عمر، وعزت عليه نفسه، لا هو إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء! كم أنت قاتل أيها الاحتلال الغاشم، كنا نظن أنك تقتل الناس فتزهق أرواحهم فحسب، فإذا بك تقتلهم خمسين ألف مرة، وهم أحياء يعيشون بيننا! إنه نوع من القتل أشد ضراوة وأقسىٰ إيذاء للنفس من إزهاق الأرواح!

صحبت عمر ذات مرة وقد توطدت علاقتنا إلىٰ المسجد لصلاة الجمعة، وكان ذلك في موسم الحج، فسألته: عن رحلة الحج من إسرائيل إلىٰ مكة، وهل حج أبواه، فقال: إن أمي يهودية تونسية، وما تزال علىٰ دينها، وأنا أسلمت قبل ثلاث سنوات فقط وأكتم ديني، ووالدي مسلم كذلك لكنه لا يهتم كثيرا بقضية الدين . . وبكىٰ عمر فجأة! أشفقت عليه، وسألته عن سر بكائه، فقال إنه الآن وأمه وأباه إسرائيليون، لكنهم مواطنون من الدرجة العاشرة! ما دفعكم إلىٰ البقاء هناك يا عمر؟ لم لم تغادروها إلىٰ غزة أو غيرها من البلاد! قال إن لنا فيها مالا وتجارة، وقد آثر والدي وجدي ألا يتركوا أموالهم وتجارتهم، وهم قوم موسرون، لكن الأوغاد يتحينون الفرص للاعتداء علينا، ولا نملك الدفاع عن أنفسنا! إن لوالدي مساحة كبيرة من الأرض الزراعية، وهو شديد التعلق بها، ولعلها كانت السبب في أنه آثر أن ينتسب إلىٰ إسرائيل العدو المحتل، علىٰ أن يترك أرضه وقد تعلقت روحه بها! وقد نشأتُ هناك فتعلمت العربية، والعبرية صارت لغتي الأولىٰ، وهذا جواز سفري الإسرائيلي؛ لكنهم لا ينسون أننا فلسطينيون، إنهم يجبرون والدي كل يوم علىٰ بيع قطعة أرض رغما عنه، صحيح أنهم يشترونها بثمنها الحقيقي، لكنه يبيعها قسرا، يبيعها رغما عنه، ولا يملك أن يرفض طلبهم وإلا قتلوه! تذكرت كلام الشيخ البرليني هورست عن كتاب «تفكيك إسرائيل» لجيرشوم جورينبيرج الذي أطلعتكم عليه في حلقة سابقة، فطالعوه!

بكىٰ عمر، فرثيت لحاله! لأنني أعرف وطأة الظلم؛ وأعرف قيمة الأرض عند الفلاح الذي اختلط بها عرقه ودمه، وثمة قول شهير عندنا: «الأرض عرض»! كيف يكون حالك حين ينتهك عرضك! أو تساوم عليه، أو تضطر إلىٰ بيعه اضطرارا!

(٢١)

بِرْكَة المتوكل في برلين

لقد أخذني الحزن والقلق لما حكاه لي عمر عوض صديقي إسرائيلي الجنسية، فلسطيني الأصل، عما يعانيه أهله من اضطهاد مرير في بلادهم! حقا هي بلادهم قبل الاحتلال وبعده، لكن الصهيوني يحتال؛ ليحقق لنفسه شيئا من المتعة النادرة التي يجدها في إيذاء الناس! لن أروي لكم مزيدا عن ويلات الاحتلال ومعاناة من يرسفون في أغلاله! فالأمر لا يحتمل مزيدا من الألم، ويكفي ما نحن فيه!

وصل المترو إلىٰ محطة Görlitzer Bahnhof، ذهبنا إليها لأننا تأخرنا في الوصول إلىٰ مسجد الشيخ مندور في هذا اليوم لأداء صلاة الجمعة، وكنا اعتدنا علىٰ الصلاة فيه، فاقترح عمر أن نصلي في مسجد عمر بن الخطاب، وهو مسجد كبير بالقرب من هذه المحطة التي نحن فيها الآن!

دخلنا المسجد فإذا هو طراز معماري فريد، كأنما بني بالماس وطُليت جدرانه بماء الذهب. الفسيفساء والأرابيسك، ودقة الصنع، وأنامل الفنانين المهرة، تشعر وكأن خان الخليلي انتقل إلىٰ هذا المسجد! النجف في السقف باهر الألوان والأحجام، تذكرت مسجد الحصري بأكتوبر، فقد جاورته عدة سنوات، وكان عندي من أفضل المساجد في طرازه المعماري، بنجفته الضخمة المنقطعة النظير. لكن مسجد عمر بن الخطاب، وإن كان أصغر حجما، فإنه يفوق مسجد الحصري في روعة البناء والتصميم ودقة التشطيب والطلاء. أردنا الوضوء فتركنا أحذيتنا ونزلنا إلىٰ طابق تحت الأرض أسفل المسجد أخذتنا إليه سلالم مرمرية بديعة الصنع حتىٰ وصلنا إلىٰ دورة المياه. أي دورة مياه! مثل هذه لا يليق بها أن نطلق عليها هذا الاسم الذي نطلقه علىٰ ما نراه في مساجدنا ومراحيضنا العامة! لقد وقفت مشدوها، لروعة التصاميم، وحار

عقلي، كم تكلفت هذه التحف، ومن موّلها! لقد اعتدت أن أقارن دائما مشاهداتي بما أعرفه عندنا في مصر، لكنني الآن أستحيي أن أقارن، وكيف لي أن أقارن مكان الوضوء هنا بمكان الوضوء في مساجد القرىٰ التي رأيت بعضهم يأخذه الكسل فيها عن الذهاب إلىٰ دورة المياه، فيبول قاعدا في مجرىٰ ماء الوضوء، ثم يستبرئ من بوله بماء صنبورالوضوء! ثم إنك إن نهيته عن ذلك أعرض ونأىٰ بجانبه، ولم ير شيئا في ذلك، فإنما البول ماء وسيذهب مع الماء، فلا شيء فيه! قليل من الماء يطهره!

ما هذا! تبا لك! تأبىٰ إلا أن تطلع قارئك علىٰ كل شيء! تلك عادة سيئة! متىٰ تتخلص منها! ألم تخبره بأنك لن تقارن هذه المرة؛ لأنه لا وجه للمقارنة بين هذا المسجد وتلك المساجد التي عندنا!

أعتذر إليكم أيها الأعزاء! الحقيقة أنني حين رأيت روعة المسجد وسحر مكان الوضوء، دفعت عن ذهني كل منظر قبيح وكل ريح كريه، ولم يطرقني إلا شيء واحد هو صورة قصور الخلفاء والأمراء في عصر بني العباس، وجمال فرشها وروعة أستارها، كل شيء في هذه القصور انتقل الآن إلىٰ هنا إلا الجواري والقيان! أتذكرون قصيدة البحتري في وصف إيوان كسرىٰ؟ إنني لم أر إيوان كسرىٰ، وأظنني لو رأيته ما كنت لأعجب به إعجابي بشموخ هذا المسجد العظيم!

أما عن دورة مياهه هذه فلا شيء يعدلها عندي إلا تلك البركة التي ورد ذكرها في كتب الأدب والتاريخ في قصورخلفاء بني العباس، التي كان يستحم أحدهم فيها بماء نمير، ممزوج بماء الورد. بل إنها أشبه عندي ببحيرة المتوكل التي صورها لنا البحتري فأحسن تصويرها.

هل ترغبون في الاطلاع علىٰ وصف البحتري لبحيرة المتوكل، فترون فيها ما أريد قوله في دورة مياه المسجد، أم أنكم لا صبر لكم علىٰ قراءة الأشعار. سأذكره لكم، من شاء قرأه ومن شاء تركه.

زار البحتري قصر المتوكل في العراق، ورأىٰ بركة قصره، وأعجب بجمالها أيما إعجاب وكتب فيها أبياتا أصبحت فيما بعد للناس آية في وصف الطبيعة في مختلف العصور، يقول البحتري فيها:

يا مَنْ رَأىٰ البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتُها، والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

بحَسْبِهَا أنّها، في فَضْلِ رُتْبَتِها، تُـعَـدُّ وَاحِـدَةً والـبَـحْـرُ ثَـانِـيـهـا
ما بَالُ دِجْلَةَ كالغَيْرَىٰ تُنَافِسُها في الحُسْنِ طَوْرا وأطْوَارا تُباهِيهَا
أمَا رَأتْ كالئِ الإسلامِ يَكْلأُهَا مِنْ أنْ تُعَابَ، وَبَاني المَجدِ يَبْنيهَا
كَأنّ جِنّ سُلَيْمَانَ الذينَ وَلُوا إبْداعَهَا، فأدَقّوا في مَعَانِيهَا
فَلَوْ تَمُرُّ بهَا بَلْقِيسُ عَنْ عَرَضٍ قالَتْ هيَ الصّرْحُ تَمثيلا وَتَشبيهَا
تَنْحَطُّ فيها وُفُودُ المَاءِ مُعْجِلَةً، كالخَيلِ خَارِجَةً من حَبْلِ مُجريهَا
كأنّما الفِضّةُ البَيضاءُ، سَائِلَةً، مِنَ السّبائِكِ تَجْرِي في مَجَارِيها

حسبك أيها البحتري الجميل! لقد شوق بديع وصفك للبحيرة القراء وفتح شهيتهم لمطالعة بقية القصيدة، بل وقراءة وصفك إيوان كسرىٰ، والاستمتاع بكل أشعارك! لكن هذا المكان خصص ليومياتي، وقد أتحت لك فرصة أن تقول شيئا، فلا تستغلها فتنشدنا كل أشعارك (إن كان حبيبك عسل)!

توضأنا، عمر وأنا، وصعدنا فصلينا ركعات، ثم صعد الشيخ المنبر، رجل قصير القامة، قوي البنية، تلتف علىٰ رأسه عمامة كبيرة بيضاء، لا تشبه عمامة الأزاهرة، ألقىٰ الشيخ السلام وارتفع صوت الأذان، لا أدري لم طرقتني صورة الحجاج بن يوسف حين نزل العراق، وخطب في الناس، وقد أخفىٰ وجهه بالعمامة وقال:

أنا ابنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَايا متىٰ أضَعِ العِمامَةَ تَعْرِفُوني

لولا أن الشيخ كان مكشوف الوجه لشبهته بالحجاج في ذلك الموقف المهيب.

خطب الشيخ خطبة عصماء، طربنا فيها لبلاغته وفصاحته وحسن بيانه، غير أنني لاحظت في خطبته نزعة لم أرها في خطب الشيخ خضر أو الشيخ مندور، لقد كانت الخطبة ذات نزعة صوفية خالصة، فيها ذكر لحب النبي المصطفىٰ، وآل بيته الكرام، ورفع لشأن الأولياء والسادة العظام، تذكرت شيوخ السلفية، الذين لا يجيزون الصلاة في المسجد الذي فيه قبر، ولا يجيزون التمسح بالقبور، ولا اللواذ بجوار الأولياء الصالحين. ويعدون ذلك من الكفر. لو أن أحدهم اليوم رآنا لنشبت معركة دامية حامية الوطيس، لن يطفئ أوراها إلا الله! أنهىٰ الشيخ الخطبة بالدعاء ولاحظت أنه بالغ في الدعاء لرجل اسمه «عبد الله الهرري»، نعته بسيدنا! ترىٰ من هو؟ لم أكن أعرفه، فهو ليس صحابيا، ولم أسمع به في التابعين، سألت عنه فعرفت أنه مؤسس هذه الجمعية

الخيرية الإسلامية، واسمه الشيخ عبد الله الهرري الحبشي ولد في مدينة هرر بأثيوبيا وانتقل إلىٰ لبنان وتوفي بها في ٢ سبتمبر ٢٠٠٨ .. ونسب أتباع هذه الطريقة الصوفية الجديدة يرجع إليه، فسموا «طائفة الأحباش» يتبعون منهجًا جديدًا وفكرة مستحدثة، علىٰ مذهب أشعري شافعي. أشعري من حيث العقيدة، التي هي عقيدة أبي الحسن الأشعري، وشافعي من حيث الأحكام العملية. مع الاعتقاد بأن أئمة المذاهب المعتبرة أئمة هدىٰ، وأن اختلافهم في فروع الأحكام رحمة بالأمة. وتنتهج الجمعية منهج الوسطية والاعتدال اعتقادًا وممارسة، وترىٰ في التطرف والغلو في الدين خطرًا كبيرًا يهدد الأفراد والأسر والمجتمعات والأوطان، ويشكل خطرًا كبيرًا علىٰ الأمة.

تقول الجمعية إنها تؤمن بالتصوف الإسلامي النقي من الشوائب، البعيد عن أدعياء التصوف الذين شذوا في الاعتقاد والممارسات والشعائر. وتهتم بإحياء المناسبات الإسلامية كالمولد النبوي الشريف، ومعجزة الإسراء والمعراج، ورأس السنة الهجرية. لكن لها معارضون كثر يتهمونها بمخالفة ما عليه أهل السنة والجماعة.

لقد رجعت إلىٰ دائرة المعارف لأنقل لكم هذه المعلومات عن طائفة الأحباش، فاعرفوها ولا تضيقوا بها! ولا أدري مدىٰ صدق ما يشاع من أن هذا التمويل الكبير لبناء مساجد وغير ذلك، إنما يكون لاتجاهات فكرية ودينية بعينها لتقوىٰ شوكتها في مقابل اتجاهات أخرىٰ يخشىٰ من سيطرتها علىٰ المجتمع!

انصرفت أنا وعمر بعد الصلاة، وكان قد خف عنه بعض ما هو فيه من ألم، فذكرت له بعض المزح والنكات، ثم سألته: لقد ذكرت لي وجها مظلما من جوانب الحياة في إسرائيل، وإنني لا أظن أن الأمر كله هناك يمشي علىٰ هذه الوتيرة. فهلا ذكرت لي شيئا من حسناتها!

ذكر عمر أن إسرائيل قطعة من الجنة، في جمال طبيعتها، ودقة تصميم شوارعها، ونظافتها، ووسائل مواصلاتها، ومطاعمها .. لقد توقف طويلا عند المطاعم والسوبر ماركت، وذكر صنوفا من الطعام الشهي، أغلبها من الأصناف الشرقية، وذكر رخص أسعار المواد الغذائية في المحلات، وكيف أنهم يحيون حياة كريمة، تتفوق علىٰ حياة الأوروبيين! وكيف لا تتفوق عليهم، وهم يصبون فيها، جزءا إجباريا من

دخولهم لدعمها ومساندتها، وبخاصة ألمانيا، تلك التي تعتذر اليوم للإسرائيليين بكل سبيل عما ألحقه بهم هتلر من حرق وقتل.

لقد أدهشني عمر حين أخبرني أنه بهذا الجواز الإسرائيلي يدخل ألمانيا وكل الدول الأوروبية بلا تأشيرة دخول، وكأنها إحدىٰ دول الاتحاد الأوربي! تأشيرة ألمانيا، تلك الصعبة العصية المنال! التي أنفقت في سبيل الحصول عليها أكثر من شهرين مشيا وعدوا في جامعة القاهرة ومجمع التحرير وشوارع الزمالك حول السفارة، من أجل إنهاء الإجراءات. ثم تجد ضابط الجوازات في مطار برلين يفحصها فحصا يدويا وآليا ليتأكد من صحتها، وينظر في وجهك عدة مرات نظرات اتهام! كل هذا، ويدخل عمر وكل من يحمل الجواز الإسرائيلي، إلىٰ ألمانيا وغيرها من الدول هكذا بلا حساب. لقد أخبرني عمر أن جواز السفر الإسرائيلي هو أخطر وثيقة يمكن لشخص أن يحملها اليوم؛ حتىٰ إنه هو نفسه يخاف أحيانا أن يحمله معه! وقال إن هناك إجراءات طويلة معقدة يجب اتخاذها عند فقد هذا الجواز، لأنه ربما سقط في يد من يزوره، ويستغله في أعمال تجسس أو غيره مما يضر بمصلحة الوطن، وأنهم ربما وقعوا علىٰ من فقده عقوبة! ولا ينتهىٰ الأمر هكذا بمجرد الإخبار.

كانت كتب الكورس الخاصة بعمر كتبا قديمة مستعملة، فقلت لعله لا يستطيع لفقره أن يشتري كتبا جديدة، سألته فضحك وقال إنه يعيد الكورس مرة أخرىٰ، ليتقن تعلم اللغة، وأنه اشترىٰ هذه الكتب قبل شهرين، فحضر الكورس بها أول مرة، واليوم يعيده بالكتب نفسها، فلما سألته عن سر إعادته دراسة الكورسات، وبخاصة أن أسعارها غالية، ربما تكلف الشهر من اليورهات ما يعادل ألفين أو يزيد من الجنيهات المصرية، ضحك وقال إنه لا يبالي بالمال، فإن ألمانيا تدفع له كل شيء: تدفع راتبا شهريا، وتوفر له المسكن، وتلزم المدرسة الألمانية أن تعلمه اللغة مجانا، ومن حقه مد الإقامة كيف يشاء، وتظل ألمانيا تنفق عليه علىٰ هذا النحو طوال مدة دراسته بها حتىٰ يحصل درجة الدكتوراه إن شاء!

أشعر ببعض القراء الآن، وقد سال لعابهم وودوا لو أنهم كانوا إسرائيليين، إذن لظفروا بهذا الذي ينعم به عمر هنا، وكيف لا يتوقون إلىٰ ما فيه عمر، وقد تاق بعضهم من قبل إلىٰ ما هو أقل منه! إن بعضهم تاق إلىٰ ما وصل إليه جمعة، ذلك المهاجر غير

الشرعي الذي قابلته في مسجد الشيخ مندور، الذي نجاه الله من الغرق فوصل إلىٰ برلين ليعمل في مطعم فول!

لم يكن ما فعله هتلر شرا كله، فإن أناسا يتنعمون اليوم، ويرفلون في الدمقس وفي الحرير، لا لشيء فعلوه، إلا لأن رجلا ظالما أحرق أجدادهم في أفران أذابت عظامهم! هنيئا لليهود، بحرق آبائهم وأجدادهم! أما عمر هذا فيحتاج إلىٰ تهنئة خاصة، فإنه ينعم بمثل ما ينعمون به، رغم أن جده لم يحرق، ولم يمسسه سوء، وإنما يرقد هناك في أرض فلسطين. ترىٰ هل ينعم عمر حقا بكل هذه الأشياء! هل ينعم من عاش مهددا في سربه، حتىٰ وإن كان عنده قوت سنة وليس قوت يوم واحد! أي سعادة تجدها حين تفقد الأمن وإن وجدت القوت!

لقد ظل عمر حزينا متوجسا من هذا الرجل الأمريكي المشعث الشعر الدقيق الأنف زميلنا في الكورس، وأقسم لي مرات أنه جاسوس، وأكد لي ذلك بأنه يعرف عدة لغات، فلغته الإنجليزية، وهو يعرف العبرية والفرنسية والإيطالية، وها هو يتعلم الألمانية لتساعده في عمله، وكانت المفاجأة أنه يعرف العربية، نعم، كلمته بالعربية، فرد بلهجة قاهرية ماهرة، وقال إنه أمضىٰ مدة من الزمن في المعادي . . المعادي نعم . . ترىٰ من يعيش في المعادي من أصدقائنا . . يبدو أنها مدينة الجواسيس!

لقد أجريت في هذه الآونة الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي فاز فيها أوباما بحقبة رئاسية جديدة، علىٰ غير رغبة اليهود الذين حشدوا وأعدوا عدتهم لإسقاطه، لكنه نجح! عد عمر عوض نجاح أوباما نصرا كبيرا علىٰ الصهاينة، ودعما عظيما لأهالي غزة، لكن للأسف لم تدم فرحته طويلا، حتىٰ زأر الطيران الإسرائيلي في سماء غزة، وراحت تقصفها الدبابات والمدافع، في ضربة وحشية جائرة دامية.

دارت عجلة التعارف في كورس الألمانية، كنت قد أخبرتكم بأن معنا فيه، فرحناز الإيرانية، التي أقسمت لكم ألا أعرفكم بها، وعمر عوض، وبشير أبو طه، ذاك الفلسطيني الطيب، الذي وفد إلىٰ ألمانيا ليتعلم اللغة ويدرس الطب، بعد أن أنهىٰ دراسته الثانوية الأزهرية هناك، كم أنت عظيم أيها الأزهر، جذورك ضاربة في كل مكان. لقد كان وجود بشير أبو طه من أسرار شقاء عمر، فقد منعه الانسجام مع صديقه الإسرائيلي، وزاد مخاوفه منه، إذ ربما زل لسانه بكلمة تعيب إسرائيل فينقلها

هذا الصديق إلىٰ جهاز أمن دولتهم، فيشقىٰ عمر بها مدىٰ الحياة.

كنا نجلس في الصف الأمامي في حجرة الدراسة، وفي الصف الخلفي يجلس عدد من الفيتناميين، والأمريكيين، والصينين، ومعهما عمر حمداني، وسفيان أبو طالب، شابان عربيان صديقان من المغرب، كانا كثيرا ما يتغيبان عن الدرس! لكنني تعرفت إليهما، لاتفاق لساننا العربي، والحقيقة أن أكثر كلامهما بالفرنسية، كما هو الشأن مع أهل تونس والجزائر، والعامية عندهما عصية علىٰ الفهم بشكل عجيب، تعجبت من إتقانهما الفرنسية ومن عدم إتقانهما العربية، أيصنع الاحتلال كل هذا! أيبلغ من القوة بحيث يترك كل هذا الأثر! ثم تذكرت مصرنا الغالية، وشعبها الأبي الكريم! مصر التي قضت عمرها محتلة، من الحملة الفرنسية والاحتلال الإنجليزي، ولم نتأثر بلغة المحتل أبدا، بل إن الجنود الإنجليز كانوا يتعلمون العربية، لقد سمعتهم يتحدثونها في فيلم «بين القصرين»، وقد أجبروا السيد أحمد عبد الجواد علىٰ نقل بضاعة لهم عقابا له علىٰ خرقه حظر التجوال في وقت الغارة وهو عائد إلىٰ بيته في الهزيع الأخير من الليل من عند «سلطانة».

كانت المرة الأولىٰ التي أتعرف فيها عن قرب ببعض المغاربة، فعددهم هنا قليل. فتاقت نفسي إلىٰ أن أسألهم عن مضيق جبل طارق الذي درسناه في حصص الجغرافيا ومحاضرات التارخ الإسلامي، ولا أدري لم تخيلت أنهم يرون بلاد الأندلس (إسبانيا) إذا ما وقفوا علىٰ الشاطئ من ناحية بلادهم ينظرون إليها، وطرقتني مشاهد عبور طارق بن زياد وجيش المسلمين، ومشاهد حرق السفن ليضطرهم إلىٰ البقاء والثبات وعدم الفرار..

قلت هذا وكنت أظن أن المضيق عاد كما كان من قبل فتح الأندلس، هو الحد الفاصل بين بلاد شمال إفريقيا وأوروبا، لكنني عرفت منهما معلومة أدهشتني، وليتني ما عرفت!! لقد وقفت علىٰ هذه المعلومة، ولا أدري سبب عدم معرفتي بها حتىٰ اليوم! إننا نعلم أن دولة الإسلام في الأندلس قد سقطت، وأن مضيق جبل طارق عاد كما كان الحد الفاصل بين العرب وأوروبا، لكن الغريب أنه عند خروج الاستعمار الفرنسي من المغرب جرت اتفاقيات تقضي بأن تظل مدينتا «سبتة» و«مليلية» المغربيتان الساحليتان محتلتين وتخضعان للسيادة الإسبانية، وأن يخضع «مضيق جبل طارق»

للسيادة البريطانية! ولا تزال هذه المنطقة محتلة حتىٰ الآن، وتقضي الاتفاقيات كذلك بأن تصدر المغرب لفرنسا كل ما تحتاج إليه من مواد غذائية وغيرها بأسعار رمزية في الوقت الذي يكتوي فيه المغاربة بنار الغلاء. كيف يقال إن المغرب العربي قد تخلص من الاحتلال الفرنسي؟!

ما هذا الاحتلال الذي يضرب أرضنا من كل جانب!

لن أطيل في هذا الحديث فقد مللته! هيا بنا نتعرف علىٰ السيد جيت ليسكر، مدرس اللغة في هذا الكورس، ذكرت لكم من قبل أنه رجل عجوز، عظيم البطن، عيناه ضيقتان، متقاربتان، لكن هذا الأمر لا يعنينا في شيء! وما لنا ولشكل الرجل، إن ما يعنينا هو علمه وأدبه، وخلقه، وإحاطته بمادته! نعم، معكم الحق! لقد كان السيد جيرت ليسكر ماهرا في تعليم الألمانية خبيرا بها، لكبر سنه، ولطول خبرته في تدريسها للأجانب! لكن السيد ليسكر هو مثال رائع للموظف المصري الكسول! ذلك الذي يذهب إلىٰ العمل ليقرأ الصحف ويشرب الشاي ويحل الكلمات المتقاطعة! وهل يحلها في الفصل؟ بالطبع لا، إنه لكسله لا يقرأ الصحف، وإنما ذكرت لكم لذلك لأشبهه بمثال قريب من الأذهان!

السيد ليسكر يقضي أكثر وقت الدرس جالسا علىٰ كرسيه، لا يقوم إلا إذا طلب إليه أحدنا كتابة كلمة استعصت عليه، وإذا قام إلىٰ السبورة قام كسولا يمن علينا، يطلق آهات نسمعها من كبار السن في بلادنا وقد أهلكتهم خشونة المفاصل وآلام العظام. آهات السيد ليسكر ظاهرها فيه الدعابة، وباطنها مليء بالألم! كان الله في عونه، كنا نقبل ذلك منه، من باب الرفق وحسن الخلق، لكنه كان يغالي في هذا الأمر كثيرا، حتىٰ إنه كان دائم النظر في ساعة يده، وفي ساعة الحائط لينظر كم تبقىٰ من الوقت! إنه لم يكن ينتظر جرس الراحة (الفسحة) حتىٰ نخرج إليها، وإنما ينظر في ساعته فيجد أن وقتها يحين بعد عشر دقائق، فيطلق بفمه صوت جرس، كما هي عادة الأطفال عندنا، يحركون ألسنتهم بشدة وهم ينطقون حرف الراء، يطلق السيد ليسكر، وهو ليس طفلا، ذلك الجرس بصوته إيذانا ببدء الراحة، فنخرج إليها قبل موعدها فرحين كالأطفال لملل عظيم أصابنا لبطء الشرح والدرس، وإن كنا نفيد منه إفادة كبيرة. ثم يأتي السيد ليسكر بعد دق الجرس الرسمي لانتهاء الراحة متأخرا بضع دقائق؛ ليقصر

وقت النصف الثاني من الدرس، ويطلق كذلك صافرة النهاية بجرسه العظيم قبل جرس المدرسة، أي حَكَمٍ هذا الذي لا يجري مع اللاعبين خلال المباراة ولا يتابع الكرات والركلات! إن القوة والعافية لا تدب في جسده إلا عند إطلاق صافرة النهاية، فيطلقها مدوية قبل أوانها كذلك! كنا نقبل ذلك منه، ونسعد به أحيانا؛ ومن منا يصبر علىٰ مرارة العلم والدرس والمذاكرة. هيا بنا نلعب!

كلما عَنّ لي موقف، ذكرت لكم شبيها له في مصر، وكثيرا ما تكون المقارنة لصالح ألمانيا، لكنني اليوم سأفجأكم بشيء عجيب، يدعوني إليه الإنصاف، وهو أن هذا الكسل الألماني، سيقابله نشاط مصري لا حد له! ولا أعلم سببا دفع إليه حتىٰ الآن! إنه الأستاذ نجيب! نعم اسمه نجيب، وقد جعل الله له من اسمه نصيبا، حضر إلينا ونحن في الصف الرابع الابتدائي لتولي تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية. كان من القرية الكبيرة التي تتبع لها عزبتنا الصغيرة. لم يكن الأستاذ يكتفي بالحصص المقررة في جدوله، وإنما يضطرنا قبيل الامتحان إلىٰ الحضور قبل الطابور ليدرس لنا ساعة أو ساعتين أحيانا، وكذلك نتأخر بعد موعد انتهاء اليوم الدراسي! يراجع ويعيد ويزيد! وكان صارما، فلا أحد يستطيع التغيب عن موعده! حتىٰ إننىٰ كنت أشق الظلام الذي لم تُرفع أستاره بعد الفجر، وكنت طفلا في العاشرة أو الحادية عشرة، أقطع الطريق إلىٰ المدرسة، طريق ذرعه ألف متر أو يزيد، تنبحني الكلاب علىٰ جانبي الطريق ومن داخل الحدائق والحقول، وسط رعب عظيم! لكن رعب الكلاب كان أهون من لهيب عصي الأستاذ إذا ما تغيبت! نصل إلىٰ المدرسة فيعيد علينا قبل الامتحان شرح نص شعري عن «النيل» لأحمد شوقي، أو عن «الطفولة» لأبي القاسم الشابي، أو يراجع حروف العلة، وأنواع الخبر. لم يكن الأستاذ يتقاضىٰ علىٰ ذلك أجرا، وما زلت أسأل نفسي ما سر هذا الذي كان يصنعه معنا! لعله حبه لعمله! فحبك الشيء يعمي ويصم، لكنك تجد له حلاوة لا يعدلها شيء.

إنني أعجب له! كان يجمع منا أوراق الأسئلة بعد كل امتحان! أتدرون لماذا؟ كم هو عجيب والله ذلك الأستاذ! إنه يجمعها ويحتفظ بها، للعام القادم، ليقدمها للطلاب الجدد مادة تجريبية، يدربهم علىٰ نمط الامتحان، وكان يجمعها حتىٰ لا يكلف كل واحد منهم خمسة قروش هي قيمة التصوير، وكان قد صنع ذلك معنا،

فقد عقد لنا امتحانات تجريبية كثيرة، لم تكن أسئلتها إلا أوراق أسئلة جمعها من طلاب السنوات السابقة! لم يكن يدفعنا إلىٰ جمع هذه القروش إلا إذا مرض أحدنا، فنجمع ثلاثة جنيهات ونص هي قيمة علبة صغيرة من الشيكولاتة، يحملها خمسة وثلاثون تلميذا، كل منهم دفع عشرة قروش، ويذهبون بها إلىٰ بيت زميلتهم أو زميلهم المريض، فيلقون بها إليه، ثم يقفلون راجعين . . وقد حملوا واحدة من هذه مرة إلىٰ، ولها قصة طريفة، وليس الوقت وقتها.

نعود إلىٰ السيد ليسكر! ولن أذكره بسوء، ولكني أقول لكم قولا لا تسألوا عنه أحدا بعدي، وهو أن المعلم الذي يَمْثُل أمام الطلاب، ينبغي أن يكون قدوة لهم في كل شيء، حتىٰ في مظهره! ينبغي ألا يترك للطلاب من نفسه شيئا يُعلقون عليه، أو يسيء إليهم به، كأن يضطرهم إلىٰ أن يكونوا في حجرة الدراسة آذانا، ولا ينظرون إليه إلا لماما، فعليه أن يهتم بحسن مظهره، ونظافة ملابسه وغسل أسنانه، حتىٰ لا ينشغل الطلاب بشيء من ذلك، ولا تنصرف قلوبهم عما يقدمه لهم من علم. لا يدفعنكم الكسل إلىٰ التهاون في هذه الأشياء!

(٢٢)

رينولدس .. ونويفرت

لقد حدثتنا حديثا طويلا عن تعلم اللغة وعمن تعرفت إليهم في دروسها من أصحاب الجنسيات المختلفة، ورويت لنا أطرافا من حياة من عرفت من الألمان، وذكرت لنا ما كان لك من مواقف معهم، لكنك لم تُعَرِّج كثيرا علىٰ الجامعة وما يجري فيها! ماذا عن دروسها، ومحاضراتها وأساتذتها، ومؤتمراتها، وطلابها، وحلقاتها البحثية، ماذا عن كل ذلك؟! قد نعلم أن الخوض في هذه الأمور لا يروق كل أحد، لما يتوقع في مثلها من سرد أمور إدارية وعلمية تقريرية جافة، لكنا نعلم أنك لن تحرمنا بعض الطرائف التي تدفعنا إلىٰ السير معك في هذا الطريق الذي تفرشه دائما بالزهور وتملأه بالأنس والود والمحبة.

أشكركم أيها الأصدقاء علىٰ صادق حبكم وجميل ودكم وصفاء نفوسكم التي تدفعني إلىٰ الكتابة دفعا! وأنىٰ لي أن أتوقف عن الكتابة وقد غدا لي من القراء قوم من أمثالكم أيها الأعزاء الكرام.

هيا بنا نعود إلىٰ الجامعة التي كنت قد بدأت الحديث عنها قديما في لقاءات جرت بيني وبين الأستاذة أنجيليكا نويفرت. إنني أفكر معكم الآن كيف ألتقط طرف خيط من هذه اللقاءات أنطلق به لمواصلة الحديث عن الجامعة وما يجري فيها مرة أخرىٰ. دعوني أبدأ فأذكركم بما كان، وحتما سنعثر معا علىٰ هذا الخيط الذي نصل به ما انقطع.

لقد وافقت الأستاذة علىٰ خطة البحث، ووقعت عليها، وطلبت إليَّ إنهاء إجراءات التسجيل. وسألتها عما يناط بي من واجبات فأخبرتني بألا شيء علي سوىٰ كتابة الأطروحة، غير أنه يمكنني حضور حلقة البحث الأسبوعية التي تديرها الأستاذة باربرا

فنكلر، ويناقش فيها طلاب الماجستير والدكتوراه موضوعاتهم البحثية، ويناقش فيها كذلك طلاب الليسانس مشروعاتهم للتخرج. قالت الأستاذة: صحيح أنك لست ملزما بذلك، وبخاصة أن الحلقة ستكون باللغة الألمانية وأنت حديث عهد بها، لكن لا بأس! اجعلها تمرينا عمليا علىٰ الاستماع إلىٰ اللغة! ويمكنك بعد قليل تقديم فكرة بحثك كذلك في إحدىٰ الحلقات باللغة الإنجليزية. فرحبت بفكرتها، وأعربت عن سعادتي بها، وسألتها عن موعد الحلقة الأولىٰ، فأجابت الأستاذة فنكلر بأنها ستكون في الثلاثاء من كل أسبوع في الرابعة مساء وتنتهي في السادسة. فسألتها: هل تعقد هذه الحلقة لمناقشة الأبحاث وتقييمها والفصل في مدىٰ صلاحيتها للدراسة كما هو الشأن عندنا في مصر؟ فأخبرتني بأن الأمر علمي بحت ولا علاقة له بإجراءات التسجيل. فأمر التسجيل ينتهي بتوقيع الأستاذ المشرف بالموافقة، وتعقبه عدة إجراءات إدارية فحسب. أما هذا السيمنار فهو لإفادة الباحثين وتوجيههم وتصحيح مسارهم عن طريق العرض والمناقشة، ولا يقتصر الأمر فيه علىٰ عرض البحث مرة واحدة حين يكون فكرة أولية فحسب، وإنما يمكن للباحثين مناقشة البحث عدة مرات، ومناقشة كل فصل علىٰ حدة. بل يمكنهم مناقشة كل فكرة جديرة بالبحث والنظر وإن كانت خارج مشروعهم البحثي الكبير.

إن السيمنار هنا لا يكون لتقرير مصير البحث وصاحبه، ولا يكون أرض معركة لتصفية خلافات بين الأساتذة، ولا يكون جلسة مباهاة يستعرض فيها الأستاذ المشرف عضلاته العلمية علىٰ أقرانه وزملائه من الأساتذة وينبري للدفاع عن تلميذه غير النجيب. إنه ليس ساحة نزال لتصفية الحسابات! لا شيء من ذلك هنا! لا شك عندي من هذا شيء كثير، لكنني لا أحب أن أذكره الآن حتىٰ لا ننغص صفو اللقاء، فاسمحو لي أن أضع هنا نقاطا تدل علىٰ وجوب إضافة شيء! وأعدكم أن أضيفه في قابل الأيام، لكن دعوا هذه النقاط الخالية تذكرنا به[1].

(١) مرت أيام وأعدت قراءة ما كتبت، وأريد الآن أن أذكر بعض ما تجاوزت عنه سابقا. ذلك أن موضوعات الماجستير والدكتوراه ترفض في حلقاتنا البحثية بسبب الصراعات بين الأساتذة، دون أي أسباب علمية، ومن ذلك أنني تقدمت بخطة للدكتوراه، فوافق عليها كل من حضر السيمنار إلا أستاذ واحد من غير أهل التخصص، رأىٰ أن هذا الموضوع كبير، وأنه بحاجة إلىٰ أستاذ عمره خمسون عاما لينجزه، ولما كان صوته صوتا واحدا من بين الحاضرين، فلم أعبأ به؛ فعند التصويت لا شك ترجح كفة الأغلبية، لكنني =

تلقيت رسالة إلكترونية من الأستاذة باربرا فينكلر تخبرني فيها بموضوع الحلقة البحثية الأولىٰ، وهو مناقشة كتاب ذاع صيته، وطبع عدة طبعات، وترجم إلىٰ جل اللغات، هو كتاب «تاكسي» لخالد الخميسي! تقدمه طالبة ماجستير اسمها بياتريس بولر. حضرتُ الحلقة مبكرا، وكنت حرصت علىٰ ذلك، لأستفسر من الباحثة عن أهم أفكارها وقضاياها باللغة الإنجليزية -باختصار- قبل أن تشرع في عرض موضوعها في الحلقة؛ لأنني موقن أن الوقوف علىٰ ما يقولون بالألمانية ضرب من العبث.

الحقيقة أن كتاب تاكسي لخالد الخميسي كتاب يروي فيه صاحبه حكايات سمعها من سائقي تاكسي كان قد ركب معهم في شوارع القاهرة، يشكون مر الشكوىٰ من ألم حياتهم وفقرهم وضيق عيشهم، إنهم يصبون جام غضبهم علىٰ الواقع المصري، ويعرضون لقضايا كبيرة تمس الواقع السياسي والاجتماعي. طرافة الكتاب في قضاياه وفي قربه من نفوس العامة التي تميل إلىٰ الحكايات البسيطة وإن كانت ذات مغزىٰ كبير، لكنه كتب بلغة عامية، ولم نعتد في دار العلوم علىٰ عَدِّ ما كُتِبَ بالعامية أدبا! وقد حاولت إحدىٰ الطالبات مرة دراسة بنية السرد في سيناريو أحد الأفلام السينمائية فنضحها الأساتذة في السيمنار بالنبال وعادت إلىٰ بيتها متورمة العينين! ذكرت للباحثة

= فوجئت حين سألت رئيس القسم عن القرار بعد انعقاد الجلسة، أن الموضوع رفض بالإجماع!! أذهلني الخبر! من أين جاء هذا الإجماع ولم يرفض الموضوع في السيمنار سوىٰ صوت واحد غير علمي! فأجابني بأن أعضاء القسم جميعا كانوا يرفضون الموضوع في السيمنار، ولكن الحياء منعهم من انتقادي أمام الحاضرين من الطلاب والباحثين، وذلك لأنني مدرس مساعد، زميل لهم في القسم، ولا يليق أن يوجهوا إلي سهام النقد في حضرة الأغراب! فثارت ثائرتي متسائلا: أي حياء هذا الذي منعهم من انتقادي؟ وهل النقد الأدبي شتيمة بالأم؟ أليس بحثا علميا واضحا يعلن في الملأ! فحاول الرئيس تهدئتي، وأخبرني بأن إمكانياتي العملية ممتازة، وأنه يريد لي موضوعا أفضل من هذا، وود لو أنه أشرف علي! علىٰ أن أترك مشرفي الأول! فاتضحت لي خلفية الرفض المزعوم بالإجماع!!

والحق أن هذا الموقف سبقه موقف آخر يشبهه عند التسجيل لدرجة الماجستير، لم يخرج كذلك عن دائرة الصراعات بين الأساتذة بسبب المشكلات الشخصية، حتىٰ إن أحدهم هددني بالفصل من القسم، وأنني لن أسجل للماجستير مهما حدث، لا في هذا الموضوع الذي اخترته ولا في غيره، ما دمت أريد التسجيل مع هذا الأستاذ الذي هو علىٰ خلاف شخصي معه! عانيت من هذا طويلا حتىٰ كادت الصورة النبيلة التي رسمتها للأستاذ الجامعي تحترق بين ناظري! لكنني لم أتخل يوما عما آمنت به من مبادئ أفكار!!

أن لغة كتاب تاكسي هي أقرب إلىٰ لغة العامة، ثم إن جنسه الأدبي غير معروف، فلا هو رواية ولا هو قصة، ولا هو سيرة ذاتيه، وإن كنت لا أنكر طرافته، فابتسمت وأعربت عن سعادتها بما يناقشه الكتاب من قضايا، ثم إنها ستعول علىٰ الترجمة الألمانية للكتاب، ولا شأن لها بلغة الكتاب الأصلية عامية كانت أو فصيحة إلا عند مقابلة النصوص والتوثيق.

طلبت إليها -مازحا- أن تشرح لي كيف ترجم المترجم كلمة (سُقْع) في أول جملة في الكتاب يقول فيها المؤلف: منذ سنوات وأنا زبون «سُقْع» لسيارات التاكسي! . . فَضَحِكَتْ!

لقد أدهشني الموقف وعجبت لكلامها للوهلة الأولىٰ، ورددت عليها بكلام أحفظه من أساتذتنا الكبار وهو أن الباحث لا يحل له أن يعمل في ميدان الأدب المقارن إلا بعد أن يعرف عددا من اللغات الأجنبية كمعرفته اللغة العربية أو يزيد، حتىٰ يتمكن أن يخرج لنا شيئا نافعا. طرقني ذلك وحملت علىٰ الفتاة حملة شديدة! إن هذا لا يصح ولا يجوز، كيف يكون جل تعويلك علىٰ الترجمة! إن الترجمة قد تضلك وتهديك سبلا فيها فساد للمعنىٰ وتشويه للمبنىٰ! قلت ذلك وأنا علىٰ ذكر بترجماتنا إلىٰ العربية من لغاتهم! إنها ترجمة أشبه بما يكتبه المشعوذون في الأحجبة وينحتونه في التمائم، ولا سبيل إلىٰ قراءته، لأنه لو قرئ ذهب تأثيره. عاتبتها عتابا شديدا، فاعتذرت بأنها لا تجيد العربية بالقدر الذي يؤهلها من القراءة بالفصحىٰ فضلا عن العامية!

انعقدت الجلسة، وانتهت، دار خلالها نقاش لم أفهمه، لكنني تساءلت: إننا في معهد الدراسات العربية، وينبغي أن يكون الحديث كله بالعربية، المحاضرات والنقاشات والمداخلات، وكتابة البحوث والرسائل. إننا نصنع ذلك في مصر فالأساتذة والطلاب في أقسام اللغات بكليات الآداب في مصر يتحدثون لغة القسم الذي يدرسون فيه، الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإسبانية، ويكتبون بحوثهم بها، فلم لا تصنعون ذلك في معهدكم العظيم. اعتذرت الأستاذة عن الطلاب بأن صعوبة العربية تفوق طاقة الطلاب، (قالت ذلك لكنني وقر في قلبي أنهم لا يعبأون بها، فليست العربيٰة اليوم لغة علم ولا أدب)، لكن ذلك لا يمنع أن هناك بعض النجباء الذين يعولون علىٰ النصوص العربية في لغتها الأصلية ولا يرجعون إلىٰ

الترجمات كصديقنا كريستيان يونجئ الذي يكتب رسالته للدكتوراه عن كتاب «الساق علىٰ الساق فيما هو الفارياق» لأحمد فارس الشدياق، والحقيقة أنني أعرفه، وأعرف أن الكتاب وعر مسكله، فلغته فوق لغة الجاحظ وأبي حيان وإن بدا أنه يسلك مسلكهما.

إنهم يعولون علىٰ الترجمات! نعم الترجمات! لم لا نغير أفكارنا، ونعود في دراسة الأدب المقارن إلىٰ الترجمات؟ إنني لا أرىٰ شيئا في أن يرجع الباحث إلىٰ الأعمال الإبداعية المترجمة مع شيء من الإلمام باللغة الأجنبية يعصمه من الخطأ ويقيه الزلل. إن لنا أستاذا عظيما ذكر مرة أنه ينبغي حذف كلمة «الأدب المقارن» من اسم القسم في دار العلوم «قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن» إذ لم يعد في هذا الحقل جديد يقدم بعد كل ما قدم العظماء الأوائل غنيمي هلال وزملاؤه وتلامذته. ثم إن الباحثين اليوم لا طاقة لهم علىٰ شيء من ذلك! إنني أرىٰ أن الأمر بحاجة إلىٰ إعادة النظر، وشيء من التفكر المستنير. لنفتح لهذا الفرع المعرفي أبوابا جديدة.

في الحلقة البحثية الأولىٰ نوقش كتاب «تاكسي» لخالد الخميسي، وفي الحلقة الثانية نوقشت «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني، وفي الحلقة الثالثة نوقشت «يوتوبيا» لأحمد خالد توفيق!! طرقني طارق غريب، وارتبت في نية القوم! إنهم لا يقرءون من أدبنا إلا ما يعري مجتمعنا ويكشف سوأته! إنهم يولون اهتماما كبيرا إلىٰ ما يفضح فقرنا، وظلمنا، وجهلنا، وأميتنا، وفسادنا الأخلاقي، ومشكلاتنا الجنسية، وأدواءنا الاجتماعية، وأمراضنا النفسية . . . وجدت في نفسي من ذلك لبعض الوقت، لكنني تدبرت الأمر، فوجدتهم علىٰ حق! وهل عندنا غير هذا؟ هذه هي السمات الغالبة علىٰ مجتمعاتنا في الوقت الحالي، وهم يرغبون في التعرف إلينا عن قرب. فلا سبيل أمامهم إلا ما نكتبه عن أنفسنا! لقد ذكرت مرة أن الشذوذ الجنسي غير مقبول، فلامني بعض الأصدقاء في ذلك ونظر لي نظرة أسكتتني! وذكر كريستيان يونجئ أن «عمارة يعقوبيان» هي من مصادرهم الكبرىٰ في التعرف علىٰ خبايا المجتمع المصري. إنها إنجيلهم المقدس في هذا الميدان!

لم أكن مطالبا بحضور هذه الحلقة كما أخبرتكم لكنني كنت أحضرها، ولم أكن أفهم كثيرا مما يقال، اللهم إلا أفكارا عامة أبنيها علىٰ خلفية سابقة . . ضقت بذلك

وودت لو أني أحضر شيئا من محاضراتهم أسعد به وأفهم عنهم. سألت كريستيان في هذا الأمر فأخبرني أن من خطة المعهد في هذا العام استقدام أستاذ أمريكي للأدب العربي، لإلقاء عدة محاضرات وتدريس بعض الكورسات لطلاب الماجستير باللغة الإنجليزية. ويمكننا حضور ها. سعدت بذلك سعادة كبيرة. وحضرنا أول محاضرة مع هذا الأستاذ الأمريكي العظيم.

البروفيسور دوايت رينولدس أستاذ الأدب العربي الكلاسيكي بجامعة كاليفورنيا - سانت باربرا. لقد ترك الرجل في نفسي أثرا بالغا، واستطاع أن ينحت لنفسه في قلبي منزلة كمنزلة كبار الدراعمة؛ حتىٰ إنني اليوم حزين لعدم استقدامه أستاذا زائرا مرة أخرىٰ في هذا العام. وأشهد أن الرجل قد سلب لبي لما لمسته فيه من سمات العرب الأوائل فالرجل جاد صارم، مهيب، كريم النفس سخي اليد، حسن الكلام، يتمثل الأدب القديم كما لا يتمثله كثير ممن تخصصوا فيه من الأساتذة العرب. قرأنا معه فصلا من كتاب الأغاني وترجمناه إلىٰ الإنجليزية، فكأنا والله درسناه مع أبي الفرج نفسه في زمانه، فالرجل يستحضر المشاهد ويروي الحكايات محبا لها محسنا فهمها وكأنه عاشها، ورغم أن محاضراته كانت بالإنجليزية الخالصة فإن صوته وشعوره كانا ينقلان لك كيف أنه متشبع بالأدب العربي، وقد ملك حبه عليه أقطار نفسه. وكنت أعجب كيف أنه سبر أغوار مناطق من الأغاني دقيقة المسلك وعرة اللغة في الأشعار بخاصة، ويورد احتمالات من المعاني لم تكن ترد إلىٰ عقول أبناء اللغة أنفسهم.

كأن الرجل درعمي قدير ممن يقبل الناس أيديهم عن حب وقناعة وإكبار. ما أعظم أن تترك في الناس أثرا جميلا تذكر به!!

كم أفتقدك يا رينولدس الجميل!

قرأنا معه فصلا من كتاب الأغاني عن إبراهيم بن إسحاق الموصلي، وترجمناه إلىٰ الإنجليزية، وقرأنا معه كذلك ترجمة الموصلي في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ووفيات الأعيان لابن خلكان. وعقدنا شيئا من المقارنة بين هذه الكتب في تعريفها بالموصلي. لقد برع الرجل براعة منقطعة النظير في نقلنا إلىٰ أجواء ذلك العصر الذهبي للثقافة العربية. وكنت أجد سعادة عظيمة حين أصوب للزملاء من

الطلاب الألمان أخطاءهم وأكشف لهم عن المراد وقد خفي عنهم لتفرد بنية اللغة العربية التراثية، فكانوا يطربون لذلك. وقد اتخذني الأستاذ مرجعا له وللطلاب متىٰ أشكل عليهم شيء عند الترجمة، فأنا ابن اللغة والأقدر علىٰ معرفة طبيعتها. كم هو عظيم ذلك الإحساس الذي تستشعره حين تطأ موطئا تحسن السير فيه. لكن الجدير بالذكر أن ثمة مواطن في الشعر خاصة كانت غائمة، وتعييني الحيلة في الوصول لمراد الشاعر، فأجد عند رينولدس الجواب الشافي فأبتسم له ابتسامة محب، وأهز رأسي هزة إعجاب، فيطرب لذلك ويبادلني الابتسام.

لم أكتف بحضور هذا الكورس وحده للأستاذ رينولدس، وإنما حضرت معه كذلك محاضراته في تاريخ الأدب العربي، لقد درس لنا تاريخ الأدب العربي كله في فصل دراسي واحد، بدأ بالعصر الجاهلي ومعلقة امرئ القيس، ومر بعصر الرسالة، والعصر الأموي والعباسي، فدرس لنا قصائد للفرزدق وجرير، وللمتنبي وأبي العلاء وأبي نواس وأبي تمام، وتطرق للمقامات، والنقائض، وذكر عبد الحميد الكاتب وفن الكتابة، وختم بالأدب الحديث عند البارودي وشوقي وروايات لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وجمال الغيطاني. كان تطوافا سريعا لكنه كان ماتعا، يقف عند الخصائص المميزة لكل عصر، ويختار أعلىٰ ما فيه من النصوص، فقدم بذلك للمبتدئين خريطة عامة لكنها واضحة المعالم للأدب العربي كله . .

ومن الطريف أنه لم يكن يطلب إلينا حفظ الكثير من الأبيات، فهو لا شك أمر شاق علىٰ غير بني اللسان! ومن ذلك أنه طلب حفظ أول بيتين من معلقة امرئ القيس فحسب. فوجد الطلاب في حفظهما مشقة عظيمة. رحم الله الدكتور صلاح رزق، فقد حفظنا علىٰ يديه المعلقات كلها إلا قليلا! لقد طلب إلينا رينولدس حفظ البيتين الأولين، فأنفق فيهما الشيخ البرليني هورست، هل تذكرونه؟، أنفق فيهما حينا من الدهر يحفظهما ويسمعنيهما حتىٰ كادا يثبتان في رأسه، ولما طلب إلينا الأستاذ أن يسمعهما من الذاكرة في المحاضرة التالية، استحييت أن أكون أول من يسمعه، فهذا لا شك أمر علي يسير. فانبرىٰ الشيخ البرليني هورست يسمعه البيتين. لكن العجيب أن الرجل وهو الأعجمي الذي لا يفهم معنىٰ الكلمات وإن حفظها، انتصب واقفا، إجلالا لمقام إنشاد الشعر، فصفق له الأستاذ وصفقنا كذلك لتلك اللفتة العظيمة،

ووقر في قلبي أن هذا ما كان له أن يكون لولا فحولة العربية، التي تضرب في أعماق أبنائها، وتضرب كذلك في أعشار قلب من لا يعرفها. هورست يقف لينشد! أنشد هورست وصفقنا له، رغم أخطاء يسيرة، وسرت حركته هذه في كل من حضر من الطلاب فصارت عادة، فما منهم ولا منهن إلا وقف ووقفت لتنشد ذلك النص الجليل، وما كان لي أن أتخلف وأنا العربي عن هذه السبيل!

لقد حضر البروفيسور رينولدس أستاذا زائرا! يدرس للطلاب ثلاث مواد دراسية، تاريخ الأدب العربي، والأدب الشعبي، والنصوص العربية القديمة. لقد درسها وهو ليس أستاذا في جامعة برلين. إنه أستاذ في جامعة كاليفورنيا. إنه أمر يدعو للعجب! وما العجب في ذلك؟ العجب يا سيدي أن القوم استقدموه ولم يحقدوا عليه، استقدموه راضين! ولم يحدث شجار في مجلس القسم حول توزيع جدول المحاضرات، ولم يقل أحد وما حاجتنا إلىٰ هذا الغريب الذي يقتسم معنا عيشنا، ويصرف عنا طلابنا! ويزاحمنا في قوت أولادنا! لقد استقدموه من أجل العلم، وضخ مياه جديدة في النهر، ودفع دماء جديدة في العروق. لم يطلبوا إليه التدريس إلىٰ أقل الفصول عددا حتىٰ لا يتمكن من بيع كثير من المذكرات، فلا مذكرات هنا ولا كتب. لقد درس لنا في الأدب القديم ذلك الكتاب الرائد لروبرت إروين عن الأدب العربي القديم، وكلما خطا بنا خطوة في التاريخ صور لنا نصا من عيون ما كتب عن تاريخ الأدب العربي في تلك الحقبة، لأستاذ أمريكي أو بريطاني، وأرسله عبر البريد الإلكتروني، لنطبعه فنقرأه قبل المحاضرة استعدادا لها، ولم يكلف الرجل نفسه عناء التأليف في كل هذه الفنون من أجل طباعة مذكرة يقتات بها.

لقد كتب رينولدس ذلك الأستاذ العظيم كتابا رائدا عن السيرة الذاتية في الأدب العربي، وعلمت أنه نقل إلىٰ العربية، وحين توطدت علاقتي به، أخبرني أنه أقام مدة من الزمن في مركز قلين في كفر الشيخ يأخذ السيرة الهلالية عن أحد منشديها هناك، لأنه أعد أحد بحوثه عن الأدب الشعبي وكانت هذه السيرة أهم مصادره. لقد أحببت الرجل، وتعلق قلبي به، لدقته وعلمه وصرامته، فطلبت إليه علىٰ عادة المصريين شهادة تفيد حضوري هذه المحاضرات معه، فنحن قوم نحب الشهادات، وهو يعلم أنني لست طالبا نظاميا، فأنا طالب دكتوراه وهذه المحاضرات أعدت لطلاب

الماجستير، فاسمي ليس مقيدا في دفاتره، لكنه سعد بطلبي، وابتسم وقال: أتريد شهادة واحدة؟! لأمنحنك شهادتين؛ إحداهما من جامعة برلين لأنك حضرت الكورس فيها، وشهادة أخرىٰ من جامعة كاليفورنيا، لأنني أستاذ بها!

أتعلمون متىٰ طلبت منه هذه الشهادة؟! لقد طلبتها ونحن معا في أحد المطاعم القريبة من الجامعة! لقد دعانا الأستاذ -نحن الطلاب- جميعا علىٰ الغداء! بعد المحاضرة الأخيرة. كم كان شعورا طيبا منه. صحيح أن عددنا لم يتجاوز العشرة لكنها كانت لفتة طيبة، أود أن أنقلها إلىٰ بعض الأساتذة الذين يعيشون في أبراجهم العاجية. وتزداد الهوة بينهم وبين طلابهم، وينسحق العلم تحت أقدام الكبر والصلف! كم هو رائع أن تذوب الحواجز بين الطالب والأستاذ مع الاحتفاظ بكامل الاحترام. لا أظن أنني وجدت في من درست علىٰ أيديهم أحدا في صرامة رينولدس إلا نفرا قليلا، لكن الرجل زرع فينا حبه من حيث لا يدري ولا ندري!

الحقيقة أن المعهد استقدم السيد رينولدس، وقد كان المعهد فيما يبدو في حاجة إليه، لضخ هذه الدماء الجديدة التي تحدثنا عنها. ولا نكاد نجد شيئا من ذلك في جامعاتنا ولا في دار العلوم بخاصة، تلك التي امتلأت يوما بالأساتذة الأجانب والمستشرقين في كل المجالات، ومنهم من عمل عضوا بمجمع اللغة.

إننا نحزن كثيرا حين تخرج جامعة القاهرة من الترتيت العالمي للجامعات، وتكاد تدق الطبول حين نحتل مركزا يقترب من نهاية المائة الخامسة في ترتيت هذه الجامعات العالمية . . .

ما السر في هذه الأزمة وما السبيل إلىٰ حلها؟!

لا شك أن لاختيار الكفاءات والبعد عن المحسوبية دورا كبيرا في حل هذه الأزمة وبخاصة أن مصر غنية بثروات بشرية عظيمة . .

أيها السادة: إننا بحاجة إلىٰ أن ننقي قلوبنا وأن ننفي خبث نفوسنا وأن نتجرد قليلا من الأهواء!

لقد أعلن معهد الدراسات السامية والعربية بجامعة برلين الحرة منذ وقت قصير عن وظيفة شاغرة وهي درجة الأستاذية، فالأساتذة بالمعهد تجاوزوا الستين (سن المعاش) والآخرون أساتذة مساعدون. فتقدم للوظيفة خمسة من أساتذة الدراسات

العربية من ألمانيا وأمريكا والنرويج، قدموا أوراقهم وشهاداتهم وسيرهم الذاتية، كنت أتوقع أن يتم فحص هذه الأوراق وتقييمها والاختيار من خلالها لكنني وجدت أن الأمر أكبر من ذلك . . فعلىٰ كل أستاذ متقدم لهذه الوظيفة أن يعد محاضرة رصينة في فرع من فروع المعارف العربية يلقيها أمام لجنة يختار أعضاؤها من قبل الجامعة لتقييم هذه المحاضرة. عقدت هذه المحاضرات يوم الاثنين ٩ يناير ٢٠١٢، تحدث البروفيسور توماس باور الأستاذ بجامعة مونستر الألمانية عن أثر أشعار المتنبي في الشعر المملوكي (١٢٥٠-١٥١٧)، وتحدثت الأستاذة بياتريس جروندلر الأستاذة بجامعة ييل الأمريكية عن الثقافية الشفاهية قبل عصر الطباعة، ووسائل الإعلام في القرن التاسع الهجري، وتحدثت كذلك الدكتورة لال بتزادي الأستاذة بجامعة بامبرج عن أدب الفضيحة- رواية بنات الرياض نموذجا، وتحدث شتيفان جوت الأستاذ بجامعة أوسلو النرويجية عن الكرامة والحس الوطني في الثقافة العربية. وتحدث جورجوس تامر الأستاذ بجامعة كلومبيا عن جماليات الزمن في الأدب العربي. ولا ينتهي الأمر عند ذلك وإنما يقوم الأستاذ عقب إلقاء محاضرته بتدريس موضوع في الأدب العربي القديم أو الحديث أو المعارف العربية بعامة لمجموعة من طلاب الليسانس أمام لجنة من المقيمين كذلك.

انتهىٰ هذا الأمر علىٰ مدار يوم كامل من الثامنة صباحا حتىٰ السابعة مساء، وتوقعت أن تعلن اللجنة النتيجة؛ لكن ما كان منها إلا أن اختارت ثلاثة أساتذة من بين هؤلاء الخمسة واستبعدت اثنين، علىٰ أن يتم إرسال أوراق تقييم هؤلاء الثلاثة إلىٰ محكم دولي يشترط أن يكون من (خارج ألمانيا) للنظر وإصدار الحكم!!

فهل يحدث شيء من ذلك -أو قريب منه- في جامعاتنا؟!

إن إعلانات تعلن في الصحف في جامعاتنا عن حاجة بعض الأقسام إلىٰ مدرسين، فتذكر شروطا لا تنطبق في أغلب الأحيان إلا علىٰ شخص بعينه صنع الإعلان من أجله! هو قريب للعميد أو المدير، لقد روي لي أن إحدىٰ كليات الآداب أعلنت عن حاجتها إلىٰ مدرس في البلاغة والنقد، وذكرت شروطها، لقد كان من بين الشروط شرط هو عنوان رسالة الدكتوراه للأستاذ المطلوب! «من هنا نتأخر» وعذرا للأستاذ خالد محمد خالد صاحب كتاب «من هنا نبدأ»! وكل التحايا للكاتب «محمد عمر»

صاحب «حاضر المصريين أو سر تأخرهم»!

في الوقت الذي يتحرىٰ فيه الألمان الدقة في اختيار الأساتذة، مما يوهم أن في ذلك حطا من شأنهم بمقاييسنا نحن العرب، فالحق أنك تجد الألمان أكثر الناس احتفاء بالأساتذة وإعلاء من قدرهم. فإذا خط الأستاذ خطابا أو مهره بيده، كان دستورا لا يرد، (ولا يعطل)، وليس توقيع الأستاذ بحاجة إلىٰ خاتم الجامعة أو إلىٰ شعار الدولة، لأن الأستاذ عندهم فوق ذلك كله. إنهم يكرمون الأساتذة وهم أحياء! إنهم يكرمون العلماء!

لقد شهدت مؤتمرا تكريميا عقد بمناسبة بلوغ الأستاذة أنجيليكا نويفرت سن السبعين. عقد تحت عنوان «عمق المعرفة والالتزام - مؤتمر تكريم لأنجيليكا نويفرت» Erudition and Commitment - A conferecnce in honour of Angelika Neuwirth، أسهمت في رعايته ست جهات علمية ألمانية، وشارك فيه عدد كبير من أساتذة الدراسات العربية والقرآنية، من جامعات ألمانية وعالمية: برلين، ومونستر، وييل، وكاليفورنيا، وأكسفورد، وبيروت، وجامعات كندية ومجرية. وكيف لا يكرمونها وهي من هي في ميدان الدراسات القرآنية، وقد حصلت علىٰ جوائز عالمية كثيرة يصعب حصرها، وكان آخر تكريم لها هو حصولها علىٰ درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة ييل الأمريكية.

لقد احتفىٰ بها كل هؤلاء الأساتذة من العالم كله في هذا المؤتمر الذي كان من أطرف أبحاثه بحث قدمه الرجل العظيم توماس باور عن «الاقتباسات القرآنية في الشعر زمن سلاطين المماليك» وتناوله تحت عنوان «نقل الأبنية القرآنية» كان آية في بابه، حسن عرض وإتقانا في اختيار النماذج!

لقد ذكر باور في معرض بحثه ما ذهب إليه صفي الدين الحلي في تقسيم الاقتباس القرآني إلىٰ: محمود مقبول، ومباح مبذول، ومردود مرذول! واستشهد بأبيات غاية في الطرب لشعراء كثيرين منهم إبراهيم المعمار من كبار شعراء العامية في مصر المملوكية في القرن الثامن الهجري. وكان مما مثل به، اقتباسه لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾، يقول:

مـــا جـــاءنـــا وال أمـــر مـــن ذلـــك الـــنـــحـــس أمـــر

لا رده الله لنا إلا إلىٰ نار سقر
ذاك الذي نعده ممن تولىٰ وكفر

عجبت لهذا الشاهد الذي أورده، وكأنه يقرأ أحوالنا! وكان مما استشهد به علىٰ نقل الأبنية القرآنية في غير ما وضعت له، مما هو مردود مرذول، نقل الشاعر المملوكي بعض الآيات القرآنية في سياقات جنسية، لا تتناسب مع قدسية النص القرآني، ومنها توظيفه لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، إذ يقول:

قد بت من كربي لفقد النسا أفور كالتنور من ناريه
وقد طغىٰ الماء فمن لي بأن أحمل بالجود علىٰ جاريه

ومن أمثلة ذلك كذلك ما نقله الشاعر عن قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، يقول:

أطعمت أيري كي ينام وقلت قر فما استقر
بل قام يسعىٰ قائلا أنا من إذا طعم انتشر

فتعالت ضحكات الجمهور في القاعة لكلمات ذلك الشاعر الماجن!

لقد استمعت إلىٰ بحث باور والأبحاث التي كانت قبله وبعده، وكلمات الإطراء التي ترطب مشاعر أنجيلكا نويفرت. لا شك هي أمور مشجعة تبعث علىٰ الحياة والأمل، فالغبن ظلمات والتجاهل ظلم كبير. لقد كنت أستمع إلىٰ كلمات الإطراء ويطرق مخيلتي ذلك التمثال القميء لنجيب محفوظ القائم تحت الكوبري في ميدان سفنكس. وأذكر عبارة نجيب محفوظ حين رآه: «يبدو أن النحات الذي صنع هذا التمثال لم يقرأ من رواياتي إلا رواية الشحاذ». لقد كان في عبارة الأديب العالمي أبلغ دلالة علىٰ ما شعر به من مرارة تجاه هذا التمثال القميء، وذلك التكريم المصري الوضيع لأديب نوبل العظيم!

ولا شك أن إهمال رجال العلم والفكر والأدب ظاهرة عامة، يعاني منها الجميع، فلا يكرم الكبار في بلادنا أبدا إلا بعد وفاتهم! لقد آذىٰ هذا الأمر كثيرا من المبدعين والكتاب حتىٰ إن بعضهم قرر أن يكرم نفسه بنفسه.

ويبدو أن الأمر في ثقافتنا قديم، فقد روي أن الشاعر الأهوازي سئل: كيف

أصبحت؟ فقال: أصبحت بحمد الله أظرف الناس وأكيس الناس وأ شعر الناس. قيل له: لا تقل أنت ذلك، ودع الناس يقولوا. قال: أنا أنتظر منذ أربعين سنة أن يقولوا فلم يقل أحد منهم شيئا! وإذا كانت هذه الرواية تبعث علىٰ شيء من الضحك والسخرية فإنها لا شك تعكس مرارة في الأعماق! هذه المرارة تجدها أكثر وضوحا وإفصاحا عن نفسها فيما صنعه يوسف السباعي حين أهدىٰ روايته الشهيرة «أرض النفاق» إلىٰ نفسه، يقول:

«إلىٰ خير من استحق الإهداء، إلىٰ أحب الناس إلىٰ نفسي، وأقربهم إلىٰ قلبي، إلىٰ يوسف السباعي، ولو قلت غير هذا، لكنت شيخ المنافقين، من أرض النفاق»!

ويعلل يوسف السباعي هذا الإهداء الغريب بقوله: «إنني أود أن أكرم نفسي وهي علىٰ قيد الحياة؛ فلشد ما أخشىٰ ألا يكرمني الناس .. إلا بعد الوفاة .. ونحن شعب يحب الموتىٰ .. ولا يرىٰ مزايا الأحياء حتىٰ يستقروا في باطن الأرض. إنني أريد كل شيء، أريد ما بالدنيا وأنا في الدنيا .. أما الخلود .. والذكرىٰ .. والتاريخ .. فما حاجتي لها وأنا عظام نخرة تثوي في قبر بقفرة .. ما حاجتي إلىٰ تقدير الأحياء وأنا بين الأموات؟ ... ما حاجتي إلىٰ أن يذكروني في الدنيا وأنا في الآخرة!!ويمجدوني في الأرض وأنا في السماء؟!

إني أبغىٰ المديح الآن .. والتقدير الآن .. وأنا أسمع وأحس .. فما أمتعني شيء كسماع المديح والتقدير .. قولوا عني مخلصين .. وأنا بينكم .. إني كاتب كبير قدير شهير .. وإني عبقري .. ألمعي .. لوذعي. فإذا ما مِتّ، فشيعوني بألف لعنة، واحملوا كتبي فأحرقوها فوق قبري، واكتبوا عليه: «هنا يرقد أكبر حمار .. أضاع عمره في لغو وهذر .. إني لا شك رابح كاسب .. لقد سمعت مديحكم وأنا حي محتاج إليكم .. وصممت أذني عن سبابكم وأنا ميت، أغناني الله عنكم وعن دنياكم. هل علمتم لِمَ أهديت الكتاب إلىٰ نفسي؟ لأني أحب نفسي وأقدرها، ولديّ الجرأة علىٰ أن أقول ذلك».

ورغم ما في كلام السباعي من مبالغة شديدة؛ فإن فيه قدرا كبيرا من الحقيقة، «فما أمتعني شيء كسماع المديح والتقدير»! لست طبيبا نفسيا، ولكني أزعم أن النفس بحاجة إلىٰ شيء من هذا، وبخاصة إذا كانت نفس رجل مجيد، عالم كبير، أو طبيب

ماهر، أو كاتب عظيم أو أستاذ قدير! أنزلوا الناس منازلهم! ولا تبخسوا الناس أشياءهم!

ما أجمل التكريم الصادق لمن يستحقون التكريم، وهم علىٰ قيد الحياة! إن الألمان يهتمون بهذه القضايا المعنوية اهتماما كبيرا، ولعلها سر من أسرار نجاحهم، فلا تثبيط، ولا قتل! ويبدو أنهم يكرمون عظماءهم في الحياة وبعد الموت! فقد وقفت علىٰ عبارة ألمانية تقول:

Nachdem Friedrich Schiller beerdigt worden war, kümmerte sich niemand um das Grab des großen Dichters.

بعد وفاة الشاعر العظيم فريدرش شيللر، لم يحفل أحد بقبره!

لقد قرأت هذه العبارة في سياق اللوم والتقريع، وكأن التكريم بعد الموت في هذه البلاد حق كما هو حق أثناء الحياة.

(٢٣)

قطـاران ..

يبدو أن مسلك هذه الحلقة وعر، والسير فيها خطر، لتشعب الأفكار وتناثرها. إنني أخشىٰ أن ترهقني في الكتابة وتشقيني، وتصيبكم كذلك بالعنت عند قراءتها. ففيها نصل ما انقطع من حديث حلقات البحث والمؤتمرات في ألمانيا، فإن للقوم عناية كبيرة بالندوات والمحاضرات العامة واللقاءات العلمية، وهي عندهم مصدر أصيل لنشر العلم والتعريف بجديد الأفكار. لقد اهتديت إلىٰ فكرة طريفة، تيسر مهمتي في الكتابة وتيسر عليكم متابعة ما أكتب، وهي أن أروي لكم قصة مؤتمر شاركت فيه. نجلعه خطًا أساسيا يسري من بداية الحلقة حتىٰ نهايتها، ثم ننظم علىٰ جانبيه الأفكار المتشابهة متجاورة. فلا يقع شيء من التنافر المستكره.

أخبرني صديقي كريستيان يونجىٰ أن مؤتمرا دوليا كبيرا للمستشرقين الألمان يعقد كل ثلاث سنوات في إحدىٰ الجامعات الألمانية بالتناوب، وسيعقد هذا العام في جامعة مونستر، وحثني علىٰ المشاركة فيه. فأعددت فكرة بحث قصيرة أقرأ فيها رواية «يحدث في مصر الآن» للروائي المصري يوسف القعيد، أقرأها من خلال ما اصطلح النقاد حديثا علىٰ تسميته بـ «عتبات النص». إنه مصطلح مضحك غريب؛ قد يحسن أن أشرحه -بإيجاز- لمن لا يعرفه منكم، ماذا يقصد بعتبات النص؟. العتبة من البيت وغيره مدخله وأولىٰ درجات سلمه، وهي من العمل الأدبي أول ما تقرأه فيه، كالعنوان والمقدمة والتصدير وما يكون حوله كالهوامش، وما يتخلله من نصوص بارزة كخطابات مكتوبة تدور بين الشخصيات، أو تحقيقات أو قصاصات من الصحف يثبتها الروائي في متن روايته. نحاول إضاءة النص من خلال هذه الأشياء التي تبدو هامشية، لكن لها دورا كبيرا في توجيه دلالة العمل وهداية القارئ إليها في مرحلة مبكرة.

لقد أرسلت هذه الورقة الصغيرة إلىٰ اللجنة المنظمة للمؤتمر عبر البريد الإلكتروني، وتم قبولها، فسعدت بذلك سعادة كبيرة، وكيف لا أسعد أن تقبل ورقتي في أكبر المؤتمرات الألمانية الاستشراقية وأعظمها علىٰ الإطلاق. ولم يحدث أن أتيحت لي فرصة في مصر من قبل للمشاركة في مؤتمر. فليست المؤتمرات عندنا للصغار من شباب الباحثين، وإنما هي للأساتذة الكبار الذين أوتوا العلم، ونالوا الدرجات. أن تكون أستاذا -في بلادنا- يكون لك الحق في كل شيء؛ أما دون هذه الدرجة فلا، وكثيرا ما تسمع من الأساتذة إذا أردت التعبير عن رأيك في قضية من القضايا، أو اعترضت علىٰ ما اعتقدت خطأه، أو سلكت مسلكا غير مألوف مثله في أبناء درجتك العلمية، تسمع عبارات مثل: ومن أنت أيها الغر!، إن اسمك ما زال مكتوبا في ملفات الجامعة بالقلم الرصاص، يمكننا محوه بسهولة في أي لحظة، فنقضي بذلك عليك وعلىٰ مستقبلك! إذا كنت ما زلت معيدا وتتعامل بهذه الطريقة، فماذا تصنع بنا إذا صرت أستاذا! لا يليق بك أن تخرج من منطقة الظل قبل أن تحصل علىٰ الدكتوراه، ثم نقرر بعدها أنخرجك إلىٰ الحياة أم نتركك منزويا في الركن المظلم إلىٰ يوم يبعثون.

لقد قبلت ورقتي البحثية عن رواية القعيد «يحدث في مصر الآن»، وقد يحلو لبعضكم أن يعرف قصة هذه الرواية وما يدور فيها، فلا شك فيها من التسلية والألم شيء كثير! أعدكم أيها الأصدقاء أن أقفكم علىٰ خبرها في الوقت المخصص لي لإلقاء بحثي في المؤتمر، فلا شك ستكونون جميعا معي هناك.

ينعقد المؤتمر في الثالث والعشرين من سبتمبر ٢٠١٣ ويستمر مدة خمسة أيام. حجزت تذكرة القطار، وحجزت الفندق عن طريق الإنترنت. حتىٰ إذا كان اليوم الموعود اتجهت إلىٰ محطة القطار الرئيسية في برلين، أعظم محطات القطارات في أوربا وفي الدنيا كلها، تلك التي أفخر بها لأن من بناها هو المهندس المصري هاني عازر، ولا أخفيكم سرا أنني أزورها أحيانا من غير أن تكون لي حاجة في ركوب القطار، أزورها لا لشيء إلا لأسعد وأعتز بمصريتي التي تطعن اليوم من كل جانب. ركبت القطار وانطلق فجرا. لا أدري هل أصف لكم القطارات الألمانية الآن أم أتركها لرحلة أخرىٰ، لأن هذا الأمر يطول. إنني حين ركبت القطار سئمت طائرات

«مصر للطيران» وشعرت بالخجل، ذلك أن جودة عربة القطار تتفوق علىٰ الطائرة. فالمقاعد وثيرة كعروش الملوك، والمسافات بينها كافية لأن تمد ساقيك فتتخذ من المقعد سريرا، دون أن تؤذي من هو جالس خلفك، وثمة مقاعد أمامها مناضد أنيقة، يمكنك استخدامها في تناول طعام أو شراب، ويمكنك القراءة ووضع الكتب وجهاز الكمبيوتر، وفي جانب المقعد أسفل المنضدة توجد مقابس للكهرباء، لتشغيل الكمبيوتر أو لشحن الهاتف. كما أن للنوافذ أستارا متقنة الصنع تحجب الشمس، وزجاجا رقيقا شفافا نظيفا يكشف لك حين تطلع الشمس الطبيعة الساحرة لهذه البلاد الماطرة. كل ما في القطار نظيف نظافة شديدة فلا تخشىٰ أن تتسخ ملابسك بزيت أو شحم أو ما أشبه. في سقف القطار علقت شاشات عرض فيها ساعات تبين الوقت، وتعرض اسم المحطة القادمة بخط كبير، وتحتها سلسلة أسماء المحطات التالية كتبت بنمط من الخط أصغر منه، حتىٰ يعلم الركاب أين ومتىٰ يغادرون، وتبين الشاشة كذلك معدل سرعة القطار، تتغير قيمتها أمام عينيك وفقا لسرعة انطلاق القطار. وفي العربة مايكروفونات تسمع خلالها عبارات ترحيب متكررة، وبعض التعليمات والإرشادات. في بداية العربة ونهايتها أبواب زجاجية علقت عليها لافتات تخبر بعدم جواز التدخين أو استخدام الموبايل أو التحدث بصوت عال. فالعربة أشبه شيء بالبيت، ولا يحل لك أن تزعج الجيران. يأتي إليك الكمسري . . وقد كانت سيدة . . فرحبت بي ونظرت في التذكرة وابتسمت وتمنت لي رحلة سعيدة فشكرتها. راحت تنظر في تذاكر من حولي من الركاب، فأملت ظهر المقعد إلىٰ الخلف قليلا ليسمح بمزيد من الراحة وأغمضت عيني عن شاشة الكمبيوتر بعد أن انتهيت من مراجعة العرض الذي أعددته لورقة المؤتمر.

أغمضت عيني لحظة فرأيتني في دمنهور، أستقل القطار إلىٰ القاهرة، في رحلة كانت الأخيرة لي في القطارات المصرية. فقد كنت طالبا، واعتدت الذهاب من بيتي إلىٰ القاهرة بالميكروباص، فلا قطار يتجه إلىٰ القاهرة مباشرة من قريتي. لا أدري ما دفعني في هذا اليوم إلىٰ ركوب القطار من دمنهور. لعله الميل إلىٰ تجريب ما اعتاد عليه زملاء الدراسة من أبناء البحيرة والشرقية، فلهم بالقطارات شغف عظيم. أو ربما لأن ثمن تذكرة القطار كان أرخص من الميكروباص. وقفت علىٰ رصيف محطة

دمنهور، والقطار قادم من بعيد كالوحش، يصدر صوتا أقوىٰ من الرعد، إن أقوىٰ شيء في قطاراتنا صوت البوق! القطار شكله مخيف، أسود اللون صدئ بعد أن فقد دهانه القديم. سُكبت عليه زيوت وشحوم، لعل رجال الصيانة أغرقوه بها ليحموه من الصدأ وأثر الجو. ولم يحفلوا بحسن منظره، فلا علاقة لهم بعلم الجمال. اندفع الركاب إلىٰ الأبواب داخلين خارجين في آن واحد، كنت أحمل معي حقيبة سفري، وكانت ثقيلة، وكيف لا وقد استوصت أمي بي خيرا، وملأتها من أطايب الطعام.

حاولت الولوج إلىٰ العربة فلم أجد موطئا لقدمي، زحام شديد، وتدافع رهيب، تمكنت بعد لأيٍ أن أجد في أرضية القطار موضعا لقدم واحدة، وبقيت الأخرىٰ مرفوعة معلقة تحاول تحسس الأرض علها تجد موطئا. حقيبتي علىٰ رأسي مدلاة علىٰ كتفي. أمسكها بإحدىٰ يدي وأمسك بالأخرىٰ في أرفف الحقائب الممتدة أسفل سقف العربة، وقد امتلأت بالركاب الذين قفزوا عليها، وناموا في أماكن وضع الحقائب! كلما حاولت وضع قدمي المعلقة علىٰ أرض العربة دفعني أحدهم وعنفني لأنني وطئت قدمه، فليس في أرض العربة موطئ لقدم. ظللت علىٰ هذه الحال حتىٰ وصلنا إلىٰ طنطا، وهناك نزل بعض الركاب، فخف الزحام لأتمكن، لا من الجلوس في أحد المقاعد الخشبية المتسخة المهشمة، وإنما لأجد علىٰ الأرض موطئا لقدمي الأخرىٰ.

في التفاتة شديدة للقطار في أحد المنحنيات فتحت عيني رأسي الملقاة علىٰ القماشة البيضاء النظيفة المكتوب عليها «سكك حديد ألمانيا» في ظهر المقعد لأرىٰ فتاة جميلة بيضاء فارعة الشعر تجوب القطار تسأل الركاب عما إذا كان أحدهم يرغب في شرب قهوة أو شاي أو يأكل شيئا. تطلب ذلك في رقة شديدة، آلم كتفي علىٰ أثر رقتها وجمالها خبطة قوية من جردل صاج يطوف به أحد الباعة الجائلين في قطار دمنهور «حاجة ساقعة بيبس» . . لقد تحسست كتفي لشدة الخبطة، ثم ابتسمت . . أي خبطة . . إنك في قطار ألمانيا!! نعم . . لا جرادل هنا . . ولا قرص ولا حلوىٰ! لكن سؤالا حيرني: لماذا يتعامل هؤلاء الباعة الجائلون في القطارات المصرية علىٰ أن السكك الحديدية ومن فيها من الركاب ملك لهم، يدفعونهم، ويزجرونهم، وربما أجبروهم علىٰ الشراء أحيانا. تذكرت يوسف شاهين وهند رستم . . قناوي وهنومة في فيلم «الباب الحديد».

كنا قد اقتربنا إلىٰ محطة الوصول في مونستر، وكان قد ركب في الطريق أناس كثير، فقد استغرق الطريق حوالي خمس ساعات، وصلت سرعة القطار خلالها أحيانا إلىٰ ٢٨٠ كليو متر في الساعة، لكنك لا تكاد تشعر باهتزاز القطار علىٰ فرط سرعتة. فجاء كمسري ليفحص التذاكر مرة أخرىٰ، ابتسم ورحب بالركاب. الكمسري يفحص التذاكر ولا أحد من الركاب يخاف منه، لا أحد يهرب أمامه مسرعا يتخفىٰ بين الناس ويتواري فيهم حتىٰ لا يضبطه بلا تذكرة. عجبت كثيرا للألمان، إنهم لا يخافون من الكمسري ولا يخافون من العسكري!

وصلتُ إلىٰ محطة القطار الرئيسية في مونستر . . أين الفندق؟ كيف الطريق إليه؟ أين الجامعة وكيف الطريق إليها؟ الغريب أعمىٰ وإن كان مبصرا! نعم هذا مثل مشهور في مصر، لكنه لم يعد معمولا به هنا، لا أثر له إلىٰ حد كبير. فقد كنت أعرف كل شيء عن المدينة قبل الوصول. لو أن الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي حضر من قريته أول مرة إلىٰ ألمانيا، فما كان له أن يكتب قصيدته «الطريق إلىٰ السيدة»، وما كان له أن يضل الطريق، ولا أن يكتب لنا ديوانه «مدينة بلا قلب»!. إن معي خرائط تفصيلية للمدينة تمكنني من الوصول إلىٰ دقائقها، حواريها وأزقتها!. تركت حقيبتي في خزينة للأمانات في محطة القطار، تستأجرها آليا بالساعة لقاء دراهم معدودة. تركت حقيبتي واتجهت إلىٰ الجامعة حيث مكان انعقاد المؤتمر، رأيت مبنىٰ عظيما راعني سموه وبهرتني فخامته، هو المبنىٰ الرئيسي لجامعة مونستر، يسمونه "Schloss" يعني القصر أو القلعة. تذكرت حين رأيته أن ألمانيا بها أكثر من ٤٠٠ جامعة، أخبرني بذلك صديقي كريستيان وكنت أتيه عليه ذات مرة بأن برلين بها ثلاث جامعات فقط، وأن مصر فيها ١٣ جامعة. لما عرفت ذلك أدركت كيف أن الألمان لا يعملون بنظام «مكتب تنسيق القبول بالمعاهد والجامعات»، فلا حاجة بهم إليه، لا حاجة لهم إلىٰ هذا التنسيق الذي نعمل به في مصر فيجبر كثيرا من الطلاب علىٰ دراسة ما لا يحبون، فيفشلون! إن بألمانيا أماكن للدراسة أزعم أنها تكفي طلاب العالم كله. فلو أن كل طلاب ألمانيا أرادوا دراسة الطب لوجدوا أماكن متاحة لدراسته، ولو أنهم رغبوا جميعا في دراسة السياسة لوجدوا الفرصة سانحة. وقل مثل هذا في دراسة الأدب والتاريخ والجغرافيا، والصيدلة والبيطرة والقانون وكل الفنون. هكذا توقعت. فكل له

أن يدرس ما يشاء دون أن يملي عليه أحد شيئا. إن هي إلا اختبارات قبول يسيرة لا تعوق أحدا عن تحقيق مراده. ولا توجد هنا كليات للقمة وأخرىٰ للقاع؛ فتلك قسمة ضيزىٰ، فكل العلوم والفنون سواء. بل إن جامعة برلين مثلا أشد تفوقا في العلوم الإنسانية منها في العلوم التجريبية التي تدرس عندنا في كليات القمة فقط.

سجلت حضوري إلىٰ المؤتمر، وتسلمت ذلك الملف الذي يحوي عددا من المطبوعات المتعلقة به، ومنها كتاب فيه برنامج المؤتمر وجدول محاضراته. تصفحته سريعا حتىٰ وقفت علىٰ اسمي وعنوان بحثي بين الصفحات، فراقني ذلك! كم هو جميل أن ترىٰ اسمك مطبوعا في كتاب. فإن للكلام المطبوع رهبة وجلالا! . . نعم للكلام المطبوع رهبة . . علّمنا بعض أساتذة النقد بدار العلوم أن نكسر حدتها في قلوبنا حتىٰ نقدر علىٰ نقد ما يكتب الكتاب والمبدعون. نظرت في عناوين محاضرات اليوم الأول فلم يرقني شيء منها لأحضره، وكانت محاضرتي في اليوم الأخير، وكنت مجهدا من أثر السفر. فحملت ملف المؤتمر، ورجعت إلىٰ محطة القطار، فحملت حقيبتي وتوجهت إلىٰ الفندق . . كان الفندق في أطراف المدينة. كان بين الحقول. كنت أعرف أن الفندق يبعد عن الجامعة عشرين دقيقة بالأتوبيس، لكن لم أكن أدري أن في مواجهته حقولا عظيمة من الذرة، وبحيرة رائعة، ومراتع للخيول. أعادتني هذه الأجواء إلىٰ قريتي حتىٰ إنني التقطت صورا لي مع الذرة وكأني أراه للمرة الأولىٰ في حياتي.

الفندق مبنىٰ أنيق، حديث الطلاء، نظيف، أنهيت الإجراءات في الاستقبال، وتسلمت مفاتيح الحجرة. كانت مريحة ونظيفة، ودورة المياه بها تبعث علىٰ التفاؤل.

حضرت بدءا من اليوم التالي كثيرا من المحاضرات التي أربت علىٰ ثلاثين محاضرة في الدراسات العربية وحدها. فقد كان المؤتمر عاما يشمل الدراسات الأفريقية والآسيوية، واليابانية، والإيرانية، والهندية والكورية والعثمانية واليهودية والإسلامية. أعجبني كثير منها، ولم يرقني القليل. والحقيقة أنني لم أكن أحضر لأفيد من المادة العلمية المقدمة فحسب، التي يقدمها هؤلاء الأساتذة الذين وفدوا إلىٰ المؤتمر من كل حدب وصوب؛ وإنما لأعرف الطريقة التي يلقون بها أبحاثهم، فأتعلم كيف ألقي ورقتي؛ فقد كانت تجربة جديدة.

لقد لاحظت أن المحاضر الألماني بخاصة، والغربي بعامة، يلتزم بالوقت المحدد له لعرض ورقته البحثية، ثلاثون دقيقة، يعرض الورقة في عشرين منها ويدخر عشر دقائق للمناقشات والمداخلات. إنه لا يتعدىٰ علىٰ حقوق المشاركين الآخرين بالاقتطاع من أوقاتهم؛ بحجة أن القضية التي يعرض لها مهمة، وأن محاورها متشعبة، وأنها تحتاج إلىٰ ساعات طويلة من العرض، وربما احتاجت إلىٰ مؤتمر مستقل. إن الباحث لا يضطر رئيس الجلسة إلىٰ أن يعنفه أكثر من مرة لعدم التزامه بالوقت، وهو ما قد يصرف نظر الحضور عن موضوع بحثه لينشغلوا بمدىٰ التزامه بالوقت من عدمه. كما أن الإطالة ليست أبدا دليل غنىٰ وثراء، ولكنها قد تكون دليل عجز، فالمهارة الحقيقية تكمن في أن تعرض كل أبعاد قضيتك وأن تغطي كل جوانبها بإيجاز في وقت قصير، وذلك بأن تكون واضحا ومحددا. وليكن في ذهنك دائما قول أينشتاين: «إذا لم تستطع أن تعبر عن الفكرة بوضوح فاعلم أنك لم تحسن فهمها!».

ومن الطريف كذلك أن المؤتمر يتيح المشاركة لكل الباحثين، سواء أكانوا أساتذة أم طلابا. فلا يقتصر الأمر علىٰ كبار الأساتذة فحسب وإنما تجد الشباب علىٰ طاولة واحدة جنبا إلىٰ جنب مع أساتذتهم دون تفرقة. كما أن مطبوعات المؤتمر لا تذكر فيها الدرجات والألقاب العلمية، فالكل سواسية، وربما كان الترتيب الأبجدي حاكما، فترىٰ اسم أستاذ عظيم في ذيل قائمة المشاركين، والعجيب أن ذلك لا يؤثر في نفسية الأستاذ ولا يثير حنقه، ولا يدفعه إلىٰ تعنيف لجنة المنظمين (الأغبياء) لأنها لم تعرف قدره السامي!

كان المؤتمر رائعا في كل شيء غير أن اللجنة المنظمة لم تحسن ضبط جدول المحاضرات، بحيث يتمكن المهتم بمجال معرفي معين من حضور كل ما يتعلق بحقله المعرفي، وذلك أن عددا من الجلسات والمحاضرات المتعلقة بقضية واحدة أو قضايا متشابهة كانت تُلقىٰ في نفس الوقت في قاعات مختلفة، وهو ما يضيع فرصة كبيرة علىٰ من يريد متابعة كل شيء.

لكن أهم ما أفدته من هذا المؤتمر من تقاليد وأعراف كان فيما يتعلق بالمداخلات والتعليقات. فالأسئلة قصيرة ومحددة وواضحة، فلا تجد صاحب المداخلة يقدم محاضرة أخرىٰ موازية للمحاضرة الأصلية وهو ما يثير حنق الحاضرين تجاه أصحاب

المداخلات من العرب. أو أن يستغل مدير الجلسة سلطته فيطيل الحديث مستغرقا من وقت الجلسة ما يوازي الوقت المخصص للأوراق البحثية جميعا. هذا ويغلب علىٰ أصحاب المداخلات الأدب الجم والابتسام الرائق، فلا تجد صاحب مداخلة يعنف بالباحث ويهدم عمله ويجتث جذوره ويحط من شأن جهده. وإنما تُقَدّم الفكرة الرصينة أو الاعتراض الوجيه في ثوب جميل يجعل الباحث يقبله عن طيب خاطر.

إن لي معكم وقفة قد تطول مع هذه الملاحظة الأخيرة. لأنها تعكس أشياء كثيرة عندنا نحن المصريين. ذلك أن كثيرا منا يجدون لذة عظيمة في الهدم واستعراض القوة والمصادرة علىٰ الآراء، وهم يدعون الحرية وقبول الآخر. وإنني أرىٰ أن لذة النفس المتحققة في هذا إنما تنجم عن شيء من الحقد والحسد والأنانية، أو الرغبة في استعراض قوة النفس في مواجهة ضعف نسم به للآخر. هذا فضلا عن حبنا لكثرة الكلام والإطالة، إرضاء منا لشهوة الإمساك بالميكروفون التي تستبد بكثير منا. من ذلك أن أستاذا مصريا حضر إلىٰ جامعة برلين زائرا، وشهد حلقة بحث يعرض فيها باحث ألماني رسالته للدكتوراه التي انتهىٰ منها ونشرها، ولاقت رواجا كبيرا، ويفتخر به وبرسالته أساتذته الألمان. الطالب يعرف العربية، لكنه عرض رسالته بالإنجليزية فهي أيسر عليه وعلىٰ من لا يعرفون الألمانية من العرب، لكن الأستاذ انبرىٰ لنقده ونقضه، واعتذر في بداية كلامه أنه لن يتكلم بالإنجليزية كما هو العرف السائد في تقديم المداخلة باللغة التي ألقيت بها المحاضرة؛ اعتذر عن التحدث بالإنجليزية لأنه آنس من الباحث معرفة لا بأس بها بالعربية. وسلقه بلسان حاد حتىٰ احمر وجه الباحث أمام الناس، ولم تسعفه عربيته للرد علىٰ هجمات صاحبنا المصري الذي أعانته لغته علىٰ كل شيء. وإذا ما أعانته عربيته هنا علىٰ هذا الباحث؛ فإن ضعف إنجليزيته لم يمنعه من ممارسة هوايته في هدم أفكار أستاذة كندية عظيمة حضرت لإلقاء ندوة عن الأدب المسيحي في العراق. حاول ذلك بإنجليزية عرجاء، أثارت حفيظة الجمهور وأدهشتهم حتىٰ أقبل بعضهم علىٰ بعض يتغامزون.

ومن المواقف التي لا تنسىٰ كذلك؛ ما جرىٰ خلال محاضرات الأستاذ الأمريكي دوايت رينولدس الذي قرأنا معه فصلا من الأغاني، كما أخبرتكم من قبل. فقد اختلف إليه معنا باحث مصري، كان من أقسىٰ الناس قلبا، فهو لا يجد حرجا في أن

يستوقف الأستاذ بعلو كبير، واعتداد بالنفس مبالغ فيه، ليبين له خطأه في فهم النص العربي، أو في قراءته، علىٰ مرأىٰ ومسمع من الطلاب! وكثيرا ما فعل ذلك مع الطلاب أنفسهم، وطالما وكزته ونبهته أن يعرف للأستاذية حقها، وأن يلتمس لما يريد قوله سبيلا هينا لينا يخلو من العلو والمباهاة بالمعرفة. فإنا وإن كنا نفضلهم في معرفة العربية، فهم يفضلوننا في الإنجليزية والألمانية وأشياء كثيرة. حاولت أن أثنيه عن فعله مرات، موضحا له أن التصويب في كل موطن يثير الضغينة في النفس، وبخاصة أننا زملاء والتزامل مدعاة التحاسد. وتصويب أخطاء الأستاذ، إن كانت أخطاء حقا، هي أشد خطرا؛ فينبغي ألا تجبهه هكذا باختلافك، ورفضك لكلامه، ولكن اسلك لذلك طريقا لينا واعرف للأستاذية حقها، فإنما هو الأستاذ وإن كان أعجميا. وما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما انتزع من شيء إلا شانه. وإن بإمكانك أن تبصر صديقك بخطئه بطريقة لا تخدش شعوره، فيتركه ويحمد لك حسن مسلكك، بدلا من أن توغر صدره.

عفوا قد أطنبت في هذا الموقف الأخير لأنه وإن مضىٰ عليه زمن، فإن حرا نشأ في قلبي الآن من أثره.

ولا يظنن أحدكم أن في الدعوة إلىٰ الرفق عند المناقشة شبهة مجاملة سمجة علىٰ حساب العلم، وإنما هي دعوة لغسل القلوب من بعض أمراضها. فالأمر كما يقول شيخنا الجليل سعد مصلوح: «محبة الرجال للرجال فتنة موجبة لتكلف الحسن فيما ليس بالحسن، وبغض الرجال للرجال فتنة صارفة عن التماس العذر وإقالة العثرة فيما هو معيب، وإيثار السلامة فتنة تغري بزخرف القول، وبما هو حمال أوجه من الكلام، ذلك كله حق لا شوب فيه، لكن ذلك ما ينبغي أن يفسد شهادة لا يكتمها إلا من هو آثم قلبه».

ومن الآفات التي تعصف بكثير ممن عرفت من الأساتذة أنهم إذا خلا بعضهم إلىٰ بعض، يعيبون زملاء لهم، ويسبونهم سبابا مقذعا في غيبتهم، وقد شهدت من ذلك شيئا كثيرا، فقد استشهدت مرة في حضرة أحد الأساتذة برأي أستاذ كبير في قضية هو بها عليم، فرد الأستاذ قائلا: «ده حمار، وما بيفهمش»، وجرىٰ ذكر أستاذ آخر فقال إنه لا يعدو أن يكون مدرسا .. يحسن التدريس للطلاب لكنه لا علاقة له بالبحث

العلمي وهذا الأستاذ لا يحسن شيئا غير أنه يربك من حوله، ويصيبهم بتوتر عظيم، وهذا لص وذاك حرامي، وهذا سطا علىٰ أفكار غيره، وفلان سطحي، ولهذا علاقات متعددة بالنساء. صحيح أنك لا تعدم أحكاما طيبة في حق كثيرين، لكن الغالب أن الصراع محتدم والبغضاء متفشية. من ذا الذي جعلك قاضيا تحكم علىٰ الناس بالخيرية أو بالفساد. إنني لأعرف أحدهم يُذكر في حضرته اسم الرجل فلا ينتظر أن يتم المتحدث كلامه عنه حتىٰ يصدر حكمه عليه، فيمنحه نشانا أو يخسف به الأرض[1].

حزين أنا وغير راض عما أكتب لكم الآن؛ لعلو نبرة الوعظ والإرشاد فيه، ولغلبة صوت دعاة الإصلاح عليه، وما إلىٰ هذا رميت؛ ولكنها نفثات مكروب محب في آن! ما كل هذا التحاقد والتباغض، ما كل هذا الاعتداد غير المبرر بالنفس، لماذا نحاول رفع أنفسنا عن طريق الحط من شأن الآخرين. إنك إذا أردت أن تبزغ شمسك وأن يسطع نجمك ويعلو كعبك في ميدان تخصصك العلمي أو العملي فلا تتعب نفسك كثيرا ولا تجتهد فيه ولا تضيع فيه وقتك الثمين لتحقق هذا الذي تريده؛ فكل ما عليك أن توجه سهامك إلىٰ أقرانك وزملائك وأبناء حرفتك وأن تطلق فيهم لسانك بحق وبغير حق وأن تحط من شأنهم قدر طاقتك، وجُدْ عليهم بالتحقير والتقزيم والتجهيل ما شاءت نفسك السخية أن تجود، فإن ذلك وسيلتك الوحيدة الناجعة التي لن تخيب رجاءك في الوصول إلىٰ بغيتك، وساعتها فقط تكون سيد حرفتك وإله صناعتك وكل أقرانك فيها إلىٰ جوارك أقزام جهلاء في سفح جبل أشم يصافح عنان السماء . .

(١) كان من تعليق الدكتور سعد مصلوح -أستاذ اللسانيات بجامعة الكويت- في هذا الموطن: «لك التحية والإعجاب فما كان من ترسلك وتحدر كلامك سلسلا عذبا ناقعا للغلة لا يتأتىٰ لكل الناس بمثل هذا اليسر والإسماح. سؤالي أيها العزيز هو أن كثيرا من الأساتذة الذين رويت لهم وعنهم نالوا درجاتهم من بيئات علمية رصينة وجادة، ورأوا ما رأيت من جميل القيم وروائع الممارسات. فلماذا نسي كثير منهم ما ذكروا به قولا واحدا ولا أقول: نسوا حظا مما ذكروا به؟ ولماذا تركوا قيم التنافس الجميل إلىٰ التحاسد البغيض؟ ولماذا تأججت في الأعماق شهوة الانتقام من كل من هو فوق أو دون بحسب ما يتاح من الفرص السوانح. تذكر جيدا أيها الحبيب كل حرف جرىٰ به قلمك الجميل، وذكر به إخوانك ممن يعيشون تجربة كتجربتك فإنما هو حجة علىٰ الكاتب والقارئ جميعا، عسىٰ أن يستيقظ الله به الأبصار والبصائر فمستقبل العلم والمعرفة أمانة في أيديكم وأيدي تلامذتكم من بعدكم. أعتذر من طول التعليق، ولكن كلامك هيج من الكوامن والنبائث ما حرمني فضيلة الاختصار. مرة أخرىٰ لك التحية والإعجاب.

«إن العاجزين عن العطاء مهرة في الغمز واللمز، والأمم التىٰ لا تعرق في ميادين الكدح لا ينقطع ضجيجها في نقد الآخرين» الشيخ الغزالي!

لقد رصد العقاد هذه الظاهرة اللعينة في كتابه «أنا» حين قال: «لقد علمتني تجارب الحياة أن الناس تغيظهم المزايا التي ننفرد بها ولا تغيظهم النقائص التي تعيبنا، وأنهم يكرهون منك ما يصغرهم لا ما يصغرك، وقد يرضيهم النقص الذي فيك، لأنه يكبرهم في رأي أنفسهم، ولكنهم يسخطون علىٰ مزاياك لأنها تصغرهم أو تغطي علىٰ مزاياهم .. فبعض الذم علىٰ هذا خير من بعض الثناء، لا بل الذم من هذا القبيل أخلص من كل ثناء؛ لأن الثناء قد يخالطه الرياء. أما هذا الذم فهو ثناء يقتحم الرياء».

ويبدو أن هذه الخصلة الذميمة قديمة قدم بني آدم، التحاسد بين الأقران، وإذا كان العقاد قد ذكرها قبل سنوات، فإن القاضي الجرجاني قد ألمح إليها قبل قرون حين قال: «التفاضل -أطال الله بقاءك- داعيةُ التنافس؛ والتنافسُ سبب التحاسد؛ وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصيرُ من قِبَله، وقعَد به عن الكمال اختيارُه، فهو يساهم الفضلاءَ بطبعه، ويحنو علىٰ الفضل بقدر سهمِهِ؛ وآخرُ رأىٰ النقص ممتزجًا بخِلقَته، ومؤثّلا في تركيب فطرته، فاستشْعر اليأس من زواله، وقصُرتْ به الهمةُ عن انتقاله؛ فلجأ إلىٰ حسَد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأماثل؛ يرىٰ أن أبلغَ الأمور في جبر نقيصته، وستْر ما كشفه العجزُ عن عورته اجتذابُهم إلىٰ مُشاركته، ووسمُهم بمثل سِمَتِه»[1].

ولعل بعض هذا التباغض بين أساتذة الجامعات ينشأ من قسوة الأساتذة علىٰ بعض طلابهم في مرحلتي الماجستير والدكتوراه؛ فتجد الباحث بعد أن تخلص من وطأة أستاذه واشتد عوده وعلا نجمه وتوسد منصبا يود لو قتل أستاذه القديم[2]. لقد أعلم

---

(١) من مقدمة كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني.

(٢) كان من نصائح الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف نائب رئيس مجمع اللغة العربية رحمه الله تعالىٰ في هذا السياق: «... عود نفسك أن تأخذ طلابك بالرفق الواجب حتىٰ يلينوا فىٰ يديك ويتعلموا منك ويأخذوا عنك، ومن شذ منهم يرده حلمك، ومن جهل منهم يردعه علمك، ولتكن المحبة سبيلا إلىٰ نقل علمك الذىٰ شقيت فىٰ تحصيله سنين؛ فإن العلم لا ينتقل إلا بالحب بين المعلم والتلميذ. والتلميذ إذا رأىٰ من أستاذه كبرا أو تعاليا وجفوة ونبوا فإن ذلك ينعكس علىٰ سلوكه فيصير جافيا جاسيا عاليا =

أن أحد الأساتذة الكبار تعنت كثيرا مع بعض طلابه، وأخره في الحصول علىٰ الدكتوراه، حتىٰ لا يقتسم معه جدول التدريس للطلاب، ولا يشاركه قوت أولاده من بيع المذكرات علىٰ حد تعبيره! لقد تجرع الباحث المر علىٰ يدي أستاذه، فلما حصل علىٰ الدكتوراه بعد معاناة وعذاب شديد، وأصبح أستاذا، وكان أستاذه قد وصل إلىٰ سن التفرغ، أراد أن يسقيه من الكأس نفسها، فحرمه من التدريس، وأصر علىٰ منعه من المشاركة في المحاضرات، حدث ذلك رغم توسل الأستاذ الشيخ إليه، وسلوكه سبلا مزرية من التودد السمج وبذل الابتسامات الكاذبة. لقد دار حوار بيني وبين هذا الأستاذ الشاب، وبيننا من المودة الحذرة ما سمح لي بأن أنصحه بأن يعفو عن شيخه وأن يكون كريما، فاتسعت حدقتاه، ورأيت ألسنة من النار فيهما، وقال لي: إن ما تقوله هو الضعف، فما ألذ الانتقام! إن كلامك عن الكرم والتسامح هو الضعف والعجز وقد ألبسا ثوبا حسنا نضحك به علىٰ أنفسنا. فلا يكون عفو ولا كرم ولا تسامح حتىٰ تلوىٰ عنق عدوك تحت حذائك فتسحقه، وتظهر قدرتك عليه، فيسترحمك. حينئذ يكون العفو إن أردت، وتتحقق نشوة الانتصار! عجبت لكلماته الفجة القاسية السوداء، وهو لم يزل يبتسم لأستاذه في كل محفل، ويبادله أستاذه الابتسام. وصدق المتنبي:

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلىٰ ابْتِسَامٍ بابتِسَامِ

ما أكثر الأمثلة الدالة علىٰ ما يعتمل في صدورنا من أحقاد شخصية تأتي علىٰ إنتاجنا العلمي، وتحول دون لحاقنا بركب الأمم! إن من العنف غير المبرر كذلك أن باحثا شابا رجع من أوروبا يحمل الدكتوراه التي أنفق فيها سنوات من عمره. فلما رجع إلىٰ معهده طلب إليه رئيس القسم أن يعقد محاضرة يعرض فيها موضوع رسالته ليفيد أبناء قسمه مما تعلمه هناك. فما إن انتهىٰ من العرض حتىٰ أمطره زملاؤه وأساتذته بوابل من سهام النقض التي سفهت حلمه وضيعت عمله، حتىٰ انبري أحد المنصفين وقد احتدت المناقشة يقول: ما لكم كيف تحكمون، هل نسيتم أن الرجل

= متكبرا خشن اللغة، ولا يُنَفِّرُ من المرء إلا شعور من يأخذ عنه بتعاليه وتكبره وإقلاله ممن هو دونه. فإذا رأيت طالبا يتطاول علىٰ خلق الله ويستعلي عليهم فاعلم أنه إما أن يكون سيء المنبت، أو أن أحد أساتذته أذاقه ذل الطلب وكبر التعامل . . .».

إنما ناقش بحثه في البلد التي درس فيها، إنه الآن زميلنا، ولسنا في معرض مناقشة للدكتوراه ثانية! والعجيب أن جل انتقاداتهم كانت تطيش سهامها، ولم يكن لأكثرها سند من العلم غير أنها وجهت إليه بصوت عال ونبرة حادة. وكان يعلو وجه الباحث الابتسام.

ولا يظنن ظان أن هذا التنافس والتحاقد في الجامعة وحدها، وإنما هو في كل مكان، إنك تجده في المصانع والمعامل والشركات، والمدارس . . ما أقسىٰ التحاقد في المدارس، وقد توافرت له أسبابه ومسوغاته من الدروس الخصوصية وغيرها. إن الأستاذ فريد البنهاوي معلم رياضيات قدير، شهرته ذائعة، لكني لم أشرف بالتلمذة عليه. وإنما عَهِدَتْ المدرسة بهذه المهمة إلىٰ مدرس آخر حديث السن قليل الخبرة. كان يسومنا سوء العذاب حتىٰ يضطرنا إلىٰ حضور الدروس الخصوصية عنده. وما كان أكثر ما يضطرنا المعلمون إليها طلبا للمال! لقد زادت طريقته السيئة في معاملتنا من كرهي للرياضيات! لكن لي نفسا تأبىٰ هذا السلوك، وترفض الدروس الخصوصية. فلما اضطررت إليها في الشهرالأخير قبيل الامتحانات لم أذهب إليه، وذهبت إلىٰ الأستاذ البنهاوي، أراجع معه الدروس، فأخبرني في معرض الهزل والدعابة أن ذلك الأستاذ الصغير قد طلب منه كشكول تحضيره للدروس، يشرح لطلابه ما فيه من مسائل عظيمة في الرياضيات. فوافق الأستاذ البنهاوي، وقد فطن إلىٰ أنه يريد أن يجتذب الطلاب إليه بهذه المسائل المنتقاة بعناية، التي زعموا أنها لا يخلو منها امتحان! فكان الأستاذ البنهاوي يغير قيما وأرقاما ومعطيات في مسائله التي أعطاها له، ويحتفظ بالقيم الصحيحة في رأسه . . فيحاول الأستاذ الصغير عبثا أن يصل إلىٰ حل المسألة الخاطئة علىٰ السبورة فلا يمكنه ذلك؛ فيسيل عرقه ويحاول أن يسلك إليها السبل من كل الجهات، ثم إنه لا تعينه خبرته فيفطن إلىٰ تصحيح القيم والأرقام، فاهتزت صورته أمام الطلاب، حتىٰ كادوا يتركونه، وكأن في مسائل البنهاوي عفريتا من الجن يجعلها عصية علىٰ الحل!

إنني إذ ألوم علىٰ أصحاب التعليقات عنفهم في المؤتمرات واستعراضهم القوة في اللقاءات، فإن الإنصاف يقتضيني أن أذكر أن كثيرا من المحاضرين في ندواتنا في مصر من أدعياء الثقافة لا يحترمون كذلك جمهورهم الذين يضربون أكباد الإبل

ليشهدوا محاضراتهم. إن منهم من يعتمد علىٰ شهرته وذيوع صيته، ولا يجهد نفسه في إعداد محاضرته. فتجده يعتمد علىٰ ما حباه الله به من مهارة في الكلام، فيخلط الكلام بعضه في بعض، ويقول كلاما عاما يسحر به آذان الناس، ثم تفكر بعد الانتهاء فيما خرجت به من اللقاء، فلا تكاد تجد شيئا. ومن ذلك أن رجلين ناقدين دعيا إلىٰ برنامج تليفزيوني لمناقشة ديوان شعري صدر حديثا. وفي طريقهما لمبنىٰ الإذاعة، وكانا استقلا سيارة واحدة، طلب أحدهما من الآخر النسخة التي معه من الديوان ينظر فيها نظرات سريعة، حتىٰ يستطيع أن يقول فيه شيئا. فاختلس النظر الىٰ صفحة في بداية الديوان وأخرىٰ في وسطه وثالثة في النهاية ورابعة في عناوين القصائد ثم دلف إلىٰ البرنامج فأقام الدنيا ولم يقعدها، نقدا ونقضا، ذما ومدحا، وكلاما كثيرا كبيرا .. لقد عَجِبَ صاحب هذه الرواية أنه قضىٰ أياما يقرأ الديوان ويعد نفسه للحلقة، ويكتب ملاحظات، ثم يأتي صاحبه فيقول كلاما عاما يصلح أن يقال عن كل شعر في كل زمان ومكان. مثل هذا آتاه الله لسانا، فسلط لسانه علىٰ هلكته في الباطل. إنه ألحن بحججه الباطلة من الناس أجمعين، أتراه يحمل باطله هذا قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة؟![1]

ما هذا الذي تقول يا رجل! تبا لقلمك الذي يوردك الموارد! لقد طوفت بنا في كل مكان حتىٰ ظننا أنك ضللت الطريق! ما للمؤتمرات والقطارات! والحقد والمشاحنات! والعقاد والرياضيات .. عد هداك الله إلىٰ الطريق فقد أضنيتنا معك!

ماذا أقول لكم؟!

ومُكَلِّفُ الأشياء ضد طِباعِها ... مُتَطِلِّبٌ في الماء جَذْوَةَ نَارِ

في الحلقة القادمة نقترب إلىٰ ما ابتعدنا عنه، فننثره أمامكم ونأتي عليه!

(١) الحق أن هذه الظاهرة ليست حكرا علىٰ كثير من المعاصرين الذين يعيشون بين ظهرانينا، وإنما تجدها عند بعض أصحاب الشهرة من الراحلين كذلك، فقد جاء في كتاب «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره» للدكتور محمد الدسوقي أن الأستاذ ثروت أباظة زار العميد في مساء الخميس ٢١/ ١١/ ١٩٦٥وتناول الحديث بينهما فيما تناول الدكتور محمد مندور، فقال الأستاذ ثروت إن الدكتور مندور كان ينقد الكتب دون قراءتها، كان يلقي نظرة سريعة علىٰ فهارسها أو عناوين موضوعاتها، ثم يكتب عنها، وكان مرد هذا إلىٰ أن الدكتور مندور كان شديد الحب للمال، ويكتب من أجل الحصول عليه ولو كان ما يكتبه في غير تخصصه!

(٢٤)

يحدث في مصر الآن

ما أثقل حديث المؤتمرات وما أسمجه! فمن ذا يصبر علىٰ سماع كلام ثقيل جاف لا يروق القلوب الحزينة، ويرهق الأنفس الكليلة. أعلم أن ذلك يدور بخلدكم الآن، فرأيت أن أقدم لكم ما أريد قوله في ثوب قصصي شائق لا يبعث علىٰ الملل، فسأحكي لكم قصة ما يحدث في مصر الآن!

«يحدث في مصر الآن» هي رواية خطّها الكاتب المصري يوسف القعيد في أواخر عام ١٩٧٤ وأوائل عام ١٩٧٥، لكن لم يُكتب لها أن تنشر فتَرَىٰ النور -كما يذكر المؤلف في أولىٰ صفحاتها- إلا بعد رفع الرقابة عن الكتب في مصر، ولهذا وصلت الرواية إلىٰ القارئ بعد عامين من كتابتها، صادرتها الرقابة خلالهما. لقد أشجتني كلمات الكاتب عن حظر روايته، والحق أن تاريخ حظر الكتب في مصر قديم، لم يقتصر علىٰ عهد عبد الناصر والسادات وما تلاهما؛ وإنما حدث ذلك في العهد الملكي أيضا. فقد حُظِرَ كتاب العميد طه حسين «المعذبون في الأرض» عام ١٩٥٠ بأوامر صدرت من القصر الملكي. وحدث ذلك أول ما حدث في عهد عبد الناصر مع رواية «تلك الرائحة» لصنع الله إبرهيم، التي كتبت عام ١٩٦٤، وحُظِرَت بعد نشرها مباشرة في عام ١٩٦٦، واستمر الحظر عشر سنوات كاملة، ثم رفع بعد ذلك. ثم أصاب الحظر رواية القعيد هذه التي عليها مدار حديثي في مؤتمر المستشرقين الألمان. تُرَىٰ لماذا حظرتها سلطة الرقابة علىٰ المصنفات في مصر؟!.

يبدو أن الرواية كانت تمس الأمن القومي المصري، وما أكثر الموبقات التي تُرْتَكَبُ باسمك أيها الأمن القومي! تحكي الرواية قصة موجعة، أرجو ألا تخبروا بها أطفالكم، وأن يمتنع عن قراءتها كذلك ذوو القلوب الرهيفة منكم من الرجال والنساء.

الحدث الرئيس في هذه الرواية هو هجوم عامل زراعي فقير يدعىٰ «الدّبيش عرايس» علىٰ أحد الأطباء في قرية الضهرية بمركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة. هذا هو الحدث الذي بنيت عليه الرواية كلها. لقد حدث هذا الهجوم علىٰ الطبيب خلال توزيع شحنة المعونات الغذائية التي تلقتها مصر من الولايات المتحدة الأمريكية قبيل الزيارة المرتقبة للرئيس الأمريكي نيكسون عام ١٩٧٤، الذي كان من المقرر أن يمر موكبه العظيم بهذه القرية وهو في طريقه إلىٰ الإسكندرية. ولما كان عدد سكان القرية من الفقراء ومستحقي المعونة يصعب حصره، إذ إن أغلب أهلها، شأن كل أهل الريف في مصر، من الفقراء المعدمين المعوزين، فقد قررت السلطات المحلية الممثلة في عمدة القرية ورئيس مجلسها وطبيب الوحدة الصحية وضابط نقطة الشرطة، قرروا توزيع هذه الأغذية علىٰ كل حُبْلىٰ من نساء القرية. فالحَبَلُ هو معيار استحقاق هذه المعونة الأمريكية!

زوجة الدبيش عرايس التي كانت حبلىٰ في كل عام، وعندها من الأولاد عدد كبير، سيئة الحظ، تعسة، فهي ليست حبلىٰ في هذا العام! ما عساها تصنع وقد فتك الجوع بصغارها! لقد تظاهرت المسكينة أنها حبلىٰ، وصنعت لنفسها بطنا، وتسلمت نصيبها من المعونة. وعادت إلىٰ بيتها فرحة فانقضت علىٰ الطعام هي وصغارها يلتهمونه ليسدوا جوع بطونهم. نادىٰ في القرية مناد أيها العير إنكم لسارقون! فحضر إليها الطبيب وأمرها برد ما أخذته، فتأبت عليه، فنهرها وأخذ طعامها، فلما عاد زوجها من عمله أجيرا في الحقول ساءه ما كان من فعل الطبيب مع امراته وصغاره، فذهب إليه وقد اشتد غضبه في مقر التوزيع وهجم عليه وضربه. فأبلغ الطبيب ضابط الشرطة فاقتيد الدبيش إلىٰ مركز شرطة التوفيقية، وقرر رجال الأمن هناك أن يلقنوه درسا لن ينساه! علىٰ إثر هذا الدرس ترنَّح الرجل وفارق الحياة!

يبدو أن للشرطة المصرية قدرة عظيمة علىٰ تلقين الدروس من قديم .. وكل من دخل مدرستها وتخرج فيها .. خرج من الدنيا ..

وفاة الدبيش عرايس أحدثت ارتباكا عظيما بين السلطات المحلية المتواطئة، فأقبل بعضهم علىٰ بعض يتلاومون، وأخذ كل منهم ينحي باللائمة علىٰ صاحبه، لكنهم أجمعوا في مجلس شيطاني علىٰ التغطية علىٰ ما كان، واتفقوا علىٰ أن يصوروا للناس

أن شيئا لم يكن. وذلك بأن أشاعوا أن الدبيش عرايس قد فر هاربا من السجن وعثروا عليه جثة هامدة في أطراف القرية. وقد رأىٰ بعضهم رأيا آخر، وهو أن يقوموا بمحو اسم الدبيش عرايس من سجلات الحكومة، فلا يثبت له ميلاد، ولا قيد بالسجلات، ولا بطاقة هوية، وكأن رجلا بهذا الاسم لم يكن له في هذه الدنيا من قبل وجود.

حدث ذلك قبل زيارة الرئيس الأمريكي بثلاثة أيام، وقد حشد وجهاء القرية الأهالي لتحية الرئيس الضيف الذي يمر بالقطار في قريتهم، ووعدوا كل واحد من الأهالىٰ نصف ليرة. مر الرئيس الضيف، ووُوري جثمان الدبيش عرايس إلىٰ الأبد.

هذه هي أحداث الرواية، فماذا عن عتباتها؟

أما أولىٰ عتبات هذه الرواية فهو عنوانها «يحدث في مصر الآن»! وضع هذا العنوان للتعبير عما يجري في مصر في عام ١٩٧٤، فلما أراد المؤلف إعادة نشر هذه الرواية بعد اثنتىٰ عشرة سنة، في عام ١٩٨٦، سأله كثير من الناس: ماذا عن كلمة «الآن»؟ والفعل «يحدث» المضارع؟ واقترحوا عليه أن يسميها «حدث في مصر عام ١٩٧٤»؛ وعللوا ذلك بأن اثنتىٰ عشرة سنة من عمر شعب قادرة علىٰ تغيير كل ما فيه. فرد المؤلف بأن المسألة لا تتعلق بالزمن في سريانه، وأن كلمة الآن هنا هي «كلمة سياسية» وأن السؤال هو: هل «الآن» الذي تحدثت عنه الرواية، وهو سنة ١٩٧٤، ما يزال قائما أم لا؟

إن ظروف الأوطان لا تتغير بالأحلام، ولو كان الأمر كذلك لصارت أحداث هذه الرواية ماضيا غابرا لا وجود له، لكن الواقع المصري المثقل بالهموم والمترع بالآلام الدائمة التي لا حد لها؛ أفقد الناس القدرة علىٰ الأحلام!

ماذا عن الحلم الأمريكي الذي جاء إلىٰ بر مصر مع الرئيس الأمريكي نيكسون، الذي وصل إلىٰ مصر تطارده فضيحة «ووترجيت»! وماذا عن سياسة الانفتاح الاقتصادي التي انتهجها السادات فزادت بطون الفقراء خواء علىٰ خوائها!

لقد اكتشف مؤلف الرواية أن «آن ١٩٧٤» هو نفسه «آن ١٩٨٦»، وأن العصر الأمريكي ممتد، وأن العرض المسرحي الأمريكي مستمر علىٰ أرض مصر. وأن السنوات الاثنتىٰ عشرة من عمر هذا الوطن جعلت الاستثنائي أمرا عاديا، والعارض

مستمرا، والمرفوض باقيا، بل إن هذا المرفوض وقف علىٰ أبواب القبول لكثرة التعود عليه. ولذا أبقىٰ الكاتب العنوان علىٰ ما هو عليه «يحدث في مصر الآن»!

والآن يأتي دور كاتب هذه السطور ليسأل مؤلف الرواية، ويسألكم أيها القراء الكرام! لو أن هذه الرواية أعيد طبعها اليوم في سنة ٢٠١٤، أيجدر بالكاتب أن يغير عنوانها؟ أم أن «الآن ٢٠١٤» هو «الآن ١٩٨٦» هو نفسه «الآن ١٩٧٤» .. وقد ازداد الأمر سوءا!

وأما عن العتبة الثانية في هذه الرواية فهي «التصدير». ماذا يقصد بالتصدير؟ التصدير هو عبارة نثرية أو بيت شعر، أو حديث شريف أو آية كريمة أو قول مأثور أو حكمة معروفة، أو قول مشهور يثبته كاتب العمل الأدبي في صدر كتابه، في أول صفحة من صفحاته، وتكون دلالة هذه العبارة هي تلخيص لمغزىٰ العمل الأدبي كله، فيوحي الكاتب للقارئ من خلال هذا التصدير بالفكرة العامة التي عليها مدار العمل.

فماذا اختار لنا القعيد تصديرا لهذه الرواية؟ لقد أثبت قولا رُوِيَ عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري يقول: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته .. كيف لا يخرج علىٰ الناس شاهرا سيفه»!

رغم ما أشيع عن عدم صحة هذا الأثر، ونفي نسبته للصحابي الجليل، وأنه إنما ورد مرة واحدة في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، وهو مؤرخ رماه بعض المحققين بأنه شيعي كذاب .. رغم ذلك كله فإن الكاتب أثبت ذلك القول في صدر الرواية وعلينا أن نحلله في سياقه.

ثم إن الإمام ابن حزم ذكر في كتابه «المحلىٰ» كلاما في هذا المعنىٰ يقول: «إذا مات رجل جوعا في بلد اعتبر أهله قَتَلَة، وأُخِذَتْ منهم دية القتيل، ويضيف أن للجائع عند الضرورة أن يقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره، فإن قُتِل -أي الجائع- فعلىٰ قاتله القصاص، وإن قتل المانع مرة فإلىٰ لعنة الله؛ لأنه مَنَعَ حقا وهو طائفة باغية». (المحلىٰ- ج٦، المسألة رقم ٧٢٥ ص٢٢٦ و٢٢٧).

وروي أن أبا ذر حين نزل الشام في عهد «معاوية بن أبي سفيان» وكانت من أكثر بلاد الإسلام خصوبة وخيرا وفيضا، رأىٰ أنه كثرت الأموال وعلت القصور، واتسعت الضياع وتضخمت الثروات. ورأىٰ أن أكثر الناس ذوو حاجة وفقر شديد .. فأخذ

يرنو ببصره نحو المشارف القريبة فيرىٰ القصور والضياع، ثم صرخ في من حوله قائلا: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته .. كيف لا يخرج علىٰ الناس شاهرا سيفه!». ويبدو أن الظلم والقهر في بلادنا قديم! فالغني غني، والفقير فقير!

رحم الله الدبيش عرايس! قلت ذلك وقد وقفت علىٰ المنصة، أتصفح وجوه الحاضرين، أبحث بينهم عن الدبيش عرايس! أتفحص وجوه النساء ذاهلا أبحث عن زوجته! هذه المرأة الحبلىٰ في الصف الخلفي من القاعة، تنصت باهتمام إلىٰ حديثي عما يحدث في مصر الآن .. إنها حبلىٰ .. أهي حبلىٰ حقا أم أنه ادعاء! وما يدفعها إلىٰ الكذب! لقد جاءت لتحضر المؤتمر فلا معونة أمريكية هنا، والخير في هذه البلاد كثير!

لقد قُتِلَ الدبيش عرايس لا لشيء إلا لأنه أراد أن يطفئ لهيب بطون أولاده الجوعىٰ! فكان جزاؤه القتل جزاء موفورا علىٰ يد من إذا لَقَنُوا أحدا درسا كان الدرس الأخير! ونال بعده الشهادة الكبرىٰ!

لا داعي للإطالة في ذكر العتبات، فقد يكون الحديث عنها باعثا علىٰ الملل، وما عهدتموني ملولا، ومن رآني كذلك فلا يتم القراءة. فليتوقف الآن .. الآن الآن يعني الآن!

كيف لي أن أتوقف وفي الرواية عتبة لا يمكن تجاوزها، وهي «الهوامش»! لقد استخدم القعيد الحاشية السفلية في صفحات الرواية ليفضح أبطالها. فبينما يروىٰ أبطال الرواية وقائع منمقة تسر السامعين؛ يصدمنا المؤلف في الهوامش صدمات عنيفة، تكشف كذبهم وفساد أخلاقهم. لن أطيل في ذكرها فيمكنكم مراجعة الرواية، وإنما سأذكر مثالين اثنين. فأما أولهما فمتعلق بالمعيار الذي وُزّعت علىٰ أساسه المعونة الأمريكية علىٰ أهل القرية، وهو أنه لا يكون لأحد نصيب فيها إلا الحوامل. وحين يذكر طبيب الوحدة الصحية أنه أحصىٰ عدد الحوامل في القرية في دفتره وحفظه في مكان أمين في حجرة نومه، يخبرنا المؤلف في الحاشية بأن الطبيب لم يقل إنه ما إن انتهىٰ مع رئيس القرية إلىٰ القرار بالصرف للحوامل فقط حتىٰ قام بإجراء آلاف التعديلات بالحذف والشطب وزيادة الأسماء والبيانات والتواريخ في سجل الحوامل، وأن هذا العمل كان يمكن أن يستمر طويلا غير أن الصفحة التي تآكلت من كثرة المسح

والكشط بمشارط كسر الحقن، فاجأتهم بأن قطعت من منتصفها، وعند محاولة إصلاح القطع اتسع الخرق علىٰ الراقع، فاضطر الدكتور إلىٰ كتابة دفتر جديد. ولما لم يكن في المستشفىٰ دفاتر بيضاء أرسل سيارة الإسعاف التي لم تسخدم في إسعاف أحد من قبل إلىٰ الوحدات الصحية القريبة لتحضر دفاتر علىٰ سبيل الدين أو السلف. ولما أحضر الدفتر الجديد قام بكتابته، ولم يدون فيه إلا أسماء العائلات التي تكشف عنده كشفا خصوصيا في المنزل، وتعتمد علىٰ الأطباء في الولادة بدلا من الداية القديمة!

واحتفالا بمقدم الرئيس الأمريكي ضيف مصر العظيم الذي سيمر في القطار علىٰ هذه القرية البائسة استأجر المسئولون «شادر» ينصب في محطة القطار لتجميل شكلها وإخفاء منظر بيوت الفلاحين الكئيبة، فيه ميكروفونات ومقاعد للأهالىٰ. واشتروا كمية من الحمام تربط في أقدامها أعلام الدولتين ويطلق في الجو لحظة وصول الموكب، وقماش ملون لتفصيل فستانين لطفلتين الأول علىٰ شكل علم مصر والفستان الآخر علىٰ شكل علم أمريكا، يلفان حول جسم الطفلتين وتقفان للترحيب بالموكب في مكان ظاهر. وهنا لا يكتفي المؤلف بما تبثه الأحداث في النفس من ألم، للمفارقة الناتجة عن المقارنة بين حال الملوك وحال الصعاليك، وإنما يفجعنا في الحاشية فيذكر أن الطفلة التي لفوا جسمها بالعلم الأمريكي كانت يتيمة. والدها أحد شهداء حرب أكتوبر. والطفلة وأمها الأرملة الصغيرة الحسناء لا علم لهما بأن الضيف الأمريكي المبتسم في حب هو قاتل عائل أسرتهما الوحيد!

سحقا للروايات والعتبات . . والمؤتمرات التي تجر علينا العذابات!

لقد بلغ الأسىٰ من الحضور مبلغا عظيما، ولم تخرج أسئلتهم حول هذه الرواية عن مدىٰ شهرتها، ومنزلتها في الأدب المصري إذا ما قورنت بروايات علاء الأسواني! معهم حق فهي لم تترجم إلىٰ الإنجليزية! لقد سئمت حكاية الدبيش عرايس ومعه مئات من أبطال الروايات المصرية، الذين تدمي قصصهم قلوبنا. إنها قصص كتبت بأقلام ناقمة علىٰ فساد السلطة وظلم الشعب. لكن العجب كل العجب أن أكثر كتاب مصر ومثقفيها الذين يبذرون في أرواحنا بذور الألم بمثل هذه القصص، وينتقدون السُّلْطَة ويلومونها . . تراهم يَرْتَعُونَ في مراعيها، ويتقلبون في نعيمها!

صحبني في هذا المؤتمر صديقي القديم كريستيان يونجىٰ، ونزل معي في نفس

الفندق في حجرة مجاورة. فكنا نذهب إلىٰ المؤتمر في الجامعة معا، ونتناول الطعام ونتسامر، ونتجول في أرجاء المدينة بعد الانتهاء من حضور الجلسات، ثم نعود معا إلىٰ الفندق كذلك. ومن طريف ما جرىٰ أن زارني كريستيان في حجرتي، ورأيت شارتين معلقتين في مقبض دولاب الملابس، كتب علىٰ إحداهما «من فضلك رتب الحجرة» وعلىٰ الأخرىٰ «ممنوع الإزعاج» كتبت العبارات بثلاث لغات مختلفة إنجليزية وألمانية وفرنسية. أزعجني ذلك كثيرا، فقد كنت أترك ملابسي ملقاة علىٰ السرير، ولم أهتم بترتيب الحجرة وتسوية السرير، فهي حجرتي وحدي، ثم إن القائمين علىٰ خدمة الغرف سيحضرون لترتيب الحجرة وفحص ما ينقصها من أدوات صحية وفوط وأغطية الأسرة وغيرها. ذكرت ذلك لكريستيان ولاحظ انزعاجي للأمر، فضحك حتىٰ كاد يستلقي علىٰ الأرض، وأخبرني أن هذه اللافتة ليست تحذيرا لي وحثا علىٰ الهدوء وترتيب الحجرة، وإنما لأعلقها في المقبض الخارجي للحجرة حتىٰ تراها عاملة النظافة فتدخل الحجرة لتعيد ترتيبها! وإذا كنت تريد النوم فلتعق اللافتة الأخرىٰ وتطلب عدم الإزعاج! قاتل الله المدينة الجامعية وأيامها والمعسكرات الصيفية التي زرعت في قلوبنا الخوف، فقد كنا مطالبين بترتيب الأسرة خشية العقاب، حتىٰ ظننت أن العقاب يطاردني في ألمانيا. واستخدمت اللافتتين في اليوم التالي.

بعد الفراغ من حضور جلسات اليوم الأول ذهبنا معا لنتناول بيتزا في محل هندي قريب من الفندق. طلبنا ٢ بيتزا، وشرعنا في التهامها، كانت شهية، فسألته عما إذا كان الدبيش عرايس قد تناول البيتزا أو سمع بها ولو مرة واحدة في حياته. طلب إلي كريستيان أن أدفع له ثمن ما تناول من البيتزا فقد نفدت نقوده، وسيسحب بعد دقائق من البنك القريب. دفعت ١٢ يورو مقابل القطعتين. حوالي ١٢٠ جنيه. كريستيان: هل تتوقع أن المعونة الأمريكية التي تظاهرت المرأة بالحمل واحتالت للحصول عليها لتطعم صغارها كانت قيمتها تصل إلىٰ ١٢٠ جنيه!. انصرفت وكريستيان ودخلنا البنك، سحب نقودا، وقال: نحن في منطقة من المدينة راقية وأهلها موسرون. فسألته وكيف عرفت أن أهلها موسرون. فقال: ماكينة الصراف الآلي دائما تقترح مبلغا بعينه، أعرف أنه في برلين يبدأ من خمسين يورو ومضاعفاتها حتىٰ خمسمائة. قال

كريستيان هذه الماكينة تتيح للعميل صرف ألف يورو في ضغطة واحدة. الناس هنا مليونيرات! لا بأس كريستيان .. ماكينة الصراف الآلي في بنك قرية الضهرية في إيتاي البارود إمكاناته تتفوق علىٰ هذه الماكينة! إنها تنفق حياة إنسان بضغطة واحدة!

أعدت لجنة تنظيم المؤتمر غداء للمشاركين في يوم الافتتاح، في المبنىٰ الرئيسي للجامعة، ذهبنا إلىٰ هناك ورأيت عناصر من الجيش الألماني تحوم حول المبنىٰ، في ملابس زاهية، سألت كريستيان عن سر تواجدهم فقال لا أدري، فداعبته: لعلها بوادر انقلاب عسكري ألماني وشيك. ثم تبين أن المكان متأهب لاستقبال شخصية سياسية كبيرة. تناولنا بعض السندوتشات الخفيفة من الجبنة والزيتون، وبعض قطع الحلوىٰ، وشربنا الشاي والقهوة، لم يتدافع الحضور من أجل الطعام أو الشراب، «أوبن بوفيه»، والكل يلتقط ما يريد في خفة ويسر وابتسام! أثناء تناولي القهوة طرقني خاطر ابتسمت له فسألني كريستيان عن سبب الضحك فتجاهلت سؤاله، والحقيقة أنني ما كنت لأخبره بما دار في خلدي. فإن ما دار فيه من الأسرار التي لا يجوز البوح بها لرجل أجنبي. وإنما هي لأصدقائي من القراء الأعزاء، فلا أسرار بيننا. لقد تذكرت ورقة قديمة خططتها ثم محوتها، كانت تحمل عنوان «ثقافة الجياع» هممت بكتابتها قبل خمس سنوات، لكنني أحجمت، أذكر لكم اليوم طرفا مما أردت تسجيله. ذلك أنني حضرت المؤتمر الدولي «الرواية العربية الآن» الذي عقده المجلس الأعلىٰ للثقافة في مصر عام ٢٠٠٨، وقد شهد هذا المؤتمرَ كثير من كبار مثقفي مصر والعرب من المفكرين والأدباء والنقاد، وكثير من المهتمين بالشأن الثقافي العام.

وحدث أن جلست في مقعد توسط بين رجل وامرأة، كانا يمثلان طائفة ليست بالقليلة من المثقفين الذين شهدوا ذلك المؤتمر عرفتهم بسيماهم، وتكرر حضورهم بهيئتهم الرثة في مناسبات ثقافية أخرىٰ. ولما تحركت أمعائي سألت نفسي: أهي آية المثقف أن يكون رث الهيئة قذر الثياب مشعّث الشعر بالىٰ الحذاء، لم يعرف الماء والصابون إلىٰ وجهه سبيلا في يوم من الأيام؟ أهي آية العبقرية والذكاء والألمعية أن تغثي نفوس الناس بطبقة تعلو جلدك يصعب وصف كنهها ولونها حفاظا علىٰ مشاعر القراء .... رددت ذلك -للحظات- إلىٰ فقر أو حاجة ربما ألمت بهم فأقعدتهم عن القيام بما يجب عليهم نحو أنفسم ونحو الناس، لكنني تبينت أن الأمر

لا علاقة له بالفقر والحاجة وإنما هو منهج حياة وطريقة تفكير يتبناها كثير ممن يرجون لأنفسهم صفة المثقف!

تحملت البقاء في المقعد طيلة الجلسة الافتتاحية وكانت مكتظة، ولم يكن من سبيل لتغيير المقعد، حتىٰ إذا حضر وقت الاستراحة، وكان قد أُعِدّ (أوبن بوفيه) به كثير من ساندوتشات الجبنة واللانشون والخيار والزيتون والسلطة، والشاي والقهوة، فانطلق الحضور جميعا إليها، وهالني ما رأيت من جيران المقعد!! فقد أخذت المرأة تملأ طبقها عن آخره حتىٰ لم يعد فيه موضع لزيتونة واحدة، وإذا بها بدل أن تشرع في تناول ما جمعته، قبضت عليه بإحدىٰ يديها مستمسكة به خشية أن يساقط منه شيء، وراحت تلتقط باليد الأخرىٰ من الأطعمة العامة ثم تقذف بها في فمها، ولا أدري ماذا ستصنع بهذا الذي جمعته! وقد صنع الرجل شيئا قريبا من ذلك.

أذهب هذا المشهد كثيرا من سعادتي بجلسات المؤتمر ومن التذاذي بتحليلات كبار النقاد للروايات العربية.

انتهىٰ اليوم، وكانت اللجنة المنظمة للمؤتمر قد أعدت حفل عشاء، في أحد المتاحف القديمة في مدينة مونستر. ويبدو أنه متحف زراعي، فلم يكن المطعم إلا حظيرة بهائم قديمة صنعت من الخشب مضىٰ عليها أكثر من مائتي عام. لكنها ما تزال تحتفظ بهيئتها. جلسنا علىٰ المناضد في حظيرة البهائم القديمة، فحضر مدير المطعم في زي الطهاة، وكان مرحا، فقام بدور المرشد السياحي ليشير بيده اليمنىٰ في جانب من الحظيرة حيث جلس أساتذة الاستشراق ليعلن أن هذا الجانب من الحظيرة كان مخصصا للخنازير، فتعالت ضحكاتهم. وأشار إلىٰ الجوانب الأخرىٰ، وهنا كانت الثيران، وهناك كانت الأبقار، أما الأغنام فكانت في الجهة الأخرىٰ. أنهىٰ كبير الطهاة مزاحه بأن أعلن عن فتح البوفيه، فقام أقرب الناس لإعداد أطباقهم، ولما جاء دوري ذهبت فوجدت سيد الطعام لحم خنزير. فحزنت علىٰ عشرين يورو دفعتها ثمنا لتذكرة المشاركة في هذا الحفل. ولم أتناول غير السلطة، وبعض البقوليات غريبة الشكل والطعم. ساءني وساء كثيرين أن يحضر الخنزير في مؤتمر عن الاستشراق، كثير من المحاضرين فيه من المسلمين. كظمت جوعي، ولمت كريستيان: ألم يكن من الأفضل أن نتناول بيتزا عند ذلك الهندي!

علىٰ هامش المؤتمر جمعتني لقاءات عدة بعدد من الأساتذة الألمان وغيرهم، وأثيرت قضايا كثيرة. لكن هناك موقفا طريفا أرويه لكم، وهو أن أحد المشاركين الأمريكان كان يتحدث العربية والعامية المصرية بطلاقة وإتقان منقطع النظير. فأثار ذلك فضولي فسألته عمن علَّمَه. فذكر لي أستاذا من دار العلوم، وقال إنه «خطير» فسألته عما يقصد بالكلمة، أهو خطير أي بارع في مادته وماهر في تدريس العربية، أم أنه خطير من الخطر والمكر والدهاء، فابتسم وقال إنه خطير بكل ما تحمله الكلمة من معان. هذا الأستاذ الأمريكي هو Maurice A. Pomerantz، أستاذ الأدب العربي بجامعة نيويورك في «أبو ظبي»، وله أبحاث كثيرة حول المقامة العربية.

ملاحظة: لن أخبركم باسم هذا الأستاذ الدرعمي؛ إلا أن يأذن بذلك! لأنه رجل خطير حقا!

في اليوم الأخير تجولت مع كريستيان علىٰ شاطئ يانع لبحيرة عظيمة، ذكرني طميه الأصفر الشهي اللون والرائحة بطمي النيل. حملت حفنة منه تشممتها، كدت أتذوقها. والخضرة يانعة تملأ المكان. وأشجار الصفصاف تتدلي أوراقها كشعر الحسناوت يصافح وجه الماء. علىٰ سور كوبري فوق البحيرة علقت كمية عظيمة من الأقفال مختلفة الألوان والأحجام والأشكال. راقني منظرها، فسألت كريستيان عنها، فقال هكذا يصنع المحبون، يأتي العاشقان فيغلقان قفلا في سور الكوبري، وقد كتبا عليه اسميهما، وغلق القفل دليل علىٰ أن الحب مستمر إلىٰ الأبد، فقد ألقوا بمفتاح القفل في البحيرة، ولن يفتح مرة أخرىٰ. لكن الطريف أنه عندما تكثر الأقفال ويزداد وزنها حتىٰ تمثل عبئا علىٰ الكوبري مما قد يخل بقوة تحمله وفقا للمعايير الهندسية فإن الدولة تضطر إلىٰ إزالة هذه الأقفال، ويشرع المحبون والعشاق في غلقها من جديد. تبا للحكومة الألمانية، التي تزيل الأقفال فتزعزع الحب في قلوب المحبين! لكنه تقليد أجمل من كتابة أسماء المحبين علىٰ الجدران، أو حفرهافي جذوع الأشجار علىٰ كل حال.

في الصباح أخذنا القطار في طريق العودة من مونستر إلىٰ برلين. في القطار قرأ كريستيان كتابا كاملا لميشيل فوكو، وقرأت بعض كتاب لمحمود أمين العالم. طال الطريق فذهبت مرة إلىٰ دورة المياة في القطار فابتهجت كثيرا. إنها تشبه دورة المياه

التي في الفندق . . تبعث علىٰ التفاؤل. سعدت كثيرا أن بها ماء وحوضا وقاعدة، وقد طرقتني صورة قاعدة دورة المياه في القطار المصري التي هي ثقب دائري في أرضية القطار، يجلس عليه صاحب الحاجة، فيرىٰ قضيب القطار يجري من تحته! وتمر الأرض مر السحاب. ترىٰ هل ركب الدبيش عرايس قطارا به دورة مياه كهذه؟!.

عدت إلىٰ مقعدي، فسألني كريستيان في فاصل من قراءة فيكو عن المؤتمرات في مصر، فقلت له إن مؤتمراتنا تهدف إلىٰ نشر أبحاث الأساتذة حتىٰ تتم ترقيتهم. ففي بيوتهم أفواه جائعة يا صديقي . . تلقىٰ الإجابة ودس أنفه بين صفحات فيكو، وواصل القراءة.

وصلنا إلىٰ برلين في الخامسة مساء. سألت كريستيان عما إذا كنا سنأخذ المترو معا في نفس الاتجاه إلىٰ بيوتنا، فأخبرني بأن زوجته وابنتيه في انتظاره في محطة القطار. فقد اشتقن إليه وقد غاب عنهن خمسة أيام كاملة. يا لك من رومانسي كبير! وصلنا المحطة، فلم يجد كريستيان أسرته علىٰ الرصيف، فوجد في نفسه لبطء زوجته وتأخرها الدائم، فهدّأته وقلت له تلك عادة النساء . . تركته علىٰ الرصيف ينتظر الحلم الرومانسي الذابل . . وعدت إلىٰ البيت!

(٢٥)

باريس .. ولع مصري

وددت لو أنني أصطحبكم اليوم في نزهة في شوارع برلين وطرقاتها ومطاعمها ومحلاتها لأريكم ما أرىٰ، لكنني أرجأت هذا إلىٰ حلقة قادمة، ورأيت أن أصطحبكم اليوم في بلاد أخرىٰ من بلاد الفرنجة، زرتها واطلعت علىٰ بعض أحوالها. وإن لم يتح لي من الوقت ما يقفني علىٰ تفاصيل أخبارها وأسرارها، وإنما هي مشاهدات عامة. ذلك أن صديقي الدرعمي الكريم أسامة شفيع دعاني لزيارته في فرنسا، فهو يقيم بها منذ سنوات في بعثة للحصول علىٰ الدكتوراه. وهو رجل من أهل العلم والفضل، واسع الاطلاع، رزقه الله فيض المعرفة، وصحة اللسان وجلال القلم. وهو كريم الأصل، فوالده أستاذي وشيخي الدكتور شفيع السيد الذي لم أحب أحدا في الدار، علىٰ حبي لهم جميعا، حبي له!

يقيم أسامة شفيع في مدينة روان، وهي مدينة عتيقة تبعد عن العاصمة باريس بحوالي مائة وثلاثين كيلو مترا. غير أنها لا مهبط فيها للطائرات، فتعيّن عليَّ السفر إلىٰ باريس، علىٰ أن يلتقطني من هناك صديقي بسيارته. حجزت تذكرة الطيران علىٰ الخطوط الفرنسية، وراقني كثيرا أن مهبط الطائرة سيكون في مطار شارل ديجول Charles De Gaulle Airport. إنني أحب هذا المطار كثيرا. صحيح أنني لم أره من قبل، لكنني كثيرا ما سمعت به في كتب اللغة الفرنسية التي درسناها لمدة عامين في الثانوية العامة. ولا يزال جرس اسمه يطن في أذني بصوت معلم الفرنسية. أعاد اسم المطار إلىٰ نفسي ذكريات جميلة، وأخبرني بأن شيئا في هذه الدنيا ليس مستحيلا. فلا عجب أن تكون طالبا مصريا ريفيا في الثانوية العامة في مدرسة فقيرة، ثم تزور باريس في يوم من الأيام، وتهبط في مطار شارل ديجول! الذي كنت تقرأ اسمه في الكتب!

حجزت التذكرة . . حتىٰ إذا جاء يوم السفر، الأحد ١٧ نوفمبر ٢٠١٣، توجهت إلىٰ مطار برلين تيجل Tegel Airport، وكان موعد الطائرة في السابعة صباحا، ولم يكن معي من أمتعة السفر سوىٰ حقيبة صغيرة، فيها بعض الملابس القليلة تكفي للزيارة القصيرة، وقد اشترطت شركة الطيران ألا يزيد وزن الحقيبة عن ١٢ كجم، وإلا تكلف المسافر نفقات إضافية. تحريت الوزن المطلوب، فلا حاجة بي لأن أدفع المزيد. دخلت إلىٰ حيث الوزن وفحص التذاكر وجوازات السفر. وهو أمر اعتدته في أسفاري من مصر وإليها. لكن الحقيقة أن شيئا من ذلك لم يكن هنا. فلم يزن أحد حقيبتي، ولم يفحص أحد تذكرتي، ولم يسألني أحد عن جواز سفري. كل ما هنالك أن في التذكرة شفرة مررتها سيدة جميلة تقف علىٰ مقربة من باب الطائرة علىٰ جهاز كمبيوتر صغير فأحدثت رنة صغيرة، كتلك التي في الصيدليات والسوبر ماركت، أكدت صحة التذكرة والرحلة، وطلبوا إلىٰ التفضل بركوب الطائرة. لم أكن وحدي فقد كان معي ركاب الطائرة جميعا، ولم يُسأل واحد منهم عن جواز سفره. تعجبت لذلك كثيرا، وزاد عجبي أن وجدت نفسي في مقعدي في الطائرة ولم يسألني أحد عن جواز سفري. غير أن كابتن الطائرة أو أحد أفراد طاقمها يقف دائما في مدخلها للترحيب بالمسافرين، اعتدت علىٰ ترحيب الكابتن المصري «أهلا وسهلا . . رحلة سعيدة يا فندم» غير أنني سمعت للمرة الأولىٰ بصوت فرنسي رخيم «بونجور مسيو»!

أي سفر جوي هذا الذي لا أحد يسأل فيه عن الجواز!! لم أكلم أحدا ولم يستوقفني أحد . . كل ما هنالك «بونجور مسيو»! فطنت إلىٰ أن التنقل بين دول الاتحاد الأوربي لا حاجة فيه إلىٰ فحص الجواز، أو النظر في بطاقة الإقامة. فكأن دول الاتحاد الأوروبي كلها دولة واحدة. والثقة بين الشعوب الأوروبية قائمة. سعدت لذلك كثيرا، غير أنني وجدت مرارة شديدة في حلقي. شعوب الدول الغربية يتزاورون بلا جوازات ولا تأشيرات! والدول العربية تأشيراتها عصية صعبة المنال. فكم طالب للعمل في دول الخليج لم يظفر بحاجته! وربما ظفر بها ثم حال بينه وبينها إصابته بالفيروس اللعين. إن التنقل بين دول الاتحاد الأوروبي لا يشترط البراءة من فيروس سي. ولا يشترط عقد عمل، ولا دخلا ثابتا، ولا محلا للإقامة محددا. الاتحاد الأوربي . . الاتحاد العربي . . الاتحاد الأوربي . . الاتحاد العربي . . الاتحاد

الأوربي . . الاتحاد العربي . . ترىٰ هل يكون في يوم من الأيام شيء نسميه «الاتحاد العربي» . . عبارة دارت بخلدي وكررتها مرارا وكأنني كنت أحلم حلما ثقيلا ، أفقت منه علىٰ كثافة الشبورة البادية بين طبقات السحاب . . رأيتها من نافذة الطائرة . . شقتها الطائرة في صعودها وفي هبوطها ، وما زالت تتردد في ذهني عبارة (الاتحاد العربي)، وطرقني قول الله سبحانه: «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ».

لقد ازاداد ضيق صدري الآن! إنني أكتب إليكم الآن جالسا علىٰ مكتبي، بعد شهرين من زيارة باريس، أكتب وكل أملي في أن نتحد نحن العرب، لنحقق بعض ما حققه الأوروبيون . . أكتب إليكم وقد وصلني الآن صوت التلفاز يذيع نشرة الآخبار: «السعودية والإمارات والبحرين يسحبون سفراءهم من قطر، ومجلس الوزراء المصري يعرب عن تأييده للقرار ويقول إنه يتطلع إلىٰ أن يكون سحب السفراء بداية لما سماه تصحيح المسار».

صححت مساري . . أغلقت التلفزيون . . شربت جرعة ماء باردة . . لكنني شعرت أنها ساخنة، ولها طعم ورائحة . . لم أستسغها . . إنها تبعث علىٰ القيء!

هبطت الطائرة في مطار شار ديجول في تمام التاسعة صباحا. ما زلت أطرب لاسم المطار يتردد في مكبرات الصوت الأنيقة المنتشرة في أرجاء الصالات ترحب بالقادمين وتودع المسافرين، بصوت فرنسي جميل، ثم يرد اسم المطار مرة أخرىٰ إلىٰ سمعي بصوت معلم اللغة الفرنسية، في فصل ٢/١ في مدرسة منية المرشد الثانوية. عقدت مقارنة صامتة سريعة بين طريقة النطقين لاسم المطار، ثم ابتسمت وسرت أجر حقيبتي مع السائرين. كنت قد أخبرت صديقي أسامة أنني سأصل في صالة (٢ ف)، وأخبرني أنه سينتظرني في الزمان والمكان. خرجت من الصالة، ولم يسألني أحد من الضباط عن جواز السفر، ولا بطاقة الإقامة، كم هو عجيب أن تسافر من برلين إلىٰ باريس وكأنك مسافر من كفر الشيخ إلىٰ طنطا، كل ما عليك أن تدفع أجرة الميكروباص! (ليس بمستبعد أن يتم توقيفك وتفتيشك في بعض الأكمنة)! ركبت من مطار تيجل في برلين وخرجت من مطار شار دي جول دون أن أتحدث إلىٰ أحد أو أن يتحدث إلي أحد، أو أن يخرج جواز سفري من جيب قميصي! لقد قبضوا علىٰ

الجيزاوي قريبا في أحد مطارات السعودية بتهمة تهريب المخدرات. الحمد لله لا مخدرات في حقيبتي. كم تمنيت لو أن ضابطا فرنسيا فتش حقيبتي لأشعر بلذة الانتصار، وأثبت له أنني رجل بريء من كل ما يسوء.

خرجت أمام الصالة، تلفت يمنة ويسرة، فلم أجد أسامة. لم أعد أقلق. فليس ثمة داع للقلق. لا شك أنه سيحضر سريعا. لم أعد أخشىٰ الغربة أو أخشىٰ أن أتوه في أي مكان. فقد اعتدت الحياة هنا. الخرائط تهديك إلىٰ كل مكان دون قلق، ثم إنك لن تعدم في الناس من يعرف الإنجليزية وربما العربية. انتظرت ريثما يصل أسامة، فكرت في أن أتصل به، أخرجت هاتفي .. فرحت بأنه ما زال يحتفظ بشبكته الألمانية، غير أنني استقبلت رسالة تقول إن سعر الدقيقة تضاعف ثلاث مرات. ابتسمت واتصلت بأسامة، فرد ابنه العزيز محمد وأخبرني بأنهم علىٰ مقربة من المطار وأن والده في الطريق إلي .. سيصل إلي بعد دقائق. وقفت أجيل نظري في المطار الواسع البهي، مطار ضخم فيه طرقات ممتدة واسعة. شغلني فجأة عن أبهة المطار قبلات حارة متبادلة بين القادمين ومن يقفون في انتظارهم. رجال ونساء، أزواج وزوجات، أصدقاء وصديقات. لكن التقبيل عند الفراق يكون أشد حرارة منه عند اللقاء. لاحظت ذلك في مطار برلين عند السفر إلىٰ مصر. يكون العناق طويلا والقبلات حارة ممزوجة بالبكاء. أظنني صاحب قلب رحيم .. يتأثر كثيرا لهذه المشاهد. لاحت شمس شيخنا أسامة جاء يسرع من بعيد فأقبلت عليه أجر حقيبتي. تعانقنا وتبادلنا التحايا الحارة فما كنت رأيته منذ سنين. وأسرعنا في الخروج من المطار لننفذ برنامج الزيارة للأماكن السياحية في باريس، وكان الرجل قد أعد لها جدولا محكما. وكان برفقته ولده محمد وأحد أصدقائه من المصريين.

اتجهنا أول ما اتجهنا إلىٰ شارع الشانزلزيه. وهو أشهر شوارع باريس قاطبة. لفتتني عراقة الشارع وقدمه، فهو ليس مرصوفا كبقية الأرصفة، وإنما أعدت أرضيته بقطع من الحجارة سوداء كتلك التي ترصف بها شوارع مصر. غير أنه أحسن تخطيطه، وتسير فيه السيارت بانتظام والتزام. وعلىٰ جانبي الشارع أشجار كثيرة سقط بفعل الخريف أكثر أوراقها، فهي نصف عارية. لا أذكر من روىٰ لي أو أين قرأت أن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في زياراته إلىٰ باريس كان يحلو له أن يتجول في شارع

الإليزيه سيرا علىٰ الأقدام. وحق للشيخ عبد الباسط أن يتجول فيه، فالشارع مبهج، نظافة وعراقة، ودقة رصف. اكتملت متعة الروح،حين خيل إلىٰ أن الشيخ عبد الباسط يتجول في الشارع أمامنا بجبته البهية، وعمامته الأزهرية الزاهرة.

علىٰ رأس الشارع رأيت قوس النصر، وهو أشبه شيء بنصب تذكاري قديم اتخذوه تخليدا لانتصارات الجيوش. نعم .. كل الجيوش لها أنصبة تذكارية يحج إليها الناس زهوا بانتصاراتها. كم أود لو أن السلام يعم ربوع الدنيا، فنستغني عن الجيوش والقتل والمعارك والانتصارات. «ماشي يا عم الفيلسوف» قالها أسامة تعليقا علىٰ رأيي في الجيوش والحروب فتضاحكنا، وانطلق بالسيارة إلىٰ نهاية الشارع فرأيت مشهدا مهيبا شعرت معه بالحنين، إنها مسلة مصرية ضخمة تتوسط ميدانا واسعا يسمىٰ «كونكورد»، أهدتها مصر لفرنسا تقديرا لجهود علمائها زمن الحملة الفرنسية في اكتشاف الحضارة المصرية القديمة، وفك رموز حجر رشيد. تنتصب المسلة في هذا المكان منذ عام ١٨٦٣ اعترافا بسبق مصر في تاريخ الحضارة الإنسانية.

نعم .. إن مصر ... سبقت كل شعوب الدنيا .... في تاريخ الحضارة الإنسانية!!

وقد استوقف ميدان الكونكورد هذا أحمد بك شوقي أمير الشعراء إبّان إقامته في باريس، وهو الميدان الذي أُعدم فيه الملك لويس السادس عشر في أيام الثورة الفرنسية، وكلمة كونكورد تعني «الوفاق» .. وقد نظم فيه شوقي شعرا:

أميدانَ الوفاقِ وكنت تُدْعىٰ ... بميدانِ العداوةِ والشقاقِ
أتدري أيَّ ذنبٍ أنت جانٍ ... وأيّ دمٍ ذهبت به مُراقِ
هوىٰ فيك السريرُ ومن عليه ... ومات الثائرون وأنت باقِ
أصابوا واستراح «لويسُ» منهم ... لذا، سُمّيتَ ميدان الوفاق

كنت مصرا علىٰ النزول من السيارة لالتقاط بعض الصور التذكارية مع المسلة المصرية في هذا الميدان الجميل. فهي مسلتنا، وهي أحب إلىٰ قلبي من برج إيفل الذي سننطلق إلىٰ زيارته بعد قليل. لم نتمكن من إيجاد «ركنة» للسيارة بسهولة، فنحن الآن في واحد من أكبر الميادين في قلب العاصمة. اقترحت علىٰ أسامة أن يركن سيارته في قلب الميدان، ولا شك أن أحدا لن يجرؤ علىٰ تحرير مخالفة. فنحن في

حمىٰ مسلتنا، ولا شك أن ميدانها ميداننا، تضاحكنا كثيرا، ثم أخذ الحديث أبعادا أخرىٰ، قلت لأسامة: إذا كان الميدان مصريا والمسلة مصرية، ونحن مصريون، فلا شك أن شرطة المرور في هذا الميدان قد أصابهم شيء من العدوىٰ، فلو أنك طبقت خمسة يورو وضغطتها في جيب السترة الرسمية لأحدهم فإنه سيغض الطرف عن سيارتك التي أوقفتها في قلب الميدان. بل ربما ترك عمله في تنظيم المرور وجاء معنا ليلتقط لنا الصور بنفسه، مقابل خمسة يورو أخرىٰ.

أوقف أسامة سيارته في مكان قريب، والتقطنا عددا كبيرا من الصور مع المسلة، ثم ركبنا السيارة مرة أخرىٰ، وولينا وجهنا شطر برج إيفل. كان البرج بعيدا عن مركز المدينة، بعيدا عن الشانزلزيه والمسلة المصرية. انطلق أسامة بالسيارة في طريق البرج ثم أخذنا الحديث فطال سيره بنا حتىٰ ضللنا الطريق. كم هو مسعد أن تضل الطريق في العواصم الأوروبية . . ترىٰ عجبا . . وتتفسح بغير حساب، ذكرني هذا الموقف بموظف المنحة الذي حملني بسيارته من مطار برلين شونفيلد للمرة الأولىٰ عند وصولي إلىٰ حيث أقيم. فقد ضل الطريق لمدة ساعة كاملة كانت سعادتي فيها لا توصف، وهو يسرع في طرقات نظيفة بين الأشجار في الجو البديع.

حاول أسامة ضبط جهاز جي بي اس ليهدينا الطريق، ويبدو أن عطلا فنيا كان هناك فاقترحت عليه علىٰ عادة المصريين أن يسأل سائق تاكسي يمر بجوارنا عن الطريق إلىٰ البرج، وما أكثر سائقي التاكسي هناك، فباريس مزدحمة كالقاهرة . . أنزل أسامة زجاج النافذة وسأل سائق تاكسي عن الطريق لبرج إيفيل. دار حوار قصير بين أسامة والسائق، أدهشتني طلاقة لسان أسامة في التحدث بالفرنسية مع السائق. ولا شك أنها فرنسية الشارع، العامية الفرنسية. إنه يتحدث مع سائق تاكسي. لا علاقة له بفرنسية الكتب والأبحاث. انطلق أسامة في الطريق وإن هي إلا دقائق حتىٰ لاحت قمة برج إيفل العجيب. لا أظن أنكم بحاجة إلىٰ أن أصف لكم البرج، فهو شهير كأهرام الجيزة. يقف بالقرب من شاطئ نهر السين، لكن زحاما شديدا كان تحته وحوله. تقف طوابير من الناس كثيرة في انتظار دورها لتركب «الأسانسير» وتصعد إلىٰ قمة البرج لترىٰ باريس كلها. طوابير لا نهاية لها، فاقترح أسامة علي إن أردت الصعود أن أنتظر في الطابور أو أن نصعد علىٰ السلالم. فقلت له لا هذا ولا ذاك. وما حاجتي

إلا صعود البرج. إنني لم أصعد برج القاهرة حتىٰ اليوم. قلت ضاحكا: يكفي أن نلتقط هنا بعض الصور التذكارية؛ لتكون دليلا علىٰ زيارتي لباريس وبرج إيفيل فنحن المصريون قوم نحب الشهادات، والأدلة والإثبات، وليس أدل علىٰ الزيارة من بعض اللقطات.

راقني مشهد نهر السين علىٰ مقربة من برج إيفيل، فتوجهنا إليه سيرا علىٰ الأقدام والتقطنا بعض الصور، وعلىٰ مقربة بين النهر والبرج تتراص بعض أكشاك لبيع الحلوىٰ والفشار. لم ينقصها لننتقل إلىٰ كورنيش النيل إلا رجل فقير بعربة مهشمة يبيع الترمس وآخر يشوي البطاطا. وكان قد أصابنا شيء من الجوع، فاشترىٰ لنا أسامة من أحد هذه الأكشاك شيئا من الطعام يعرفه وهو أشبه برقاق ساخن دهن بطبقة كثيفة من الشيكولاتة. أكلنا فبعثت فينا الشيكولاتة شيئا عظيما من الطاقة. كان الجو بديعا لطيفا ساحرا، لم يعكر صفوي شيء غير انتشار المتسولين من جنسيات مختلفة. ينتشرون تحت قاعدة البرج وحولها، ويلحون في طلب المال بوسائل مختلفة، وكأنهم متسولو مصر في إلحاحهم. منهم من تزعم أنها فقيرة بائسة، وأخرىٰ انقطع بها الطريق، وثالثة تطلب توقيعك علىٰ ورقة تجمع بها تبرعات للأيتام أو لذوي الاحتياجات الخاصة. لقد سئمنا كثرة الطلب، فاهتدىٰ أسامة إلىٰ فكرة طريفة وهي التحدث إليهم بالعربية، وادعاء عدم الفهم. فنحن عرب ولا نكاد نفهم لهم قولا.

أين الشرطة الفرنسية كي تقبض علىٰ هؤلاء المتسولين الذين يضرون بالسياحة، ويهددون الاقتصاد الفرنسي، ويشوهون صورة عاصمة النور في أعين زوارها من كل أنحاء الدنيا. إنهم يصنعون ذلك في مصر! يهينون أبناء الوطن ويقدسون الأجانب. إنني مصري غير مسموح لي بأن أتسول أو أطلب مالا من الأجانب هناك، لكنهم يحق لهم التسول هنا! ولا أحد يزجرهم حفاظا علىٰ كرامة الإنسان التي لا تمس. وقد رأيت مرة أحد أمناء الشرطة في منطقة الأهرام ضرب أحد الشحاذين ركلات في بطنه، ولكمات في وجهه حتىٰ أدماه، لأنه اعترض طريق أحد السياح يسأله. أنكرت ذلك عليه وكنت بصحبة صديق لي، فأخبرني صديقي بعد انتهاء الموقف بأن الأمين ربما ضرب المتسول لا لحرصه علىٰ مصلحة السياحة، وإنما لأن المتسول رفض أن يقتسم معه حصيلة يومه أو أن يعطيه نصيبه منها وقد اتفقا علىٰ ذلك في الصباح!

وهذا بلد إذا سرق فيهم الشريف! اليوم تركوه، وإذا تسول فيهم الضعيف صفعوه!و أقاموا عليه الحد! ورحم الله عمر بن الخطاب حين وقف يودع أحد نوابه علىٰ بعض أقاليم الدولة، فقال له: ماذا تفعل إذا جاءك سارق؟! قال: أقطع يده. قال عمر: إذن، فإن جاءني جائع أو عاطل، فسوف يقطع عمر يدك. إنّ الله استخلفنا علىٰ عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم. فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها! لكن الحال في بلادنا اليوم علىٰ عكس ذلك، وقد عبر الشاعر العظيم بيرم التونسي عن هذه الحال خير تعبير في صورة تمثيلية درامية بارعة في مقطوعته «علىٰ الطريق» حيث قال:

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جايّة من شربين
شايلة علىٰ كِتْفها عيّل عينيه وارمين
والصاج علىٰ مخها يرقص شمال ويمين
إيه الحكاية يا بيه؟ قال: خالفت القوانين
اشمعنىٰ مليون حرامي في البلد سارحين
يمزّعوا في الجيوب ويفَتّحوا الدكاكين
أسأل وزير الشؤون؟ ولّا أكلم مين؟!

حاولت أن أطرد عن ذهني صورة المتسولين، وقمع الفقراء المعوزين، واكتفيت من برج إيفيل ببعض اللقطات التذكارية تحته وحوله ومع نهر السين، وغلبني شغف عظيم بزيارة السوربون، تلك الجامعة العتيقة، التي رفدت مصر بلعماء وكتاب كبار .. في الطريق إلىٰ السوربون، مررنا بالمكتب الثقافي المصري، ورأيت بوابته تلك التي طرقها من قبل الممثل المصري (محمد هنيدي) «الأستاذ رمضان مبروك أبو العلمين حموده»، في مسلسله الشهير. حين ترك قريته إلىٰ باريس بطريق غير شرعية؛ ليدرس ويتعلم ويصبح كالدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم!

وصلنا جامعة السوربون العتيقة فإذا هي مبنىٰ قديم له قمة شامخة، وهو طراز

معماري فريد، في مكان هادئ من المدينة. راقني منظره كثيرا ووقع في قلبي، ونظرت إليه بإجلال وتقدير، فقد تخرج هنا طه حسين، ومحمد غنيمي هلال، والإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، ودرس هنا توفيق الحكيم، وكثير ممن نعرف وممن لا نعرف ممن كان لهم دور عظيم في الثقافة المصرية المعاصرة.

بعد زيارة السوربون توجهنا إلىٰ مسجد باريس أدينا صلاة الظهر والعصر جمعا وقصرا، وراقني المسجد كثيرا فالتقطنا هناك بعض الصور كذلك، ثم تجولنا في الحي اللاتيني، الذي كتب عنه سهيل إدريس روايته الشهيرة، وهو حي يقيم فيه أكثر الطلاب الذين يفدون إلىٰ فرنسا من كل أصقاع العالم لطلب العلم ومواصلة الدراسات العليا، وهو قريب من جامعة السوربون. مررنا علىٰ متحف اللوفر مرورا سريعا، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فاتجهنا إلىٰ روان.

(٢٤)

رُوان .. وقاهرة المعز

انطلق بنا أسامة من باريس إلىٰ روان، كان الطريق طويلا بعد يوم طويل من السياحة، ضربَنَا فيه شيء من الإرهاق، فتوقفنا مرات في الطريق لشيء من الراحة أو احتساء بعض القهوة! وصلنا إلىٰ المدينة وقد أسدل الليل أستاره عليها، فرأيتها هادئة، رطبة الأجواء نظيفة. أسلم أسامة سيارته إلىٰ مخدعها في الجراج أسفل العمارة، وصعدت معه إلىٰ شقته. فاستقبلني أهله وأولاده استقبال ضيف عزيز. وكيف لا وقد جمعتني به صداقة قديمة. لم يعكر صفوها شيء! بدأت من أول عهدي بالعمل في دار العلوم. حتىٰ لقد انتشلني من وهدة نفسية سحيقة ترديت فيها في فترة عصيبة من حياتي. ضاق فيها صدري ودمعت عيني وأوشكت أن أنصرف عن الدار ومن فيها. دخلت بيت أسامة في روان وسعدت بحفاوة أولاده بي وتذكرت أياما لنا في مصر كانت رائعة! إني لأذكر الآن وقد غمرني هذا الشعور الجميل في بيته جلسة اجتمع فيها نفر كثير من شباب دار العلوم في نادي أعضاء هيئة التدريس ذات مساء، ورحنا نتسامر، فطرقتني فكرة كانت طريفة؛ وهي أن يعبر كل منا عن انطباعه ورأيه في كل صديق أو زميل من الزملاء الحاضرين بكلمات قليلة، تمثل في نظره أبرز الخصال التي يراها فيه. فبدأت أنا وكان الحديث عن أسامة فقلت: هو الأنس عند الوحشة!

أعرف أسامة منذ كنت طالبا في الفرقة الأولىٰ، فقد درس لزملائي وإن لم أشرف بالتلمذة عليه، وليست التلمذة بالجلوس في قاعة الدرس علىٰ كل حال، وقد كانت تلمذة فيما بعد بطول الصحبة وكثرة اللقاء. كنت أعرفه لكن لم أجرؤ علىٰ الاقتراب منه. تعرفت إليه في معسكرات طلابية كانت الكلية تقيمها في الصيف من كل عام في مدن مصر المختلفة. راقني فيها ظرفه وذكاؤه وحدة قريحته . . لقد كنت أجله إجلال الأساتذة الكبار، ولم يكن يعرفني!

عينت بدار العلوم، وألمت بي أزمة كبرىٰ، وتصادف أن عملت ساعتها معه في كنترول الفرقة الثالثة، الذي كان علىٰ رأسه الدكتور إبراهيم ضوة. سمح لي العمل مع أسامة في الكنترول بشيء من الاقتراب الحذر، فقد كانت في عينيه حدة تربكني إذا حدق أو أطال النظر. ذكرتها له فيما بعد فأقرني علىٰ ما قلت، فلم أكن أول من أخبره بذلك. عمل في الكنترول معنا بعض أصدقاء أسامة المقربين، كان بعضهم من أساتذتي الذين درسوا لي في سنوات الدراسة، منهم الدكتور محروس بريك الذي درس لي عامين في الأولىٰ والثانية، والدكتور حجاج أنور الذي درس لي في الرابعة. وكان من أصدقائه المقربين كذلك الدكتور أحمد محمود، مدرس التاريخ العظيم.

كانت صحبة هؤلاء الشباب طيبة، كنت أرقبها صامتا وراقني ما كان بينهم من ود وصفاء. أتيحت لي الفرصة مرة في الكنترول أن أتحدث حذرا في أمر ما واستمع إليّ أسامة وصحبه، فراقهم مني ما عدوه ظرفا، وانجذبت أنظارهم وقلوبهم إلي، وابتسم أسامة ابتسامة بددت خيبة الأمل المخيمة علىٰ أم رأسي في هذه الأثناء، فنطق محروس بريك، وقال ضاحكا: ما رأيك في أن نضمه إلىٰ مجموعتنا؟ فاستملح أسامة فكرته، وطار قلبي فرحا بأن حققوا لي رغبة دفينة، لم أبح بها، في صحبة أصدقاء كبار.

ظننت أن ما جرىٰ مع الصحبة الطيبة كان موقفا عابرا ينتهي بانتهاء المجلس، فإذا بي أتلقىٰ اتصالا هاتفيا في المساء من أسامة يدعوني إلىٰ بيته، لمشاهدة مباراة الأهلي والزمالك معه. هرعت إليه وحدث بيننا شيء من الألفة والمودة عجيب، بدد كثيرا من القلق القديم. غادرت بيت أسامة علىٰ إثر هذا الالتقاء الروحي، وقد طال السهر والسمر الجميل، قرب مطلع الفجر، ولم أنم سوىٰ ساعتين ذهبت بعدهما إلىٰ كنترول شيخنا ضوة مغمض العينين لحاجتي إلىٰ مزيد من النوم، فأخبرته بما كان من طول سهري مع الشيخ أسامة، فعنفني تعنيف المحب، وقال مداعبا أخشىٰ أن تفسد صحبتكم علينا كنترولنا.

دخلت بيت أسامة في روان فراقني، وأسعدتني قطعة شعرية نظمها بمناسبة زيارتي

له سماها «بهجة القلوب بزيارة المحبوب!»، قال فيها:

رأت الـــدار حـــراكًـــا وانـــشـــغـــالا وارتـــبـــاكـــا
فـــهـــنـــا تـــعـــمـــل زوجـــي تـــارةً، ثـــم هـــنـــاكـــا
فـــهـــي تـــبـــدي وتُـــعـــيـــدْ!

قـــالـــت الـــدار: لَـــعَـــمْـــري إن خَـــطْـــبًـــا قـــد ألـــمَّـــا!
قـــد أحـــالـــونـــي عـــروســـا وكَـــفـــوْنـــي مـــا أهـــمَّـــا!
فـــقـــديـــمـــي كـــجـــديـــدْ!

هـــذه الـــفـــرحـــةُ تَـــسْـــري فـــي وجـــوه قـــاطـــنـــيَّـــا
فـــرحـــةٌ فـــاح شـــذاهـــا وتـــخـــطَّـــاهـــم إلـــيَّـــا!
وكـــأن الـــيـــومَ عـــيـــدْ!

فـــأجـــابَ الـــدارَ قـــلـــبـــي بـــجـــوابٍ مُـــتـــجـــلِّـــي
زَفَّ بُـــشـــرايَ إلـــيـــهـــا بـــزيـــارةْ مُـــتَـــوَلِّـــي!
إنـــنـــي جِـــدُّ ســـعـــيـــد

طربت لهذه الموشحة الطريفة الراقصة من شيخنا أسامة . . ولفت نظري اهتمامه بالكتب والمكتبات، فكما أن مكتبة بيته في مصر تشبه مكتبة مؤسسة علمية سعة وتنوعا وامتلاء، فإن اهتمامه بالكتب في روان كذلك اهتمام ظاهر فريد! غير أنه توسع كثيرا في اقتناء الكتب الأجنبية. ما رأيت في من عرفت من الدراعمة أشغف بالكتب وأحرص علىٰ اقتنائها من أسامة. حتىٰ إننا كانت تلم بنا الضائقة المالية ويصدر الكتاب الجديد، فنحجم عن شرائه، فيحثنا علىٰ اقتنائه ويدفعنا إلىٰ الشراء بدافع المحبة دفعا ويقول: «تذهب الأزمة ويبقىٰ الكتاب»! فتَحَقَّقَ لنا بنصيحته تلك خير كثير. وكان يُكثر التمثل في ذلك بمقولة أظنها للعقاد، وهي أنه كانت تأتيه الكتب الجديدة ساخنة من المطابع!

ومن طريف ما يروىٰ في هذا السياق أنني زرته ذات مرة، وكان أن قدم لي طبقا من الحلوىٰ، فانكفأ الطبق علىٰ كتاب له كان بيدي؛ فأخذني قلقٌ عظيم؛ خشيةَ أن يصيب الكتاب مكروهٌ، فهدّأ من روْعي، ورفع الحلوىٰ برفق عن غلاف الكتاب، فإذا هو كما

هو نظيف لم يمسسه سوء، فابتسم مداعبًا وقال: لا تقلق يا صديقي، فكل شيء في بيتنا يعرف قدر العلم!

أسامة صاحب ظرف ودعابة نادرة، يصنعها بمهارة شديدة، ويلتقطها من المواقف العادية بطريقة مذهلة، حتىٰ إنني أضحك حين نلتقي من القلب بملء الفم ولو كنت مهموما. وهو من أكرم الناس نفسا ومالا وطعاما. وكيف لا وقد اعتدنا زيارته في بيته في مصر مرات كثيرة علىٰ ولائم عظيمة يصنعها أهل بيته بمهارة ما زلت أذكّره بها وأغبطه عليها. يبدو أن الرجل أراد أن يعيد ذكريات كرم مصر بعد أن أضاف إليها الكرم الفرنسي شيئا كثيرا، فقبل أن نتجول في المدينة بسيارته اصطحبني إلىٰ محل جزار قريب، وإذا به قد أوصاه من قبل بذبح كبش عظيم احتفالا بمقدمي. حملت الكبش معه مبتهجا به إلىٰ البيت، ثم انطلقنا بالسيارة في ربوع المدينة.

عرفت من أسامة أن المدينة قسمان: روان، وروان القديمة. عاش أسامة في روان القديمة لبعض الوقت في مسكن عتيق ثم انتقل إلىٰ هذا البيت الجديد في روان الجديدة.

ما أشبه راون القديمة بمصر القديمة والقاهرة المعزية .. فهي مدينة معجبة في طرزها المعمارية العتيقة. فالبيوت قديمة صنع أغلبها من الخشب .. كم هو عجيب أن ترىٰ بيتا مكونا من عدة طوابق وقد صنع كله من الخشب. لا أدري كيف لا تنهار هذه البيوت مع مرور كل هذا الوقت. للبيوت شرفات بديعة تشبه المشربيات الجميلة في بيوت مصر القديمة. أنظر إلىٰ المشربيات فأكاد أرىٰ في إحداها السيدة المصرية تعصب رأسها بالمنديل المزركش وتدلي «السّبَت» للبائع كي يضع فيه الخبز أو شيئا من الخضروات، أو يضع لها فيه المعلم كرشة جزار الحارة طعام اليوم من اللحم العجوز. لقد نقلت إلي روان صورة أحياء القاهرة القديمة، وأزقتها الشائقة، وشوارعها المرصوفة بقطع الحجارة السوداء! يسقط عليها المطر بعد لهيب الصيف فتشتم منها رائحة لا تكاد تنسىٰ. استحضرت بديع ما صوره نجيب محفوظ في زقاق المدق، وما كان يجري بين حميدة وعباس الحلو في أجواء الزقاق التي لا تختلف كثيرا عن أزقة روان القديمة وحواريها.

ترىٰ أهو من عجائب الأقدار أن يكون الروائي الفرنسي الكبير جوستاف فلوبير

صاحب «مدام بوفاري» أول رواية واقعية، من أبناء هذه المدينة! كما أن نجيب محفوظ هو ابن أجواء مصر العتيقة. لقد لفت نظري حقا هذا التشابه العجيب. أن ينشأ كبير الروائيين في مصر وواحد من كبار الروائيين في فرنسا في أجواء تكاد تكون واحدة. ثم إنهما يجنحان إلىٰ الرواية الواقعية، ويميلان إليها ميلا عظيما، ويسموان بها وبالأدب والأذواق فوق الخيال. لو كان الأمر كذلك فيا ليت مصر كلها أزقة وحواري لننعم بشيء من الأدب الجميل.

لم يكن عجبا أن يحدث هذا الالتقاء بين نجيب محفوظ وفلوبير، فقد زار فلوبير مصر عام ١٨٤٩ وهو في السابعة والعشرين من عمره، زارها وقد طالما طاف برأسه حلم زيارة الشرق العظيم. الشرق الذي وقعت عينه علىٰ عظمته حين رأىٰ تلك المسلة المصرية جاثمة علىٰ متن السفينة «الأقصر» التي كانت تحملها من مصر وقد رست علىٰ مرافئ روان. لقد كان فلوبير يحلم بالشرق منذ صغره، يحلم بالشمس اللافحة والسماء الزرقاء، والمآذن المذهبة. وقد بدأ في عام ١٨٣٩ يكتب في «مذكرات مجنون» في شيء من السذاجة، عن ذلك الشرق البديع والرمال الشاسعة والقصور الفخمة التي تخطو فيها الإبل بأجراسها النحاسية، وكانت أقل الأحداث وأبسطها تثير خيال الشاب وتدفع بأحلامه نحو الشرق. وكثيرا ما كان يحث أصدقاءه علىٰ السفر معه إلىٰ ذلك الشرق الساحر. وأخيرا التقت أحلامه بمشروعات «ماكسيم دي كامب» الكاتب والمصور الفرنسي الشهير، وأبحرا معا إلىٰ بلاد الشرق.

سافر الرجلان في الرابع من شهر نوفمير ١٨٤٩، وفي السابع عشر من الشهر لاحت له بلاد الشرق من بعيد، فكتب فلوبير يقول: «عندما أصبحنا علىٰ بعد ساعتين من مصر، صعدت إلىٰ مقدمة الباخرة مع القبطان ولمحت سراي عباس باشا، قبة سوداء فوق زرقة البحر، وكانت الشمس لافحة، ولاح لي الشرق تحتها عبر ضوء فضي ساطع متدرج فوق البحر». وصل الصديقان إلىٰ مصر، وراح فلوبير يدون مشاهداته التي بهرته في رسائل يرسلها إلىٰ محبوبته «لويز كوليه» فكتب لها في مارس ١٩٥٠ يقول: «لقد ذهب ماكسيم الشاب يلتقط بعض الصور، إنه ناجح في عمله، وأعتقد أننا سنحصل علىٰ ألبوم صور بديع».

لقد كان فلوبير شهوانيا ماجنا يعلن حبه للدعارة ولذاتها، ويعترف بأنه يترنح تحت

وطأة دقات قلبه السريعة في كل مرة يرىٰ فيها إحدىٰ الحسناوات بملابس قصيرة، تسير قرب واجهة زجاجية تحت المطر. ولم يمنعه حبه الشديد للنساء من أن يعترف لشدة ولعه ببلاد الشرق، أنه مستعد للتخلي عن كل نساء العالم مقابل الحصول علىٰ مومياء كليوباترا!

عاد فلوبير من مصر إلىٰ فرنسا عام ١٨٥٠، فشرع في كتابة رائعته «مدام بوفاري» كتبها في خمس سنوات كاملة، ويبدو أن أجواء الشرق الماتعة التي رآها وأجواء روان التي تشبه أجواء القاهرة المعزية القديمة كانت الجمرة التي أضرمت في نفسه جذوة الإبداع. كما أنبتت أجواء القاهرة القديمة فيما بعد في صدر عملاق الروائيين نجيب محفوظ شجرة الإبداع وارفة حتىٰ حصد نوبل عن جدارة واستحقاق، ليفخر أنه ابن حضارتين تزاوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا. أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة، وهي الحضارة الفرعونية، وثانيتهما عمرها ألف وأربعمائة سنة، وهي الحضارة الإسلامية.

روان القديمة مدينة تعج بالكنائس والكاتدرائيات والأديرة والأبراج العتيقة التي تمثل طرازا معماريا فريدا في دقة الصنع والفخامة والعراقة والقدم، فتجد «قصر العدالة» و«كاتدرائية روان»، و«الساعة الكبيرة» وكثيرا من الآثار المعجبة. وهي مدينة ذات طبيعة ساحرة، بها جبل عظيم مليء بالأشجار العظيمة، والخضرة اليانعة، صعدناه مرات بالسيارة في طريق أحسن صنعه، لم أر مثله من قبل إلا في الأفلام الأجنبية. صعدنا إلىٰ قمة الجبل فلاحت روان وبيوتها وآثارها العظيمة كما تلوح للناظر من الطائرة. ما أجمل أن ترتقي مكانا عليا ترىٰ فيه الدنيا كلها وكأنها في قبضة يدك!

روان القديمة ترنو أضواؤها إلىٰ قمة جبلها العظيم . . ومصر القديمة نائمة في حضن جبل المقطم . . صغر البيوت الروانية المضيئة عند النظر من عل، من فوق جبل روان، لا يستدعي من مصر شيئا إلا تلك العشش البائسة التي تهدت عليها تلك الصخرة العظيمة من جبل المقطم فعصفت بالفقراء والبؤساء النائمين في حضن الجبل بلا مأوىٰ. لقد خلّفت الصخرة المتردية قتلا ودمارا وهدما وعويلا، ولم تنفع أنّات المنكوبين تحت الأنقاض ولا استغاثتهم في رد القضاء، وكأنه غضب الله حل علىٰ

البلاد والعباد. لو شهد أحمد بك شوقي هذه الحادثة ما كتب قصيدته «النملة والمقطم» التي عاب فيها علىٰ النملة خوفها من جلال المقطم وعظمته، لو رأىٰ ما خلفته الصخرة من دمار لما منعه قوله في نهاية قصيدته:

صاح لا تخش عظيما فالذي في الغيب أعظم

من أن ينصح الناس بالابتعاد عن هذا الجبل الغشوم! ما كان أحراك يا شوقي أن تكتب قصيدة في جبل روان، وأنس الحياة فوقه! لو رأيته لما كتبت قصيدتك في المقطم! فما كان للنملة أن تخشىٰ جبل روان وقد احتضنها بأناقته ورقته وكأنه حضن الأب الرحيم! يا شعب مصر العظيم . . يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم حتىٰ يحطمكم المقطم وجنوده!

انطلق أسامة بسيارته من قمة الجبل إلىٰ سفحه مسرعا، بين الأشجار الرائعة والأجواء الماتعة. تجولنا قليلا في شوارع روان ليلا، ما كان أجملها وما أبهاها . . هي الحياة كما أرادها الله للبشر. وجوه الناس مستبشرة، لم تعلها غبره، ولم ترهقها قترة، ولم يأكلها الفقر، ولم يذوها المرض.

علىٰ ناصية أحد الشوارع وقفت فتيات حسناوات يتمايلن ويرقصن العجائز، لا شك هن فتيات الليل اللائي لا يخلو منهن بلد أوروبي. يعبثن في الطريق لاصطياد فريسة من الرجال. ما أشبه الليلة بالبارحة! فما أكثرهن في برلين! بل ما أكثرهن في مصر! في المقطم وفي غيره. وما أكثر السيارات القاتمة الزجاج التي تصطف علىٰ الكورنيش . . متىٰ اقتربت منها تحركت!

عدنا إلىٰ البيت فنلنا حظا وافرا من أطايب الطعام من ذلك الخروف الشهي! أعاد إلينا ذكريات أيام وليال مشابهة قضيناها في بيت أسامة في القاهرة، بين المحاشي والحمام ولذيذ الشواء.

بالقرب من بيت أسامة يوجد «مسجد الكوثر» . . ذهبنا إليه مرات للصلاة، فرأيت لأسامة محبة عظيمة بين الناس بادية، ويبدو أنهم استمعوا إلىٰ شيء من خطبه وفقهه أو أصابوا شيئا من علمه، وعذب صوته في الصلاة. لقد كان أكثر الناس في الصلوات من العرب المقيمين هناك، في صلاة الفجر وفي غيرها، حتىٰ لقد قلت: لتجدن أهل روان أحرص الناس علىٰ الصلاة!

قضينا أياما قليلة جميلة بصحبة أسامة في روان، ثم أخذت القطار صباح اليوم الرابع من الزيارة في طريق العودة من روان إلىٰ محطة «سانت لازار» في باريس. ومنها إلىٰ مطار شارل دي جول. كان الزحام شديدا في محطة القطار الرئيسية في باريس. فهي أشبه في زحامها بمحطة مصر حين تصل عدة قطارات من الوجهين القبلي والبحري في آن واحد، تجد أفواجا من البشر تنزح من القطار لا حصر لها. وكأنهم أهل مصر يتدافعون في المترو في ساعة الذروة. وصلت إلىٰ شارل دي جول، وتبينت أن المطار يتيح لكل المسافرين خمس عشرة دقيقة من الانترنت الهوائي المجاني، فاتصلت بأسامة أخبره بوصولي إلىٰ المطار دون مشقة، وكان أشفق علىٰ من التوهان. صعدت إلىٰ الطائرة الفرنسية للمرة الثانية دون أن يخرج جواز سفري من جيبي، وتذكرت قصيدة أحمد بك شوقي عن الطيارين الفرنسيين:

قُمْ (سليمانُ) بِسَاطُ الريح قاما ... مَلَكَ القومُ من الجو الزِّماما

حين ضاقَ البَرُّ والبَحْرُ بهم ... أسْرَجوا الرِّيحَ، وساموها اللِّجاما

صارَ ما كان لكم مُعْجِزَةً ... آيةً للعلم آتاها الأناما

شقت الطائرة صفحة السماء في قوة وعزم، وما زال حلم «الاتحاد العربي» الكئيب يساورني علىٰ متنها! وصلت إلىٰ مطار برلين ومنه إلىٰ بيتي ولم يخرج الجواز من جيبي .. محمود ياسين .. أيها الفنان العظيم .. في أوروبا الجواز ما يزال في جيبي، لم يطّلع عليه أحد .. فهل الرصاصة ما تزال في جيبك؟! لا أظن! ففي مصر نفدت كل الرصاصات، ولم يعد في الجيب شيء!

(٢٧)

كلام في السياسة

هذه حلقة للتاريخ، قد يروقك مضمونها وقد تنفر منها، لكنني لن أسجل فيها إلا ما أعتقده، ولن أنطق إلا بما وقر في قلبي، أسجله صادقا من غير تجمل! قد أصدمك بصراحتي أحيانا، وقد أفجأك بما لم تتوقعه مني، لكن الصدق أحب إلي من التلون والمجاملة علىٰ كل حال!

لم أكن يوما مهتما بأخبار السياسية ولا معنيا بشئونها، قد يكون في ذلك نوع من القصور المعرفي، لكن هذه هي الحقيقة. قد يكون صرفني عن السياسة أن الساسة في بلادنا يسوسون كما يشاءون، ولا يسمحون لأحد بالتدخل في شئونهم، فما حاجتي إلىٰ متابعة سياسة هي أشبه بالقدر، تصيبك ولا سبيل إلىٰ ردها!

لم أكن أعلم أن ثورة اندلعت في تونس حتىٰ وصلني خبر هروب زين العابدين بن علي إلىٰ السعودية. وبدأت دعوات مكتومة علىٰ استحياء شديد علىٰ فيس بوك إلىٰ ثورة مصرية في الخامس والعشرين من يناير، ما لبثت أن انتشرت، ولم يخش أحد ساعتها أن يكتب علىٰ فيس بوك يهاجم مبارك ورجاله، كنت أقرأ الهجوم ولا أشارك فيه، وكأنني أحلم، ولا أكاد أصدق عيني. اندلعت هوجة يناير، واسمحو لي أن أسميها هوجة، فليس فيها من الثورة شيء إلا سيلان بعض الدماء، ومن ثم فهي هوجة أشبه بهوجة عرابي في ١٨٨٢ التي ما لبثت أن أخمد الإنجليز أوارها.

انقضت الهوجة بتنحي مبارك، وكنس شباب الثورة أرض الميدان في مشهد قالوا عنه إنه حضاري، وأزالوا الحجارة المكسرة، وعادوا إلىٰ بيوتهم مزهوين بما حققوا من نصر عظيم.

ما هذا الذي تحدثنا عنه أيها الدرعمي؟ ألست تحكي لنا عن يومياتك في بلاد الفرنجة؟ ما الذي أتىٰ بثورة يناير الآن؟

إنما أذكر ذلك أيها الأصدقاء لأنني سافرت بعد الهوجة مباشرة. عشت كل أحداثها في مصر وتابعت كل ما تلاها من أحداث وتداعيات هنا في برلين! ألم يكن تأخر طائرتي إلىٰ برلين بسبب إضراب عمال حمل الحقائب في مطار القاهرة عقب الهوجة اعتراضا علىٰ تدني أجورهم؟ ألم أشارك مرات في الانتخابات والاستفتاءات في السفارة المصرية في برلين؟ ألم ألتق بالسفير المصري، وبالرئيس المصري نفسه هنا؟ ألا يستدعي ذلك كله أن نذكر شيئا من الماضي ننطلق به إلىٰ المستقبل؟!

لا أحب أن أطيل في الحديث هنا، فذاك ماض بغيض، مستقبله -فيما يبدو- أشد بغضا!

بعد الثورة أوْكَلَ مبارك إدارة شئون البلاد إلىٰ المجلس العسكري، الذي كتبت عنه الصحيفة البرلينية Berliner Zeitung ذات يوم تقول: «الجنرالات المصريون أشد وحشية من نظام مبارك» Ägyptische Generäle sind brutaler als Mubarak-Regime كنت أتوارىٰ من القوم خشية تلقي أسئلتهم عن مصير ما أسموه ثورة يناير والربيع العربي. كنت أتابع بشغف شديد كل ما يجري علىٰ أرض مصر لحظة بلحظة، الانتخابات والاستفتاءات، وكنت أشارك فيها، ولم يكن يروقني كثيرا تقدم المد الإخواني والسلفي الذي طغىٰ في مجلس الشعب! كم وددت لو أنهم زادوا من أنشطتهم الخيرية والاجتماعية وكفوا أيديهم عن السياسية في تلك الحقبة العسيرة التي تمر بها البلاد. لا شك أن الإخوان كانوا العدو الأكبر لنظام مبارك الذي ضرب بجذوره في كل مكان، وما كان لهذا النظام العتي أن يسلم لهم العنان هكذا رهوا بسهولة. أحكمت حكومة المجلس العسكري برئاسة الجنزوري قبضتها حول مجلس الشعب، وأحكم المجلس العسكري قبضته من قبل حول عنق عصام شرف رئيس الوزراء، وشكلت اللجنة العليا للانتخابات المحصنة، وتقدم مرشحو الرئاسة، وملأت بوسترات أبو إسماعيل عين الشمس! وقرر الإخوان المسلمون التقدم بمرشح لهم بعد أن أعلنوا عدم الترشح؛ وعللوا ذلك رغم اعتراض كثيرين بأنه من فقه الواقع بعد أن أحكمت السلطة التنفيذية قبضتها علىٰ مجلس الشعب المنتخب، فلم يستطع

حراكا، وكان وزراء الحكومة يسخرون منه، ولا يستجيبون لحضور جلسات الاستجوابات، وإن حضروا حضروا في علو كبير.

رشح الإخوان خيرت الشاطر مرشحا أوليا، ولما كان استبعاده من قبل لجنة الانتخابات متوقعا بسبب بعض العقوبات والأحكام، فقد رشحوا بديلا له الدكتور محمد مرسي. ولم يرقني كلاهما كي يصبح رئيسا للجمهورية، وقد أضحكني كثيرا رفض أحد الأصدقاء ترشح محمد مرسي للرئاسة، لا لشيء إلا لأنه يسرح شعره «علىٰ جنب»، فمن غير المقبول أن يمشط رئيس الجمهورية شعره علىٰ جنب أبدا!

علا نجم حمدين صباحي، وبزغ نجم أبو الفتوح، استبعدت الإخوان من قائمة ترشيحاتي وقلت في نفسي يكفيهم مجلس الشعب! واستبعدت كذلك عمرو موسىٰ وشفيق فهما من رجالات عصر ما قبل الهوجة. وانتصر عندي أبو الفتوح علىٰ حمدين، لانفصاله عن الإخوان، ولوسطية رأيتها فيه، لتمسكه بالدين وعدم رفضه للعلمانية، رأيته أكثر المرشحين مناسبة للمنصب في هذه الحقبة الخطيرة، انتخبته فلم ينجح، وأحكمت الدائرة حول شفيق ومرسي! وكان في نفسي منهما معا أشياء كثيرة! قررت مقاطعة الانتخابات في مرحلتها الثانية، غير أن صديقا لي مصريا استحثني علىٰ التصويت لمرسي، بحجة أن شفيق، وبالغ في الإلحاح فذهبت معه إلىٰ مقر السفارة مكرها، وانتخبت مرسي وكنت بذلك ممن أسموهم عاصري الليمون.

أنا أحب الليمون المصري كثيرا، ذلك الليمون الصغير الحجم طيب الرائحة (البنزهير)، الذي لا وجود له في بلاد الفرنجة. لقد طالما بحثت عنه ولم أجده! فكل ما هنا هو الليمون الكبير الحجم (الأضالية) الذي لا طعم له، ولا يحسن به طعم الحساء.

بعيدا عن ليمون الانتخابات وليمون الحساء هناك «عصارة الليمون»، وهي هنا ليست من أدوات المطبخ هذه المرة وإنما هي مدرسة نقدية شهيرة كتبت عنها رسالتي للماجستير تسمىٰ مدرسة النقد الجديد، وقد أطلق عليها ت. س. إليوت أحد أبرز روادها مدرسة «عصارة الليمون» في النقد "The lemon-squeezer school of criticism" لأنها تحلل النص الأدبي تحليلا لغويا بطيئا متأنيا حتىٰ تفكك أوصاله وتأتي علىٰ دقائقه، فكأنها عصارة ليمون. لا أعتقد أنه يحسن بي هنا مواصلة الحديث عن

الليمون، وعن فوائده، وطريقة زراعته وتطعيمه وتكاثره، فذاك أمر يخرج عن نطاق المطبخ والسياسة والنقد الأدبي جميعا.

انتخبت مرسي مضطرا في جولة الإعادة .. ونجح مرسي!!

بدا نجاحه أحب إلىٰ قلبي من نجاح شفيق! والأسباب تعلمونها جميعا، أو يعلمها كل من كان مؤيدا لثورة يناير المجيدة.

لكنني والحق يقال لم أكن أحب أن يعتلي رجل من الإخوان المسلمين سدة الحكم في هذه الأثناء، وودت لو أنهم واصلوا العمل الخيري، ولا بأس إن وصلوا للحكم بعدها أو لم يصلوا، فعمل الخير أبقىٰ من كل شيء.

الإخوان المسلمون .. من هم؟ ومتىٰ سمعت بهم؟

الحقيقة أنهم عرفوني ولم أكن أعرفهم! كنت طالبا في المرحلة الإعدادية، وكنت حسن الصوت في قراءة القرآن، فاعتمدتني المدرسة قارئا للقرآن في الإذاعة المدرسية كل صباح، حتىٰ طار صيتي بين الطلاب والأساتذة وعرفت عند أكثرهم بـ «الشيخ محمد» ولم أكن شيخا قط في يوم من الأيام. لكن كل قارئ شيخ علىٰ كل حال.

يبدو أن قراءة القرآن في الإذاعة المدرسية صبغتني بصبغة إسلامية خالصة لفتت إليَّ أنظار المسئولين عن ضم الأشبال من جماعة الإخوان في القرية، ولم أكن ساعتها أعرف أن هناك جماعة بهذا الاسم. ولا أعرف شيئا عن أفكارها أو روادها وأعلامها وموقف الدولة منها .. كنت أقرأ لوحات في الطريق إلىٰ المدرسة مكتوبا عليها «الإسلام هو الحل» فأعجبتني العبارة ولم أكن أعلم ما لها من دلالة ورائية، ولم أفطن إلىٰ ما تختزنه من دلالة فكرية أيديولجية، فضمنتها مرة موضوع تعبير كتبته في حصة اللغة العربية، فلا شك أن كل ذكر للإسلام خير محض، ولا شيء فيه، فأدهشني أن المعلم حين صحح الموضوع أبدىٰ إعجابه بأسلوبي وبطريقتي في الكتابة؛ لكنه شطب عبارة «الإسلام هو الحل» بالقلم الأحمر، ولم يذكر السبب، ولم أهتم بذلك كثيرا، فلم أسأله عن سر شطبها، فهو الأستاذ وله أن يصنع في الكراس ما يشاء.

في هذه السنوات لاحظت أن تقرب إلي بعض أساتذة مدارس القرية من غير مدرستنا، ومعي بعض الزملاء ممن اتسموا بميلهم إلىٰ الدين والمحافظة والطيبة وعدم الشقاوة. أحدهم كان مدرسا في مدرسة ابتدائية، والآخر كان معلما للعلوم في

المدرسة الإعدادية. دعانا معلم العلوم هذا إلىٰ بيته، ولم نكن نعلم السبب، فأخبرنا أننا نريد أن نقرأ معا كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق، نقرأه ونتدارسه. ذهبت معه مرة ومرتين بعد انتهاء اليوم الدراسي، ولم أكن أعلم سببا مباشرا لهذه الدعوة فاعتذرت له، وبخاصة أن بيتي كان بعيدا عن المدرسة، ويستغرق الوصول إليه بعض الوقت بالدراجة، فقبل اعتذاري، ولم أزره مرة أخرى!

فتلقفني من بعده مدرس الابتدائي هذا وكان ملتحيا، وكان رجلا صالحا. قابلني ذات صباح قبل الطابور وطلب إلي مقابلته بعد انتهاء اليوم الدراسي، فقابلته وكان معي بعض من طلب لقاءهم من زملائي، فدعانا إلىٰ بيته للغداء. فذهبنا معه، والجوع يعصر أحشاءنا، فقدم لنا الغداء وكان شهيا، أرز وسمك مشوي رائع وسلطة خضراء! أكلنا حتىٰ شبعنا، فلم يكن المصروف اليومي يكفي لسد الجوع. بعد الغداء أخبرنا بأنه أحضر لنا فيلم «عمر المختار» لنشاهده معا علىٰ جهاز الفيديو، فوافقنا، وبدأ عرض الفيلم. لم أكن أعرف من هو عمر المختار، ولم يرقنا الفيلم كثيرا وبخاصة أنه طويل جدا، فكنا نختلس النظر في شيء من الملل والاعتراض ولم نجرؤ علىٰ التصريح بضجرنا للأستاذ. وقد ضاعف من الملل أن في الفيلم بعض المشاهد الراقصة، فقد كان الفيلم في نسخته الأصلية ولم تحذف منه مشاهد الرقص والخمور في حياة الغزاة الإيطاليين. لم نضجر لمشاهدة الرقص والخمور، وإنما ضجرنا لأن الأستاذ كان يعمد إلىٰ جهاز الفيديو فيمرر هذه المشاهد مرورا سريعا حتىٰ لا نراها، فكنا نتغامز ونبتسم في غير قليل من الغيظ فقد كنا حديثي عهد بالبلوغ والمراهقة، وفي هذه المشاهد بعض السعادة الخفية، حرمنا منها الأستاذ! تفرقنا، ولم نلتق مرة أخرىٰ، وذهب كل في طريقه، ويبدو أن الأستاذ علم أن ليس فينا ميل إلىٰ ما يدعونا إليه، فكف عن دعوتنا، فشعرت بغير قليل من الراحة.

حين التحقت بدار العلوم، ذهبت إلىٰ القاهرة للمرة الأولىٰ بصحبة أخي، لسحب ملف المدينة الجامعية، ولم نكن نعلم أين دار العلوم، وأين المدينة، فسألنا أحد المارة، وكان طالبا بالجامعة، عن دار العلوم، فنظر إلينا شزرا وقال: هل ستلتحق بها؟ فقلت نعم! فقال: إن هذه الكلية هي أساس الشغب والفوضىٰ في الجامعة!! هذه الكلية لا تهدأ أبدا! وأشار إلىٰ مبنىٰ دار العلوم! قال ذلك وابتسم فلم أفهم! فسألت

أخي وكان طالبا في طب الإسكندرية فأخبرني بشأن المظاهرات ونصحني بالابتعاد عنها وعدم المشاركة فيها.

التحقت بالجامعة عام ٢٠٠٠، وكنت ذلك القروي البسيط، الذي سمع للمرة الأولىٰ بجماعة تدعىٰ «الإخوان المسلمون»، أو تيار اسمه «التيار الإسلامي»، ووسط تحذيرات شديدة من إدارة الكلية من مغبة الانضمام إلىٰ هذا التيار غير الشرعي المحظور، الممول من الخارج، عدو الوطن، وتحذيرات من العائلة كذلك، بخطورة السير مع هؤلاء الذين تعاديهم الحكومة، وقد يترتب علىٰ التقرب إليهم الملاحقة الأمنية، والحرمان من السكن في المدينة الجامعية، وهو أخطر ما قد يقاسيه ريفي فقير في المدينة. حملت كل هذه المخاوف بداخلي، وقررت عدم الانضمام إلىٰ أي الاتجاهات، مهما كانت الإغراءات. وقد كان!

ثمة حادث عظيم جرىٰ، وهو انتخابات اتحاد الطلاب، ولم أكن أعلم قبل ذلك اليوم أن لهذه الانتخابات كل هذه الخطورة، فقد طالما قمنا بها في الفصل في المدرسة الثانوية، في حصة ترفيهية، يحابي فيها المعلم الطالبات اللائي يأخذن عنده الدروس الخصوصية فينجحن جميعا بلا استثناء. أما هذه الانتخابات فقد كان لها شأن آخر. ضجيج شديد، ودعاية، وصور وملصقات، ومظاهرات ومسيرات .. وسمعت أن طلاب التيار الإسلامىٰ هؤلاء قد فازوا بهذه الانتخابات لمدة ١٨ سنة متتالية، وأن إدارة الكلية تعتزم هذا العام وقف هذا المد الإخواني. فكان أن اهتدوا إلىٰ فكرة عجيبة، وهي جعل الانتخابات علىٰ مدار يومين، يأتي في اليوم الأول من يريد انتخاب الطلاب التابعين لإدارة الكلية، وكانوا يسمونهم «الجمعيات العلمية»، فيدلون بأصواتهم في سهولة ويسر، ثم يأتي الطلاب الراغبون في انتخاب «التيار الإسلامي» في اليوم الثاني. تعجبت لهذه القسمة التي لا أساس لها، فكلنا طلاب، وهذه انتخابات، فمن حقك الدخول في أي وقت تشاء، وانتخاب من تشاء، ولما كنا نحن الطلاب حديثي عهد بالكلية، لا يعرف بعضنا بعضا، فقد كتبوا أسماء طلاب «الجمعيات العلمية» التابعين للإدارة في بداية القائمة الانتخابية ومن بعدهم طلاب التيار الإسلامي. وأخذت أوراق توزع علىٰ الناخبين بأسماء أوائل القائمة وضرورة انتخابهم، والابتعاد عن الأسماء الأخرىٰ تفاديًا للمساءلة! ذهبت للانتخاب في أول

يوم، وقررت في نفسي بمثالية مفرطة أتحلىٰ بها أحيانا، أن أنتخب قائمة خاصة بي نصفها من الأسماء الأولىٰ التابعة لإدارة الكلية والنصف الآخر من التيار الإسلامي، فأنا لا أعرف هؤلاء ولا هؤلاء، وأردت أن أمارس حقي في الديموقراطية، فأنا اليوم طالب كبير في القاهرة!!

كان الزحام شديدا جدا في اليوم الأول، ولجان عدة من الأساتذة والموظفين، والطلاب يتزاحمون فلا موضع لقدم، فلم أتمكن من الانتخاب. وجاء اليوم التالي، وكنت حريصا علىٰ حضور المحاضرات، ولم يكن ثمة وقت فراغ للتصويت، فقررت عدم المشاركة، لكن أحد الأساتذة طلب إلينا بعد دقائق من بداية محاضرته أن نترك المحاضرة ونذهب للإدلاء بأصواتنا في الانتخابات، قائلا «روحوا نجحوا زمايلكم»! فذهبت لأجد طابورا طويلا أمام الباب، يدخل منه طالب واحد، يستغرق وقتا طويلا جدا، ولا أحد يدخل حتىٰ يخرج من بالداخل، فتعجبت لأن شيئا من ذلك لم يحدث أمس. وقفت في الطابور، حتى سئمت الوقوف، ثم دخلت فانتخبت قائمة مختلطة، بعد أن وضع الأستاذ علىٰ اسمي في قائمة الناخبين دائرة حمراء! تختلف عن الدائرة الزرقاء التي وضعت حول أسماء من انتخبوا أمس! انتخبت وخرجت . . كنت نسيت تمامًا أن هذا هو يوم «التيار الإسلامي». وقد فاز طلاب «الجمعيات العلمية» وقتها فوزا ساحقا، ودقت الطبول ورضيت الجامعة عن الكلية، فأرسلت المكافآت، وقدمت دعمًا عظيمًا للكتاب الجامعي، لم أحصل من ذلك كله علىٰ شيء. ورضي مبارك عن الكلية والجامعة فأرسل مبلغا ضخما أسموه «منحة مبارك» لكل طالب ٢٠٠ جنيه، لم أحصل منها علىٰ شيء علىٰ مدار عامين، وكنت في حاجة ماسة إليها؛ بسبب هذا الموقف الانتخابي اللعين. وحدث أن تفوقت في الدراسة بعد ذلك وعلا نجمي، فتعرف إلي المسئولون في «إدارة رعاية الشباب» عن قرب وأيقنوا أنني لا أنتمي إلىٰ الإخوان، ولولا تفوقي في الدراسة وتعرف الإدارة إلي بسبب هذا التفوق، لبقيت في نظرهم من الإخوان إلىٰ يوم يبعثون.

لا أدري لماذا لا أستطيع اليوم أن أحكم قبضتي علىٰ القلم، فأوجهه كيف أشاء! إنه يتحرك للخلف في الزمن وإلىٰ الأمام، ولم أعد أحكم السيطرة عليه.

إنني لا أحب السياسية ولا أحب الانتخابات . . وما زلت أعجب لمن يرشحون

أنفسهم، ولمن يدعمونهم! ولا أكاد أنسىٰ ابن قريتي ذلك الفقير ممزق الثياب، الذي أخذه الحماس في موكب انتخابي لأحد المرشحين، فلم يجد ما يعبر به عن حماسه وولائه وحبه لعضو البرلمان المنتظر سوىٰ أن أضرم النار في فوهة أسطوانة بوتاجاز، وحملها يندفع منها اللهيب؛ ليكتب به اسم الزعيم في السماء! في سَوْرَة الحماس، سقط بنطلونه الوحيد، فبدت سوأته! لم يعبأ بذلك وواصل الضجيج!

إن حال ابن قريتي هذا يذكر بقصة «الرجل البيه» لصلاح عبد السيد، ذلك أن أبا السعد أحد الفقراء المعدمين المرضىٰ أمَّ مؤتمرا انتخابيا لسيد بيه الحنش «راجل مقتدر ومتصل .. وبيشتغل بيه كبير قوي في مصر .. وبيلعب بالفلوس لعب» وشاع أنه سيفرق فلوسا في هذا المؤتمر .. انتهىٰ البيه من كلمته التي عجت بالوعود والأحلام الوردية، ودوىٰ التصفيق حارا ودارت هتافات التأييد .. مد إليه أبو السعد يده فلم يمسكها! انصرف بعربته .. مضىٰ ولم يوزع فلوسا .. انصرف الخلق .. ولم يبق واقفا غير أبو السعد وحده .. فاتحا فمه مسددا عينه الواحدة إلىٰ اللافتة المعلقة «**انتخبوا سيد الحنش نصير الفقراء والمظلومين**» أحس أبو السعد بألم في بطنه المنتفخة بفعل الاستسقاء .. وسع ما بين ساقيه ورفع جلبابه ونظر إلىٰ اللافتة وبال بولا أحمر داميا .. وانسال البول علىٰ التراب يتعرج .. يتعرج .. ويتشابك، يتشابك ويتقابل .. تتكون حروف لكلمات .. كلمات لا يفهمها أحد!!

عند عودته من الوحدة الصحية بزجاجة مزيج عديمة الفائدة كان الطريق طويلا وهو يجر ساقه المجهدة .... أحس بدوخة .. احتضن جذع شجرة .. وجد لافتة عليها تعبث بها الريح «**انتخبوا سيد الحنش نصير الفقراء والمظلومين**» نظر إلىٰ اللافتة كثيرا وانسالت زجاجة المزيج علىٰ التراب!

صرخ مأمور المركز: من حرضك علىٰ سرقة اللافتة من؟ من حرضك؟ تكلم ..

وبعد سؤال وجواب وضرب وإهانة. صاح صوت سيد بيه الحنش:

- دا تخريب .. دا ضد الديمقراطية .. دا ضد الحرية .. دا ضد الوحدة .. ضد الوحدة ..

ولما لم ينطق أبو السعد أشار المأمور فانسحب أبو السعد مجرورا من تحت إبطيه إلىٰ الداخل .. آه .. آه .. آه

- حطوه علىٰ الفلقة . . من حرضك علىٰ سرقة اللافتة؟ من؟ من؟

انسحب أبو السعد في التو مجرورا من قدميه مرفوعا إلىٰ أعلىٰ فانشلح جلبابه وبان سرواله . . وعلىٰ السروال كانت تلك الكلمات التي تلتف «انتخبوا سيد الحنش» «انتخبوا سيد الحنش نصير الفقراء والمظلومين» وهوت العصي علىٰ بطنه وسرواله!

يبدو أن آلام الانتخابات لم تصب أبا السعد وحده، ولكنها أصابت كثيرين ممن كانوا قبله، وستصيب كثيرين ممن يأتون بعده! وكما آذتني الانتخابات في الجامعة فأزعم أنني نالني ألم عظيم بسببها حين كنت صغيرا! وذلك حين اصطحبني عمىٰ ﷫ ذات مساء، من قريتنا الصغيرة إلىٰ المدينة لقضاء بعض الحاجات، وكنت طفلا دون العاشرة، وقد كانت هذه السفرة النادرة إلىٰ المدينة إبان حملة انتخابات لمجلس الشعب. عرفت ذلك من حشد كبير من صور لرجال مهندمين عُلقت في كل مكان علىٰ جدران البيوت والمساجد وفي الشوارع وعلىٰ أعمدة الإنارة. بهرتني كثرة الصور وتباين ألوانها وأناقة أصحابها، ولمعانها تحت ضوء لمبات أعمدة الشوارع القوية. بهرتني لأن الكهرباء لم تكن قد وصلت إلىٰ عزبتنا بعد، كما أن المرشحين كانوا نادرا ما يزورون قريتنا ولا يحفلون بأصوات الناخبين فيها؛ لأن الفلاحين لا شأن لهم بالسياسة، ولا حاجة لأحدهم في أن يعطل عمله في الحقل يوما كاملا من أجل أن يذهب للإدلاء بصوته في المدينة بعد أن يدفع أجرة ميكروباص هو لا شك في حاجة إليها. بهرتني الدعاية الانتخابية في المدينة إذ لم أعتد رؤيتها بهذه الكثافة في قريتي، وكان بعضهم إذا علق صورة له أو صورتين علىٰ حائط قريب كان الأطفال يطوفون حولها طيلة الليل في ساعات اللعب وكأنهم يحجون مبتهجين يتصايحون.

كان أحد المرشحين ذائع الصيت اسمه سعد شلبي ﷫. كان ينتمي للحزب الوطني الديموقراطي، ذلك الحزب الذي خُطّ اسمه بخط بارز تحت صورة فتية للرئيس مبارك عُلقت في إطار خشبي مذهّب ضخم في حجرة ناظر المدرسة؛ كنا ننظر إليها بإعجاب شديد. مر موكب هذا المرشح ذات يوم أمام مدرستنا الريفية الفقيرة، مدرسة لا كهرباء فيها ولا ماء، فقررت إدارة المدرسة أن يخرج الطلاب جميعا من الفصول إلىٰ الفناء الواسع للهتاف لهذا المرشح الكبير، عله يسعىٰ في توصيل الكهرباء والماء!

وأخذ مدرس الألعاب يصدح: «سعد شلبي يا بلاش .. واحد غيره ما ينفعناش» وشرعت المدرسة كلها تردد الهتاف.

علقت صور المرشح علىٰ واجهة المدرسة وجدران الفصول، وحصل المدرسون وبعض التلاميذ من الموكب علىٰ صور بهية له، وحزنت لأنني لم أظفر بصورة مثلهم لهذا البطل العظيم في ذلك اليوم المشهود! فلما اصطحبني عمي معه إلىٰ المدينة لشراء بعض الحاجات، وانشغل مع البائع في تعبئة المشتريات والنقاش حول الأسعار، تسللت وخرجت إلىٰ الشارع أمام السوبر ماركت منبهرا بمئات الصور لسعد شلبي عُلقت في كل مكان، وعلىٰ واجهة السوبر ماركت. هَمّ الطفل ذو اليد الرقيقة والقلب الأخضر والأعين اللامعة المنبهرة بكهرباء المدينة؛ بنزع واحدة من هذه الصور ليحتفظ بها، ويعود إلىٰ قريته فيزهو بالصورة وألوانها علىٰ أقران المدرسة في الصباح، ما كان أجمل بدلته وأبهىٰ كارفتته. لكن ساعات الفرح قليلة، وما كل ما يتمنىٰ المرء يدركه!

ما إن هممت بنزع الصورة حتىٰ هجم علىٰ طفل في نفس سني تقريبا كان يمر أمام السوبر ماركت أو يسكن قريبا منه وركلني ركلات شديدة، ما زلت أشعر بألمها حتىٰ الآن كلما تذكرت هذا الموقف الأليم، وسبني سبابا مقذعا، ورماني بأنني من أعداء الحزب الوطني، ومن معارضي الزعيم المرشح العظيم، وأنني أريد تدمير دعايته الانتخابية والعبث بصورته. (كما فعل أبو السعد مع سيد بيه الحنش) آلمني ركله وسبابه، فتركته، وتركت الصورة مدلاة علىٰ الجدار لم يكتمل نزعها! ودخلت السوبر ماركت أكتم دموع الألم، وأخذني الخجل وغلبني حياء عظيم أن أشكو لعمي ما كان من هذا الطفل اللعين وطويت صدري علىٰ مرارة عظيمة. فما كان لابن القرية إلا أن يشعر بالصغار حين يزهو عليه أبناء المدينة؛ وليس له هناك فئة ينصرونه. ولا شك أن هذا الطفل اللعين لم يكن يفهم شيئا في السياسة والانتخابات لكنه سمع أحاديث الناس في الأزقة علىٰ المقاهي المجاورة، وانغرست فيه عصبيتهم الجاهلية، فتكونت عنده ثقافة سياسية، كانت نتيجتها حماسة جاهلة وركلات غبية موجعة. ما أكثر من هم علىٰ شاكلة هذا الصبي في زماننا من المرشحين والناخبين، من الرجال الكبار ذوي الشوارب المنتصبة، والنساء الفضليات البارعات في ترقيص العَجُز أمام اللجان!

لعل علماء النفس إن هم طالعوا هذا الكلام سيجعلونه السر في عزوفي عن السياسة! لهم ما يشاءون! لكنني ما تحمست لمنهج سياسي قط، وما اقتربت من الإخوان قط، وابتعدت عن الدعوة السلفية، وعن كل أصحاب الفكر والتوجهات واتخذت لنفسي منهجًا وطريقة خاصة أسميتها «الطريقة المتولية»، وعمادها أن الإنسان حر أن الإنسان حر في كل ما يصنع ما لم يضر بالناس، ولم تتعارض أفعاله مع الدين والقيم والأعراف!

نجح الدكتور محمد مرسي وتولىٰ الرئاسة، فلم يَرقني كثير من قراراته، واندلعت موجة شديدة من المعارضة، ازدادت حدتها شيئًا فشيئًا، وكشرت عن أنيابها الشرسة الباغية، فرأيت قلبي يذوب شفقةً علىٰ مصر وأهلها وأهلي بها، ووددت لو أن حدة المعارضة المتحاملة تهدأ لتسير الأمور، فكتبت ساعتها منشورًا بعنوان: «لست إخوانيًّا ولا في نيتي أن أكون!» قلت فيه: لم يصادف الفكر الإخواني هوىً في نفسي في يوم من الأيام، ولم أنجذب إليه روحا أو عقلا قط، لأن ليْ نفسا جامحة تأبىٰ الانصياع والقولبة. لكن ذلك لا يمنعني من أن أقول أن الإخوان فصيل سياسي مصري ينبغي أن يعطىٰ فرصته كاملة حتىٰ وإن وجدنا في نفوسنا منه. لا أحرم المعارضة حقها في التعبير والنقد؛ ولكن أرجو ألا يبثوا في أوصال الناس -باسم المعارضة- سموما لا يرجىٰ برؤها وألا يوغروا صدور البسطاء والعامة بحجج وأقاويل تدين الإخوان ولا سبيل إلىٰ إثباتها وإنما هو الظن والتخرص. مصر هي العليا . . والشعب المصري انتفض من سباته ماردا عملاقا لن يقدر عليه أحد إلا الله؛ فلا تقلقوا أيها الأصدقاء! إن أحسن الإخوان فأعينوهم وإلا فقوموهم متىٰ أقمتم عليهم الحجج الواضحة! . . برلين، ١٧ أغسطس ٢٠١٢.

في ظل هذه الهوجة الشديدة في مصر ضد مرسي والإخوان تلقيت عبر الإيميل دعوة من السفير المصري للقاء الرئيس محمد مرسي، جاء فيها:

تتشرف سفارة جمهورية مصر العربية في برلين بدعوة حضراتكم للقاء السيد رئيس الجمهورية د. محمد مرسىٰ مع الجالية المصرية في ألمانيا، المقرر عقده بمقر السفارة المصرية يوم الأربعاء الموافق ٣٠ يناير ٢٠١٣ في تمام الساعة السابعة والنصف مساء، علىٰ أن يكون الحضور في موعد أقصاه الساعة السابعة نظرًا للإجراءات الأمنية

المشددة، مع العلم بضرورة إبراز إثبات الشخصية وبطاقة الدعوة عند الدخول، والتىٰ سيتم إرسالها بعد موافقة حضراتكم علىٰ الحضور. الرجاء سرعة موافاتنا بالرد من حيث إمكانية الحضور من عدمه، وكذا موافاتنا بالعنوان الخاص بكم حتىٰ يتسنىٰ لنا إرسال بطاقة الدعوة في أسرع وقت ممكن.

ملحوظة هامة: هذا الرسالة هىٰ رسالة شخصية يرجىٰ عدم تداولها أو إرسالها نظرًا للإجراءات الأمنية المشددة

السفارة المصرية في برلين

تلقىٰ هذه الدعوة كثير من أصدقائي الشباب والفتيات من طلاب الدكتوراه وغيرهم من المصريين المقيمين في برلين. وكان من بينهم ناقمون علىٰ مرسي أشد النقمة. لا تلفظ ألسنتهم إلا بالسخط وأقذع السباب. تعجبت كيف سيلتقي مرسي بهؤلاء وكيف يكون اللقاء، وكيف سيكون الحوار والأسئلة. وتذكرت كيف أن بعض أساتذة الجامعات كانوا يسافرون إلىٰ الإسكندرية لتدريب الطلاب علىٰ كيفية إلقاء الأسئلة في لقاء الرئيس مبارك بشباب الجامعات من كل عام!!

ذهبت لحضور لقاء الرئيس في السفارة وكان معي صديق طبيب وزوجته وطفلتهما الصغيرة، فلما وصلنا وجدنا مظاهرة صغيرة علىٰ مقربة من السفارة تهتف بسقوط حكم المرشد، وقد انضم إليها عدد كبير من أصدقائي الذين تلقوا الدعوات للقاء الرئيس فمزقوها وآثروا الانضمام إلىٰ المظاهرة. وانتشر أفراد من الشرطة الألمانية حول السفارة. دخلنا إلىٰ القاعة الكبيرة في السفارة في سهولة ويسر ودون تفتيش، غير أنهم أخذوا الكاميرات وأجهزة الهاتف المحمول. فضايقني ذلك لكن لا بأس، فهو لقاء الرئيس!

وصلنا مبكرا، فجلسنا في الصفوف الأمامية، وكان الرئيس قد تأخر قليلا في لقائه الشهير مع ميركل. جلسنا وجلست زوجة صديقنا مع طفلتها في صف متقدم، فجاء إليها المسئولون عن تنظيم اللقاء يطلبون خروجها بالطفلة إلىٰ القاعة الخلفية، بعيدا عن المنصة، لأن الطفلة قد تبكي، وهذا قد يزعج الرئيس ويزعج الحضور. فأصرت الزميلة علىٰ البقاء وأكدت لهم أن الطفلة لن تبكي، ولم تفلح محاولة الطاقم في إثناء الزميلة عن رأيها، فقالت لهم: «لن أخرج بطفلتي، والحكم للريس»! أدهشني الرد،

وتعجبت كيف أن الريس سيحكم في بقاء طفلة أو خروجها، وعددت ذلك من الديموقراطية والسماحة التي لا حد لها!! مع شدة إصرارها وافق طاقم الإعداد علىٰ بقائها، واتفقوا معها علىٰ أن تخرج بسرعة إذا ما بكت الطفلة.

بعد قليل، دعا داع بصوت عال: «السيد رئيس الجمهورية» . . دخل الدكتور محمد مرسي من بين الصفوف الخلفية علىٰ غير عادة الرؤساء، فشق الطريق إلىٰ مقعد رئاسي أعد له، وتحدث حديثا طويلا عن الأزمة التي تمر بها مصر، وعن ظاهرة البلطجة، وعن أزمة محافظات القناة وكانت محتدمة ساعتها. ثم فتح الحوار للأسئلة، فتلقىٰ أسئلة كثيرة، جاء بعضها من معارضين أشداء، بدأ أحدهم بأن سأله متىٰ كانت آخر مرة نزلت فيها إلىٰ ميدان التحرير منذ توليت الحكم؟. وتوقف ينتظر الإجابة، فطلب منه مرسي مواصلة الحديث وإكمال السؤال، فأصر السائل وكان محاميا علىٰ أن يجيب مرسي فلم يرد. فانفعل السائل وقال: «رد عليا، مش عاوز أحس إني قاعد قدام مبارك تاني . . كن رجلا؛ فمصر لا تهوىٰ أنصاف الرجال»!! كانت كلمته عنيفة قاسية!! وزايلتني صورة مبارك! ماذا لو أن أحدهم كان قد وجه له هذا الكلام! ترىٰ ماذا كان سيحدث له؟!. امتص مرسي غضب السائل وقال له إن لي ولدا محاميا مثلك، أحيانا تأخذه مثل هذه الحماسة التي أخذتك، لكني أقبل منك علىٰ كل حال. وتوالت الأسئلة في هذا الاتجاه المعارض الذي رماه بالخنوع والإصرار علىٰ البقاء منضما إلىٰ الجماعة منضويا تحت لوائها، وأنه ليس رئيسا لكل المصريين.

وفي الجهة الأخرىٰ كانت هناك أسئلة تدعمه وتؤيده حتىٰ إن بعضهم شبهه بسيدنا يوسف عليه السلام الذي خرج من السجن ليحكم!

بعد اللقاء صافحت الرئيس مع المصافحين، ثم انتحيت جانبا لشدة الزحام، وكان الرجل مصرا علىٰ مصافحة الجميع حتىٰ إنه مد إلي يده في جمع من الأصدقاء وصافحنا مرة أخرىٰ، ونسي المصافحة الأولىٰ من أثر الزحام!

وغادر السفارة وسط صياح المتظاهرين بالخارج ينادون بسقوط حكم المرشد.

(٢٨)

أمستردام .. والحي الأحمر

يصل الناس في هذه البلاد إلىٰ رأس السنة فتضربهم موجة من الهياج، تضيء الصواريخ علىٰ أثرها سماء الدنيا. ويكاد صوت القنابل يقتلع الأرض من تحت الأقدام . . إنهم يحتفلون بعيد الميلاد!

ضربتني في رأس السنة، وصديقا لي طبيبا بيطريا سكندريا، نوبة ملل وحزن لما يجري في أرض مصر، فرأينا أن نفرج عن أنفسنا بعض ما نحن فيه، بزيارة بعض البلدان في عطلة عيد الميلاد، فكانت الوجهة إلىٰ واحدة من أجمل عواصم أوروبا، بل عواصم الدنيا كلها، العاصمة الهولندية أمستردام. فكرنا في السفر بالطائرة، لكن رجحت كفة القطار، فالمسافة بين برلين وأمستردام ست ساعات فقط، كما أنها تجربة جديدة أن تقطع عرض أروبا بالقطار. توجهنا إلىٰ محطة القطار الرئيسية في برلين، تلك التي حدثتكم عنها من قبل في رحلتي إلىٰ مدينة مونستر الألمانية، وذكرت لكم قصة بنائها علىٰ يد المهندس المصري الشهير هاني عازر. انطلق القطار يعوي في جوف الليل يقطع الطريق إلىٰ أمستردام، جلست وصديقي متجاورين، وفي المقعد المواجه جلس رجل ألماني أربعيني، وبجواره فتاة صينية، تبدو زوجته أو عشيقته، عرفت ذلك من ضم وتقبيل استمر طيلة الطريق فهون كثيرا من طول الرحلة. يضع في فمها قطعا من الشيكولاتة، وتقذف في فمه بعض المسليات. الصينية لم تكن جميلة. الرجل الألماني كان شديد الوسامة. كيف يقبل الرجل أن يتزوج امرأة أقل منه جمالا! يقولون: الجمال نسبي! أي نسبية في الجمال؟ الجميل هو ما أراه أنا جميلا فحسب . . علىٰ كل حال . . هنيئا لها، والرحمة له!

في الطريق من القاهرة إلىٰ كفر الشيخ. جلست مع حبيبها إلىٰ جواري في المقعد

الخلفي من الميكروباص. أسندت رأسها إلىٰ كتفه، يطارحها الغرام علىٰ استحياء. ظل يطعمها ملعقة تلو أخرىٰ من علبة الكشري التي اشتراها من عربة قريبة. الحب والهيام يسيطر علىٰ الأجواء. انطلق الميكروباص. أصابها دوار. أفرغت كل ما أطعمها من الكشري علىٰ ملابسه في تعبير لا إرادي عن رفضها لحبه!

تزداد سرعة القطار يشق الأرض في قوة وعزم. اللوحة الإرشادية تنبئ أن السرعة تجاوزت ٣٠٠ كم/س. حضر مفتش التذاكر. بل كانت مفتشة! امرأة جميلة في زي رسمي ملون جميل، لها غديرة فارعة قوية منسدلة علىٰ ظهرها، تبتسم في رقة، وتنظر إلىٰ التذكرة . . ما سر شغفك بالحديث عن الكمسرية أيها المسكين، ألم تزل تزايلك عذابات قطار دمنهور؟ إن الكفاءة في الزواج تقتضي أن يتزوج الكمسري كمسرية، ماذا لو تزوجت هذه الحسناء الألمانية كمسري قطار دمنهور، ذلك القصير عظيم البطن جاحظ العينين صاحب البدلة الزرقاء التي تشبه زي المساجين، ولا يكف عن تعنيف الركاب، وطلب التذاكر! لا أظنها تصبر علىٰ معاشرته أبدا. ترىٰ كيف تكون هيئة الطفل لو أنها أنجبت منه؟ لله في خلقه شؤون.

بزغت شمس النهار، فأضاءت صفحة الدنيا، ففرح القطار بنورها فزادت سرعته زيادة كبيرة بدت علىٰ اللوحة المواجهة، أخذ القطار يصهل يجوب مروجا خضراء عن اليمين وعن الشمال في الريف الهولندي البديع. إنه أشبه شيء بحقول البرسيم الشاسعة علىٰ جانبي طريق مصر الإسكندية الزراعي في بعض القرىٰ، تلوح فيها علىٰ البعد رءوس الماشية والفلاحين، غير أن الريف الهولندي مليء بطواحين الهواء، لم تزل قائمة هناك في كل مكان، بيضاء اللون منتشرة انتشار أبي قردان في حقول مصر.

هولندا بلد الطواحين، تنتشر الطواحين في شتىٰ المناطق، في القمم العالية، وفي السواحل المنخفضة. الطواحين طويلة رفيعة بيضاء اللون تشبه الأقلام، تتحرك ريشاتها الثلاث النحيفة ببطء إثر هبوب نسمة شمالية من البحر. كانوا يستخدمونها في توليد الكهرباء وطحن الحبوب، وللطواحين في هولندا تاريخ قديم، فقد بُنيت أول طاحونة هوائية لضخ المياه في هولندا منذ ستمائة سنة، ولهذه الذكرىٰ أطلقوا علىٰ عام ٢٠٠٧ عام الطواحين، وهم يستخدمون اليوم هذه الطواحين علىٰ أنها مضخات للرياح

لتجفيف الأراضي لأن البلاد منخفضة تقع تحت مستوىٰ سطح البحر. وينفقون أموالا كثيرة لترميم الطواحين التاريخية القديمة.

وصلنا إلىٰ محطة القطار الرئيسية في أمستردام. لا تختلف كثيرا عن محطات القطار البرلينية في تنظيمها ونظافتها ولوحاتها الإرشادية. نزلنا من القطار فاستقبلتنا المدينة بهواء بارد منعش جميل، وأمطار غزيرة لا قبل لنا بها. لقد ظننت أن أمستردام أخف مطرا من برلين، فلم أحمل الشمسية ضمن متاع الرحلة. شمسية؟! أي شمسة في هذا الوابل من المطر، لو أنصفت لقلت «مطرية»! إن الشمس لا تكاد تشرق في هذه البلاد. دلفت إلىٰ أقرب محل في مواجهة المحطة واشتريت واحدة رسمت عليها قلوب حمراء، وكتب عليها بالإنجليزية (I Love Amsterdam). بسطت وصديقي خرائط كانت معنا للمدينة، حددنا عليها موقع الفندق. يبعد عن محطة القطار عشرين دقيقة سيرا علىٰ الأقدام. كانت فرصة طيبة لتصفح وجه المدينة في شوارعها ومحالها وآثارها والطرز المعمارية فيها. إنها أكثر حياة من برلين، والناس أكثر مرونة في الاستجابة لقواعد المرور. من الممكن هنا أن تكسر الإشارة وتجتاز الطريق، ولا أحد يضجر ولا يكيل لك السباب. بيوت حمراء طوبية زاهية، لم يعلق بها أثر من تراب أو سواد من عوادم السيارات. رأيتها تحت المطر مفعمة بالحياة، كوجه شاب قوي أو فتاة عاشقة تتأبط فتاها. كل شيء هنا ينبض بالحياة!

قطعنا الطريق سيرا .. كان موازيا لقناة طويلة تشبه النيل، غير أن الماء أنقىٰ والطريق أشد نظافة، ثم تركنا القناة وملنا ناحية اليسار لنصل إلىٰ الفندق. تركنا أمتعتنا في الحجرة المزدوجة، ولفت نظري علىٰ أحد حوائطها فوق وسادة سريري لوحة ضخمة لامرأة حارة مستلقية، مغمضة العينين، تفتح فاها شهيا غليظ الشفاه .. نظرت إليها شزرا وقلت لصديقي: كأنها تنتظر قُبلة من شخص لا يجيء!

كان الجوع قد بلغ بنا مبلغا عظيما لطول السفر. سألنا موظف الاستقبال في الفندق عن مطعم قريب. علىٰ بعد خطوات رأينا لافتة لمطعم يشبه مطاعم الأتراك في برلين، يعد وجبات سريعة وساندوتشات شاورمة ونحوها. علىٰ لافتة المحل كتب بخط عربي«حلال». ظنناه تركيا فإذا به محل لرجل مصري. سعدنا ورحبنا به ورحب بنا. سألنا عن أحوالنا وسألناه عن حاله. هو رجل خمسيني كان شابا حضر إلىٰ

أمستردام قبل ثلاثين سنة، عمل أجيرا في المطاعم حتىٰ تيسرت له الحال فغدا اليوم صاحب مطعم كبير، لكنه لم يزل يديره ويعد الطعام بنفسه. لماذا تركت مصر؟. ولماذا أقيم فيها؟ إنني حين فتحت هذا المطعم قبل عشرين عاما، كان دخلي الشهري يعادل مائة ألف جنيه. كانت الحال أفضل مما هي عليه الآن، لقد تبدلت حال الاقتصاد الهولندي كثيرا! لعلك اليوم غني ميسور الحال، واشتريت شقة في مصر؟ ابتسم وقال: شقة؟! لا لا عندي فيلا في الشيخ زايد، أعود إليها في كل عام أسبوعين أدعو أهلي جميعا من المنوفية ونقيم فيها معا. أعندك زوجة وأولاد؟ نعم. وكيف استقدمت زوجتك؟ لم يكن الأمر في الزمن الأول بحاجة إلىٰ كبير عناء، ولم تكن هناك فرصة كبيرة للتحقق من صحة الأوراق، وإن شئت قلت كان الأوروبيون أشد ثقة في المصريين والأجانب بعامة. لقد كنا نصنع كل ما نريد من أوراق ووثائق بأيدينا. تعجبت من كلامه وسألت: وكيف توثقون هذه الأوراق؟ إنها بحاجة إلىٰ أختام وتوقيعات. فزاد ابتسامه وقال: يا سيدي أما التوقيع فكان أمره ميسورا، وأما خاتم النسر المصري الشهير فلم يكن سوىٰ عشرة قروش معدنية، تطلىٰ بسواد أو هباب من أواني المطعم، فتصير خاتم نسر محكما لا شيء فيه.

عاش المصري عاش! إنهم يدهنون الهواء «دوكو» من قديم. انتهينا من تناول الشاورمة. سألنا الرجل عن قيمة الحساب فأبىٰ ابتداء علىٰ عادة المصريين، من باب الذوق والشهامة، فلما أصررنا علىٰ الدفع طلب مبلغا هو ثلاثة أضعاف ما ندفعه في مثل هذا الطعام في برلين. وقد غلبنا الحياء أن نجادله فيه، فلا يليق أن يناقش الحساب بعد طول تعارف وحوار. وقد ألقىٰ حديثه عن تزوير الأوراق الرسمية في نفسي بظلال كثيفة حول الغش في الحساب.

تركنا المطعم وفي نفسي من صاحبه أشياء كثيرة، إن المصريين ما يزالون ينصَبُون وينصُبون! لا بد أن نعود مرة أخرىٰ لاستكشاف المدينة. لا بد أن نعود إلىٰ أكبر ميادينها الذي مررنا عليه في طريقنا إلىٰ الفندق. إنه قريب من محطة القطار. هناك تجد كل شيء. التماثيل العظيمة والنصب التذكارية. والمباني الإدارية الحكومية. والقصر الملكي، وغيرها، ركبنا الترام ثلاث محطات حتىٰ وصلنا إلىٰ Dam Square الساحة الشهيرة في العاصمة الهولندية، كل الطرقات في أمستردام تؤدي بك في النهاية

إلىٰ هذه الساحة، فهي القلب النابض للعاصمة، تضخ الحياة في أوصال المدينة كلها. في هذه الساحة تجد القصر الملكي المهيب، والنصب التذكاري الوطني الهولندي، وهو عمود ضخم من حجر الترفنتين الأبيض ينتصب في جانب من الساحة الواسعة التي تشاهد فيها الحياة الهولندية علىٰ طبيعتها. تنتشر فيها المطاعم والمقاهي، والمحال السياحية، ومنها تستقل الترام أو الأتوبيسات السياحية والمراكب الصغيرة لتطوف في قنوات أمستردام الساحرة.

الغريب أعمىٰ وإن كان بصيرا، ووقت الزيارة قصير، وكان علينا الاستعانة بأحد المكاتب التي تنظم جولات سياحية في البر والبحر لتعيننا علىٰ مشاهدة معالم المدينة. دلفنا إلىٰ مكتب شهير لافتته تقول Hop off Hop on cightseeing Amsterdam. حجزنا تذكرتين تصلحان لاستخدام أتوبيسات الشركة ومراكبها السياحية لمدة أربع وعشرين ساعة، تحسب من ساعة استخدام التذكرة للمرة الأولىٰ.

طال تجوالنا في شوارع المدينة حتىٰ انتهىٰ اليوم الأول، ثم بدأنا الجولة السياحية من صباح الغد، طاف بنا الأتوبيس أرجاء المدينة ونحن نستمع إلىٰ شرح لمعالمها عبر سماعات الأذن، كم كان طريفا أن يكون من بين اللغات المتاحة للإرشاد السياحي اللغة العربية، فالاستماع إلىٰ لغتك الأم ليس فيه كبير عناء! بالقرب من إحدىٰ القنوات المنتشرة في أرجاء المدينة، قال المرشد: لو أنكم نظرتم إلىٰ اليمين سترون أبراج فاج المخروطية إحدىٰ أقدم التحصينات في أمستردام. تقع بالقرب من المكان الذي تمارس فيه أقدم مهنة في العالم، حي أمستردام الأحمر الشهير Red Light District (المنطقة الحمراء) كان من السهل وصول البحارة إليها بحثا عن صحبة امرأة بعد شهور في البحر، ولهذا فإن مكانها قريب من الميناء. وقد غدت مزارا سياحيا يتجول فيه معظم زائري أمستردام.

لفت سمعي في حديث المرشد عبارة «أقدم مهنة في العالم»، ودار بخاطري أنه يقصد مهنة الصيد أو الإبحار أو الملاحة مثلا. فإذا بها مهنة «الدعارة» أو «بيع الهوىٰ» إن شئنا التخفف في العبارة. في هذا الحي الأحمر تقف النساء عرايا خلف الزجاج، وقد امتزج الضوء الأحمر ببياض الأجسام، لقد حاول المرشد السياحي أن يعبر عن أثر هذا المشهد فقال: «إن مرأىٰ نساء الليل خلف الأبواب الزجاجية يمكن أن يحرك

حتىٰ المنهك، ويعتقد البعض أن الغرض من الأبواب الزجاجية هو تسهيل التسوق علىٰ محبي المغامرة غير أنه في الحقيقة لحماية النساء من الجو وبخاصة أثناء الليالي المتجمدة».

إن مرأىٰ النساء العرايا داخل الصناديق الزجاجية تحت الأضواء الباهرة يثير شفقة الرجل قبل شبقه. إذ ما يدفع هؤلاء إلىٰ البغاء. أغلب نساء الليل وراءهن عناء كبير؛ فليس الأمر ترفا محضا ومتعة كبيرة. صُدِمْت بجهلي في أن هذه المهنة، كما يذهب كثير من المؤرخين، هي أقدم مهنة في التاريخ. حيث تقوم البغي بإشباع الرغبات الجنسية لعملائها نظير أجر تتقاضاه، وهو نشاط اقتصادي وتجاري أساسي في البلاد.

وممارسة الدعارة لها قوانين تنظمها في المدينة، وليس الأمر بدعا، فهو متاح ومشروع في كثير من البلاد الأوروبية، ففي ألمانيا تخضع ممارسة الدعارة للقانون، وعلىٰ المومسات استخراج التصاريح، ودفع الضرائب علىٰ الدخل، وضريبة القيمة المضافة (VAT) علىٰ خدماتهن. وليست هولندا بدعا بين الدول الأوروبية في ذلك، فالدعارة مهنة، والبلديات هي المسؤولة عن إصدار التراخيص وإجراء عمليات تفتيش لضمان جودة ظروف العمل. وقد بلغ من احتفاء الهولنديين بهذه الصناعة أن أقاموا تمثالا لعاهرة تكريما للعاملات في هذه المهنة، أقاموه في مواجهة أقدم كنيسة في المدينة، وهو التمثال الوحيد من هذا النوع في هولندا والعالم.

والحق أن لهذه المهنة جذورا بعيدة في التاريخ، ففي شرائع حمورابي هناك خمس مواد تتحدث عن الدعارة. وبعضها يتحدث عن الجنس المقدس حيث كانت هناك نساء يوقفن أجسادهن للمعابد. وفي قبرص في القرن الخامس قبل الميلاد كان يجب علىٰ المرأة أن تقدم نفسها علىٰ الأقل مرة واحدة لأجنبي قرب المعبد قبل أن يُسمح لها بالزواج، وكانت تضطر غير الجميلة إلىٰ البقاء عدة أشهر أو سنوات أو تقوم هي بالدفع للرجل. وقيل إن الإمبراطور البيزنطي جوستنيان (عام ٥٣٤ للميلاد) تسامح مع الدعارة؛ لأن زوجته نفسها كانت بائعة هوىٰ. وخصص قانونا مكونا من ٣٨ مادة لتنظيم الدعارة!

إن حكاية الدعارة في هذه البلاد لا تختلف كثيرا عما كان يجري في الجاهلية قبل الإسلام، فقد كان يطلق عليهن «ذوات الرايات». يضربن رايات حمرا أمام بيوتهن

لجذب العملاء. وفي القرن الثالث عشر للميلاد دافع القديس توماس الإكويني عن الدعارة بحجة أنها شر لا بد منه لمنع الاغتصاب. وجدير بالذكر أن الدعارة لا تختص بالإناث وحدهن، فالذكور كذلك أصبحوا يحاولون إيجاد موطئ قدم لهم في الميدان، لكن زبائن هذه الفئة من طينة مختلفة، فهم فئة من الرجال الذين يميلون إلىٰ أمثالهم جنسيا أو ممن يتشبهون بالنساء، وهم لا يريدون أن يوغروا صدور النساء بمشاركتهن مهنتهن، فيعلنون دائما أنهم خارج المنافسة. ويتألف الزبائن عادة من مزدوجي الجنس والمخنثين فضلا عن أشخاص ثملين إلىٰ درجة لا يفرقون فيها بين رجل وامرأة!

ولا يجدر بنا أن نترك هذا الحديث قبل أن نقول إن الدعارة كانت مهنة معتبرة في مصر، تمارس تحت مظلة القانون ردحا طويلا من الزمن. فقد نظمت مصر في بداية القرن العشرين مهنة الخدمات الجنسية لأسباب صحية، وفي عام ١٩٠٥ صدر قانون عام أجاز البغاء في مناطق بعينها وألزم النساء العاملات بالخدمات الجنسية بإجراء فحص طبي أسبوعي. وأثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر كانت الدعارة مقننة حتىٰ تم إلغاؤها في يوليو ١٩٥٢. ومن الطريف أنه أثناء الحرب العالمية الثانية كانت العاهرات المصريات يرفضن ممارسة الجنس مع جنود الاحتلال بدافع من الواجب الوطني.

أسمع أصوات بعض القراء تتعالى بضرورة الخوض في حديث غيره، وأنا أتفق معهم، فكلنا شرقيون، ولا نحب الخوض في هذه القضايا، فالخوض فيها عندنا من المحرمات! وإن كنا نؤمن جميعا أن مشكلة الجنس من أكبر المشكلات التي تواجه مجتمعنا، لكننا ندفن عند مناقشتها الرأس في الرمال! أو ندفن الوجوه في الوسائد! فتحت شعار القيم الشرقية، والتقاليد، والمحافظة علىٰ الأخلاق يتم قمع هذه المشكلات ويجري استبعادها من دائرة النقاش. نفعل ذلك رغم أن آثار المشكلة تزداد قوة ووضوحا يوما بعد يوم، ويظهر ذلك في تزايد معدلات حوادث التحرش والاغتصاب، ونراه في احتدام النقاش حول ضرورة الحجاب والنقاب. فهاجس الجسد هو المحرك للاغتصاب وهو الدافع إلىٰ النقاب، رغم ما بينهما من تناقض. إن الجنس يلتهم تفكير الشباب، وربما أكل رأس بعض الشيوخ، وذلك في كل المستويات وشرائح المجتمع، فإما أن يدفعهم ذلك إلىٰ الإباحية الأخلاقية المتصاعدة

إلىٰ حد الجريمة الجنسية المباشرة، وإما يلقىٰ بهم في بحر التزمت الأخلاقي المقنع بقناع الدين. وسيظل الجنس في مجتمعنا نوعا من القذارة الممتعة اللذيذة، الضرورية للإنجاب فحسب، وهي صورة فجة تترتب عليها آثار نفسية وعضوية خطيرة، والغريب أنك تجد كثيرا من الناس يُظهرون عدم الاكتراث بالجنس ويزعمون أنهم لا يحفلون به، بينما هم غارقون فيه حتىٰ الآذان وتصطلي أحشاؤهم بناره. إنها حالة من الفصام عصية علىٰ العلاج(١).

أعلم أنني أطنبت في هذه القضية حد الإملال! لكن القلم إذا انطلق في بعض الاتجاهات أجدني أفقد السيطرة عليه لبعض الوقت، ثم ما ألبث أعيده عنوة إلىٰ مجراه.

---

(١) علق الصديق الدكتور أيمن عيسىٰ علىٰ هذه القضية يقول: أختلف معك قليلا في مشكلة الجنس عندنا نحن العرب، نحن نجلد ذاتنا كثيرا لكننا بخيرعلىٰ ما فينا؛ بل أفضل من سائر الأمم؛ عندنا زنا، وشذوذ، وتحرش حقا؛ لكنه لا يبلغ معشار ما هو موجود في الغرب ودعك من مبالغات الإعلام في بلادنا عن الكبت، والتحرش، وهمجية العربي المسلم وحيوانيته. وما يبدو حاليا أنه أزمة ليس سوىٰ مردود لاختلال المنظومة العامة التي يعيش فيها العربي فلا هي منظومة عربية إسلامية تقيه وتكفيه، ولا هي منظومة غربية كاملة تغويه وتغريه وتمنحه ما يحقق له صبوته وتوافقه النفسي المؤقت علىٰ الأقل، وهذا هو ما خلق النظام الشائه الذي نعانيه .. إغواء وإغراء ودغدغة للمشاعر، ومنع وحرمان وكبت تفرضه ظروف اقتصادية مصطنعة. أما في الغرب المتحضر فهناك حرية جنسية كاملة، وحماية قانونية، ورضاء اجتماعي، ووفرة في وسائل الجنس حتىٰ إنك لو عممت وقلت إن ٩٠% من الغربيين زناة وأبناء زنا وشواذ لم تكن مخطئا أو مبالغا لكن في حالة الغرب لن تجد من يحدثك بالأرقام عن أمراض الجنس، ولاعن وضع المرأة التي تمتهن الجنس علىٰ نطاق واسع، ولا عن اختلال مفهوم الأسرة وضياع العلاقات الحميمية فيها، ولا حتىٰ عن مخالفة هذا للفطرة أو الدين، لن تجد من يحدثك عن الإحصائيات المهولة الخاصة بالتحرش بالأطفال -حتىٰ في الكنائس- لن تجد من يحدثك عن التحرش بالمرأة العاملة هناك في مجتمعات المفترض فيها أنها قد بلغت قمة الرقي والتحضر وهجرت التخلف إلىٰ غير رجعة بل شبعت جنسيا إلىٰ غاية لا تدرك، وبالمناسبة ثلث نساء أوروبا يتعرضن للتحرش وأعلىٰ نسبة في العالم موجودة في هولندا، وهولندا من أجمل بلاد العالم ولا يوجد بها فقر، وهي من أشهر البلدان في تجارة الجنس .. هذه الهولندا تقترب نسبة التحرش فيها بالمرأة العاملة من ٦٠ بالمئة بالنسبة لأوروبا. كم زان وشاذ ومتحرش في مصر؟ هل يبلغون مليونا مثلا؟ فماذا عن الثمانين الباقين؟ لا يوجد قانون أو تشريع في الدنيا يستطيع أن يمنع هذه الأمور حتىٰ الإسلام نفسه فهو إنما جاء ليحد من هذه الأمور وإن حدث منها شيء فلا ينبغي أن يكون معلنا حتىٰ يكون الضرر واقعا علىٰ الأفراد لا علىٰ المجتمع.

ساقتنا أقدامنا إلىٰ الحي الأحمر الشهير في قلب العاصمة .. نوافذ كثيرة تشع ضوءا أحمر علىٰ أجسام شبه العاريات يحاولن إغراء المارة، ويشرن إليهم بالدخول! طرقني مشهد من رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ، يصف بطلة الرواية «حميدة» الشابة الجامحة، في اعتراضها علىٰ اقتراح أمها بأن تزوجها بالشيخ درويش، الكهل العجوز، نظرت حميدة إلىٰ المرآة ورقصت لها عجيزتها وقالت يا خسارتك يا حميدة. ترىٰ هل زار نجيب محفوظ الحي الأحمر؟ إنه حي ترقيص العجائز! إذا جاء ترقيص العَجُز في زقاق المدق رفضا للتزوج بالكهل درويش، فإن ترقيص العجز في الحي الأحمر إنما هو لجذب الدراويش الذين يمرون سكارىٰ أمام الحوانيت والأبواب الزجاجية ومن خلفها العاهرات. مشاهد تسبي الحليم فلا يستعصم!.

رأيت شابا يصحب فتاته ويتجولون في الحي ينظرون إلىٰ البغايا، تخيلته للحظة شابا مصريا وضع يده علىٰ عيني حبيبته ليمنع عينيها من رؤية المشهد المشين، غير أن هذا الشاب خيب ظني وأشار للبغي فخرجت إليه وفتحت الباب، واصطحبته ومحبوبته إلىٰ الداخل، فتحت لهما البغي الباب وهي تحدث بأعضاء جسدها حركات لا يقدر القلم علىٰ وصفها، وليس صنع حميدة في الزقاق منها ببعيد، تواروا داخل البيت، ولا أدري بعد ذلك ماذا يصنعون! لعلي أحدس وتحدسون، لكن بعض الظن إثم وكثير منه صواب كبير.

ترىٰ هل يقوم هؤلاء العاهرات بتلك المهنة رغبة في المتعة والحياة، أم أن وراء كل منهن حكاية من الألم والفقر والمعاناة. فأغلب هؤلاء البغايا قدمن من بلاد شرق أوربا الفقيرة، ليأكلن بأثديتهن. أغلب ظني أن الأمر لا يختلف كثيرا عن الدعارة في مصر. هل نعد شارع الهرم هو الحي الأحمر في مصر؟ لا أدري ولا يمكنني أن أقطع بذلك، فالراجح أن الأمر عندنا لم يصل إلىٰ هذا الحد. فعهدىٰ بالدعارة مشاهدة أفلام إحسان عبد القدوس وقراءة رواياته، ويوسف السباعي في «نحن لا نزرع الشوك» وما فيها من كشف لكيفية اصطياد النساء. إن الدعارة في أغلب الأحوال فقر وحرمان أجج سورته انعدام الخلق. لقد قالت العرب: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»، وقد كانوا يقصدون الرضاع، لكن الحرة اليوم تأكل بثدييها وردفيها وفخذيها .. جاعت أو شبعت!

هل يشبه حي أمسترادام الأحمر الأحياء الفقيرة في القاهرة والجيزة؟ رحماك يا رب بالعباد! شتان هما! إنني أحاول كبح جماح القلم، لكنه يأبىٰ إلا أن يبوح! سأتركه يبوح، سأرخي له العنان، ففي البوح روح!

كنت أقمت مدة قصيرة بعد التخرج مع بعض الأصدقاء السلفيين في شقة في الطابق الأخير من بناية قديمة في بين السرايات بالدقي. وكان الأصدقاء أحرص الناس علىٰ الصلاة شأن ملتزمي السلفية، وكنت أقل منهم حرصا عليها؛ لطول سهر أو كسل يحول أحيانا دون صلاة الفجر في المسجد. صلىٰ الشيوخ الفجر وعادوا، فصعد أحدهم إلىٰ سطح البناية يأكل الزبادي ويتلو الأذكار ففطن إلىٰ صوت أنين يصدر من حجرة مهجورة، فنظر فإذا ثلاثة شبان يجتمعون علىٰ امرأة، فطنوا إليه فقفز اثنان إلىٰ سطح البناية المجاورة، ووقف الثالث يجمع عليه ثيابه، ويعتذر للشيخ وقد خفق قلبه وأرهبته كثافة اللحية، وقال: «لا مواخذة يا عم الشيخ»؛ ففطن الشيخ إلىٰ الواقعة التي تجري فثارت ثورته حماية للشرف والدين؛ فرفع ساقا خشبية غليظة تمتلئ بها أسطح المنازل في بلادنا ضمن ما تجمعه من مخلفات قديمة تؤذي الناظرين. رشقه الشيخ بالخشبة فألحقه بزميليه، ووقفت الفتاة مرتعدة الفرائص تبكي تسترحم الشيخ ألا يلحق بها السوء، وأقسمت أنها لا يد لها فيما يجري؛ وأنهم اصطحبوها إلىٰ السطح عَنْوة؛ فرقّ لها قلب الشيخ رغم كذبها الظاهر، واهتز جنانه وتركها تنزل نزول الكرام علىٰ سلم البناية، فإهانة المرأة لا تجوز، ولا أدري أتركها الشيخ رحمة بها أم شبقا وشوقا إليها.

لما كان الصباح؛ أخطرني الشيخ بهذا الذي حكيته لكم، فصعدنا جميعا إلىٰ السطح، يدفعنا الفضول، لمعاينة مسرح الجريمة ورفع البصمات، لشد ما سخرنا من أنفسنا ونحن نصنع صنيع رجال المباحث. قاتلك الله يا شيخ منصور، لقد أفزعتها! لا سامحك الله! أي قلب هذا الذي بين جنبيك! لقد ارتعدت الفتاة فذهلت عن كل شيء؛ حتىٰ لقد نسيت القطعة السفلىٰ من ملابسها الداخلية ملقاة علىٰ أرض المعركة ممتزجة بالتراب في أرض الحجرة. ثوب أسود قديم بال، عرفنا ذلك من خيط أبيض أعمل فيه بكثافة ليرأب صدعه ويداوي شقوقه. أيرقع الثوب الداخلي في بلادنا؟ هل يحل لك أن تصف مرقعة الثوب بالعاهرة؟ أي لذة تجدها مثل هذه مع ثلاثة رجال في

جوف الليل في سطح بناية قديمة، إلا أن يكون الفقر قد عضها، واجتمعت عليها عاديات الزمن. حتىٰ رق دينها وذهبت أخلاقها! لاشك لها أم مريضة وأب قعيد، وإخوة في المدارس يقتاتون جميعا من عرق الحرة التي تأكل بثدييها.

قاتل الله الحي الأحمر .. ونكس بيوت الدعارة ودمر القائمين عليها. إن الدعارة لم تعد في الجنس وحده في البيوت المغلقة، لقد أصبحت كل البلاد بيوتا للدعارة، إن بلدا تضطر فيه المرأة إلىٰ المتاجرة بجسدها هو بلد داعر؛ دعارة في السياسة، دعارة في الدين، ودعارة في الأخلاق.

هيا بنا نخرج من هذا الحي الأحمر، لنرىٰ المصانع والمزارع والمتاحف والمطاعم .. وغرز الحشيش.

(٢٩)

الحي اليهودي .. وشرب الحشيش

أمستردام مدينة حرة. وحريتها بلا قيود. لا أحب أن أضرب اليوم علىٰ الوتر الذي ضربت عليه في الحلقة الماضية. لأنني أزعم أن الرسالة قد وصلت! لكنني اليوم أضرب علىٰ وتر جديد. وأنتم تعلمون أنني أحسن العزف علىٰ كل الآلات الوترية منها والنفخية. فتصدر أصواتا متناغمة مرة ومتنافرة مرات، لكنها في كل حين تعبر عما يعتمل في هذه النفس الشقية. انطلقت الحافلة السياحية تجوب بنا شوارع المدينة الجميلة. الحافلة جميلة نظيفة جديدة كأتوبيسات السياحة في بلادنا.

لماذا يركب السياح في بلادنا حافلات جديدة مكيفة حسنة الطلاء، ونركب نحن أتوبيسات مزدحمة مهشمة يأكلها الصدأ؟!

ألا يعد هذا من العنصرية البغيضة. صحيح أن السياح يدفعون أموالا كثيرة، ونحن ندفع قروشا قليلة، لكننا بشر، والإنسانية وحقوق الإنسان يقتضيان المساواة في كل شيء. إن الحافلات في الغرب لا فرق فيها بين غني وفقير. أما نحن فلا! حتىٰ إن الفقير في مصر إذا ما سنحت له الفرصة بركوب حافلة سياحية، فإنه لا يعامل فيها معاملة السائحين؛ لأنه مصري! سيظل المصري يضرب بكرباج الباشا إلىٰ يوم يبعثون.

كنت طالبا في الثانوية حين أقامت المحافظة رحلة إلىٰ الأقصر وأسوان، فيها من كل مدرسة طالب واحد، ولما كانت قيمة الاشتراك زهيدة، وأجفل الطلاب جميعا من المشاركة لبعد هذه البلاد، ولن يصحب المشارك الأصدقاء والأصحاب، كنت الجسور الفاتك اللهج، وفزت بلذة الرحلة رغم المعاناة. في التنقل داخل الأقصر وأسوان استعانت هيئة الإشراف علىٰ الرحلة بحافلة سياحية فاخرة، ويبدو أن كل

الحافلات هناك كذلك. كان الحر شديدا، وكانت سعادتنا بركوب الحافلة المكيفة أشد من الاستمتاع بالرحلة ومشاهدة الآثار ذاتها، فلم يتسنىٰ لنا ركوب حافلة كهذه من قبل. إن أفضل سيارة أجرة ركبتها في قريتي هي سيارة الحاج عبد العليم، عربة عتيقة كتلك التي تقوم بدور البطولة في الأفلام القديمة زمن الباشوات، لكنها اليوم صدئة متهالكة، يختار السائق الركاب بعناية، أربعة في المقعد الأمامي معهم طفل صغير، وثلاثة في المقعد الخلفي، أحدهم قصير بلا كرش، تمتلئ العربة بسبعة أو ثمانية من الركاب غير أن الحاج عبد العليم لا يقنع بالأجرة، ويطلب المزيد من الركاب، فيقف ستة آخرون خارج السيارة، ثلاثة في كل جانب متقابلين، تتشابك أيديهم فوق السقف حتىٰ لا يسقط أحد منهم عند ارتطام العربة في المطبات القاسية، وإذا ما أسرع عبد العليم بسيارته وهي لا تكاد تسرع إلا قليلا، تتطاير أغطية رءوس الفلاحين و«تلافيعهم»، وتمتلئ جلابيبهم الواسعة بالهواء.

تتنقل بنا الحافلة الساحرة في الأقصر. الحر شديد. ينبعث من ثقب في سقف الحافلة فوق كل مقعد هواء رطب منعش جميل، تمتد إليها أيادينا وتشرئب رءوسنا رغما عنا مبتهجين نطلب الزيادة من الهواء البارد. اقتربت بعض الأيادي الصغيرة من الثقب المسحور العجيب تحاول توجيه الهواء إلىٰ الوجوه دون غيرها، ليعظم الأثر، وتبتهج النفس ببرودة الهواء. لكننا لسنا من السائحين، وإذا لم تكن سائحا فأنت مواطن مصري بائس فقير، لا يحل لك العبث بهذه التقنيات الحديثة ولا يجوز لك الاستمتاع بها، حتىٰ لا تفسدها. يبدو أننا أطلنا اللعب بالثقوب، فلحظ سائق الحافلة ذلك وهمس في أذن مشرف الرحلة أن يأمرنا بالكف عن العبث في التكييف. فوجدها المشرف فرصة سانحة لبسط سلطته، فكال لنا السباب، ونعتنا بالبقر والحمير والجرذان، وأننا لا يليق بنا سوىٰ سيارات النقل التي تحمل البهائم إلىٰ الأسواق!

إننا اليوم في حافلة أمستردام، فلنطرد عنا ذكر حافلة الأقصر وخيالاتها العجيبة. علىٰ مقربة من حافة النهر ظهرت عدة سفن قديمة مختلفة الأشكال. وظهر مبنىٰ أخضر علىٰ شكل هيكل سفينة، يسمونه «نيمو» وهو أحد أكبر مراكز العلم والتكنولوجيا في البلاد، لكن ارتياده ليس مقصورا علىٰ العلماء والباحثين، فهو يغري الجميع بمعارضه وتجاربه الجذابة، فيجعل العلم محببا للجميع ممن يدرس الفضاء إلىٰ من يطير طائرة

ورقية. ولا يمكن مقارنته بمعامل الكيمياء في مدارسنا الإعدادية، ولا بمعمل والد عصفور في فيلم «سر طاقية الإخفاء». لا أدري لماذا يقترن ذكر المعامل في بلادنا بالانفجار.

مالت الحافلة إلىٰ اليسار فأطلعتنا علىٰ البوابة القديمة للمدينة، تلك التي انطلقت منها مسيرة نابليون بونابرت الحافلة التي شق بها صفوف الهولنديين. كم هو عجيب نابليون بونابرت، لقد غزا العالم، ضم بلجيكا وهولندا وإيطاليا وإسبانيا ووسط أوروبا إلىٰ فرنسا، بل إنه فكر في غزو روسيا، وضرب الشرق حتىٰ وصل إلىٰ مصر. إننا كنا نثمل في دراسة التاريخ الإسلامي لتلك الفتوحات والغزوات والبطولات التي حققها المسلمون شرقا من بلاد فارس وغربا حتىٰ بلاد الأندلس. ترىٰ ماذا دفع نابليون هذا القائد العظيم إلىٰ كل هذه البطولات. لقد أذعنت له الدنيا، حتىٰ إنه تطلع إلىٰ السماء يوما ليفتحها، وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء الفرنسيين في بيتين شهيرين ترجمهما خليل مطران ترجمة بلغت الغاية في الحسن والإتقان يقول:

قَـالُـوا لِـنَـابُـلْـيُـونَ ذَاتَ عَـشِـيَّـةٍ إِذْ كَانَ يَرْقُبُ فِي السَّمَاءِ الأَنْجُمَا
هَـلْ بَعْدَ فَتْـحِ الأَرْضِ مِـنْ أُمْنِيَّةٍ فَأَجَابَ أَنْظُرُ كَيْفَ أَفْتَتِحُ السَّمَا

إن كل ما يعرفه العقل الجمعي المصري عن نابليون أنه أرسل إلىٰ مصر حملة فرنسية، فكت خلالها رموز حجر رشيد علىٰ يد العالم الأثري شامبليون، كما أنه وقع علىٰ الأطباق التي كسرها عادل إمام في مسرحية «الواد سيد الشغال»! إننىٰ أعرف للمرة الأولىٰ أن نابليون اقتحم هولندا، وغير عاصمتها من «لاهاي» إلىٰ «أمستردام»، ليشق بذلك الصفوف الهولندية، لماذا لا ندرس تاريخ نابليون لنأخذ منه العبر؟ العبر! أي عبر تريد أن تأخذها من تاريخ نابليون؟ وهل أخذنا العبر من تاريخنا حتىٰ نعتبر بتاريخ الأمم الأخري، إننا نعيد تاريخنا عن عمد ولا نتعلم منه أبدا، نبدأ الطريق الوعر ونحن نعلم نهايته المظلمة ولا نبالي، ثم نمضي فيه! حتىٰ نحقق الفشل الذريع ثم نكرر في زهو عظيم عبارتنا الخالدة «إن التاريخ يعيد نفسه»!

انطلقت الحافلة الجميلة ذات المقاعد الوثيرة والنوافذ النظيفة، حتىٰ دخلت بنا الحي اليهودي، كل الناس في المقاعد، لا أحد يقف في الممر، ولا أحد يقف علىٰ الحافة يملأ الهواء جلبابه كركاب عربة الحاج عبد العليم، سماعة الإرشاد السياحي

مثبتة في الأذنين، قال المرشد: «أمستردام مدينة الهدوء والسلام، والتسامح الديني من التقاليد الهولندية التي ألهمت الآلاف من اليهود فاستقروا بها من قديم، غير أن الحروب وجيوش الاحتلال لا تبقي علىٰ شيء. فقد هلك القسم الأعظم من اليهود في أمستردام في الحرب العالمية الثانية، حيث كان ربع سكان المدينة من اليهود». هل حقا هلك اليهود في الحرب؟ وما مدىٰ صحة كل هذه الأساطير حول معاناتهم؟ هل أعمل فيهم القتل وحدهم؟ إن القتل أصاب الجميع، اليهود والمسيحين والعرب والمسلمين، لقد رأيت أسماء مصرية في قوائم المحروقين الهتلرية! لقد أحرق هتلر الجميع، لقد كان الرجل يريد مجتمعا صحيحا خاليا من الآفات والأمراض، لقد كان يحرق الأبكم والأعرج والأبرص والأعمىٰ والكسيح والأحول! فلا حاجة للمجتمع بمثل هؤلاء المرضىٰ! لماذا نقصر القول بالحرق علىٰ اليهود وحدهم؟!

يبدو أن هذا النمط من التعامل مع البشر قديم، فقد قرأت فقرات لبعض الفلاسفة في كتاب قديم، لم أتبين عنوانه، ويبدو أن هتلر قرأه وبنىٰ عليه نظريته، حين أعمل سيفه في الرقاب، يروي الكتاب قصة مدينة أعجب ما يستوقف النظر فيها المحاكم. فقد كانوا يحاسبون المرء فيها علىٰ سوء حظه حسابا يختلف يسرا وعسرا باختلاف درجة سوء الحظ الذي أصابه. لقد حاكم القاضي رجلا ماتت زوجته وخلفت له ثلاثة أطفال صغار، وعلل حكمه عليه بالسجن، أن أحد قوانين الأخلاق في هذه المدينة أن يُحْتَرَمَ الإنسان بمقدار ما يواتيه حظه، علىٰ أن الدولة لا تبيح لفرد أن يبلغ من سوء الحظ حدا مسرفا غير معقول. قال القاضي للمتهم: إن موت زوجك حظ بالغ السوء، والطبيعة من شأنها أن تقرن مثل هذا الحظ الأنكد بأشد الجزاء، ويجب أن يُسَنَّ القانون البشري علىٰ نسق القوانين الطبيعية. لكن القاضي كان رحيما فخفف عليه الحكم بأن سجنه ستة أشهر لأنه كان يحسن رعاية زوجته.

ثم حوكم رجل أصيب بالسل الرئوي، فدافع عن نفسه بأنه ورث ذلك المرض عن أبيه، وبأنه أصيب بحادثة مروعة في طفولته أضعفت بنيته، ولكن القاضي أجاب في حدة بأنه لن يُلْقِيَ بالا إلىٰ هذه الأعذار السخيفة الواهية الباطلة، وأنه يأسف أن يرىٰ شابا في الثالثة والعشرين يتقدم إليه متهما بهذه الجريمة النكراء الشنعاء، وأنه لولا أن الدولة ألغت عقوبة الإعدام لقضي عليه بها. ثم قضىٰ عليه بأن يُسجن وأن يُكَلَّف

بالعمل الشاق طوال حياته. فتلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع انتشار الضعف والمرض والعاهات. أن يحاكم الناس من أجل حظهم المنكود وأن يجازوا خيرا لطالعهم السعيد؛ تلك هي حالة الإنسان الطبيعية، ومن الحمق أن تعترض بقولك إن الإنسان ليس مسئولا عن سوء حظه. فما ذنب الحمل ترعاه وتكلؤه لتذبحه وتأكله؟ ذنبه سوء حظه الذي جعله شيئا يأكله الإنسان. إننا نقتل الثعبان لا لشيء، إلا لأنه ثعبان يعرض حياتنا للخطر، وكل جريمته أنه لم يكن حيوانا مأمون العواقب. نحن نقتله ولا نرىٰ في قتله إجراما وإن كنا قد نعطف عليه. ولقد يعترض معترض بأن القانون ظالم إن هو حاسب المرضىٰ بمرضهم، لأن المرض نتيجة لأسباب فوق طاقتهم، خارجة عن إرادتهم. هذا صحيح .. ولكن المريض بالسل مثلا كالفاكهة المعطوبة، ليست مسئولة عن عطبها، ومع ذلك فلا نتردد في قذفها ليسلم الباقي! ما كان أعجب هذه الفلسفة التي طرقتني، ولا أذكر أين قرأتها!

جزاها الله من أمّ إذا ما أنجبت تئد
تغذّي الجسم بالجسم وتأكل لحم ما تلد

دفعت هذه الخواطر عن ذهني، وكانت الحافلة انطلقت في شارع «آن فرانك» في الحي اليهودي، واسم الشارع يحمل ظلالا كثيفة قاتمة. ذلك أن «آن فرانك» التي أطلق اسمها علىٰ هذا الشارع، ليست إلا فتاة يهودية ألمانية الأصل، تقول الأسطورة إنها كانت ضحية للحرب الألمانية النازية علىٰ هولندا، وقد سجلت آن مذكراتها في تلك الحقبة، فخلدت ذكرها.

ولدت آن فرانك في فرانكفورت عام ١٩٢٩. ثم هربت عائلتها إلىٰ أمستردام في صيف ١٩٣٣حين فاز الحزب النازي في الانتخابات وتولىٰ هتلر السلطة، وبدأ سياسة إجبار اليهود علىٰ الخروج من البلاد.

هاجرت عائلة فرانك إلىٰ هولندا، ووجدت منزلا في ريفيرينبيرت (Rivierenbuurt) في أمستردام، حيث ارتادت آن المدرسة هناك وتعلّمت الهولندية. غير أن النازيين لم يكتفوا بطرد اليهود من ألمانيا، وإنما داهموا هولندا عام ١٩٤٠، وازداد اضطهادهم لليهود من السكان، واتخذت السلطات الألمانية إجراءات تهدف إلىٰ عزل اليهود عن بقية المجتمع الهولندي. لقد كانت لحظة مأساوية في حياة آن عندما اضطرت إلىٰ وداع

زملائها التلاميذ ومعلمها بسبب نقلها قسرا إلىٰ مدرسة يهودية. وأُجبر اليهود علىٰ ارتداء نجمة داود لكي يسهل تمييزهم بين الناس علنا. وعلقت لافتات في دور السينما والمقاهي والمسارح: «ممنوع دخول اليهود».

اختبأت أسرة آن في يوليو ١٩٤٢ مع أربع عائلات يهودية أخرىٰ في أحد المنازل في أمستردام. وبعد عامين تعرضت المجموعة للخيانة، حيث وشىٰ بهم بعض الجواسيس، وتاريخ الوشاية مقترن بتاريخ الظلم من قديم، فتم نقلهم إلىٰ معسكرات الاعتقال النازية. وبعد سبعة أشهر من إلقاء القبض عليها، ماتت آن في معسكر الاعتقال «بيرغن بيلسن» عام ١٩٤٥، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، ومات أهلها جميعا، ولم ينج سوىٰ والدها الذي عاد بعد انتهاء الاحتلال إلىٰ المخبأ القديم ليجد أن اليوميات التي خطتها ابنته خلال الاعتقال قد تم حفظها في صندوق سري بالمكان. اليوميات تروي قصة حياة آن في المخبأ من ١٢ يونيو ١٩٤٢ حتىٰ ١ أغسطس ١٩٤٤. قام الوالد بنشر يوميات ابنته فكان سببا في تخليد ذكرها: (آن فرانك: يوميات فتاة شابة). أصبحت هذه اليوميات من أكثر الكتب قراءة في العالم، وكانت أساسا للعديد من المسرحيات والأفلام، وقد كانت آن فرانك رغم حداثة سنها معروفة بإتقان فن الكتابة، حتىٰ إن هذه اليوميات صارت كتابا ذائع الصيت عالمي الشهرة، مثل كتاب «يوميات درعمي في بلاد الفرنجة»! . ثم أصبح ذلك البيت الذي اختبأت فيه آن متحفا ومزارا سياحيا شهيرا في أمستردام.

لك الله يا آن! لقد فارقت الحياة، وغدا المكان الذي شهدعذابها وشقاءها متنزها ومستراحا لنا! أية متعة تجدها في مشاهدة هذا البيت وتلك الحجرات التي اختبأت فيها آن. انظروا إلىٰ هذا الركن من تلك الحجرة الشرقية . . . لقد كانت تتكور هنا في هدأة الليل، تحبس أنفاسها حتىٰ لا يعلم بوجودها أحد، فيقبض عليها. إن تكورها هنا فَزِعَةً، ينقل إلينا صورة طفل تكور هناك خلف أبيه يحتمي به من رصاصات الغدر. آن كانت طفلة ففتك بها النازيون، ومحمد الدرة كان طفلا ففتك به بنو صهيون، كلاهما نفس بريئة، رزحت تحت قسوة نفوس مجرمة، لا تعرف الرحمة ولا العدل. إذا كان اليهود -كما يزعمون- قد تجرعوا كئوسا مرة علىٰ يد النازية القتلة، فلماذا يذيقونها اليوم غيرهم وهم يدركون مرارتها؟ أهىٰ شهوة الانتقام؟ أي قلوب هذه التي

بين الجوانح؟ تالله إنها قلوب كالحجارة أو هي أشد قسوة . . ما أقسىٰ هذا العالم الكئيب! أخشىٰ أن يضطرنا هذا العالم جميعا في النهاية إلىٰ أن نكون «سعيد مهران» بطل «اللص والكلاب» . . كلنا سعيد مهران، كل منا سيشتعل غضبا، سيطلق النار في ذهول، سينصب الرصاص كالمطر . . كل يصرخ في جنون: «يا كلاب»، ويواصل إطلاق النار في جميع الجهات!

لسعة هواء بارد وقطرات من رذاذ المطر تصلني من نافذة الحافلة السياحية التي تواصل السير في شارع «آن فرانك» في الحي اليهودي العتيق الذي أنشأه اليهود الذين فروا من بلجيكا قبل ٤٠٠ سنة، وقد كان أغلبهم من قاطعي الماس المهرة، فغيروا وجه هذا الحي وجعلوه من أشهر مناطق قطع الماس في الدنيا، ليرسوا بذلك لبنة التاريخ التليد لأمستردام في صقل الماس. ولا أدل علىٰ ذلك من أن الماسة المركزية في التاج الملكي البريطاني قد تم قصها وصقلها في هذا الحي. قمنا بجولة داخل مركز غسان لصقل الماس، فشرحوا لنا كيفية تحول ماسة خام غير مصقولة إلىٰ جوهرة جميلة لا تقدر بثمن. وزرنا متجر غسان للجواهر، حيث تباع الحلي بأقل سعر ممكن، لأنها تشترىٰ من المتجر بلا تكاليف إضافية! كم كانت تلك العبارة من المرشد السياحي مثيرة للسخرية . . ماس بأقل سعر ممكن!! ما أروع الماس، وما أجمل الأيدي الصانعة تلك التي تبذل جهدا كبيرا بحرفية عالية حتىٰ يتحول حجر بسيط إلىٰ أفضل صديق للمرأة، وأفرغ شيء لجيب زوجها!

لقد سرق «مستر إكس» في فيلم (أخطر رجل في العالم) جوهرة المهراجا الهندي حين زار مصر، ألا يمكنه سرقة الماس من مركز غسان الشهير؟ إن احتياطات الأمن شديدة، وطريقة نقل الماس بين الطوابق مبتكرة. فلا أحد يحمل الماس في يده ويصعد السلم أو يسير في الطرقات، وإنما ينتقل عبر أنابيب ممتدة في كل أرجاء المكان، ولكل مكتب رقم سري، تدخل الرقم وتلقي بالماس ملفوفا في لفافات خاصة في الأنبوبة فيستقبله الموظف المقصود. لا مجال لمستر إكس أن يجد فرصة للعمل في هذا المكان.

مركز غسان للماس! من أين جاءوا بهذا الاسم؟! هل كان غسان هذا عربيا؟ ما علاقته بقبيلة الغساسنة العربية القديمة؟! سألت المرشدة التي صحبتنا في جولة في

المركز عن ذلك كله فلم تصل في ذلك إلىٰ شيء! فالتزمت الصمت، وطردت الفضول، الذي يدفعني إلىٰ البحث عن الأصول العربية لكل شيء في هذه البلاد!!

بعد جولة داخل مركز غسان لصقل الماس واصلت الحافلة طريقها تجوب أرجاء المدينة. المدينة مليئة بقنوات المياه الرقراقة متقنة الجسور، شهية الشواطئ، ظالمة الحسن! فيها عدد كبير من المراكب، لكنها لا تستخدم للصيد، وإنما تتخذ منازل للإقامة. في قنوات أمستردام حوالي ٢٥٠٠ مركب، تتوافر فيها جميعا وسائل الحياة الحديثة من الكهرباء والغاز، ومعظمها ملكية خاصة، وتتأرجح أسعارها مع أسعار سوق العقار. صحيح أنها قوارب حقيقية؛ لكنها نادرا ما تتحرك. تمنح لها التصاريح بالمكوث في مكان محدد لا تبرحه، وتخضع للوائح وقوانين صارمة تحد من حركتها، ولهذه البيوت العائمة شعبية كبيرة بين الفنانين والرسامين، وتظهر فيها الروح الخلاقة لمالكيها، في تصميمها وزخارفها وديكورها. لقد حدثنا المرشد السياحي عن جمال هذه البيوت العائمة وروعتها ولم يذكر لنا شيئا عن طريقة الصرف الصحي فيها، ليته أخبرنا بذلك لنفيد بها في فنادقنا العائمة علىٰ صفحة نيل القاهرة. وإن كنت أخشىٰ أن المراكب الهولندية تتبع طريقة الصرف المصرية ذاتها.

عبرت الحافلة نهر (أمستل Amstel)، النهر تقوم علىٰ ضفتيه أمستردام، وكان ميلادها بسبب منه. فقد نشأت نتيجة لبناء سد "Dam" فوق هذا النهر منذ ثمانية قرون، وقد كان هذا السد علىٰ نهر أمستل هو منشأ اسم (أمستل دام)، الذي تحول في وقت لاحق إلىٰ أمستردام، ولا يزال السد الأصلي قائما ويعرف اليوم باسم ساحة دام. لقد قال أبو التاريخ هيرودت إن مصر هبة النيل، لأنه سر الحياة فيها، وأغلب الظن أنه لو ظل حيا وزار أمستردام لقال القولة نفسها: «أمستردام هبة أمستل».

وأنت في عرض النهر تلمح عدة كباري تركب علىٰ ظهره تصل بين الضفتين، كتلك الكباري المتعددة التي علىٰ ظهر نيل القاهرة، أنعمت النظر فلم أر طفلا واحدا متشردا تحت أي منها «يضرب كولة»، وإنما لمحت أحد الكباري غريب في مظهره، هو جسر أبيض فوق النهر يسمونه سكيني بريدج Skinny Bridge، الجسر النحيل الشهير، وسمي النحيل لأن قسمه الأوسط مكون من جذع واحد دقيق، وتقول الأسطورة إن مواد البناء كانت أوشكت علىٰ النفاد، واضطر البناءون لإتمام العمل بما تبقىٰ منها.

تعبر النهر فتجد في الجهة الأخرىٰ مبنىً عظيما كتب عليه باللون الأحمر هينيكن Heineken، وهي شركة هولندية لصناعة الجعة، تعد من أشهر شركة لصنع الجعة في أوروبا وفي العالم، تأسست هذه الشركة في سنة ١٨٧٣، وأخذت اسم مؤسسها جيرارد أدريان هينيكن. وقد ازداد صيت هذه الشركة بعد أن أصبحت الراعي لدوري أبطال أوروبا. إنه مبنىً كبير يشبه مقر مجلة الرسالة المواجه لجامعة القاهرة في «بين السرايات» بالدقي. فبعد أن كانت عقول المصريين تثمل بخمر لغة الزيات وروعة كُتّاب الرسالة، اتخذ المكان مقرا لصناعة الجعة، لتثمل عقول المصريين بنوع من الخمر جديد.

وإذا كان في أمستردام أشهر مصنع للجعة في العالم، فلا غرو أن ترىٰ فيها أعجب الحانات في الدنيا كلها، حانة أيس بار Ice Bar، وهي أكثر معالم أمستردام برودة، فلا تتجاوز درجة الحرارة فيها عشر درجات مئوية تحت الصفر علىٰ مدار العام. كل شيء داخل هذه الحانة مصنوع من الجليد، المقاعد والمناضد والمنحوتات، وحتىٰ الكؤوس التي تُصَب فيها المشروبات المجانية كلها مصنوعة من الجليد، إنها تجربة قطبية عجيبة يمكن معايشتها طوال العام مهما كانت درجة الحرارة في الخارج.

وإذا كانت أمستردام صاحبة الحي الأحمر وأشهر حانات الدنيا فلا عجب أن تشتهر بكثرة المقاهي، لكنها ليست لاحتساء القهوة فحسب، وإنما تباع فيها الماريجوانا وتدخن بحرية تامة، وكثير من السائحين وزوار المدينة يجدون متعة كبيرة في تدخين الماريجوانا الممنوعة في بلادهم بحرية وعلانية، إنه أمر يدعو للدهشة وزعزعة العقائد والمبادئ والأخلاق. أن تشرب الماريجوانا والبانجو والحشيش علىٰ مرأىٰ ومسمع من رجال الشرطة، بل ربما شارك هؤلاء رواد الحانات شرب الماريجوانا في هدأة الليل البارد.

لا شك أن ضباط الشرطة في أمستردام سيئو الحظ، فقد رخصت الدولة تجارة المخدرات وتعاطيها، ورخصت الدعارة، فخسر رجال الشرطة الهولندية بذلك وسيلة مهمة لتلفيق التهم للناس والزج بهم في غياهب السجون من غير ذنب اقترفوه. إنك لا تجد في أمستردام حي الباطنية، ولا تجد معلم المقهىٰ يبيع الحشيش خلسة للزبائن. ولا حملات من الشرطة تداهم الأوكار.. يبدو أن أمستردام كلها وكر كبير.

إنك تجد الدورية الليلية تدور في الشوارع والأحياء، شرطي ضخم وشرطية بهية في لباس رسمي علىٰ ظهر حصانين أملحين، ما رأيت من قبل خيولا في مثل هذه الضخامة، ترىٰ أي طعام يُطعمونها! لاحت لي خيول الأهرام والإبل العجفاء فطردت عني صورتها بقوة، وتمنيت لو أن لي اسطبلا من هذا الخيل المهيب، أقوىٰ من أبجر عنترة، وصريح بني نهشل، وداحس قيس بن زهير، وريحانة رفيع بيه العزايزي. تداعب الدورية باعة الحشيش علىٰ النواصي، وتسمع طرق سنابك الخيل تمشي الهوينىٰ علىٰ الأرض الصخرية. إن باعة الحشيش في أمستردام يقفون علىٰ النواصي، ويحملون مادته الخام في أطباق، وإلىٰ جوارها عدد من السجائر الملفوفة الجاهزة، يدعون المارة للتجربة والشراء. وكأنهم باعة العتبة أو طلعت حرب يحثون الناس في إلحاح علىٰ شراء الجينز والجواكت والبدل بسعر المصنع!

تطوف في الشوراع فتلحظ أن المدينة قديمة، تعرف ذلك في طرز مبانيها، لكن عمرها لا يصل إلىٰ سبعة آلاف عام، وإنما يعود تاريخها إلىٰ ثمانية قرون فحسب، إنك لا تجد فيها مباني قديمة قدم الأهرام، لكن العديد من المباني السكنية فيها عمرها مئات السنين، وأكثر من ثمانية آلاف وحدة سكنية من أماكن الإقامة الخاصة مسجلة ومحمية الآن بموجب قوانين التراث التاريخي، وهو ما رأينا مثله من قبل في مدينة روان الفرنسية. يحتاج ملاك هذه الأماكن في أمستردام إلىٰ الالتزام بقواعد صارمة ومكلفة عندما يقومون بتغييرات داخلية وخارجية في هذه البيوت، وتدعم الحكومة كذلك بعض تكاليف صيانتها. طرقتني صورة البيوت العتيقة في قلب القاهرة، ذات الطرز المعمارية البهية، وقد علتها طبقة سميكة من السواد، من عوادم السيارات وزيوتها التي تنحل أوراق الشجر .. كم كنت أرجو أن أعيش في أحد هذه البيوت العتيقة في قلب القاهرة.

انطلقت الحافلة حتىٰ دخلت بنا في منطقة De Jordaan ديجوردن، وهي من أشهر الضواحي التاريخية وأكثرها روعة في أمستردام. قال المرشد السياحي: «إن أسعار العقارات في هذه المنطقة ليست لضعاف القلوب»، وهل جئنا لنشتري عقارات! أضحك الله سنك! إننا نحارب الغلاء بالاستغناء! وتلك سياسة رائعة. المثير للسخرية أن هذه المنطقة نشأت في أول أمرها حين أقام بها العمال والحرفيون، لكنك اليوم لن

تجد فيها أحدا من النجارين والخبازين وعمال السفن إلا إن كانوا من ملاك الشركات. وقد انتقل للعيش في هذه الضاحية الرسام الهولندي الشهير «رامبرانت». والمثير للضحك كذلك أنه انتقل إلىٰ هذا المنطقة لعدم قدرته علىٰ تحمل تكاليف المعيشة في الحي الذي كان يسكن فيه قبلها. بيت رامبرانت مبنىٰ أسود صغير عاش فيه في الفترة الأخيرة من حياته. ولم يكن رخص أسعار العقارات الدافع الوحيد لانتقاله إلىٰ هذه المنطقة، ولكن لأن عملاءه من متوسطي الدخل عاشوا في هذه المنطقة كذلك! هل يمكن لموظف متوسط الدخل أن يشتري إحدي لوحات رامبرانت اليوم؟!.

يبدو أن لوحات رامبرانت كانت تشبه لوحاتي في كراسات الرسم في سنوات الدراسة المختلفة. لوحات تصلح للاستهلاك المحلي . . لا أذكر أنني رسمت لوحة واحدة، فقد كانت أخواتي تضطلع بهذه المهمة في كل شهر، وهن بارعات في الرسم، حتىٰ إن المعلم كان يباهي طلاب الفصل بموضوع الرسم الذي أقدمه له، ولا يعلم أنه ليس من صنعي. وحين سرت غضبة بيني وبين إخوتي، ورفضن رسم الموضوع الجديد أخفقت في الرسم، وذهل المعلم لتعثري في رسم الموضوع الجديد، ومنحنىٰ «صفر» في التقييم الشهري! وكان الصفر الأول والأخير في حياتي، لكنه تقييم عادل لقدراتي في فن الرسم علىٰ كل حال.

كثيرا ما نسمع عن ناطحات السحاب في أمريكا والعواصم الأوروبية، لكن أمستردام لا تعرف الناطحات، ولا تعرف المباني الضخمة، وذلك لأن تربتها رخوة بصورة لا تصدق، فتشيد معظم المباني علىٰ خوازيق إنشائية خشبية، مثبتة علىٰ عمق كبير في التربة لتوفر قاعدة صلبة يرتكز عليها المبنىٰ، حتىٰ إن هناك أغنية هولندية تقول، «أمستردام هذه المدينة الكبيرة، المبنية علىٰ خوازيق»! وأحد أشد الأخطار التي تواجه أمستردام القديمة هو تلف تلك الخوازيق الخشبية القديمة؛ لذا يتم التحكم بعناية في مناسيب المياه في القنوات ليبقىٰ الخشب الرطب رطبا والخشب الجاف جافا، والأجزاء الرطبة من الخوازيق لا يمكن أن تتعرض للهواء وإلا تلفت، وكذلك تحتاج الأجزاء الجافة لأن تبقىٰ جافة، ولذا فإن منسوب المياه في القنوات محسوب بالعلم الدقيق.

وكثير من المباني والعمارات السكنية القائمة علىٰ ضفاف القنوات بها رافعات تنتهي بخطافات علىٰ قمة المباني، وهذه الرافعات من الآثار القديمة، فقد كان الكثير من تلك المباني ورشا للحرفيين بنيت علىٰ امتداد القنوات، والرافعات الخطافية كانت ترفع البضائع من القوارب في القنوات أسفل منها، لكن تلك الرافعات القديمة ما زالت آثارا حية، فهي تستخدم حتىٰ يومنا هذا، لأن سلالم أكثر مباني أمستردام ضيقة، وتلك الرافعات والخطافات تستخدم لرفع قطع الأثاث الكبيرة من الشوارع إلىٰ داخل البيوت عبر النوافذ، لذا نصحنا المرشد السياحي علىٰ سبيل الدعابة بالاحتراس من الأرائك المتأرجحة وآلات البيانو المتعلقة في هذه الرافعات أثناء السير في شوارع المدينة.

إن الرافعات الخطافية المثبتة أعلىٰ قمم البيوت في أمستردام لها صورة تقليدية في مصر، وهي تلك الرافعات التي يستخدمها عمال الإنشاء في رفع مواد البناء. لكن الطريف هو استخدامها في حمل قطع الأثاث الكبيرة التي لا يمكن أن تدخل إلىٰ البيت من أبوابها لأن السلالم ضيقة لا تسمح بمرورها، وهو تقليد معروف عندنا كذلك في القرية، فحين يحضر أثاث عريس جديد، كنا نهرع ونحن أطفال صغار، نشارك الأهل والجيران في حمل الوسائد الصغيرة وأدوات المطبخ، بينما يضطلع الرجال الأشداء بحمل الأسرة وقطع الدواليب الضخمة والكنب. ولما كانت سلالم بيوت الفقراء في القرية ضيقة صغيرة، فقد كانوا يعمدون إلىٰ رفع قطع الأثاث الكبيرة بالحبال ويدفعونها إلىٰ داخل بيت العريس من أوسع نوافذه.

انتهت الجولة السياحية بالحافلة وبدأت رحلة أخرىٰ نهرية شاهدنا فيها ما شاهدناه في البر، واستمعنا إلىٰ شرح مماثل لآثار المدينة ومعالمها. غير أن طريق النهر يجلب إلي ذكريات أيام وليال قضيتها في بحيرة البرلس في جوف الماء أو علىٰ القوارب لصيد الأسماك. بعد انتهاء الرحلة النهرية ضربنا الجوع فعمدنا إلىٰ أحد المطاعم، فرأيت البائع مصري الوجه لا تشوبه شائبة، كلمته بالعربية فرد فسلمت عليه، وعرفته بنفسي، وإذا به من «عزبة البرج»، قرية قريبة متاخمة لقريتنا، يمتهن أهلها حرفة الصيد كذلك، وأكثر أهلها يغرقون في البحر عند محاولة الهجرة غير الشرعية إلىٰ أوروبا. يبدو أن الله نجاه! «الدنيا صغيرة» عبارة شهيرة تذكر في مثل هذه المواقف. إننا من

قريتين صغيرتين مجهولتين في قاع الريف المصري، نلتقي الآن هنا في قلب العاصمة أمستردام، بجوار الحي الأحمر، ذكرت له ذلك الحي مداعبا، وسألت عن حاله معه علىٰ عادة أبناء الريف حين يتغامزون في شيء من الخبث، فضحك حتىٰ بدت نواجذه، وقال إن الأمر شائع في الأحياء كلها. أعطاني ساندوتش الشاورما ودفعت إليه الحساب، له شارب خفيف، ووجهه نحيل. إنه يشبه خميس بهي. نعم كأنه هو! لكنه شاب صغير وخميس بهي رجل كبير أبيض الشعر.

من خميس بهي هذا؟ وما جاء به الآن؟ أعلم أن خاطرك الآن يجول! خميس بهي رجل من عزبة البرج كذلك، عملت معه في صيد الأسماك من بحيرة البرلس. رجل ريفي بسيط، لا حظ له من العلم أو المال، يسب الدين في كل دقيقة بعدد ضربات قلبه. ولما كان الصيادون طلاب رزق هو في رحم الغيب، فهم دائمو الدعاء والتقرب إلىٰ الله ليرزقهم بصيد ثمين، لاموه في ذلك ونهوه عن سب الدين حتىٰ يرزقنا الله من فضله، فزمجر وعنفهم، وأقسم أن الرزق قادم لا محالة، سبَّ الدين أو لم يسبه، فلما أعادوا عليه القول «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم» قالوا اتق الله ليرزقنا ولا يحرمنا! فزمجر وانطلق بصوت جهور: «علىٰ الطلاق بالتلاتة هيرزقنا براحته ولا غصب عنه»! طرقت كلمته أذني وغشيت ذهني كغمامة صيف ثم انقشعت. مضينا في الشوارع نلتهم الساندوتش ونحن نسير، يقولون إن تناول الطعام في الشارع من خوارم المروءة . . يبدو أن مروءتي لا قعر لها.

في الشوارع ترىٰ جنسيات كثيرة من ألوان مختلفة، وأعداد العرب فيهم كبيرة من النساء والرجال، من كل الأقطار العربية، من الشرق والغرب، بل إنك لا تلحظ عربية الرجل وحدها، بل إنهم بلغوا حدا من الكثرة بحيث ترىٰ أزياءهم الرسمية وتلحظ توجهاتهم الدينية، فترىٰ رجالا بلحىٰ كثة وجلابيب قصيرة، وآخرين بوجوه وأغطية رأس بيضاء تشبه السادة الصوفية، وترىٰ أفواجا من الهنود والصينيين. وكثيرا من المثليين الجنسين؛ حتىٰ إن المدينة مليئة بالفنادق المخصصة للشواذ من الرجال، تُعرف فنادقهم برايات علىٰ أبوابها ملونة بألوان قوس قزح. حذرنا منها صديق مصري سافر إلىٰ هناك للمشاركة في مؤتمر وأغراه رخص سعر أحد الفنادق فنزل فيه، فلما فطن إلىٰ تلك الآفة أخذه الخوف، لم ينم وظل طيلة الليل يحكم الحزام حول وسطه.

أوشكت الرحلة علىٰ الانتهاء، وينبغي شراء بعض الهدايا التذكارية، دخلنا إلىٰ عدد من البازارات المنتشرة في أرجاء المدينة، فهالنا ما رأينا! صحيح أنك تجد أشكالا مختلفة من الميداليات والأطباق والأواني والتماثيل، لكن الرسوم المطبوعة عليها والمنحونة فيها مريبة عجيبة. ماذا يطبع أهل مدينة أشهر أحيائها الحي الأحمر علىٰ الهدايا التذكارية سوىٰ الأعضاء التناسلية للرجال وصور لنساء عاريات، وتباع كذلك تماثيل لأعضاء ذكرية مختلفة الأحجام والألوان تمتلئ بها الأرفف والمناضد أمام السياح. ولا غرو فمحلات الجنس منشترة في كل مكان، تبيع قطعا آدمية صناعية، وأول ما تواجه عند نزولك إلىٰ البلدة من محطة القطار «متحف الجنس» SEXMUSEUM، يبدو أنهم اتخذوه عنوانا لها!

انتهت الرحلة . . عند المغادرة وتسليم مفاتيح الحجرة كانت موظفة الاستقبال في الفندق ذات ملامح شرقية، سألتها عن أصلها فإذا هي فتاة مصرية، ولدت في أمستردام ونشأت وتربت، وتعلمت وعرفت اللغة الهولندية، هنيئا لها إذ لم تنعم بركوب عربة الحاج عبد العليم.

انطلقنا في طريق العودة إلىٰ محطة القطار، الطريق طويل إلىٰ برلين، نحن بحاجة إلىٰ بعض الساندوتشات، دخلنا إلىٰ مطعم هندي للفول والطعمية، يصنعونها بنفس الطريقة المصرية، غير أن ثمن الساندوتش الواحد خمسة أويرو، أزعجنا غلاء الأسعار، فطرقتني فكرة قديمة طالما ناقشناها مع الأصدقاء المصريين في برلين في جلسات المرح، ماذا لو أننا عملنا عربة فول في قلب برلين، أو فتحنا محل كشري أو عصارة قصب، لا شك في أن أوروبا تفتقر إلىٰ هذه الأنشطة الاقتصادية المهمة التي تعتمد عليها قيادة مصر السياسة في القضاء علىٰ البطالة ومشكلاتها في سوق العبور.

(٣٠)

مدريد .. التوابع والزوابع

طفنا معا في أيامي الماضية في برلين وبعض المدن الألمانية، وفي باريس وروان الفرنسية، وفي أمستردام الهولندية، واليوم رحلة جديدة إلىٰ بلد له في النفس مكان عظيم ومكانة علية. رحلتنا اليوم إلىٰ مدريد العاصمة الإسبانية. يخطئ من يقول: «إسبانيا»؛ فالحق أنها بلاد الأندلس! وكيف لا أُبقىٰ علىٰ اسمها العربي في يومياتي وقد انغرست في دمي قبل قرون، حتىٰ لأشعر أنني كنت مع طارق بن زياد يوم عبر إليها وأحرق السفن، وشهدت معه المواقع كلها، حلوها ومرها، حتىٰ إنني وددت لو أروي لكم كل شيء لولا ضيق الوقت والمقام، وانشغال القلم بكثير من المهام.

سنذهب معا في هذه الرحلة العجيبة إلىٰ تلك البلاد البعيدة، «حيث الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، وخوض الأهوال، وانقلاب الأحوال، وتسلط الفأر علىٰ القط، وركوع الأسد للقرد».

هذه البداية توحي بأن الدرعمي اليوم سيأخذكم إلىٰ بطن التاريخ، وهذا أمر يخرج بنا عن نطاق الحكاية واليوميات الدرعمية! ما ذهب بك إلىٰ مدريد أيها الدرعمي؟ حدثنا عما كان منك ولا تخض بنا في حديث غيره، فذاك عهد مضىٰ ولم تعد بنا إليه حاجة. حسنا . . حسنا . . سافرت إلىٰ مدريد للمشاركة في مؤتمر للأدب العربي، تعقده الجمعية الأوروبية لدراسة الأدب العربي الحديث، يشارك فيه أساتذة الأدب من كل أرجاء الدنيا من الشرق والغرب، أقلعت الطائرة في السابعة من صباح الأربعاء، السابع من مايو ٢٠١٤، قطعت السماء في ثلاث ساعات كاملة من مطار برلين شونفيلد لتهبط في مطار مدريد.

بعد أن ذرعت الطائرة السماء الألمانية والفرنسية لاحت الأراضي الإسبانية من

نافذة الطائرة وعرة، مرتفعات ومنخفضات، وجبال وسهول وأودية ورمال، أراض خضراء يانعة ومنازل ملونة، وصحراء جرداء قاحلة، كل ذلك يموج بعضه في بعض من غير نظام، فرق كبير لحظته بينها وبين الأرض الألمانية التي تلوح من الطائرة ذات غابات وأنهار، وبيوت طوبية كثيرة صغيرة هرمية.

هبطت الطائرة ولامست عجلاتها الممر، واندفعت بقوة استشعرتها في نفسي كقوة جيش ابن زياد حين عبر المضيق واندفع في شبه الجزيرة يهصر أعوادها، أو جيش مصر حين اندفع بقوة في سيناء، متجاوزا من فرط الحماسة كل الحدود. لا تبالغ أيها الدرعمي في وصف القوة والحماسة، فأغلب الظن أن ما دفعك إلىٰ المبالغة الحنين! تلك كانت «جيوش» يا فتىٰ، لكنك اليوم رجل وحيد جاء زائرا لأداء مهمة معلومة، هل تراك تقدر علىٰ حرق الطائرة التي أقلتك كما أحرق ابن زياد السفن، ثم تغزو هذه البلاد وحدك فتعيد أمجادها؟!

مشيت الهويني في ردهات المطار والطرقات، تجول في خاطري الأفكار، أتبع اللافتات الإرشادية مكتوبة بالإسبانية والإنجليزية، استطعت عن طريق مقابلة النصين في كل لوحة أن أعرف معنىٰ بعض الكلمات الإسبانية، ليتني أعرف الإسبانية والفرنسية والفارسية والعبرية والسنسكريتية وكل لغات الدنيا. إنك تريد أن تعرف كل شيء، ولا تكاد تصنع من أجل ذلك شيئا!

أوشكت علىٰ الخروج من المطار لأستقل القطار إلىٰ حيث حجزت مكانا للإقامة في وسط المدينة، وبينما أتلفت أبحث عن مكتب قطع التذاكر، وجدتني في ساحة خالية إلا من بعض المارة، تلفت يمنة ويسرة في حيرة، وإذا بفارس ممتطيا صهوة جواد، يقبل علي من بعيد، نظرت إلىٰ وجهه فإذا بي أعرفه، نعم إنه هو! إنه «زُهَيْر بن نُمَيْر»، ذلك الجني الذي صحب ابن شهيد في رحلته «التوابع والزوابع» قبل مئات السنين، رحب بي وسعدت بلقائه حتىٰ كاد يرقص قلبي، ربت علىٰ كتفي فأنست به، وسعدت لأنه سيصحبني طوال رحلتي في هذه البلاد، فهذا حق للصاحب علىٰ صاحبه! قبل أن يطول بيننا الكلام سألته عن صديق لنا قديم، كان ثالث ثلاثتنا في رحلات قضيناها معا قبل قرون. يا زهير: أين أبو الخَطَّار تابعة قيس بن الخطيم؟! ما إن ذكرت أبا الخطّار له حتىٰ طفرت عينه، وبدت علىٰ وجهه أمارات الحزن والأسىٰ،

وقال إن أبا الخطار قتل وهو في ريعان شبابه، قتل بعد شهر واحد من آخر لقاء جمعنا في مصر عام ٢٠٠٣، لقد مات وعمره ثلاثة آلاف سنة! وذلك حين وقعت عينه ذات مساء علىٰ جنية حسناء سكنت قلبه، ثم رفضت التزوج به، لأنها شغفت بـ «عنتر بن عجلان» صاحب طَرَفَة بن العبد، فاصطرع الرجلان بالسيوف من أجل الجارية حتىٰ نحر كل منهما الآخر بضربة متزامنة. أحزنني كلامه، ورثيت لصديقنا أبي الخطار، ثم دعوت لزهير بأن ينسأ الله في أجله، وهنأته لقلة انشغاله بالنساء، ورأيت أن هذا هو السبب في طول عمره.

لعلكم اليوم تتساءلون من زهير بن نمير هذا، وما علاقتك به، وكيف عرفته، وأين التقيت به، وما ذهب به إلىٰ مدريد، والحقيقة أنني مجهد من أثر السفر، والحديث في هذا الأمر يطول، وأعلم من كرمكم أنكم ستسمحون لي بالذهاب إلىٰ حيث أقيم، آخذ قسطا من الراحة ثم أروي لكم كل شيء كما تحبون. لكنني الآن أدفع عنكم شيئا من الفضول، فأقول لكم إن زهير رجل عجيب غريب، أخذ من الإنس والجن أجمل ما فيهما من صفات المظهر والمخبر، أعرفه منذ زمن بعيد. شهد الوقائع كلها ورآها رأي العين. منذ خلق الله الكون. وهو يحكي لي دقائق كل شيء في كل حين. لقد شهد ذلك الرجل قتل قابيل هابيل، ورأىٰ الغراب الذي علمه كيف يواري سوأة أخيه، وسمع الهدهد الذي جاء سليمان من سبأ بنبأ عظيم، وغض بصره عن بلقيس حين كشفت عن ساقيها، وشهد فرحة الجن حين تبينوا موت سليمان بعد أن أكلت دابة الأرض منسأته، كم كان يوما عصيبا ذلك اليوم الذي وقف فيه مع الحواريين يرقب مشهد الصلب! ثم إنه كان مع موسىٰ يوم عبر اليم قبل أن ينطبق علىٰ فرعون ومن معه. وكان قريبا من غار حراء حين أقرأ جبريل محمدا كلمات ربه، ثم شهد معه بدرا وأحد والحديبية ويوم الفتح. لقد كان في مقدمة جيش صلاح الدين يوم حطين، ومع قطز يوم عين جالوت، وعبر مع ابن زياد جبل طارق، وقد كان في هذا اليوم أول لقاء لي معه، وشهد مع المصريين يوم العبور، ويوم الفض، وشهد مواقع كثيرة تجري أحداثها فيما يستقبل من الزمان!

عرفته يوم عبور جيش ابن زياد إلىٰ الأندلس فقد كان هناك في استقبالنا، يزودنا بما نحتاج إليه من طعام وشراب وعدة وعتاد، وهو لم يزل إلىٰ يومنا هذا يقيم هناك، لم

يبرح المكان! لقد توطدت العلاقة بيننا منذ ذلك اليوم وعجبت له يصطفيني من بين الناس جميعا صديقا له؛ يحكي لي أخبار وقائع شهدها وهي متباعدة في الزمان، لكنه يبدو شابا، لم تدركه الشيخوخة ولم يبلغ الكبر؛ سألته عن ذلك فابتسم، ودنا مني وربَّت علىٰ كتفي وقال: يا صديقي، يهب الله ما يشاء لمن يشاء، إن لي عمرا معلوما كأعماركم، فما أنا إلا بشر مثلكم، لكن الله وهبني القدرة علىٰ إيقافه، فلا أحيا إلا في عصر الحوادث العظام لأشهدها ثم يأخذني بعدها نوم طويل كأنه الموت، فلا يحسب من عمري، ولا أفيق منه إلا لأشهد حادثا آخر عظيما، ولن ينتهي عمري إلا حين أشهد الحدث الأعظم يوم القيامة! هنأته علىٰ معجزته العظيمة، وتهللت، وتمنيت أن يكون لي مثلها، فوعدني أن يتحقق لي ذلك، وأنه سيصحبني في رحلة طويلة في الزمان، لأرىٰ معه الوقائع الماضية، وسيأخذني في رحلة طويلة في المستقبل لأشهد الوقائع الآتية، لكنني شغلتني عن هذه الرحلة بعض الشواغل، وهو يرقب فراغي منها لننطلق معا إلىٰ حيث نريد.

التقط زهير من يدي ورقة سجلت فيها عنوان البنسيون الذي حجزت فيه غرفة لإقامتي في قلب المدينة، وخريطة ترسم الطريق إليه، نظر في الخريطة فقال إنه مكان قريب، يبتعد عن المطار أربعين دقيقة بالقطار، وثلاث دقائق فقط لو أنه أردفني خلفه علىٰ فرسه الشهباء! فشكرته علىٰ عرضه السخي، وخشيت أن ينشغل بي عن بعض أعماله، فقطب وجهه يلومني، وأقسم علىٰ عادة الكرماء أنه لن يفارقني مدة إقامتي في هذه البلاد، وسيحلمني إلىٰ حيث أريد متىٰ أريد، وسيشهد معي وقائع المؤتمر، وسيجوب معي شوارع المدينة ويرشدني إلىٰ آثارها.

شكرته علىٰ حسن صداقته وكرم ضيافته، لكنني استأذنته في ألا يردفني علىٰ فرسه، لأنني حديث عهد بهذه البلاد، ووددت لو أنني أطلع علىٰ قطاراتها وطرقاتها وبيوتها، فابتسم وقال: «تالله إنك لفي ضلالك القديم»، احجز لنا تذكرتين فإنني بلا نقود، وما حاجتي إلىٰ النقود وأنت تعلم أن فرسي تغنيني عن كل شيء، تضاحكنا وركبنا القطار في الخط رقم ٨ المتجه من المطار إلىٰ ivos ministerios وغادرنا القطار في محطته الأخيرة، ثم أخذنا قطارا آخر في الخط رقم ١٠ وهبطنا في محطة Tribunal التي يقع البنسيون بالقرب منها. كم كانت عجيبة هذه المحطة، لقد صعدنا طوابق وطبقات

كثيرة من الأرض حتىٰ وصلنا إلىٰ الشارع، طبقات تحتاج إلىٰ علماء الجيولوجيا، عمق لا عهد لي به في محطات المترو في مصر أو برلين أو في غيرها من البلاد، ثم عجبت أن رأيت ذلك في أغلب محطات المترو في مدريد كلها، فسألت زهير عن ذلك مداعبا له: هل استعانوا بكم في حفر هذه المحطات، إن هذا لا يكون إلا من عمل الجن، ولا طاقة للبشر عليه، فابتسم زهير وأومأ برأسه إيماءة مداعبة ساخرة ولم يُجب عن السؤال، وذلك في نوبة صمت في بعض الأحيان تأخذه، ولعله يكون فيها غير مأذون له بالكلام.

أطلت رءوسنا بعد طول سفر بالمترو في باطن الأرض فلاحَ الشارع أمام أعيننا، وكانت المفاجأة! رجل عجوز في هيئة رثة، يقف علىٰ قارعة الطريق، يسأل الناس وهم يقتحمونه بأعينهم ولا يلوون عليه، نظرت إليه حين لفتتني ملامح وجهه، وقد بدا بنصف ذراع محترقة، وساق مبتورة، ووجه مشوه .. ورغم انمحاء معالمه فإنني عرفته! نظرت إليه مرة ومرتين ثم حولت بصري إلىٰ صديقي زهير بن نمير، فقرأ في عيني السؤال: أهذا هو؟ فأشار ابن نمير برأسه يؤكد حدسي! يا الله! حقا أيها الأصدقاء: «وما ربك بظلام للعبيد»! أتدرون من هذا الذي يقف منبوذا علىٰ قارعة الطريق وقد تآكلت أطرافه؟ إنه الشاعر ابن زمرك، وزير بني الأحمر، عابد السلطة، الذي خلا له الجو فباض وصفر، ولم يترك حجرا في الحمراء إلا نقش عليه بيتا من أشعاره حتىٰ لقب (بلبل الحمراء الغريد)، لكنه كان خبيثا غادرا، أساء إلىٰ شيخه لسان الدين بن الخطيب، رغبة منه في أن يحل محله في الوزارة، فدبر له أسوأ التدبير، واستعان عليه بحاسديه حتىٰ تم له ما أراد، فقتل ابن الخطيب الوزير العظيم، وتقلد ابن زمرك الوزارة، ثم كان أن قُتِل ابن زمرك كذلك ولم ينفعه ماله ولا منصبه ولا جاهه! وكما تدين تدان!

تعجبت وأخذني الذهول وتساءلت: يا زهير، لقد قتل ابن زمرك قبل سنين! فما جاء به إلىٰ هنا؟ فأطرق ابن نمير هنيهة وبدا عليه الحزن، وقال: لقد قتل ابن زمرك، فلما قُبِرَ لفظته الأرض، وكان في الآخرة من أهل النار، قضىٰ في قعرها أعواما، حتىٰ أكلت أطراف جسده، وكلما نضج جلده أبدله الله جلدا غيره ليذوق العذاب، غير أن أهل النار كرهوا ريحه، فلم يكن بينهم من هو أشد منه جُرما، فاستغاثوا بربهم أن

ينقذهم من جواره، فقد كان نتن رائحته أقسىٰ عليهم من لفح النار، فلفظته جهنم مرة أخرىٰ إلىٰ الأرض، مطليا به القار أجرب، ممزق الأشلاء ليكون عبرة لكل خائن بين خلق الله.

قال زهير: هل تريد أن تسلم عليه؟ إنني أعلم أنك شغوف بأشعاره وموشحاته! قلت كلا؛ لن أصافحه، وأنىٰ لي أن أصافح خائنا لفظته النار!

انصرفنا عنه، ومضينا في طريق البنسيون، فراقني الشارع الكائن فيه، وطربت له نفسي، وقد لحظ زهير ابتسامة صامتة بادية علىٰ وجهي، فقال إنني أعلم سبب الابتسام. قلت: ما هو؟ فقال لأنك رأيت في هذا الشارع شوارع مصركم القديمة، بمشربياتها، وشرفاتها، وطرازها القديم. وأنت رجل دائم الحنين! فقلت: إي وربي صدقت يا زهير، إن مصر أم الدنيا، وقد استعار منها الغربيون كل شيء. فقهقه زهير قهقهة عالية لم أتوقع منه مثلها. وقال: يبدو أنك ما زلت في ضلالك القديم! يا صديقي إن ما تراه في مصر من طرز معمارية قديمة تشبه ما تراه الآن في مدريد، وما رأيته من قبل في روان وفي برلين، إنما نقل إلىٰ مصر مع المستعمرين والغزاة، فهي استعارته من الغرب ولم يستعره الغرب منها، وإنما تكونت لديك هذه القناعة لأنك لم تر الغرب قبل أن ترىٰ مصر، والحق أن ما تراه في مصر كله إنما هو محض تقليد.

وجدت في نفسي من حديث زهير، وعللت ذلك بتحيزه للغرب؛ فهو وإن كان أندلسي النزعة والهوىٰ، فلا شك أن طول مكثه في هذه البلاد بعد احتلالها، قد أورثه شيئا من الميل إلىٰ أهلها، وتناسىٰ بلاد الأندلس وعظمة بلاد الشرق وأهلها.

ظهرت لافتة صغيرة علىٰ باب بناية قديمة أنيقة، نُقش عليها اسم البنسيون، سألني زهير عن سر اختياري لهذا المكان، فقلت له إنني حريص علىٰ فحص معالم المدينة، والتجول في حواريها ومعرفة دقائقها، فبحثت للإقامة عن مكان رخيص قريب من قلبها، فكان هذا البنسيون، «بنسيون إنيبرال» Pension Enebral إنه يبعد مسيرة عشر دقائق عن «ميدان بوابة الشمس» Puerta del Sol أكبر ميادين مدريد، وكأنه ميدان التحرير في قلب القاهرة. فضحك زهير وقال: ستظل مفتونا بالقاهرة حتىٰ يصيبك مس من الجنون!

وجدت في نفسي من رد زهير، ولاحظت هيمنته عليَّ وعلىٰ مجرىٰ الأحداث،

فقلت له: زهير خبرني بالله عليك، هل أكتب يومياتي أم أكتب يومياتك؟!

أعتذر إليكم أيها القراء، يبدو أنني وقعت تحت غواية هذا الساحر زهير، وأشعر أنه يملي علي الأحداث كلها. زهير، أرجو أن تصحبني صامتا أيها الصديق العزيز، وخل بيني وبين الناس والبلاد. ابتسم زهير وقدمني فصعدت أمامه درج البناية حتىٰ وصلنا إلىٰ الدور الرابع حيث البنسيون.

طرقت الباب فانفتح. ظهر رجل قصير القامة، عظيم البطن، إنه كارلوس صاحب البنسيون، طلب إلي إظهار بطاقة الحجز فسلمتها له، ضغط أزرارا علىٰ لوحة الكمبيوتر في مكتبه الخشبي الصغير في مدخل البنسيون، عثر علىٰ اسمي، نقدته ما تبقىٰ من الحساب، ثم اصطحبني إلىٰ الحجرة. الحجرة صغيرة ضيقة، فيها سرير وتلفزيون ومنضدة صغيرة. البنسيون عتيق، حجراته متراصة علىٰ مسافات متقاربة بينها طرقات ضيقة يجول فيها السكان من شتىٰ بقاع الأرض، أوروبيون وصينيون وزنوج. غير أنه يشبه في تصميمه بنسيون ميرامار السكندري الذي أحياه نجيب محفوظ في روايته الخالدة، وفي الفيلم الشهير. السلالم الخشبية العتيقة، والمشربيات القديمة. كارلوس رجل إسباني ظريف من أصل يوناني يشبه خواجات مصر في العهود الغابرة. ويتفق في الأصل مع السيدة اليونانية ماريانا صاحبة ميرامار. تعين كارلوس في إدارة البنسيون وخدمة الغرف زوجته السيدة لاورا. تركت حقيبتي في الحجرة وهرولت وجرىٰ في أثري زهير للحاق بالجلسة الافتتاحية للمؤتمر، التي ستبدأ في الساعة الرابعة عصرا.

انطلقنا من البنسيون إلىٰ ميدان بوابة الشمس (Puerta del Sol) سيرا علىٰ الأقدام في عشر دقائق، وهىٰ ساحة عظيمة في قلب العاصمة، تشبه ساحة دام في العاصمة الهولندية، تتقاطع فيه عشرة طرق رئيسية، إنها تشبه القلب يضخ الدماء في شرايين المدينة وشوارعها. وتضم عددا من أهم معالم إسبانيا، مثل مكتب البريد القديم، الذي اتخذوه اليوم مقرا لمحافظ مدريد أو عمدتها، وينتصب في قلب الميدان كذلك تمثال الملك تشارلز الثالث، وتمثال شهير لدب يأكل من شجرة المادرون وهو يعد رمزا وشعارا لمدريد. وتمتلىٰء المنطقة التىٰ يقع بها الميدان بكثير من المطاعم والمقاهىٰ والملاهىٰ، وفيه كذلك محطة مترو رئيسية.

في جانب من الميدان، لفتني تمثالان صغيران مطليان بلون نحاسي، يقفان متجاورين علىٰ صخرة صغيرة، والتف حولهما الناس، اقتربت منهما فإذا بأحدهما صنم حجري والآخر آدمي يحرك عينيه ورأسه، ففطنت إلىٰ أنها طريقة مبتكرة لجمع النقود من المارة، «شحاذة مقنعة»، يقف الرجل التمثال في مكان بارز يلفت نظر المارة، فيلتقطون معه صورا تذكارية لقاء دراهم أو سنتات يلقون بها إليه في جعبة أعدت لذلك. كان مشهد التمثال عجيبا كأنه جني، لأنك لا تسطيع التفرقة بين الرجل الحقيقي والتمثال الحجري إلا بحركة العين أو اهتزاز الرأس أو بابتسامة فاترة. نظرت إلىٰ زهير وابتسمت وقلت له يبدو أنك لست الجني الوحيد في هذه البلاد.

كانت ساعة بدء المؤتمر قد أوشكت، فهبطنا إلىٰ محطة المترو "Sol" يسمونها باسم الميدان، تساءلت في نفسي: لم لم يطلقوا عليها اسم الرئيس السادات؟!. ركبنا القطار وانطلقنا في اتجاه الجامعة. ينعقد المؤتمر في كلية الآداب والفلسفة في جامعة مدريد المستقلة Universidad Autónoma de Madrid، تلك الجامعة التي حصل منها الشاعر الدرعمي أبو همام علىٰ درجة الدكتوراه قبل عقود، وهي معنية بدراسة الآداب الحديثة بعامة. قاعة المؤتمر قاعة مهيبة في تصميمها وإضاءتها ومقاعدها، لعلها أكبر قاعات الجامعة، تشبه قاعة الاحتفالات الكبرىٰ بجامعة القاهرة، وبخاصة في غلبة اللون الأحمر علىٰ السقف والستائر، غير أن قاعة جامعة القاهرة أكبر ويبدو عليها الجلال. جلس علىٰ المنصة أربع شخصيات كبيرة، الدكتور José María Sanz Martínez رئيس الجامعة، والدكتور Antonio Cascón Dorado، عميد كلية الفلسفة والآداب، والدكتورة Isabella Camera d`Afflitto رئيسة الجمعية الأوروبية لدراسة الأدب العربي الحديث، وهي أستاذة للأدب العربي في جامعة سابينزا Sapienza في روما، والدكتور Gonzalo Fernández Parrilla سكرتير عام الجمعية.

في عبارات مختصرة تحدثوا جميعا للترحيب بالسادة الضيوف المشاركين في المؤتمر، وقد لاحظت غرابة شديدة في طريقة نطقهم للغة الإنجليزية، لكنة عظيمة لا تكاد تجد مثلها ولو عند العرب، دهشت لطريقة رئيس الجامعة وعميد الكلية في الحديث، وزاد عجبي أن أحدا من الحضور لم يسخر ولم أرهم يتغامزون ولم ينكر أحد عليه شيئا، قفزت إلىٰ ذهني بقوة صورة جلسة أو جلسات مماثلة حاول بعض

الدراعمة فيها التحدث بكلمة أو كلمتين بالإنجليزية، فلاقىٰ قدرا صالحا من السخرية المرة والتسفيه من الحاضرين، وكأن الإنجليزية هذه رجس من عمل الشيطان، أو هي سحر لا أحد يقدر عليه، ولا يحل له الاقتراب منه. معرفة اللغات أمر خطير، وينبغي ألا يحول دونه حائل، ولو كانت سخرية الدراعمة! ما رأيت أعقل من الألمان في هذه الناحية، فمعرفة اللغة ليست أبدا دليلا علىٰ شيء، إن هي إلا أداة تبحث بها، وتبين بها غرضك وتكشف بها عما في نفسك، لكنها لا تثبت علما ولا تنفي جهلا، وهي ليست ميزة في ذاتها إلا أن تتخذها وسيلة لتقدم علمي، أو فائدة تحققها. ولا يطلب منك بحال، وأنت المصري أن تتحدث الإنجليزية كما يتحدثها الأمريكي أو البريطاني، ولو أردت دليلا علىٰ ذلك، انظر إلىٰ أساتذة الدراسات العربية من الغربيين كيف ينطقون العربية وهي مناط عملهم، ولعلنا استمعنا إلىٰ كثير منهم في مؤتمراتنا في دار العلوم وغيرها. كثيرا ما شاهدت الناس منصرفين عن الفكرة ويتغامزون سخرية من اللكنة الأعجمية التي يتحدث بها المستشرقون. ماذا تتوقع منه أيها السيد الكريم، وهو لم يولد في شبرا، ولم يستمع إلىٰ إذاعة القرآن، ولم يشاهد أفلامنا القديمة؟ لكنه يفهم النص العربي، ويستطيع تحليله، ويحسن نقله إلىٰ لغته الأم كما لا نحسنه نحن.

وكزني زهير في جانبي الأيمن، وكنت مستغرقا في هذه الأفكار، وقال إن الجلسة انتهت . . واعلم ياصديقي أن اللغة الإنجليزية هي أقل اللغات حظا بين أهل هذه البلاد! ألا تحب أن تتناول الآن كوبا من الشاي أو قطعة من الحلوىٰ ريثما تبدأ الجلسة الأولىٰ؟!

كان علىٰ مقربة منا رجل قصير أصلع، عرفت أنه روجر ألان Roger Allen، أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة بنسلفانيا الأمريكية، وهو ناقد إنجليزي معروف، ترجمت كتبه وبحوثه إلىٰ العربية، ولعل أشهرها كتابه: «الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية» The Arabic Novel: An Historical and Critical Introduction، وكانت رسالته للدكتوراه من جامعة أكسفورد عام ١٩٦٨ أول دراسة عن «حديث عيسىٰ بن هشام» لمحمد المويحلي، إنني أعرفه من زمن بعيد من خلال كتاباته، وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي أحظىٰ فيها بلقائه. اقتربت منه وصافحته في حماسة وأبديت سعادتي

بلقائه، وأخبرته أنني قرأت كتابه وسعدت به، فابتسم ورحب بي، وقال إنه زار مصر مرات، وكان الطلاب يلاقونه بمثل هذه الحفاوة التي شهدها مني الآن، ويذكرون له أن أساتذة النقد في كلياتهم يقررون فصولا من كتبه، وأنها كتب عظيمة، فكان يرد عليهم مداعبا يسخر من نفسه: إذا كان أستاذكم قد طلب منكم دراسة كتابي فهو قد اختار لكم الفشل والضياع!

سرىٰ شيء من الدعابة بيننا لظرف في الرجل ودماثة فذكر لي طرفا من علاقته الوطيدة بجمال الغيطاني، وأن بينهم اتصالا هاتفيا منتظما، وذكر أن الغيطاني أخبره باكتشاف نصوص جديدة من حديث عيسىٰ بن هشام، الذي ترجمه إلىٰ الإنجليزية، كان قد تم حظرها في ظل الاحتلال الإنجليزي، ولم تنشر حتىٰ الآن لمعاداتها للاحتلال وتعريضها ببطشه، فتعجب الرجل لذلك، وأرسل في طلب النصوص، وقرر أن يعيد النظر في دراسته عن محمد المويلحي وحديث عيسىٰ بن هشام في ضوء ما استجد من نصوص.

وحكىٰ عن ذكرياته مع مشرفه المصري العظيم محمد مصطفىٰ بدوي، وذكرياته مع زملائه مجدي وهبة ولويس عوض، ووزير الثقافة المصري ثروت عكاشة . . وعن صداقته الحميمة لنجيب محفوظ، وترجمته لكثير من أعماله إلىٰ الإنجليزية، وكيف أنه هو من رشحه لجائزة نوبل، وكان من أشد الداعمين له للحصول عليها، وزكاه عند لجنة التحكيم، وهو المراسل لجائزة نوبل. وكانت المفاجأة أنه عازف ماهر للأورج والبيانو، وكان عازف الكنيسة البريطانية الأورثوذكسية في القاهرة مدة من الزمن، وعزف كذلك في دار الأوبرا المصرية . .

كان رجلا ودودا، ولعل لقائي به كان من أجمل ما حظيت به في هذه السفرة. إنني أعجب لنا نحن العرب والشرقيين، نكبر الشيوخ ونجلهم ونحتفي بهم احتفاء لا مثيل له، ولا ترىٰ مثل ذلك في الغرب. ثقافتنا العربية وكتب تراثنا مليئة بأنماط من التقبيل، يقبل التلميذ شيخه، يده وقدمه ورأسه وكتفه، وهم في الغرب لا يفعلون مثل ذلك! بل ينادون أستاذهم مجردا من الألقاب. دهشت حين رأيت كل الناس ينادون هذا الرجل الذي سعدت بلقائه بـ «روجر» هكذا بالجيم المعطشة بلا ألقاب، وهو لا يغضب ولا يثور. عجبت لحاله حين تذكرت كيف أن تقبيل اليد غدا حقا مكتسبا في نظر بعض

الأساتذة عندنا، يستملحونه من طلابهم ويستطيبونه، بل ربما يصل الأمر ببعضهم إلىٰ طلبه والحث عليه. وقد سمعت مرة نفرا منهم يتساءلون وقد حكىٰ أحدهم عن لقائه قدرا بتلميذ له قديم بعد طول غياب، قالوا: أقَبّل يدك؟ فقال: نعم! فاستحسنوا ذلك، وقالوا له: الآن!

انتهىٰ لقائي السريع مع روجر ألن وهو يحتسي كأسا من النبيذ الأحمر، فأشار إلي صاحبي زهير، وكان علىٰ مقربة ينتظرني، لا يأكل ولا يشرب، فهو يعيش من غير شيء، اصطحبني ودلفنا إلىٰ القاعة لحضور الجلسة الأولىٰ من المؤتمر.

حضرت وصاحبي زهير بن نمير الجلسة الأولىٰ من المؤتمر، وقد ترأسها رشيد العناني، الأستاذ المصري بجامعة Exeter البريطانية، وشارك فيها باحثون من جامعات مختلفة أمريكة وروسية وإيطالية وسويدية. انتهت الجلسة ولست أحب أن أخوض معكم في تفاصيل الأبحاث، فذاك أمر يطول، كما أنه يمكن الرجوع إليه، والحق أنني أخذني شيء عظيم من الإرهاق لطول السفر، وقلة النوم، وعناء المشاركة. وكان قد أصابني شيء من الجوع، فهمست في أذن صديقي زهير ونحن في قطار العودة من الجامعة إلىٰ البنسيون: أين سنتناول العشاء في هذه الليلة الليلاء! لقد التهبت يا صاحبي الأمعاء، فقال: إنك اليوم من المكرمين، سأصطحبك إلىٰ واحد من أكبر مطاعم المدينة كلها، وهو يقدم «أوبن بوفيه» Open buffet، تتناول فيه ما تشاء وبالكمية التي تشاء. فطربت لكلام زهير ورقصت الأمعاء.

دخلنا المطعم فوجدنا ما لذ وطاب، من اللحوم والأسماك والدجاج، والمشروبات والحلوىٰ، وكل أصناف الطعام. حملت ما رأيت أنه يكفي لسد هذا الجوع، وانطلقت إلىٰ منضدة قريبة، وكان المطعم شديد الزحام، يجلس علىٰ جانب من هذه المنضدة شيخ عجوز ذو ملامح شرقية، وقد شرع في تناول طبق كبير من الجمبري، وفي جواره مقعدان خاليان، فاستأذناه في الجلوس إلىٰ جواره، فأذن لنا، ودار حديث بيني وبين زهير ذكرت له فيه لذة الطعام، وكيف أن معشر الجن فاتهم خير كثير وضاعت منهم لذة عظيمة لأنهم قوم لا يأكلون. فابتسم زهير وسخر مني، وقال ألم تر إلىٰ كرشك كيف ارتفع أمامك! كان الله جارك!

لاحظت أن الشيخ يرهف السمع إلىٰ حديثنا ويختلس النظر إلينا، وكلما هممت

بالتحدث إليه غلبني الحياء، فوجهه وجه مصري، لكنني لا أستطيع القطع بذلك، ولا أريد أن أخطئ في التقدير فأقع في حرج، فلعله من أحفاد العرب في الأندلس، وقد حمل هيئتهم ولون جلودهم! ولما طال الحديث بيني وبين زهير، فاجأنا الشيخ بالسؤال: أنتما مصريان؟ فقلت: نعم، أنا مصري، وهذا صاحبي زهير أندلسي. فما إن ذكرت كلمة أندلسي حتىٰ هش الرجل وبش، وترك الشوكة والسكين، والتفت إلينا بكله، وقال: مصري وأندلسي! لله ما أكرمكما وما أنبل أصلكما وما أشرف شعبيكما. فشكرته، وسألته: ومن الشيخ؟ فقال: ألا تعرفني! إنني رجل مصري، أفنىٰ عمره يبحث في تاريخ هذه البلاد، ويكتب أخبارها. أنا «محمد عبد الله عنان» هل سمعت باسمي من قبل؟ ما إن ذكر الرجل اسمه، حتىٰ ألقيت الشوكة والسكين، وتركت الطبق وما فيه من لذيذ الطعام، وانكببت علىٰ يده أقبلها، وقلت: وهل يخفىٰ القمر، يا شيخ الأندلسين، وإمام المؤرخين، لعمرك لو لم أنل من هذه السفرة غير شرف لقائك لكفاني. فقال: أكرمك الله يا ولدي، لقد حملت معك روح أهل مصر وحسن أخلاقهم.

شيخنا الجليل . . خبرني بالله عليك، كيف عرفت كل هذه اللغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية، واللاتينية. وأنىٰ لك هذا الأسلوب الرائق البديع في الكتابة والترجمة، فما أروع ترجمتكم أطروحة الدكتوراه الفرنسية للعميد طه حسين، عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية. ثم هذا الجهد الصادق العظيم في سِفْرِكُم الجليل: «دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلىٰ السقوط». فقال: يا ولدي هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن أخلص للعلم يسر الله له سبله، ولعلك تعلم أنهم قالوا قديما: لن يعطيك العلم بعضه حتىٰ تعطيه كلك!

شيخنا الجليل . . قد كتبت لنا تاريخ الأندلس كما لم يكتبه أحد قبلك، ولا أظن أن يكتبه أفضل منك أحد يجيء بعدك، لقد كنت تأخذنا في الأحداث، وترويها وكأنك تراها رأي العين، وكأننا نراها معك، فهلا قلت لنا شيئا عن تاريخ الأندلس لا نسأل عنه أحدا بعدك، وكيف أنها سقطت بعد علو وازدهار.

اعتدل الشيخ في جلسته، وكان زهير قد أحضر له فنجان قهوة، فارتشف منه رشفة ثم قال: يحلو لبعض المشتغلين بالفكر والدين والسياسة في هذا الزمان، أن يعزو ما

آلت إليه حال العالم العربي الإسلامي من تشتت وهوان إلىٰ مؤامرات يحيكها الغرب، ويُحكم غزلها فيتردىٰ فيها العرب تردي الفريسة الغفلىٰ في شباك صائدها! والحق يا ولدي أن القول بنظرية المؤامرة يفتح الباب علىٰ مصراعيه للقول بالظن والتخرص أقوالا لا نهاية لها ولا حد! ألا ترون أن للأنانية وحب الذات وشهوة السلطة الدور الأكبر في هذا الضياع الذي نعانيه؛ وقد سبقنا إلىٰ مثله إخوة لنا من قبل في الأندلس، ضيعوا وحدتهم وأسقطوا خلافتهم، وجعلوها طوائف كل يستأثر بمملكته ويغير علىٰ ما حوله من ممالك إخوانه من المسلمين! أرأيتم كيف والىٰ المعتمد بن عباد وغيره ألفونسو السادس ملك إسبانيا ودفع له الجزية ووافقه علىٰ إسقاط طليطلة؟ هل كان ذلك لتآمر الغرب وحده علىٰ المسلمين آنذاك؟! أم لأننا قد عميت قلوبنا وبصائرنا وغلبت علينا الأنانية والحقد وضيق الأفق!!

إن فساد النفوس يا ولدي هو سر كل ضياع! لقد سألتني أن أروي لك شيئا من تاريخ الأندلس، وسأختار حدثا واحدا يقوم دليلا علىٰ ما ذهبت إليه. ارتشف رشفة أخرىٰ من القهوة، وأعرب عن سعادته بطرق هذه القضية، وطلب إلي أن أواصل تناول الطعام، علىٰ أن يستمر هو في الحكي. قال سأروي لك قصة انقلاب محمد بن هشام الملقب بالخليفة المهدي، علىٰ الخليفة هشام المؤيد، لقد حدث ذلك يا ولدي في صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادىٰ الآخرة ٣٩٩هـ، ١٦ فبراير ١٠٠٩، فقلت له: ما أعجبك يا سيدنا وهل تحفظ تواريخ الوقائع بالأيام والساعات؟ فقال وكيف أنساها يا ولدي، إن هذه الحادثة من أعجب ما رأيت من عبر الدنيا! لقد تم هذا الانقلاب في نصف نهار! تم فتح مدينة قرطبة، وهدم مدينة الزاهرة، وخلع خليفة قديم، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد، ولا وقع عليه اختيار، وجرىٰ هذا كله علىٰ يد بضعة عشر رجلا من أراذل العامة، حجامين وخرازين وكنافين وزبالين، تجاسروا علىٰ الخليفة المؤيد، فاضطروه إلىٰ أن يخلع نفسه.

لقد كان الشعب القرطبي يضطرم يا ولدي كرها لبني عامر وسخطا عليهم، وكان يرقب أول بادرة للانفجار، فلما وثب محمد بن هشام علىٰ الخليفة؛ لبىٰ الشعب دعوة الخروج والثورة دون تدبر، ولم يفكر في العواقب، والحق أن الأمة الأندلسية لم تجن من هذا الانقلاب خيرا، وذلك لأنه لم يقف عند القضاء علىٰ دولة بني عامر، وإنما

دفع الأمة الأندلسية كلها إلىٰ معترك مروع من الفتن والفوضىٰ، انتهىٰ بانهيار الأندلس وتمزيقها.

والحق يا ولدي أن الخليفة الجديد كان شخصية مغامرة، لكنه كان رخوا، تحركه النزعات الوضيعة، ولا تحدوه أي غاية مثلىٰ، وقد استقبله العامة والدهماء من الشعب القرطبي، الذين آزروه والتفوا حوله، استقبلوا ولايته بمظاهر الرضىٰ والسرور، وأقاموا الحفلات والولائم، وظنوا أنهم قد أفلتوا من النظام العامري الغاشم، ليستقبلوا عهدا جديدا من الرخاء والحرية والتسامح، وما دروا أن القدر يتربص بهم، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة عهدا مليئا بالمحن والأحداث المؤلمة.

جذبني حديث الشيخ، ورأيت صاحبي زهيرا مطرقا ينصت في اهتمام، فطلبت من الشيخ أن يفصل القول في هذا الخليفة الجديد، وأن يذكر ما جرىٰ له، فقال: الواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف، كما يقولون، ولم تكن جرأته التي تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد، والقضاء علىٰ سلطان بني عامر، لم تكن جرأة زعيم مقدام؛ يعرف قدر المسئوليات التي حملها علىٰ عاتقه، ولكنها كانت جرأة مغامر متهور، وزعيم عصابة غير مسئولة، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة، دون وعي ولا تدبر، شأنها دائما في كل انقلاب وكل حدث جديد. والحق يا ولدي أنه ما كاد يشعر باستقرار أمره، وتمكن سلطانه، حتىٰ أطلق العنان لأهوائه وطغيانه، وجمع حوله بطانة سوء، أخذت تتنكر للناس، وتضطهدهم وتسومهم سوء الخسف، فقتل كثيرا منهم ونفىٰ آخرين عن قرطبة، وطارد الخليفة هشام المؤيد، فحبسه في القصر مدة، ثم أخرجه بعد ذلك وأخفاه في بعض منازل قرطبة، ثم بطش بكثير من الخلق ومعهم ولي عهده سليمان بن هشام، فسجنه وسجن معه جماعة من قريش.

ارتشف الشيخ رشفة سريعة من القهوة، ثم واصل الحديث وقد أخذته الحماسة: ثم تألبت عليه يا ولدي جموع البربر، واستعانوا عليه بأمير قشتالة، فأرسل إليهم المهدي جيشا عظيما لقتالهم لكن الجيش مُنِيَ بهزيمة ساحقة، ارتاع المهدي لها وأخذ في تحصين أسوار قرطبة، وتنظيم القوات، لكن البربر واصلوا الزحف علىٰ قرطبة، واشتبك الفريقان في يوم السبت ١٣ ربيع أول ٣٩٩، ٥ نوفمبر ١٠٠٩، واضطرمت

بينهما معركة شديدة، وسرعان ما دب الخلل في جيش المهدي فارتد منهزما، وتبعهم البربر بعنف فضاقت بهم المسالك، وقتل منهم نفر كثير، ولما رأىٰ المهدي هزيمة جنده، أسقط في يده، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة، فأظهر الخليفة الأول هشاما المؤيد الذي أخفاه، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر، وأرسل القاضي بن ذكوان إلىٰ جموع البربر الثائرة يخبرهم أن الخليفة هشاما ما زال هو الإمام الشرعي للبلاد، وأن ليس المهدي إلا نائبه وصاحبه، فرده البربر بجفاء وسخرية، ولم ير المهدي أمامه سوىٰ الفرار والنجاة بحياته، فغادر القصر سرا، واخترق قرطبة متنكرا، ولحق بطليطلة. وبعد سلسلة من الخطوب والأحداث الجسام، يطول الحديث لو أنني رويتها، أخرج الناقمون علىٰ المهدي الخليفة هشاما من محبسه، وأجلسوه للخلافة، ونادوا بولايته، وأتوا بالمهدي بين يديه، فضرب عنقه واحتز رأسه، وألقىٰ بجسده من أعلىٰ السطح، ورفعوا رأسه علىٰ قناة طِيفَ بها في الشوارع، ووقعت هذه الواقعة في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هجرية، ٢٣ يوليو ١٠١٠ من الميلاد.

حكىٰ الشيخ تلك الحكاية الحزينة، فرأيت زهيرا ينظر في ساعته، وقد أخذه القلق، لأن الوقت تأخر، وأننا لا بد أن نعود إلىٰ البنسيون لنأخذ قسطا من الراحة، ثم نعود في الصباح إلىٰ المؤتمر، فاستأذنا الشيخ في الانصراف علىٰ وعد بلقاء آخر قبل مغادرة مدريد.

ذهبت وصاحبي زهير بن نمير إلىٰ البنسيون، فقضينا هناك الليل وما كان أطوله، نفكر في كلمات ابن عنان، حول أخطر وقائع التاريخ في الأندلس. الحر معرق وشديد، والنت دائم الانقطاع، شكوت انقطاعه إلىٰ الخواجة كارلوس صاحب البنسيون، فاعتذر وأقسم أن عطبا أصابه اليوم، وأنه لأول مرة يكون علىٰ هذه الحال من السوء، ضجرت نفسي لحديثه وقد بدا عليه الكذب، فالنت دائما علىٰ هذه الحال. عرفنا ذلك من تقييم النزلاء السابقين علىٰ الموقع الإلكتروني Booking.com. رفع كارلوس عصا غليظة إلىٰ الراوتر في سماء الردهة وصفعه صفعة فأغلقه وأعاد تشغيله، ثم أعطاني العصا لأواصل الغلق والتشغيل طوال الليل، عند تكرار الانقطاع.

أشرقت شمس الصباح، شممت صبح القاهرة الحار المعرق .. بل صبح قريتي في أغسطس .. صياح الديكة .. هديل الحمام .. خوار ثور .. صوت بقرة ونهيق

حمار . . عرق يلجمك ويغرق رقبتك . . تمسح العرق بيدك ضائقا به . . صوت الجار، يجر بقرته من مربطها إلىٰ الحقل، يأتي من النافذة: صباح الخير يا أبو محمود . . يرد: صباح النور يا حاج أحمد، نهارك نادي!. وقع أقدام البهائم تخطو فوق عتبة الزريبة . . بصيص نور ضعيف يصل من النافذة إلىٰ عينك التائقة إلىٰ مزيد من النوم . . إنها السابعة صباحا . . نعم لكنني لست في القرية، ما الذي جاء بكل هذه الأصوات إلىٰ ذهني الآن، بقيت ساعتان علىٰ بدء جلسة المؤتمر. صينيون وكوريون وأوروبيون يروحون ويجيئون في الردهة أمام الباب، أيقظت زُهيرا وارتدينا ملابسنا علىٰ عَجَل، نظرت من النافذة مرة أخرىٰ، الصبح مشرق جميل، «والصبح إذا تنفس»، كتبتها في صفحتي علىٰ فيس بوك، وانطلقت وزهير نحث الخطا إلىٰ المؤتمر.

لدينا بعض الوقت لتناول الإفطار. دلفنا إلىٰ بار قريب من محطة المترو في ميدان بوابة الشمس، تناولنا الإفطار، فطائر بالعسل وفنجان من القهوة، زحام شديد، كل الإسبان يفطرون في البارات! يا إلهي أين عربات الفول، ورائحة الفلافل المنبعثة من المطاعم والمحلات. لقد استبدلوا البارات بكل شيء!

فرغنا من الإفطار وتوجهنا إلىٰ محطة المترو، فالتقينا عند مدخلها بطائفة من المستشرقين المشاركين في المؤتمر. عرفنا أنهم يقطنون في فنادق قريبة من المحطة. كانت فرصة طيبة كي ترىٰ كبار المستشرقين علىٰ طبائعهم بعيدا عن الكتابات العلمية، والمحاضرات الأكاديمية. عنوانهم البساطة . . لقد دهشت لروجر ألن، وهو يلبس صندلا جلديا يكشف عن أصابعه، وكرافته مزركشة، علىٰ قميص وبلوفر مفتوح. يعابث أصدقاءه وكأنهم شباب في العشرين. إنهم لا يحفلون كثيرا في مؤتمراتهم بارتداء الملابس الرسمية، ورابطات العنق المحكمة كما نفعل في مؤتمراتنا، قميص بنص كم، وصندل صيفي جميل!

حضرنا الجلسة الأولىٰ من المؤتمر ثم توجهنا للغداء في مطعم قريب، حجزته الهيئة المنظمة للمؤتمر، المطعم أنيق، لكنه يقدم لحم الخنزير ونحن لا نأكله! صحيح أن الدول الأوربية كلها تحتفي بلحم الخنزير، لكن ما رأيت أشد من الإسبان احتفاء به، تجده أشكالا وألوانا في المطاعم والأسواق والبارات، وأشهر أنواعه هذا النوع المدخن القديم، المؤذن بتغير الرائحة!

تصادف أن جلست علىٰ الغداء في جوار الدكتور وليام جرانارا William Granara أستاذ الأدب العربي بجامعة هارفارد الأمريكية، وهو رجل دمث الخلق وفيه ظرف كبير. لما جرىٰ ذكر الخنزير وطرق سَمْعَه أننا لا نأكله، وطلبنا أن يأتونا بشيء غيره، ابتسم وقال بلكنة الأعجمي: «عاوز فراخ»، قالها وضج بالضحك، وذكر أنه قضىٰ في مصر مدة طويلة من حياته في عهد السادات، وأنه أدمن الوقوف في طوابير الجمعيات الاستهلاكية كالمصريين، غير أنه كانت له ولكل الخواجات من الأمريكان بطاقات خاصة لصرف السلع التموينية تختلف عن بطاقات المصريين! وذكر أنه كان يهرول في لهفة معهم إلىٰ الجمعية إذا ما علم بوصول الفراخ «فراخ الجمعية»!

طربت لحديث الرجل عن فراخ الجمعية، وكأنه مصري قدم إلينا من بولاق الدكرور! ولما جرىٰ الحديث عن وفرة الخنازير في إسبانيا دون غيرها من المدن الأوروبية، فسرها William Granara بأنه حين سقطت الأندلس في أيدي الإسبان وأقيمت محاكم التفتيش اضطر كثير من المسلمين إلىٰ تبديل دينهم، وأعلنوا اعتناقهم المسيحية علىٰ كره منهم حتىٰ يتلافوا العذاب، ففطن الإسبان إلىٰ ذلك، وراحوا يمتحنونهم بأن يضطروهم إلىٰ أكل لحم الخنزير، فإن أكلوه وإلا كانوا من الكاذبين، وكان حظهم العذاب المهين . . كان ذلك الاجتهاد منه لكنه لم يقطع بصحته علىٰ كل حال(1).

أعجبني حديثه عن مصر وجمعياتها الاستهلاكية وفراخها، إذ ردني بذلك وهو الأمريكي إلىٰ أحضان مصر من حيث لا يدري! ثم رأيته فجأة يستأذن في الانصراف قليلا، فسألته إلىٰ أين، فرد بلكنة أمريكية: «رايح أسلم ع الخواجة»، أي خواجة هذا الذي تريد أن تسلم عليه؟! فضج بالضحك وقال، هذه كناية مصرية عن الذهاب إلىٰ دورة المياة. فتضاحكنا وقلت له لعلها كناية مصرية قديمة، تعود إلىٰ عهد السادات، أما اليوم فهناك كنايات أخرىٰ واستعارات!

---

(1) من طريف ما يروىٰ في هذا السياق أنني دار حوار بيني وبين زميلة لي مَجَرِيَّة وكنا في المطبخ نعد طعاما، عن علة تحريم أكل الخنزير عند المسلمين، فرجعت الفتاة السبب في ذلك إلىٰ كثرة لحم الخنزير وسمنه ووفرته، فإذا ذبح الخنزير وهو بهذه الوفرة من اللحم، فإنه سيتلف ويفسد قبل أن يُستفاد من لحمه؛ وذلك لأن بلادنا حارة، أما في أوروبا الباردة فإن اللحم لن يفسد لبرودة الجو، ومن ثم لم يكن الخنزير عندهم محرما!! فلم أسمع بأعجب من هذا الفهم في علة تحريم لحم الخنزير!

طربت لحديث جرانارا وروحه المرحة، ثم أخذنا الحديث إلىٰ التعبيرات الاصطلاحية في العامية المصرية، من مثل التسليم علىٰ الخواجة وغيرها، وأخذنا الحوار إلىٰ السباب في العامية المصرية، فأبدىٰ الرجل اهتماما كبيرا، وقال إنه كان وما يزال يطرب كثيرا لطريقة المصريين في الشتم والسباب، وقدرتهم الفائقة علىٰ صياغة شتائم مبتكرة، وَدَّ لو أنها تدخل في نطاق الأدب، وتخضع للبحث والدراسة! ويذكر أنه كان وما زال يتابع بشغف شديد إنتاج الشباب المصري للشتائم وابتكارهم طرق السباب، اللفظية منها والصوتية. فالشتائم المصرية في نظره ليست فاحشة منكرة كالسباب الأمريكي أو الغربي بعامة، فقد بلغ هذا الأخير الغاية في السوء والقبح والبذاءة. أما شتائم المصريين ففيها من الظرف واللطف والضحك شيء كثير، وهي لا تكاد تخدش الحياء!. وذكر أمثلة من هنا ومن هناك كان يستخدمها هو بنفسه إبان إقامته في مصر!

ويروي أنه كان يسير في السبعينيات في ميدان طلعت حرب بصحبة صديقة له مصرية، فاستوقفه بعض البلطجية يزعمون أنهم من أولاد البلد، وقد أخذتهم الشهامة، فلا يسمحون لمصرية أن تصحب أمريكيا علىٰ مرأىٰ ومسمع من الناس، لما قد يلحق بها من الخزي والعار، وقد أغرتهم به ملامحه الشقراء الأجنبية وشعره الفضي، فلما تحرشوا به، هالهم ما كان منه! سبهم الخواجة الأمريكي بعامية وقحة أتقنها، وأطلق أصواتا منكرة من فمه ومن أنفه لا تكون إلا من أهل الشوارع والأسواق . . فذهل البلطجية لما رأوا منه وما سمعوا، إذ لم يتوقعوا أن يكون أشد منهم شراسة في رد الفعل، فصافحوه وأخلوا سبيله وهم يضحكون، ونعتوه بـ«الخواجة ابن البلد»!

ترىٰ هل يخرج علينا الدكتور وليام جرانارا قريبا، لعنايته هذه بألفاظ السباب؛ ببحث في «السباب المقارن»؟!

بعد الفراغ من الغداء آثرت القيام بجولة في ربوع مدريد، أشاهد معالمها وأتعرف علىٰ حياة الناس، فلفتتني مظاهرات كثيرة في الشوارع، أفواج من الناس يرفعون لافتات تشي بالرفض والاعتراض، فسألت زهيرا عن ذلك فقال هم موظفو السكة الحديد وعمالها، رأت الحكومة الإسبانية التخلص من كثير منهم وتقليل المستحقات المالية للباقين، وذلك في ظل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي تعيشها البلاد! فقلت:

لهم الله ولأهل مصر! واصلنا السير في الطرقات حتىٰ جن علينا الليل، فطفنا في وسط المدينة في سوق القديس ميجيل Mercado de San Miguel، وهو أكبر الأسواق الشعبية وأشهرها في قلب مدريد، فيه زحام شديد، وإقبال للسائحين عظيم، رأيت علىٰ مقربة منه هرجا ومرجا من فتيات حسناوات، في ثياب قصير غريب، وبينهن فتاة ترتدي ثوبا أبيض قصيرا كذلك، وعلىٰ رأسها تاج من الريش الملون بألوان زاهية. يصخبن جمعيا وتتعالىٰ ضحكاتهن ويمرحن مرحا بلا حدود. فتساءلت عن ذلك فقال زهير إنها «حفلة توديع العزوبية» وهو تقليد معروف في إسبانيا، حيث تودّع الفتيات اللاتي سيدخلن القفص الذهبي، حياة العزوبيّة، من خلال سهرة يقضينها مع الصديقات في الخارج، فيستمتعن بوقتهن، ويمارسن خلالها طقوسا، قد تبدو شاذة وغير مألوفة، فهذه الحفلة هي الفرصة الأخيرة لكل فتاة مقبلة علىٰ الزواج لممارسة أنشطة قد لا توافق شريكها الجديد.

ويروىٰ أن هذه العادة انتقلت إلىٰ بلاد العرب كذلك، ففي لبنان والسعودية يقيمون حفلات للفتيات ابتهاجا بتوديع العزوبية، ويزعمون أن هذه العادة مأخوذة عن الغرب والإسبان بخاصة. صحيح أن هذا الحفل يختلف عما يسمىٰ عندنا بـ «ليلة الحنة»، فليلة الحنة تسبق الزفاف بيوم واحد، لكن حفل توديع العزوبية قد يسبق الزفاف بأيام، لكن له جذورا في مصر، فقد كان من العادات المرعية عند طبقات الشعب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أن تذهب العروس قبيل زفافها إلىٰ الحمام في أبهة واحتفال. ويسمىٰ هذا الاحتفال «زفة الحمام». تتقدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع. وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام علىٰ صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز. ويوجد كذلك سقاء يروي ظمأ السائرين، ورجلان يحمل أحدهما إناء مملوءا بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه علىٰ السائرين. ويحمل الآخر مبخرة من الفضة يحرق فيها العود. وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات، يتقدمن اثنتين اثنتين، وتتلوهن الفتيات العذارىٰ. ثم تتبعهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية يحملها أربعة رجال. ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها، وامرأة أخرىٰ تروح عليها عندما تشتد الحرارة بمروحة كبيرة من

ريش النعام الأسود يزين أسفلها مرآة صغيرة. وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقا ملتويا ليطول العرض. وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها فيمضين ساعات في الاستحمام واللعب وتناول الطعام. وكثيرا ما تستأجر العوالم لتسليتهن في الحمام. ثم تعود الزفة بالطريقة نفسها. ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة، علىٰ أن يقيم العريس المأدبة التي تعقب ذلك، ويتحمل نفقات حفل الزفاف.

فرغنا من التجول في سوق القديس ميجيل، ومتابعة حفل توديع العزوبية الطريف هذا، وكان بلغ منا التعب مبلغه فعدنا إلىٰ البنسيون، قضيت الليلة، ثم تاقت نفسي في الصباح إلىٰ زيارة جامعة مدريد كمبلوتنسىٰ، Complutense University of Madrid تلك الجامعة العريقة التي تخرج فيها جمع كبير من كبار الدراعمة في العصور الزاهرة. توجهت إلىٰ محطة مترو Ciudad Univesitaria، المواجهة لمجمع الكليات، الطب والصيدلة والمعلومات وغيرها، ثم انحرفت قليلا جهة اليسار حتىٰ وصلت إلىٰ كلية الفلسفة والآداب، وهي بغيتي، وهي مبنىٰ كبير، بني من طوب وردي اللون غير مطلي، مكون من ثلاثة طوابق. وفي مواجهته حديقة تتخللها طرقات، انتصبت في بعض جوانبها تماثيل لمشاهير الساسة والفلاسفة والأدباء، كان من بينهم عمر الخيام.

ورغم جلال المكان في نفسي فقد ساءني تلويث جدران المبنىٰ والواجهات والمباني المجاورة والأسوار والسلالم بالكتابة والرسوم القبيحة، التي تعبر عن الرفض، وذلك في ظل موجة من الاحتجاجات والإضرابات تعصف بإسبانيا في هذه الأيام اعتراضا علىٰ تدني الأجور والفصل من العمل، وفي الجامعة اعتراضات علىٰ نظم التعليم والرسوم الدراسية، ودفاع عن الفلسفة والعلوم الإنسانية التي يبدو أن ثمة اتجاها للتقليل من أهميتها هناك، شوه الطلاب جدران المبنىٰ، وبدا مدخله قبيحا، يذكر بما رأيته علىٰ جدران دار العلوم وأسوار جامعة القاهرة في بعض زياراتي لمصر.

دخلت المبنىٰ وتوجهت إلىٰ قسم الدراسات العربية والإسلامية، وهو عبارة علىٰ ممر كبير علىٰ جانبيه مكاتب الأساتذة، وفي نهايته مكتبة خاصة به، فدلفت إلىٰ المكتبة، وهي قاعة متوسطة الحجم، تمتلئ بقوائم خشبية محملة بالكتب، وعلىٰ جدران المكتبة علقت لوحات بخط عربي أنيق، فيها أسماء الله الحسنىٰ، وبعض آيات القرآن، وعبارة ﷺ، وصور لصفحات من مخطوطات عربية قديمة، بأنماط من

الخط العربي مختلفة، في جانب من القاعة علقت علىٰ الحائط صور لكبار المستشرقين الإسبان الذين عملوا بهذا القسم قبل سنين، وكان لهم دور كبير في الدراسات العربية الأندلسية وهم باسكوال كيانجوس (١٨٩٧-١٩٠٨) D. Pascual de Gayangos وفرنسسكو كُودِيرا زيدين (١٨٣٦-١٩١٧) D. Francisco Codera y Zaidin وخليان ربيرة طرَّغوه (١٨٥٨-١٩٣٤) D. Julian Ribera Tarrago وأنخل غونثالث بالنثيا (١٨٨٩-١٩٤٩) D. Ángel González Palencia. وهو تقليد طريف رأيته من قبل في معهد الدراسات العربية ببرلين، وفي كلية دار العلوم بالقاهرة.

وقد لفتني من بين هؤلاء وجه الراهب الإسباني والمستشرق الشهير الأب مِيغِل آسِين الاثْيُوس Miguel Asín Palacios (١٨٧١-١٩٤٤)، ناقل كتاب الفِصَل لابن حزم إلىٰ الإسبانية، الذي أكد في عام ١٩١٩ أن رائعة أوروبا «الكوميديا الإلهية» للشاعر الإيطالي دانتي، منقولة فكرتها من أصول عربية، وأن صاحبها مقلد لبعض الكتب العربية التي وردت عن معراج الرسول عليه الصلاة والسلام وأهمها كتاب رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وكتاب الفتوحات المكية لابن عربي. ورغم اعتراض الإيطاليين علىٰ ما ذهب إليه بلاثيوس وتوقفهم في قبول زعمه، ربما بدافع من الحمية والتعصب لشاعرهم الكبير، فقد تواترت الأدلة فيما بعد علىٰ صدق مقولته، وذلك حين أصدر المستشرق الإيطالي إنريكو تْشِرُولِلي كتابا عام ١٩٤٩ نشر فيه الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة للكتابات العربية للمعراج الإسلامي. وقد روي أن ألفونسو العاشر ملك قشتالة أمر بترجمة هذه الكتابات من العربية إلىٰ القشتالية، فترجمهما له الطبيب اليهودي إبراهيم الحكيم عام ١٢٦٤ أي قبل مولد دانتي بعام واحد. ثم طلب هذا الملك من المترجم الإيطالي (بوناڤِنْتورا دا سِيَنا) ترجمتها من القشتالية إلىٰ اللاتينية والفرنسية القديمة في نفس السنة لإذاعتها فيما وراء الحدود الإسبانية، وبذلك أيد تْشِرُولِلي فكرة بلاثيوس بما لا يدع مجالا للشك من أن أبا العلاء المعري أخذ كل بشر الدنيا إلىٰ السماوات من خلال رسالة الغفران.

بعد الفراغ من زيارة الجامعة توجهت إلىٰ زيارة بعض معالم المدينة مثل كنيسة المدينة Almudena Cathedral، وهي تقع بالقرب من القصر الملكي. ويلاحظ أن اسمها مشتق من أصل عربي، وهي واحدة من أكبر الكنائس في إسبانيا. وزرت في

هذه المنطقة كذلك المعبد المصري الفرعوني ديبود . . الذي يقوم علىٰ ربوة في قلب مدريد تقع بجوار القصر الملكي. وقد أهدته الحكومة المصرية في عهد عبد الناصر لإسبانيا تقديرا لجهودها في الحفاظ علىٰ الآثار المصرية، بعد النداء العالمي الذي أطلقته منظمة «اليونسكو» لإنقاذ معابد النوبة من الاندثار نتيجة لارتفاع منسوب مياه النيل في منطقة أسوان بعد بناء السد العالي. اهتبل الإسبان الفرصة، فنقلوا المعبد مفككًا إلىٰ مدريد، وكانت عملية نقل المعبد من أسوان إلىٰ مدريد طويلة و"ملحمية"، فقد فككت أحجار المعبد في موقعها الأصلي ووضعت في صناديق ظلت تسع سنوات علىٰ جزيرة وسط النيل، ثم جرىٰ نقلها بالمراكب في رحلة تحاكي الطقوس القديمة بطول نهر النيل إلىٰ مدينة الإسكندرية لتنقل بالبواخر حتىٰ ميناء فالنسيا ومنه إلىٰ مدريد، ثم أعيد تجميعه وتشييده في إحدىٰ أشهر الحدائق بقلب العاصمة وبجانب القصر الملكي، ليصبح، منذ افتتاحه عام ١٩٧٢، أحد أشهر المقاصد السياحية في مدريد، ودخوله مجاني بدون تذاكر، لينضم بذلك إلىٰ قائمة كبيرة من الآثار المصرية التي تمتلئ بها أوروبا، دون عائد لبلدها الأصلي. مسلة في فرنسا، ونفرتيني ومتحف كامل في برلين، ومعبد كامل في مدريد! . . . إلخ.

لِمَ تحزن أيها الدرعمي علىٰ إهداء الآثار المصرية إلىٰ دول العالم إنقاذا لها! ألم تعلم بأن غرق المعابد في بلادنا قديم، ألم يُغرق النيل من قبل معابد جزيرة فيلة، التي حملت فيما بعد الاسم العربي قصر «أنس الوجود»، وخلد هذه الذكرىٰ أمير الشعراء شوقي بقصيدة ذائعة! وذلك حين زار الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت معابد فيلة إبان زيارته لمصر في مارس ١٩١٠، بعد أن خطب في الجامعة المصرية فَأساء إلىٰ مصر في حديثة وهاجم الإسلامَ، وخطب قبل ذلك في السودانَ، فأثنىٰ علىٰ الحكم الإنجليزي في مصرَ، مخالفا بذلك تقاليد الحرية التي نادت بها أمريكا بعد تحررها من الاستعمار. فردت عليه بعض الصحف آنئذٍ، ثم انتهز أحمد شوقي فرصة زيارته لمعابد فيلةٍ، فأراد أن يلقنه درسا في احترام مصر والكشف عن عظمة تاريخها وآثارهاٍ، وخاطبه بقصيدة مدويةٍ، مخالفا نهج الحكومة التي لم ترفع صوتها بالاحتجاج علىٰ ما قاله روزفلتَ. قال شوقي:

أيُّها المُنتَحي بأسوانَ دارًا ... كالثُّرَيّا، تُريدُ أنْ تَنقَضّا

اخلَع النَّعلَ واخفِض الطَّرفَ واخشَع   لا تُحاوِل مِن آيةِ الدَّهرِ غَضّا
قِفْ بِتِلكَ القُصورِ في اليَمِّ غَرقىٰ   مُمسكًا بَعضُها مِن الذُّعرِ بَعضا
كَعَذارىٰ أخفَينَ في الماءِ بَضًّا   سابِحاتٍ بِهِ وأبدَينَ بَضّا
مشرفاتٍ علىٰ الزوال، وكانت   مشرفاتٍ علىٰ الكواكب نَهْضَا
شَابَ مِن حَولِها الزمانُ وشابَتْ   وشَبابُ النُفوسِ ما زالَ غَضّا

واصلت المسير تداعب مخيلتي أبيات شوقي، حتىٰ وصلت إلىٰ متحف ديل برادو Museo del Prado وهو متحف الفن الوطني الإسباني الرئيسي، ويقع في وسط مدريد. دخلته فإذا عدد ضخم من اللوحات الزيتية بلغت الغاية في الروعة والجمال والإتقان. التقطت لها بعض الصور حتىٰ رفض ذلك المسئولون، فخرجت ثم اشتريت بعض الأطعمة الخفيفة من سوبر ماركت قريب، وذهبت إلىٰ حديقة Real Jardin Botanico وهي قريبة من متحف برادو، جلست علىٰ أريكة في ظل شجرة ورحت أتناول بعض الطعام، وقد لفت نظري تهافت كلاب ضالة علىٰ ما معي من الطعام! فرحت أقذف لها ببعض لقيمات! وهي ظاهرة عجيبة غريبة، فلم أر كلابا ضالة في بلد أوروبي قط إلا في إسبانيا! ولعل هذا دليل علىٰ ما تمر به البلاد من فقر وأزمة في الاقتصاد ظهرت أماراتها في المظاهرات التي سبق الإلماح إليها . . . والعجب كله أنك ترىٰ الإسبان يطوفون في الشوارع آناء الليل وأطراف النهار، لا يبرحون الشوارع والبارات وكأنهم لا عمل لهم! علىٰ نحو يذكرنا بمرتادي المقاهي في مصر.

بعد جولة طالت في الشوارع والمزارات، قفلت راجعا إلىٰ البنسيون، وقد بلغ مني الجهد، تساورني ذكريات الأندلس، وماض جميل تولىٰ، وآثار مصرية نقلت إلىٰ بلاد بعيدة، فلم تعد ترىٰ النيل! عزت علي بلادي، فساورتني خواطر عديدة، سجلتها قبل أن آوي إلىٰ الفراش، في ثوب مقامة عربية، سميتها «المقامة المَدْرِيدِيَّة»، قلت:

حدثنا عيسىٰ بن هشام قال: لما نزلت الأرض الإسبانية، لشهود مؤتمر للعربية، شعرت بشيء من الحنين، كادت له العظام تلين، إذ تصفحت هناك وجوه العباد، فلم أر بينهم المعتمد بن عباد، ولا بعض وَلَدِه ولا زوجته اعتماد، سألت عن بيته في البلاد، فقالوا: دون ذلك خرط القتاد. ذاك عهد مضىٰ وتولىٰ، أتُرَاكَ جئت إلىٰ هنا

تتسلىٰ؟!، آه؛ وقع كلامهم قاس مهين، كأنه ضرب في الحشا بالسكاكين، زمان الأندلس ولىٰ وفات، ولم يبق من أهله إلا الرفات! في جانب من شارع صغير، أمام بيت مهدم حقير، رآني عربي كأنه خفير، له عمامة كبيرة، يجلس علىٰ الأرض علىٰ حصيرة، دعاني إلىٰ الجلوس، لأشرب معه عرقسوس، وقال: أنت عربي؟، قلت: نعم، مصري، قال: خير الناس، لا تخشون الباس، تحسنون السمر وتطردون النعاس! ما جاء بك يا أطيب الجلاس، ذَهِلْتُ عن سؤاله، وقد فُتِنت بحاله، قلت إني أجد فيك ريح الأندلس، قل لي بربك أين أجد ابن عباد، أو زوجته اعتماد، قال: وتكتم السر؟، قلت: ذلك عين البر، قال: إنهما في هذا البيت يعيشان، من أقدم الأزمان، ولا يعلم بخبرهما إنس ولا جان، وإني هنا كي أحفظ الأمان، وأرعاهما من أعين السلطان، إن لهما اليوم ألفا من الولد، يعيشون في كبد، يعدون العدة للهجوم، ورد الحق المهضوم، فاكتم السر المعلوم، وإلا قتلتك ولست فيك بملوم، عما قليل يعاد، سالف الأمجاد، من عهد الآباء والأجداد، فدق قلبي لكلامه، وضج الرأس بأحلامه، لكن الحلم هوىٰ، واشتدت آلام الجوىٰ، حين قام ورقص المسكين، وغمغم بكلام لا يُبين، وألقىٰ عن رأسه العمامة، وقال: أصدقتني يا أبا دلامة؟!، فتبينتُ أنه من المجانين، فقد عقله منذ قرن من السنين، ثم أمسك زجاجة العرقسوس، وراح يعب منها وهو مغصوص، وينشد أطلال ناجي، في صوت حزين شاجٍ:

يَـا فُـؤَادِي لَا تَـسَـلْ أَيْـنَ الْـهَـوَىٰ   كَـانَ صَـرْحًـا مِـنْ خَـيَـالٍ فَـهَـوَىٰ
اِسْـقِـنِـي وَاشْـرَبْ عَـلَـىٰ أَطْـلَالِـهِ   وَارْوِ عَـنِّـي طَـالَـمَـا الـدَّمْـعُ رَوَىٰ

فقمت حزينا كاسف البال، أحمل فوق رأسي الوبال، أتصفح ذاهلا وجوه الناس والبنايات، وقلت في نفسي: اصمت؛ دعك من هذي المقامات! ورحت أردد قول أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

دَهِـيَ الـجـزيـرةَ أمْـرٌ لا عَـزَاءَ لـه   هـوىٰ لـه أُحـدٌ وانْـهَـدَّ ثَـهْـلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتُحِنَتْ   حتـىٰ خَـلَـتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل (بلنسية) ما شأنُ (مُرسية)   وأيـنَ (شـاطـبـةٌ) أمْ أيـنَ (جَـيَّـانُ)
وأيـن (قُـرطبـةٌ) دارُ الـعـلـوم فـكـم   من عـالـمٍ قـد سـمـا فـيـهـا لـه شـانُ

وأين (حمصٌ) وما تحويه من نُزَهٍ ونـهـرهُـا الـعَـذبُ فـيـاضٌ ومـلآنُ
قـواعـدٌ كـنَّ أركـانَ الـبـلاد فـمـا عـسىٰ الـبـقـاءُ إذا لـم تـبـقَ أركـانُ

في الصباح كانت الجلسة الختامية من المؤتمر، أعلنت رئيسة الجمعية عن انضمام عدد من الأعضاء الجدد للجمعية، كنت أحدهم، فأسعدني ذلك، وأعلنت عن البدء في عملية انتخاب رئيس جديد للجمعية، وأمين عام لها، وعدد من الأعضاء، يتولون مهمة إدارة الجمعية والتنسيق من أجل الإعداد للمؤتمر القادم بعد عامين. ساد الجلسة شيء عظيم من المرح والدعابة والسخرية، وجرىٰ ذكر التزوير في الانتخابات والرشوة من أجل جمع الأصوات، للفوز في الانتخابات وتحقيق نسبة تصل إلىٰ ١٠٠% لمن أراد من المرشحين، وضربت الدكتورة إيزابيلا Isabella Camera d`Afflitto الرئيسة الحالية للجميعة المثل في ذلك بانتخابات مبارك!! فلم تكن نسبة النجاح في عهده تقل عن ٩٩,٩ %! رغم شيوع جو المرح والضحك، فقد كان هذا المثل الذي ضربته إيزابيلا بتزوير الانتخابات المصرية، خنجرا مزق أضلعي ونفذ إلىٰ القلب! توقفت عن الضحك رغما عني، لأن ما قيل سخرية مُرَّة من بلدي! من وطني! وطني الذي صار مضرب المثل في أشياء كثيرة!

(٣١)

طليطلة .. إني أجد ريح الأندلس

بعد الفراغ من المشاركة في المؤتمر، انطلقتُ وصاحبي زهير بن نمير من مدريد إلىٰ طليطلة صباح يوم السبت الحادي عشر من مايو من العام الميلادي الرابع عشر بعد الألفين، وبدأت الرحلة بحجز تذكرة الأوتوبيس من محطته الرئيسية في مدريد، ويطلق عليها Alsa، لينطلق بنا إلىٰ طليطلة الخالدة، وهي تبعد حوالي ٧٠ كيلو مترا من العاصمة مدريد. لم تستغرق هذه المسافة وقتا طويلا، قطعناه بأوتوبيس مكيف حديث، راح يهدر في طرق نظيفة متقنة تحيط بها الأشجار من كل مكان، رحت ألتقط لها صورا بعدستي من النوافذ، ولا تزال تطرقني صور طرق مصر، وتهزني رغما عني مطباتها العنيفة. اقترب الأتوبيس من المدينة فازداد وجيب قلبي، لأن عيني ستقع لأول مرة علىٰ أثر من آثار المسملين في الأندلس! يحمل تاريخا مجيدا داميا في الوقت ذاته! أطلت المدينة العتيقة من فوق ربوة عالية كأنها قمة جبل، قذف بنا الأتوبيس في سفحه عند محطة ضخمة للنقل ثم انطلق، فتحركنا من هذه المحطة سيرا علىٰ الأقدام حتىٰ وصلنا إلىٰ محطة أخرىٰ صغيرة، يمر بها أتوبيس آخر داخلي، حملنا في طريق رأسي مرتفع إلىٰ قمة هذه الربوة لنصل إلىٰ ساحة كبيرة في قلب المدينة، يطلق عليها Zocodover، وهي منطقة قديمة اشتق اسمها من الاسم العربي «سوق الدواب» أو «سوق الماشية»، حيث كانت هذه الساحة سوقا لبيع الماشية وشرائها، ثم استحالت فيما بعد مسرحا للإعدام بالحرق لضحايا محاكم التفتيش! وكانت في بعض الأزمنة ساحة لمصارعة الثيران، وما تزال كما كانت في العصر الإسلامي مركزا لقلب المدينة، يجتمع فيها أهالي طليطلة، وهي اليوم سوق كبير تحيط به المحلات التجارية والمطاعم والمقاهي من كل مكان. وتشهد هذه الساحة في كل عام مسيرة الموكب

الديني لجسد المسيح، وكانت منذ أعوام تشهد إقامة سوق أسبوعي يوم الثلاثاء أطلق عليه «سوق الثلاثاء»، وهي السوق الوحيدة المعفاة من الضرائب.

تجولت مع زهير مدة في هذه الساحة التاريخية ثم توجهنا إلىٰ متحف قريب هو المتحف الحربي، Museo del Ejército، وهو يحتوىٰ علىٰ أسلحة قديمة تعود إلىٰ العهد الإسلامي، سيوف قديمة صدئة متآكلة وأخرىٰ كأنها جديدة بيضاء ناصعة، كل ذلك مختلف الأحجام والأشكال، وهي تعكس شهرة المدينة في صناعة الأسلحة والمعادن من قديم، وهناك تماثيل لجنود يلبسون ملابس الحرب في عهود قديمة، ومجسمات صغيرة لسفن حربية تمخر مياه البحر، وقد لفتني علىٰ بعض الجدران لوحة تصور نزالا بين الجند الإسباني وجنود المسلمين في الأندلس في بعض المواقع، فجاءهم الجند الإسباني من فوقهم ومن أسفل منهم، وقد أعملوا في المسلمين سيوفهم ونضحوهم بسهامهم ونبالهم فقذفوا في قلوبهم الرعب، وصرعوا نفرا كثيرا منهم سقطت عمائمهم علىٰ الأرض ونفذت السيوف في رقابهم وسالت دماؤهم، وسقط البعض عن خيلهم، وقد نشبت في أجسادهم الحراب، ودهستهم خيل الفرنج فبقرت بطونهم وفرت أكبادهم، وقُتِل كذلك بعض خيل المسلمين وألقيتْ علىٰ ظهورها في المعمعة، وقد نفذت أسهم اعترضت حلوقها. لقد ألهبت الصورة شعوري، وأورثتني مرارة وجدتها في حلقي! لكنه حق الغالب علىٰ كل حال، فله أن يقول في شجاعته وإقدامه وفتكه بعدوه ما شاء! ألسنا نفخر في مصر بدحرنا الأعداء؟! كم هو شعور قاس أن تكون عدوا لمن يفخر بدحرك وقتلك وهزيمتك!

فرغنا من مشاهدة المتحف الحربي فعدنا إلىٰ «سوق الدواب»، مركز المدينة، مرة أخرىٰ، فحملنا قطار سياحىٰ صغير، يشبه ما يطلق عليه في مصر «طفطف»، أخذنا في جولة لمشاهدة معالم المدينة، جلسنا في القطار فكان أمام كل مقعد سماعات بعدّة لغات من بينها اللغة العربية، فاستمعنا إلىٰ قصة المدينة، ومعلومات عن المعالم التىٰ مررنا عليها من الكنائس والحصون والقلاع وأبواب المدينة الأندلسية، ووقفنا كذلك علىٰ بعض الأساطير الإسبانية عن المدينة، كان منها وقد مررنا بمنطقة قريبة من نهر تاجة الذي يحيط بالمدينة من أكثر جهاتها كالطوق، أن هذه المنطقة التي نمر فيها الآن تسمىٰ «المقتولة»! وذلك لأن المسلمين في زمن الأندلس قتلوا فيها فتاة لهم كانت

أحبت شابا نصرانيا فتزوجته سرا، فلما علموا بخبرها ذبحوها في هذا المكان فحمل ذكراها. فانظر كيف تتشابه الحكايات والروايات عن الصراعات والرفض القائم بين الديانات! أخذ القطار في الصعود مرة أخرىٰ بمحاذاة النهر حتىٰ وصلنا إلىٰ أعلىٰ مكان بجانب سور المدينة، فطلبوا إلينا النزول للراحة والتقاط بعض الصور للمدينة مع النهر، يشعر الناظر من هذا المكان وكأن المدينة كلها ملك له، وقد حلا لي التقاط صورة في هذا المكان تكون المدينة في خلفيتها، كتلك الصورة التي التقطت للشاعر الدرعمي أبي همام عبد اللطيف عبد الحليم إبان بعثته في إسبانيا مع الشيخ محمود محمد شاكر في حقبة السبعينيات.

مشهد طليطلة من أعلىٰ السور ينبئك بجلالها، ويطلعك علىٰ حصانتها ووعورة موقعها وصعوبة اقتحامها! تلوح قلاعها وكنائسها ومبانيها العتيقة شامخة، يجب قلبك وجيبا حين يخيل إليك أنك تسمع الأذان تتجاوب أصداؤه في فضائها! ضربني هذا الشعور فذكرت أبيات شعر درسناها في رثاء طليطلة يقول شاعرها:

طُلَيْطِلَةٌ أباح الكفرُ منها ... حِمَاهَا، إن ذا نبأٌ كبيرُ
فَلَيْسَ مِثَالها إيوان كِسرىٰ ... ولا منها الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ
مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بَعِيدٌ ... تَنَاوُلُها، ومَطْلَبُها عَسِيرُ
أَلَمْ تَكُ مَعْقِلًا للدين صَعْبًا ... فَذَلَّلَهُ كما شَاءَ القَدِيرُ
وأخْرَجَ أَهْلَهَا مِنْها جَمِيعًا ... فصاروا حيثُ شاء بِهِم مَصيرُ
وَكَانَتْ دارَ إيمانٍ وعِلْمٍ ... مَعَالمها التىٰ طُمِسَتْ تُنِيرُ
فعادت دار كُفْرٍ مُصْطَفَاةٍ ... قد اضطَرَبَتْ بأهليها الأُمورُ
مَسَاجِدُها كَنَائِسُ أيُّ قَلْبٍ ... علىٰ هَذَا يَقَرُّ ولا يَطِيرُ

فرغنا من الجولة السياحية بالقطار، فانطلقنا في دروب المدينة سيرا علىٰ الأقدام، فإذا هي كما كانت أيام الأندلس تحتفظ بخططها القديمة، ودروبها الضيقة المنحدرة، لا تندفع منحدِرا في بعض الدروب حتىٰ تأخذ في صعود مرهق مرة أخرىٰ لتنحدر بقوة في طريق ثالثة بين منازل المدينة الصخرية العتيقة.

ثم دخلنا مسجد باب المردوم، أظهر الآثار الإسلامية الباقية في طليطلة، ذلك المسجد الذي بُنِي عام ٣٩٠ هـ لخدمة حراس المدينة الذين يقفون علىٰ أحد أبوابها من

هذه الناحية، أطلق عليه «باب المردوم». نظرت إلىٰ المسجد وقد نقشت علىٰ واجهته بالخط العربي «بسم الله الرحمن الرحيم، أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله الخاص بغية ثواب الله. فتم البناء بعون الله علىٰ يد المهندس موسىٰ بن علي عام ٣٩٠ هـ الموافق ٩٩٩ م». غير أن هذا المسجد تحول بعد سقوط الأندلس إلىٰ كنيسة أطلق عليها مسجد نور المسيح mezquita de Cristo de la Luz، وقد محيت من قبة المسجد القديم النقوش الإسلامية، ورُسِمت فيها صورة شخص أو قديس، ورسمت في حنايا النوافذ الإسلامية القديمة التي كانت سمة العمارة الإسلامية، بعد أن سدت، صور مريم العذراء!

واصلنا الجولة في المدينة فزرنا الحي اليهودي، وبعض الأماكن الأثرية الأخرىٰ، وتناولنا شيئا من الطعام في بعض المطاعم وأخذنا طريق العودة إلىٰ مدريد . . . ومنها إلىٰ برلين.

(٣٢)

عصفور من الغرب

في ذلك اليوم الذي دخلت فيه حجرة الاستقبال بمعهد الدراسات العربية، أنتظر موعد المحاضرة الأولىٰ للأستاذ دوايت رينولدس، الذي قدم من كاليفورنيا أستاذا زائرا يدرس الأدب العربي القديم. جلست وكانت تجلس في مقعد مجاور، سيدة ألمانية نيفت علىٰ السبعين، لكنها ما زالت تحتفظ بقوة وشباب ظاهر، وهذه طبيعة أكثر الألمان علىٰ كل حال، لا تفعل بهم السنون فعلها بأهل مصر! حييتها فردت التحية في ابتسام، وتعارفنا، فإذا هي طالبة ماجستير، جاءت لتحضر محاضرة الأستاذ رينولدس، وحين علمت أنني مصري، أبدت سعادة كبيرة واهتماما، وأخبرتني أنها قضت في مصر تسع سنين تُدَرِّس اللغتين الإنجليزية والألمانية في إحدىٰ المدارس الخاصة في مركز بلبيس بمحافظة الشرقية، غير أنها لا تحسن الكلام بالعربية رغم طول مكثها في الديار المصرية. بعد أن خرجت إلىٰ المعاش، شعرت بهزة نشاط عظيمة: لماذا لا أواصل الدراسة والتعلم، فالتحقت بمعهد الدراسات العربية، وحصلت علىٰ الليسانس، وهي اليوم تدرس للحصول علىٰ درجة الماجستير!

نظرت إلىٰ التجاعيد النضرة في وجهها، وأخذني العجب، ماذا عساها تصنع بدرجة الماجستير إن هي حصلت عليها، لقد نيفت علىٰ السبعين! «سبعون مرت وعمر من اللهاث تقضىٰ»، لا بأس سيدي؛ «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»، أتعْجَبُ من نشاطها، والحق أن تَعْجَبَ من أقوامٍ في بلادِنا ما زالوا في شرخ الشباب، وقد توقفوا عن غرس الفسائل، بل ربما شرعوا في قتل فسائل غرسها غيرهم؛ يضنون علىٰ الشباب أن يناولوا خيرها فيما هو آت من الزمان!

انتظمنا في حضور المحاضرات، نقرأ في كتاب الأغاني أخبار إسحاق بن إبراهيم

الموصلي، وننقلها إلىٰ الإنجليزية، ولم تكن السيدة تشارك في قراءة النص العربي لعجزها عن قراءته، أو لعلها علىٰ عادة المعلمين، لا تحب أن تخطئ وهي في جمع من الطلاب. وتلك آفة كبرىٰ تفتك بمعلم اللغة حين يتعلم لغة أخرىٰ، تأبىٰ عليه نفسه أن يتتعتع في القراءة أو أن يخطئ في القواعد، أو يلحن في الكلام، فيقعد به ذلك الشعور عن تحصيل ما يريد، ولعل هذا الشعور نفسه هو ما قعد بها عن تعلم العربية في مصر، رغم أنها أمضت هناك تسع سنين.

توطدت العلاقة بيني وبين السيدة «أورسولا فيلتوس» Ursula Feltus خلال هذا الفصل الدراسي، الذي طالت فيه صحبتنا لكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، واستمرت العلاقة بعده، ويبدو أن كتاب الأغاني قد وقع في نفسها موقعا حسنا، فرأت أن تكتب رسالتها للماجستير عن الشواعر في كتاب الأغاني، ثم تحولت بعد شيء من التفكير والنظر إلىٰ دراسة قصص محبوبات الشعراء، ويبدو أن صداقتنا كانت عاملا أساسيا في اختيارها لهذا الموضوع، فقد لاحظت حسن فهمي لكلام أبي الفرج، وصحة ترجمتي له، وبخاصة بعدما رأت من رضا الأستاذ رينولدس عني، وثنائه علىٰ مقدرتي في القراءة والاستعاب، فرأت أن نتعاون فيما بيننا، أساعدها في ترجمة ما كتب أبو الفرج عن قيس لبنىٰ، وكثير عزة، وعروة وعفراء، وتساعدني هي، وهي معلمة الإنجليزية، في قراءة فصول رسالتي وتصحيح ما بها من أخطاء في اللغة والأسلوب. فرحَّبْت بفكرتها وسعدت بها، ليس لأنني سأفيد من تصحيحها فحسب، ولكنني لا شك واجد متعة كبيرة في قراءة قصص المحبين عند أبي الفرج، ومكتسب مهارة كبيرة في الترجمة إلىٰ الإنجليزية في هذا الموضوع الشائق الجميل. لكننا أرجأنا هذا الأمر كله إلىٰ حين، فما كنت قطعت في كتابة الرسالة شوطا كبيرا، ولم تكن هي كذلك مستعدة للبدء في الترجمة؛ لأنها كانت قد حصلت علىٰ منحة دراسية من هيئة التبادل العلمي الألماني مدتها ثلاثة أشهر، تقضيها في إحدىٰ كليات اللغة العربية في مصر، ولم يكن مستغربا، بعد توطد العلاقة بيننا، أن تختار دار العلوم.

طلبت مساعدتي فوصلتُ حبالها بفضلاء الأساتذة هناك ممن يعرفون الإنجليزية بخاصة؛ ليسهل عليها التواصل ويطيب لها المقام. وكانت تراسلني من حين إلىٰ آخر، تحكي لي قصة أيامها في مصر، وقد نزلت عند صديقة لها بالفسطاط في مصر

القديمة، وترفق لي مع الرسائل صورا لها مع التوك توك وباعة الخضر، وبائعات البط في سوق الطيور. وأبدت سعادة كبيرة لتوطد علاقتها بالدكتور عبد الحميد شيحة أستاذ الأدب العربي، وأثنت عليه وعلىٰ إنجليزيته خيرا، وكيف لا وقد أمضىٰ الرجل في لندن وغيرها بلاد الفرنجة ردحا طويلا من الزمن!

كان نزول السيدة أورسولا إلىٰ مصر في بداية أكتوبر عام ٢٠١٢، وكنت عقدت العزم علىٰ النزول إلىٰ مصر في أوائل ديسمبر من العام نفسه لزيارة الأهل والأصحاب، فالتقيت بها هناك، وكنت دعوتها لزيارتي في قريتي في ريف مصر، وضربنا لذلك موعدا، علىٰ أن أحضر إلىٰ القاهرة لاصطحابها حتىٰ لا تضل الطريق، وهو أيسر حقوق الضيف الأجنبي علىٰ المضيف.

حجزت تذكرتين في قطار الإسكندرية، درجة أولىٰ مكيفة لأن الضيفة ألمانية، وقد استشرتها فاختارت من بين المواعيد المتاحة لانطلاق القطار، أن تبدأ الرحلة من رمسيس في التاسعة صباحا حتىٰ نفيد من الوقت قدر الطاقة، وقد أثنيت لها علىٰ القطار خيرا، لأنه سيقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية في ساعتين تقريبا، لنكون في الإسكندرية في الحادية عشرة، قلت لها ذلك وأنا علىٰ ذُكر بالقطارات الألمانية، التي إذا جاء موعد وصولها إلىٰ محطة النهاية «لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

قضيت الليلة في القاهرة حتىٰ إذا انبلج الصبح توجهت إلىٰ محطة القطار والتقيت بالسيدة هناك، تحت ساعة المحطة الكبيرة، وطلبت إليها أن نشتري بعض الساندويتشات والعصائر من المطاعم القريبة، لنتناول الإفطار في القطار، وكان قد أخذني شغف عظيم بالفول والفلافل المصرية التي حُرِمْتُها دهرا في بلاد الفرنجة، فرفضت السيدة شراء ساندوتشات لها واكتفت بكيس شيبسي وكانز بيبسي، وقد فطنت إلىٰ سر رفضها، وهي معذورة علىٰ كل حال، فأغلب المطاعم وعربات الفول حول محطة القطار تبدو غير نظيفة، تغسل الأطباق في جردل كبير، وطريقة صنع الساندوتشات قد تؤذي المعدة الألمانية، لكنها لا أثر لها علىٰ المعدة المصرية بإذن الله.

ركبنا القطار في تمام التاسعة، عربة القطار نظيفة جميلة، والكراسي مريحة، وثمة ستائر علىٰ النوافذ. رفعناها ورحنا نتصفح وجه مصر الريفي الجميل علىٰ الطريق

الزراعي، تلوح حقول البرسيم ممتدة علىٰ مرمىٰ البصر، تتخللها مساحات صغيرة من القمح والكرنب والخس، وأبقار منتشرة هنا وهناك تتناول إفطارها في نهم شديد.

بعد مضي ساعة من الرحلة، توقف القطار بلا سبب، عجبنا وإذا عرف السبب بطل العجب، قال الكمسري إن القطار «بيخزن»، قالها وانصرف، ولم أفهم ما يقصد، ثم جاءت أخبار أن قطارا آخر انطلق من الإسكندرية علىٰ القضيب ذاته، ثم تعطل هناك ولا بد من الانتظار حتىٰ يتم إصلاحه فينطلق مرة أخرىٰ، ليخلي لنا الطريق. كثرت الأخبار وتعددت الأسباب وعلا اللغط بين الركاب في مناقشة ما يجري، وشعرت بخجل عظيم من السيدة التي وعدتها بالوصول إلىٰ الإسكندرية في الحادية عشرة، انطلق القطار لدقائق ففرحنا، ثم توقف مدة ضعف التي مشاها، يقف في إيتاي البارود، ويتسكع في دمنهور، ويخلد إلىٰ النوم في كفر الدوار حتىٰ اغبر وجهي، واعتذرت للسيدة مرات وهي تضحك، وتقول إن خبرتها بمصر عظيمة وما يجري ليس عليها بغريب. بعد ساعات من الملل والسآمة وصلنا إلىٰ محطة سيدي جابر في الواحدة ظهرا، فحمدنا الله علىٰ سلامة الوصول، (كما حمد الله «بوحة» علىٰ نجاته من أولاد أبو إسماعيل)، وأي نعمة تستحق الحمد في مصر أكبر من أن تنزل سالما من قطار!

نزلنا في محطة «سيدي جابر»، وعبرنا عدة شوارع حتىٰ وصلنا إلىٰ الكورنيش، ثم إلىٰ مكتبة الإسكندرية، وقد رأيت من السيدة عجبا! السيدة التي طالما حذرتني من السيارات ونحن نتجول في برلين، وكثيرا ما طلبت مني ألا أعبر الشارع قبل فتح إشارة مرور المشاة؛ حتىٰ وإن خلا الطريق من السيارات، أراها اليوم تسبقني في قطع شوارع الإسكندرية طولا وعرضا، تلقي بنفسها بين السيارات المسرعة، وتعبر الطريق بمهارة عجزت عنها وأنا المصري، فقد نسيت تلك الثقافة أو فقدت مهارتها لطول المكث في برلين، فكنت أتحين الفرصة للمرور متوجسا، وهي تسبقني إلىٰ الناحية الأخرىٰ من الشارع ولا تبالي.

خشيت أن تدهمها سيارة فينالها سوء أو تموت، وهي الآن بصحبتي وأنا المسئول عنها، والمواطن الألماني عزيز، شأنه في ذلك شأن المواطن الإسرائيلي، والمواطن الغربي بعامة! زايلتني خيالات كثيرة، ما يكون موقفك مع السفارة الألمانية لو أصاب

هذه السيدة مكروه، ماذا لو جاءها الأجل وهي في قريتنا، سيدة جاءت من أقصىٰ الدنيا إلىٰ أقصاها، ماذا عساك تصنع! دفعت عني تلك الخواطر الشيطانية، وكان الجوع قد ضربها وضربني لطول الرحلة بالقطار التعيس، فطلبت إليها أن نتناول شيئا في مطعم قريب، قبل أن نصل إلىٰ البيت ونتناول الغداء، فأبت إلا أن تأكل ساندويتشات فول، لأن المطعم كان جميلا هذه المرة، «مطعم أبو ربيع»، مطعم شهير علىٰ مقربة من المكتبة، اشترينا بعض الساندويتشات، وذهبنا إلىٰ شاطئ البحر كعاشقين، نتناول الفول ونشرب البيبسي، ونختلس النظر إلىٰ وجه البحر.

لم نمض في الإسكندرية وقتا طويلا، فقد أفسد القطار التعيس علينا برنامج الرحلة، فاكتفينا بالتقاط بعض الصور مع قلعة قايتباي ومكتبة الإسكندرية، وقد بدت السيدة غير محتفلة بهما فقد زارت الإسكندرية من قبل عدة مرات، فقررنا التوجه إلىٰ قريتي لتحظىٰ برؤيتها قبل أن يقتل الليل ضوء النهار.

ركبنا حافلة من أمام المكتبة إلىٰ موقف السيارات في محرم بك، ثم ركبنا المايكروباص المتجه إلىٰ بلدتي «مطوبس»، الذي يقطع الطريق في أقل من أربعين دقيقة. لم أتوقع أن تتسلط علينا أعين الركاب والسائق جميعا، شاب مصري مع سيدة أجنبية عجوز، رمادية الشعر زرقاء العينين، يتحدثان بلغة لا نعرفها، ينظرون إلينا ولا يتحدثون، نظرات الدهشة في أعينهم تتساءل وهم لا ينطقون، ترىٰ ما قصة هذا الشاب مع تلك العجوز. لعله زوجها، ولم لا؛ إن كثيرا من الشباب المصري الفتي، يسافر إلىٰ شرم الشيخ، فتفتتن بقوته الأجنبيات هناك، ويبذل وسعه في الإيقاع بهن، فيكون الزواج، لتنال العجوز بغيتها من الاستمتاع بالشاب القوي الجميل، ويظفر الشاب ببغيته من مرافقة زوجه العجور الشمطاء إلىٰ أوروبا أرض الأحلام. كنت علىٰ يقين أن ذلك ما دار في رءوس الركاب.

شاءت الأقدار أن يكون المقعد الخلفي ما زال خاليا، وعادة الناس أن ينفروا منه لشدة تأثره بمطبات الطريق، فاستأذنت السائق في أن نستأجره كاملا علىٰ ألا يجلس إلىٰ جوارنا فيه أحد، فرحب السائق وابتسم الركاب ابتسامة خبيثة؛ قرأت فيها بصوت عال ما يدور في العقول الماكرة: لعله يريد أن يخلو بمحبوبته يقطف منها زهر الحياة بعيدا عن أعين الحساد!

انطلق المايكروباص مسرعا، من محرم بك يقطع الطريق الدولي إلىٰ مدينة «رشيد» ومنه إلىٰ «مطوبس»، علىٰ الجانبين حدائق كثيرة ونخيل، ومياه في القنوات والخلجان، والهواء البارد يدخل قويا يلفح وجه الألمانية من النافذة التي فُتحت قليلا، عاودتني فكرة أن تموت الألمانية في حادث وشيك لهذه السيارة التي تنهب الطريق في جنون، أو أن تمرض إثر برد شديد يصيبها من لفح هذا الهواء. بأثر من هذه الوساوس الشيطانية مددت يدي أغلق النافذة معللا لها ذلك بأنني أخشىٰ عليها برودة الهواء، أو أن ينالها منه سوء، فابتسمت وقالت: لا تقلق؛ اتركها مفتوحة، فالهواء منعش جميل، ولا تخش علي شيئا، فإنني قوية، إنني لست مصنوعة من السكر، I am not made of sugar، إلىٰ هذا الحد أيتها الألمانية العجوز شعرت بما في قلبي من رقة وحدب عليك! إنها شعرت أنني أعاملها كما لو كانت مصنوعة من السكر حقا، لله ما أرق قلبك أيها الدرعمي الجميل! قلتها في نفسي مبتسما ساخرا، وتذكرت ما لهذه الخصلة عندي من أثر خبرته في التعامل العفوي مع بنات حواء!

وصلت السيارة إلىٰ «مطوبس»، ونزلنا في الموقف وقد أقيم أمامه السوق الدائم للمدينة، باعة الخضر والفاكهة في كل مكان، يفترشون الأرض، أو يقفون علىٰ العربات، وينادون علىٰ بضاعتهم في صخب شديد، وهو أمر لا عهد لبرلين به[1]،

---

(١) صحيح أن برلين لم تكن تعرف هذا النوع من الأسواق، لكنني عرفت فيما بعد سوقا تركيا يقام في منطقة يورك شتراسا Yorckstraße، في يوم السبت من كل أسبوع، هداني إليه بعض المصريين، تتعالىٰ هناك أصوات الباعة ويتصايحون يعلنون عن بضائعهم الرخيصة الطازجة، وهو لا يختلف كثيرا عن الأسواق الشعبية في بلادنا، يروج الباعة لبضاعتهم بكل سبيل. حتىٰ إنني رأيت فتاة حسناء بارعة الحسن، وقفت وأمامها كومة من حزم الكسبرة، وقفت صامتة لا تعلن عن شيء. وأنىٰ لمثلها أن تنطق أو تنادي. إنها تخشىٰ لو انفرج ثغرها . . إذن لأضاء ما بين السماء والأرض. تكاد تذوب رقة وحياء. أمامها حزم من الكسبرة الخضراء اليانعة . . لم أر قط كسبرة بهذا البهاء. كسبرة مفعمة بالحياة. تلفت الأنظار بقوة وتهز القلوب من غير نداء. تبتسم أوراق الكسبرة ابتسامات خجلىٰ تسر الناظرين. إنها ابنة حقل خصيب لم تكف عنه السماء، مكللة بالندىٰ . . إنها رمز النماء. راقبتها لحظات ثم انصرفت! لم أستطع الشراء! لم يدر بخلدي سوىٰ عمر بن أبي ربيعة، حين أنشد بيته الشهير:

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه ... لا حظ لي فيه إلا لذة النظر

وكذلك أبيات كأنما قالها صاحب حقل كسبرة تركي، يتغزل في نبتة له يانعة:

والبرق يبدو حين يبسم ثغرها ... فيضيء سقف القصر بالجدران =

فأخرجت السيدة الألمانية الكاميرا وراحت تلتقط الصور الفوتوغرافية للسوق والباعة والمارة، ورحب بها الناس في ظرف كبير، وأقسموا لها أنها أول سائحة ألمانية تنزل البلاد، ويبدون إعجابهم بزرقة العينين ولون الشعر، وأترجم لها كلماتهم فيأخدها ضحك عظيم. تحلق الناس حولها لتلتقط معهم الصور التذكارية وهم فرحون، ويطلب منها بائع الموز أن تلتقط له صورة وهو يُعْمِل خنجره في الموز يزن ثلاثة كليو لسيدة عجوز مريضة في زي أسود ترغب في زيارة ابنتها وهي عروس جديدة، وهكذا فعل بائع التفاح، وأقسم بائع البرتقال أن يقشر لها واحدة ترحيبا بها في بلادنا التي أشرقت بنورها، وراحت النسوة الماكرات يسألنني عنها، عما إذا كانت زوجتي، وتتعجل بعضهن بتعليق علىٰ زواجي منها يشبه الرثاء: «ليه تعمل في نفسك كده يا خويا دي كبيرة عليك»!

تصادف وجودنا في السوق مع مرور بعض الطلاب خرجوا لتوهم من حصص الدروس الخصوصية، فالتفوا حولها، وراحوا يحدثونها بالإنجليزية يسألونها عن اسمها وبلدها، وكيف حالها، أسئلة ربما درسوها في الحصة الماضية، ووجدوا الفرصة سانحة للتمرين علىٰ اللغة مع واحدة من أهل اللسان، وجدت السيدة سعادة كبيرة وهي تفهمهم وتجيبهم بالإنجليزية وهم يضحكون مندهشين، وكأنهم وجدوا في

= لله لاثم ذلك الثغر الذي في لثمه إدراك كل أمان

لقد ذكرني جمال بائعة الكسبرة التركية في السوق الشعبي بما كان حين نزلت القاهرة، إذ كنت حريصا علىٰ زيارة معالمها، ومعاينة كل ما كنت شاهدته منها في الأفلام والمسلسلات والتلفزيون. وكان من بين ما شغفت به ارتياد الموالد، وخاصة مولد السيدة زينب ومولد سيدنا الحسين. يفد إلىٰ الاحتفال خلق كثير من شتىٰ بقاع الدنيا، ومن بينهم عدد كبير من الشباب، لم يأتوا لحضور حلق الذكر أو زيارة أصحاب الضريح، وإنما كانوا يجيئون للعب والتسلية، ومن أبرز الألعاب في الاحتفال «عربة الرماية». لاحظت أن كل عربة من هذه العربات تعمل عليها فتاة حسناء. والرماية لعبة عنيفة، وأصوات الفرقعة والأدخنة مزعجة لا تناسب رقة النساء، لكنك تجد الفتاة دائمة الابتسام صاحبة غنج ودلال، يصطف من حولها شباب كثير قوي مفتول العضلات، يزهو بنفسه منهم من أصاب الهدف، وإن أخفق أعاد الرمية ليثبت مهارته وبطولته أمام الفاتنة الحسناء. يظلون علىٰ هذه الحال طوال الليل، حتىٰ تفرغ الحسناء جيوبهم. علمت فيما بعد أن هذا السلوك يسمونه في علم التسويق «مخاطبة الغرائز»! يستخدمونها لدغدغة الاحتياجات الدفينة للمستهلكين. ترىٰ هل كانت بائعة الكسبرة التركية تتبني هذا النوع من فنون التسويق؟!

ردها عليهم دليلا قاطعا علىٰ صحة ما يدرسون، إذ لم تتح لهم من قبل فرصة الحديث مع أجنبي، فاطمأنت قلوبهم لصدق أستاذهم.

اشترينا بعض الخضر والفاكهة مجاملة للبائعين الفرحين، ثم استوقفنا توك توك، ليحملنا من المدينة إلىٰ القرية، وكانت المرة الأولىٰ التي تصل فيها سيدة أجنبية إلىٰ هذه القرية الصغيرة في قاع الريف.

قريتنا صغيرة، عشرون بيتا أو يزيدون، يعرف الناس جميعا بعضهم بعضا، وقد كان خبر وصول السيدة الألمانية قد ذاع في القرية كلها، وأذاعه ذوو القربىٰ كذلك في القرىٰ المجاورة: «الدكتور محمد جايب صاحبته الألمانية معاه!!». أي جرأة هذه التي أقدم عليها، فما علمنا عليه من سوء، ألا يحفل بشعور زوجته التي لا شك تأخذها غيرة من هذه الألمانية، رأيت أعينهن تلمع من خلف النوافذ، وهن ينظرن خلسة إلىٰ الألمانية تتوارىٰ معي في التوكتوك يخوض في طين الطريق الضيق أمام البيت يمتد بين قناتين صغيرين، قد تبتلع التوكتوك إحداهما إذا انزلقت عجلاته. سلمنا الله ووصلنا إلىٰ البيت، من غير أن يمسسنا سوء.

استقبلها أبي وأمي مرحبين بها بكلمات عرفتها، وردت عليهما بما تعرف للترحيب والشكر في العربية من كلمات، ثم توليت الترجمة بعد ذلك، ليسهل التواصل بين الجميع، لقد ذهلت أمي عن كل شيء في هذا الموقف، ولم يلفتها سوىٰ ولدها هذا الذي يتحدث بلغة أعجمية لا عهد لها بها، ولم تسمعها منه من قبل، لغة تفهمها السيدة الألمانية ولا يفهمها الجميع، شعرت أمي بالأسىٰ لما يعانيه ابنها في الغربة، حتىٰ اللغة التي نعرفها لا يتكلمها هناك! فهونت عليها الأمر، ورحت أترجم ما عَنَّ للطرفين من أسئلة عن أحوال البلاد وتقاليدها وأخبار الناس وعادات الطعام. كان درسا طيبا في الترجمة العامية هذه المرة، قمنا به ونحن نتناول الغداء، أظنني كنت فيه أبرع مني عند ترجمة نصوص أغاني الأصفهاني.

بعد تناول الغداء، دهمنا الليل، وقد أرهقت السيدة لطول السفر وسأم القطار التعيس، فآثرت أن تخلد إلىٰ النوم، علىٰ أن نتجول في الحديقة والحقل ونتفقد القرية في الصباح. أصاب القرية في الليل ماء منهمر، انقطع علىٰ أثره التيار الكهربي، فأشعلنا الشموع خشية أن تستيقظ السيدة في الليل فتفزع في الظلام، وتلقيت عدة

اتصالات من أقارب لنا في قرىٰ مجاورة يدعوننا للغداء غدا في بيوتهم تحية لي ولضيفتي الألمانية العزيزة، كان ذلك هو السبب الظاهر، لكنني كنت أعلم الطوايا، إنهم لا شك يريدون أن يروا هذه الألمانية، ويقفوا علىٰ حظها من الجمال، ليحددوا طبيعة العلاقة بيننا. مساكين هم لا يدرون أنني ضربت بيني وبين الحسان، رغما عني، بسور من غير باب، ألم تحذرني أمي لسنوات من «بنات مصر»! لقد كان طول تحذيرها حصنا منيعا، حال دون الانخراط مع بنات الفرنجة كذلك رغم مرّ السنين! ترىٰ هل أخطأتَ حين أحجمت عن إقامة صداقات وعلاقات مع بنات الفرنجة؟ فكرة طالما راودتني في جوف الليل الحزين، لكنني في كل مرة كنت أهتدي إلىٰ الاختيار الذي اخترته وآمنت به.

كشفت شمس الصباح عن وحل شديد بالغ في صنعه مطر الليل، وزادت منه عجلات الجرارات وأقدام الماشية والمارة. لا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ الحديقة إلا بالأحذية البلاستيكية ذوات العنق الطويل حتىٰ الركبة، تخوض بها في طين الطريق دون أن يمسسك سوء. عندنا من هذه الأحذية عدد كبير، لبست السيدة الحذاء باسمة، وراحت تخوض في الطين أمامنا ونحن نخوض معها، تمشي الهويني كما يمشىٰ الوجي الوجل، حتىٰ مر علينا وَلَدان لجار لنا يردف أحدهما الآخر علىٰ ظهر حمار، استوقفها المشهد العجيب، واستحلفتني أن أستأذنهما في أن تلتقط لهما صورة، قلت لها التقطي من غير استئذان فهما لا شك سعيدان، فأبت إلا أن أستأذنهما، فاستأذنتهما فوافقا باسمين، وراحت تلتقط لهما مع الحمار صورا من جهات مختلفة وهما يتضاحكان، والطين من حولنا يملأ المكان.

دخلنا الحديقة فالتقطت السيدة صورا كثيرة للبرتقال واليوسفي وهما في أبهىٰ صورة بعد أن غسلهما المطر، وكذلك الموز والبلح والنخيل، والقمح والبرسيم. لقد لفت نظرها عود بازلاء (بسلة) وحيد علىٰ حافة الحقل، نبت من غير أن يزرعه أحد، فانبهرت به وراحت تلتقط له صورا كثيرة من جهات متعددة، وقد كان يحمل عدة قرون مكتنزة بالثمار. كما لفت نظرها عصفور ملون صغير، يتخفىٰ بين أعواد البوص، فتسللت برفق حتىٰ لا تفزعه ثم التقطت له صورة، وقالت إنها تعرفه، إنه من الطيور الأوربية المهاجرة إلىٰ بلاد الشرق في الشتاء، هروبا من الجليد، لقد لفت نظرها هذا

العصفور فالتقطت له الصورة، لأنه ابن بلادها. لماذا لم يستوقفني هذا الطائر من قبل؟ لا شك أن العين لا يستوقفها شيء لا تعرفه! قلت لها: لعلي أربط في قدميه يوما بعد عودتي إلىٰ مصر رسالة في الشتاء تصل إلىٰ برلين في الصيف، أبثها الأشواق وآلام الجوىٰ.

ترىٰ هل دفعها إلىٰ التلصص لالتقاط صورة لهذا الطائر الغربي دون أن تفزعه، وهو كامن بين البوص والأحراش، ما دفع عبد الرحمن الداخل قديما إلىٰ كتابة قصيدة في نخلة رآها بمنية الرصافة في قرطبة فهيجت أشواقه إلىٰ بلاد الشرق حتىٰ رأىٰ أنها شرقية تناءت إلىٰ الغرب من بلد النخل:

تَبَدَّتْ لنا وَسْط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنَّوَىٰ   وطول التنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة   فمثلك في الإقصاء والمنْتَأىٰ مثلي

هطل المطر ونحن في الحديقة فلم تحفل به، لأن المطر معتاد هطوله في برلين، يغرق الثياب ولا يرىٰ أحد شيئا في هذا، قطفنا من ثمار الحديقة ثمارا متنوعة هدية لها، ثم استأجرنا سيارة حملتنا بعد انقضاء اليوم، إلىٰ قطار «دمنهور» المنطلق إلىٰ القاهرة، ودعتها في المحطة. انطلق القطار يصرخ مسرعا ينحر القضيب، ويصدر أدخنة كثيفة، لوحت لها بيدي، وتمنيت ألا يتعطل القطار في «إيتاي البارود».

(٣٣)

زاد الغربة

انتهت زيارتي الأولىٰ لمصر بعد ستة أشهر قضيتها في برلين، زحف موعد الرحيل! آلام الفراق قاتلة، وموعد الطائرة لا يرحم، احتضنتها في هدأة الليل قبيل الفجر! تنسمتُ أنفاسَها الشهية وحبستها بين جوانحي .. كم هو مؤلم أنت تفارق فلذات كبدك رغما عنك! تستنشق بِنَهَم زفيرهم الشهي وهم نيام .. ثم تحبسه في صدرك الباكي عسىٰ أن يبقىٰ لك منه شيء يكون زادا في بلاد الغربة! طبعت قبلات نهمة دامعة في أنحاء صفحة الوجه الملائكي الجميل! بنيتي .. لا أدري لماذا أشعر في هذه اللحظة أنك أمي وأنا الطفل الرضيع! حبيبتي .. إلىٰ اللقاء!

حمل السائق حقائبي إلىٰ السيارة، وانطلق ينهب الطريق نهبا في جوف الليل إلىٰ مطار القاهرة، ظلمة ليل القرية بادية من نافذة السيارة المسرعة، كان الظلام المخيم في صدري أشد قتاما! علىٰ حافة الطريق تكورت أنثىٰ كلب علىٰ كومة قش كبيرة تحتضن صغارها وقد اشتد البرد، ترضعهم في دفء شديد. رفع السائق صوت المذياع فاتضح صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، يتلو بصوته العذب: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله». إنها عادة أغلب السائقين في مصر، يبدأون يومهم بتلاوة القرآن في السيارة، ثم تنقطع علاقتهم به طيلة اليوم، ويشرعون في سب الدين للركاب!

أشعل السائق سيجارة، أزعجني قبح ريحها، فتحت النافذة عن يميني قليلا، لأستنشق هواء الصبح النقي ينبعث من خضرة الحقول، اشتد الدخان، فنظرت إلىٰ السائق مرة أخرىٰ مستهجنا قبح الرائحة؛ بدا السائق نحيلا، تأكد لي ضعف بنتيه حين ساورتني هيئته وهو يحمل حقائبي إلىٰ السيارة يتلوىٰ تحتها. أتراها ثقيلة إلىٰ هذا

الحد؟! مصر للطيران تسمح لركاب الدرجة السياحية بحقيبتين كبيرتين، كل منها ٢٣ كجم، وحقيبة يد فيها ثمانية كجم، لم أكن بحاجة إلىٰ كل هذا الوزن، وبخاصة أنها الرحلة الثانية إلىٰ برلين، فقد نقلت كل ما أريد من كتب وأمتعة في رحلتي الأولىٰ.

أَبَتْ أمي في هذه المرة إلا أن أفيد من الوزن كاملا، بحمل أمتعة وأطعمة تعدها لي كعادتها معي في زياراتي المتكررة للقرية إبان إقامتي في مصر. كنت أرفض وأشكو لها ثقل الحقائب، فتهون علي الخطب بأنني لن أحمل شيئا، والحمل كله علىٰ عاتق السيارة، لكن الفائدة ستكون عظيمة، والسعادة ستكون كبيرة عند الوصول، حيث يمتلئ البيت بخير وفير يكفي لأسبوعين أو يزيد! تمتلئ الثلاجة، ويمتلئ الفريزر، وتمتلئ أدراج المطبخ، وأي شيء أهنأ لقلبك يا عاشق المحشي من أن يكفيك أهلك طعام أسابيع!

كنت أركن إلىٰ رأي أمي في وجوب حمل المتاع الريفي في كل زيارة لها، أما اليوم فالأمر مختلف، إن السيارة لن تنطلق من القرية إلىٰ بيتي في السادس من أكتوبر، وإنما ستنطلق إلىٰ مطار القاهرة ومنه إلىٰ برلين، فالمهمة صعبة! هونت علي وقالت: سيارة أكتوبر هي طائرة برلين، لا فرق بينهما، غير أن هذه تطير والأخرىٰ تسير علىٰ أربع، وما تحمله السيارة ستحمله الطائرة، والطيران يسمح لك بوزن كبير، فاستفد منه وسترتاح نفسي ويكون قلبي راضيا!

(رضا الأم دي حاجة جميلة يا متولي حاجة جميلة) (أمك ثم أمك ثم أبوك)، امتلأت الحقائب بكل صنوف الطعام، ناضج ونيء، كمية كبيرة من الأرز الأبيض النقي من الشوائب، كيس من الخبز والقُرَص والرقائق، ذكر بط ضخم مجمد، وآخر ناضج محمر، برطمان سمن بلدي شهي الرائحة، حلة محشي كرنب، علبة جبن أبيض فلاحي أعدته جارة لنا بعناية، كيس سمك بلطي مجمد معد للقلي، كيس من برتقال حديقتنا حديث الجني، هذا بالإضافة إلىٰ الملابس وبعض الكتب صدرت حديثا تتعلق بموضوع رسالتي للدكتوراه.

وصلت إلىٰ مطار القاهرة، أسرع السائق بإحضار عربة من عربات حمل الحقائب، وضع عليها الحقائب وقفل راجعا. دفعت العربة بسهولة ورفق، مرت من جهاز التفتيش بسلام، ثم التقطها مني عامل من عمال المطار، رغما عني، يدفعها إلىٰ مكان

الوزن علىٰ بعد خمسين مترا، نقدته خمسة جنيهات فشكرني ثم تركها لزميل له وانصرف؛ ليكمل زميله بقية الرحلة ليظفر بخمسة جنيهات أخرىٰ، امتلأ قلبي حنقا عليهما، وتلك عادة المصريين!!

عند الميزان تحمل حقائبك بنفسك لتضعها علىٰ «الكاونتر»، هذا في برلين، أما هنا، فيقف مصري من ذوي الاحتياجات الخاصة، يحمل الحقيبة عن العربة ليضعها علىٰ الميزان، ليظفر بجنيهات كذلك، نقدته آخر ما كان في جيبي من جنيهات مصرية، وحمدت لبرلين غياب هذه الظواهر القبيحة. يحمل حقائبك عنوة، ويأخذ منك المال عنوة .. أعطيت أحدهم مرة في رحلة عودة عشرة جنيهات نالها مني بسيف الحياء، فغضب ونظر إليها محقترا لها وقال: «عاوز عشرة يورو»!

«حضرات السادة الركاب أهلا ومرحبا بكم علىٰ متن طائرات مصر للطيران، سوف نعرض علىٰ حضراتكم الآن بعض المعلومات التي تخص سلامتكم علىٰ هذه الطائرة» شرعت حسناء مصر للطيران علىٰ الشاشة المواجهة في عرض إجراءات الأمان، فذهلت عنها واتصلت بابنتي وكنا في العاشرة، لا شك أنها استيقظت الآن: «أنت فين يا بابا؟!» اعتادت خلال مدة الزيارة أن تجدني إلىٰ جوارها كل صباح، لكنها استيقظت اليوم فلم تجدني، «ماما قالت إنك رحت الكلية»، نعم إنني ذاهب إلىٰ الكلية، لكن أي كلية تقصدين!! «هتيجي إمته» سأعود قريبا إن شاء الله، «هستناك ما تتأخرش» دمعت عيني .. تظنني سأعود في المساء من جامعة القاهرة .. انتهت إجراءات الأمان .. فارقت الطائرة الأرض .. وشقت طريقها في السماء!

في برلين هبطت الطائرة من السماء إلىٰ الأرض، دخلنا ساحة المطار، الحقائب تدور علىٰ السير، التقطت حقائبي وحملتها علىٰ عربة دفع، وسِرْتُ مع السائرين في طريق الخروج من المطار، علىٰ مقربة وقف رجال الجمارك يفحصون وجوه المارة ويلقون نظرات علىٰ الحقائب. استوقفني أحدهم من دون الناس، وطلب تفتيش حقائبي! رحبتُ بالتفتيش فليس معي ممنوعات؛ فسألني هل معك تبغ؟ فقلت: ضاحكا، لا؛ لا أحب التدخين ولا المدخنين! فابتسم .. أعلم أن أسعار السجائر مرتفعة، فعليها نسبة كبيرة من الضرائب، ولا يسمح بدخولها إلىٰ البلاد بكميات كبيرة؛ لأن تهريبها قد يضر بالاقتصاد القومي. سأل الموظف مرة أخرىٰ: هل معك

طعام؟ قلت: نعم، ولكن أي شيء في ذلك؟ قال أفرغ ما معك على الطاولة، فأخرجت له المحشي وذكور البط النيء والناضح، والسمن والجبن والأسماك، وكانت ما تزال مجمدة محكمة الغلق لم يمسسها سوء!

لما لاحظ موظف الجمارك أن الأكياس مبللة من أثر التجميد، خشي أن تتلوث يده أو أن تصيبه عدوى، فاستمهلني وأحضر قفازا طبيا بلاستيكيا لبسه في يديه، ليسهل عليه الفحص، فبدأ بذكر البط النيء فكشف عنه غطاءه، وقال ما هذا، فقلت هو بط كما ترى، فقال: «لحم»، قلت: لا بل هو بط، فابتسم وقال: البط لحم يا سيدي، وأشار إلى لوحة كبيرة على الحائط من خلفة، مكتوب عليها، مع الصور، الأشياء الممنوع دخولها إلى الأراضي الألمانية.

على اللوحة رسم لفخذ عجل سمين، ولكنه ليس بطا، حاولت عبثا أن أقنعه بأن البط ليس لحما، فلا خوف من نقل مرض الحمى القلاعية من مصر، لكنه أبى ونحى البط جانبا، وفتح برطمان السمن البلدي، وسأل عما فيه، فقلت له: زيت، فشمه، فقال: لا، رائحته تنبئ أنه منتج حيواني كذلك، ولا يجوز دخوله، والجبن أيضا! أما الخبر والأسماك فلا شيء فيها. كشف حلة المحشي، فتسارعت دقات قلبي خشية أن يمنعه من الدخول، وقلت له محشي، فلم يفهم، قلت له: لا أدري ما معني محشي بالإنجليزية أو الألمانية، هو محشي فحسب، وإن شئت قلت «أرز . . أرز ملفوف في أوراق شجر»، وكسرت أصبعا محكما لأكشف له عن محتواه فسمح بمروره.

احتجز البط والسمن والجبن، فحزنت لهذا الموقف السخيف، وطلبت في دعابة أن آكل أمامه قطعة من ذكر البط الناضج، لأثبت له أنه صحي ولا شيء فيه، فأبى واصطحبني إلى غرفة مجاورة لتحرير محضر بالواقعة وتقدير قيمة الغرامة. قلت: غرامة؟ ألا يكفيك أن تحتجر البط، أتطلب غرامة كذلك؟ (أبط وخراب ديار)! قال هو مبلغ من المال تدفعه مقابل إعدام ٦ كجم من المواد الغذائية الحيوانية التي تم ضبطها. يمكنك أن تلقي بها في الزبالة يا سيدي! لا، لا بد من إعدامها، ولا بد لماكينة الإعدام هذه من نفقات. سنرسل لك على عنوان بيتك إيصالا بقيمة الرسوم.

غادرت المطار غاضبا من الموقف العجيب، ولم أحزن على ضياع البط قدر حزني أن يكون لهذا الموقف تبعات أخرى، كأن يُسَجَّل في أجهزة الكمبيوتر في المطار أن

هذا المواطن المصري متهم بتهريب البط إلىٰ الأراضي الألمانية، فيكون سببا في المنع من السفر أو إيقاع عقوبات لا حد لها. حين وصلت إلىٰ البيت اتصلت بالمطار؛ أستوضح خطورة الموقف، فأكد لي الموظف ألا شيء في ذلك علىٰ الإطلاق، وكل ما عليٰ أن أدفع قيمة المبلغ، التي تصلني في البريد خلال أيام. وصل الخطاب يطلب تحويل ٣٠ يورو إلىٰ رقم حساب معين تابع لخزينة الدولة.

مرت أيام، فذكرت هذا الأمر لبعض الأصدقاء المصريين والألمان، فأما المصريون، فأكدوا في سخرية أن موظف الجمارك سعد سعادة كبيرة بهذا الصيد الثمين، وأنه اتصل بزوجته «فوزية» بعد انصرافي علىٰ الفور؛ يبشرها بأنه ضَمِنَ العشاء الليلة له ولها ولأولادهما. وأما الألمان فلم يلفتهم شيء قدر كبر حجم ذكر البط، الذي وصل إلىٰ ٦ كجم، وأكدوا لي أن إعدام اللحم سيتم لا محالة، بحكم القانون! ولا خطورة تترتب عليه، فلا شك أنك لم تكن تدري أن دخول البط ممنوع!

لما جاء الليل، اتصلت بـ «سارة»، فلما علمت أنني أحدثها من برلين، غضبت، وبكت، ورفضت أن تتحدث إليَّ مدة من الزمن، فتعملتُ الدرس، وكنت أخبرها في كل مرة بعد ذلك بموعد سفري، وأحاول إقناعها به؛ فتسمح لي بالسفر علىٰ مضض، ثم أكلت المحشي من غير بط!!

(٣٤)

المِرْوَد والمكْحَلَة

- أستاذ متولي؛ هل جئت إلىٰ برلين وحدك، أم معك أسرتك؟!

- جئت وحدي!

- أستاذ متولي! لقد جئت إلىٰ برلين في موسم البرد! البرد شديد هنا يا عزيزي! وأنت بحاجة إلىٰ الدفء! حرام!! كان الله جارك!

كانت هذه العبارات هي ختام لقائي الأول بالأستاذة أنجيلكا نويفرت المشرفة علىٰ البحث، قالتها متأثرة وقد بدا عليها شيء من الأسىٰ والرثاء لحالي! ما كنت خبرت برودة الجو في ألمانيا بعد، لكن أنجيليكا كانت تعرفها جيدا! بدا هذا في رد فعلها وتعبيرات وجهها حين علمت أنني وحيد!!

لقد قالوا: (من لا يملك الحب . . يخشىٰ الشتاء)! ما العلاقة بين الحب والشتاء! وهل الحب في الشتاء يختلف عن الحب في الصيف؟! هل هناك فرق بينهما؟ ينبغي أن نستشير السيدة فيروز في هذه القضية، فقد أحبت حبيبها في الصيف وأحبته في الشتاء كذلك!

غادرت المعهد فرحا بطيب اللقاء، لكن ما أدهشني هو هذا الختام العجيب! لقد قالت كلاما نعده في بلادنا من قلة الحياء! إنه أقرب إلىٰ التصريح منه إلىٰ التلميح. صحيح أنني ضحكت كثيرا؛ لكنني تدبرت الأمر . . وتذكرت ليلة وصولي إلىٰ برلين قبل شهر! لقد سكنت في الحجرة رقم ١ من المبنىٰ رقم ١٦، كم كان مدهشا أن تستقبلنا فتاة تلبس ثياب البيت! في بيت هو أشبه شيء بالمدينة الجامعية.

السكن مشترك! نعم . . شباب وفتيات . . طلاب وطالبات يعيشون جميعا تحت سقف بيت واحد! كان أغلب من في البيت فتيات؛ حتىٰ إنني لم أر هناك إلا رجلا

واحدا غيري أو رجلين أحدهما روسي، والآخر صيني! وما عدا ذلك فالجميع من البنات!

«إيرما بولجينا» فتاة من البوسنة، جاءت إلىٰ برلين لمدة عشرة أشهر لتحصل علىٰ درجة الليسانس في الأدب الإنجليزي بعد الانتهاء من الفرقة الرابعة، وكانت أول من لقيني في هذا البيت. «أندريا أنديه» فتاة رومانية متوسطة الجمال تدرس الرياضيات. «إلينا جراونر» فتاة إسبانية من برشلونة، تدرس في جامعة بامبيو فاربا، وقدمت إلىٰ برلين لإتمام الليسانس، وهي شغوفة بكرة القدم. «أماليا كريماديس»، فتاة إسبانية بارعة الجمال، من قرطبة، تدرس القانون في جامعة مدريد المستقلة، لا أدري لماذا كنت أظن لسحرها أن لها أصولا عربية، وهذا ليس بمستبعد علىٰ كل حال! «سيو فون ساوفنزي» و«أنا لاورا جلبان» فتاتان سمراوان من كوبا، «مارسيزي سوزانا» فتاة حسناء مجرية. و«عائشة» فاتنة حسناء آسرة .. متحررة .. من تركيا.

اجتمعنا في مساء اليوم الأول في حجرة المعيشة المشتركة للتعارف، فلا شك أننا سنلتقي كل يوم في المطبخ وفي ردهات المبنىٰ وفي دورات المياه، ومن غير اللائق ألا يعرف بعضنا بعضنا فيلقي عليه التحية! تعارفنا وتحدث كل منا عن ثقافته وأبرز ما في بلاده من عادات وتقاليد، وأنواع الطعام، وغير ذلك، فلما عرفن أنني مصري، صحن مبديات دهشتهن وترحيبهن بمن جاء من أرض الفراعنة وبلد الأهرام! وكان أول ما سألنني عنه: هل صحيح أن أهل مصر والمسلمين جميعا يتزوجون بأربع نساء؟ سألتني الفتاة الرومانية هذا السؤال، فضحكت وقلت: يا ليت! وجال في خاطري أمر قد أعاقب عليه: وهل تكتمل متعة الرجل بالنساء إلا إذا تعددن واجتمعن من حوله! ضحكت إيرما من وقع إجابتي، وقد أبدت الأخريات الامتعاض! بحجة أن هذا يتنافىٰ مع الفطرة الإنسانية السليمة، إذ لا يحل للرجل إلا ما يحل للمرأة، وليس للمرأة أن تجمع بين أربعة أزواج في آن معا، إلا أن يكون ذلك علىٰ التوالي! أي علىٰ سبيل علىٰ التعاقب!

الطريف أن هذا التعاقب عندهم لا حدود له ولا ضوابط، فالفتاة لا يحل لها التبديل بين الشباب، ولكن الطبيعي أن تترك أحدهما لتنشئ علاقة مع الآخر، ولو بعد

مدة وجيزة، ولا بأس إن هي عادت إلىٰ الأول مرة أخرىٰ، بعد أن تسأم من الصاحب الجديد، وهكذا!

أندريا فتاة رومانية عشرينية، كانت في ممارستها للجنس كأن نارا تشتعل في الهشيم! فهي لا تبقي من الشباب ولا تذر، من مختلف الأعمار والجنسيات والبلدان، وقد طار صيتها حتىٰ عرفت بين المقيمين بفساد الأخلاق! تقيم في حجرة مجاورة، وبسبب تعدد علاقاتها الجنسية تركت حجرتي إلىٰ بيت آخر فوجدتني هناك بين فتيات أشد شراسة! كنت حديث عهد ببرلين حين نزعني العرق الشرقي ورحت أنصح أندريا بالكف عن مثل هذه العلاقات المتعددة، ولم أجد ما أعلل به نصيحتي هذه إلا بأنها ما تزال صغيرة السن! فقهقهت أندريا في صخب شديد، ورقصت رقصة ماجنة هرب علىٰ إثرها الدم من عروقي، وقالت إنها ليست صغيرة، إن عمرها عشرون عاما، وإن لها أن تصنع ما تشاء! ومن ساعتها كففت عن دور المصلح الاجتماعي الشرقي بعد أن عرفت طبيعة البلاد!

لعل الدعوة إلىٰ الفصل بين الجنسين، والثورة علىٰ الاختلاط في بلادنا قد أورثت الشباب كبتا وخلقت شعورا بالحرمان لا حد له. غير أن كل ذلك ينهدم في أوروبا. فالمدن الجامعية لا أسوار لها! وما الحاجة إلىٰ الأسوار إذا كان السكن مختلطا. يعيش الشباب والفتيات معا في بيت واحد، بل في شقة واحدة، وإن استقل كل منهم بحجرته. غير أن لكل طالب ولكل طالبة أن تصطحب إلىٰ حجرتها من تشاء وقتما تشاء. فيأتيك صوت فحيح حمىٰ الجنس ولفحها المستعر في جوف الليل من كل مكان، من فوقك ومن أسفل منك ومن علىٰ اليمين والشمائل.

ويبدو أن أوروبا حديثة عهد بهذا النمط من الحياة الجامعية المتحررة، فيروىٰ الدكتور عبد الرحمن بدوي في سيرته إبان إقامته في فرنسا أن تمردا اجتماعيا كبيرا نشأ بين الطلاب والطالبات في باريس إثر تزايد عدد الطلاب المقيمين في المدن الجامعية، وكان ممنوعا علىٰ الطلاب الذكور زيارة الطالبات في غرفهن. والعكس بالعكس، فأدىٰ هذا المنع إلىٰ حرمان الجنسين من الاستمتاع الجنسي الذي كان الهم الأكبر الشاغل لهؤلاء الشباب والفتيات. وبنوع من النفاق المألوف عند الناس لتبرير شهواتهم، عد الطلاب والطالبات هذا المنع حجرا علىٰ الحرية وامتهانا للكرامة.

وقالوا إن الحياة الشخصية الخاصة هي أمر خاص بالفرد وحده، وليس لأي سلطة أن تحد من هذا الحق.

طالب الطلاب والطالبات بإلغاء هذا المنع، وبالسماح لكلا الطرفين بزيارة الطرف الآخر في غرفته والاختلاء به كما يشاء ودون أي رقابة أو قيد. واندلعت الأحداث الأولىٰ لهذا التمرد في خريف سنة ١٩٦٥ في المدينة الجامعية القائمة في ضاحية أنتوني جنوب باريس. وأذعن مدير المدينة الجامعية فسمح بتبادل الزيارات بين الطلاب والطالبات بشرط موافقة آبائهم. وقد وافق كثير من الآباء علىٰ ذلك تحت التهديد، حين لجأ الطلاب إلىٰ العنف وقام ١٥٠ منهم باحتلال بيت الطالبات في ٢١ مارس ١٩٦٧ فلجأت الإدارة إلىٰ الشرطة فقامت بإخلائهم بالقوة، وأذعن الجميع لرغباتهم.

إن من أخطر الأمور التي تهصر أعواد الشباب في سنوات الدراسة اضطرام الرغبة الجنسية في أجسادهم. فمنهم من تأسره ويغدو ذليلا مسكينا، ومنهم من يتغلب عليها بتوجيه طاقته للدراسة والمذاكرة أو ممارسة الرياضة أو غيرها. وتعلو حدة الطاقة الجنسية في التجمعات الشبابية. وأبرزها المدن الجامعية. وقد قضيت فيها سنوات الدراسة جميعا بالقاهرة. ثم تشاء الأقدار أن أعيش كذلك في سكن طلابي في برلين هو أشبه شيء بالمدن الجامعية، لتشتد المقارنة ويهولك ما بين الجانبين.

ففي الحجرة رقم ٤٧ في الطابع الثالث من مبنىٰ ١٧ بمدينة رعاية الطلاب ببولاق، أقام معي طالب درعمي في الفرقة الأولىٰ، كان بليدا، وكان يعرف ذلك في نفسه، فلم يكن يشغله من أمر الدراسة شيء، فوجه كل طاقته إلىٰ رغبته، ولم تكن بنات دار العلوم يرقنه فوجد بغيته في كليات أخرىٰ. وكان كثيرا ما يقضي وطره بين زحام الطالبات حين يندس بينهن عند باب المدرج ساعة الدخول إلىٰ المحاضرات. ولم يكن النصح مجديا لإثنائه عن عزمه المتجدد كل يوم. ظل علىٰ هذه الحال، ولم يقرأ طيلة العام من المقرر الدراسي صفحة واحدة. حتىٰ إنه في ليلة امتحان «الأدب والنصوص» لم يكن قد حفظ من معلقة لبيد بن ربيعة كلها سوىٰ بضع كلمات من بداية بيت وهي قوله: «أفتلك أم وحشية»!، وظل يرددها طيلة الليل ساخرا من نفسه مذكرا لنا بعادل إمام في فيلم «الواد محروس بتاع الوزير»، حين ترك المعسكر وذهب إلىٰ

قريته لأداء امتحان الشهادة الابتدائية وظل في القطار يردد بيت إيليا أبي ماضي:

وتينة غضة الأفنان باسقة قالت لأترابها والصيف يحتضر

وقد مُنِيَ رفيق الحجرة يوم النتيجة بهزيمة ساحقة، كان يعرف أخبارها قبل أن تصل إليه، فحول أوراقه إلىٰ إحدىٰ الكليات في طنطا. ولم يكن هذا الطالب إلا مثالا واحدا لكثيرين ممن نعرف وممن لا نعرف. تركوا قراهم ووجدوا في القاهرة متنفسا عظيما من الحرية والانطلاق. لكن الكبت لم يزل يهصر أعوادهم. ففي رمضان من أحد الأعوام عقدت إدارة المدينة الجامعية ندوة دينية لتوعية الشباب، حاضر فيها أحد أساتذة الشريعة في دار العلوم، وفي مثل هذه الندوات الشبابية ترد للشيوخ أسئلة مكرورة ومحفوظة أولها دائما عن العادة السرية، حلال هي أم حرام؟. قال المحاضر إنها حرام إلا أن تخشىٰ علىٰ نفسك الوقوع في الزنا. وأنتم هنا في مدينة جامعية كلها من البنين، «بتنام منك للحيطة علىٰ طول» فلا خشية من الوقوع في الزنا، ومن ثم فهي حرام، فتعالت ضحكات الطلاب في المسجد لتندر الشيخ علىٰ صاحب السؤال! وكلهم مثله .. مضطرم الأحشاء!

الجو الفاسد يعدي! لكنني كنت متماسكا إلىٰ حد بعيد! لم أكن أحفل كثيرا بهذه الفتاة الرومانية؛ ربما لقلة جمالها وحداثة سنها وشذوذ سلوكها. لكن فتاة مسلمة عذراء كانت صديقة لنا تقطن في حجرة مجاورة .. هي فتاة فقيرة لا تملك من الدنيا سوىٰ عذريتها!! حتىٰ إنها غدت تتباهىٰ بها بين الناس! كنت أعجب لصنيعها هذا في بداية الأمر، وهي ترفض طلب الشباب المعاشرة، لأنها مسلمة عذراء، وكثيرون يلحون عليها في ذلك يريدون اكتشاف هذا العالم المجهول، وهي تتأبىٰ عليهم وتتباهي بما هي عليه من العفة والنزاهة! كنت أعجب لصنيعها في أول الأمر ثم زال العجب حين سألني صديق ألماني حميم: هل حقا يجد الرجل لامرأته في بلادكم غشاء بكارة عند الزفاف؟ فضحكت وقلت نعم. فاندهش بشدة وأقسم أنه علىٰ كثرة علاقاته النسائية قبل الزواج وبعده، لم ير مثل هذا الغشاء قط!

فتاة مسلمة تحفظ نفسها، وشباب يفتك به الفضول يحومون من حولها، لكن لها قلبا يريد أن يشعر بالحب! كانت تميل إلىٰ كل صاحب بشرة سمراء من الشباب، فهي لا تنجذب إلىٰ الشاب الغربي الأشقر، فعلقت بشاب هندي، أخبرها أنه يحبها،

وراحت تغدق عليه من طعامها وروحها ومالها القليل . . يراودها عن نفسها . . لكنها تتأبى عليه وتعانده، وهو يلح، حتىٰ صار قلبها فارغا خشية أن تفقده وهي تحبه! فاتفق معها، في خسة عجيبة، مستغلا فيض شعورها، أن يبقىٰ علىٰ علاقته البريئة بها علىٰ أن تسمح له بإقامة علاقة مع فتاة أخرىٰ، تروىٰ ظمأه! فسمحت له وهي في نار تلظىٰ! وصحبته علىٰ ذلك زمنا قبل أن تفيق مما هي فيه!

كان من عادة الطلاب إقامة حفلات أسبوعية أو نصف شهرية، يقيمونها مساء السبت ويقضون الليل كله بين شرب ورقص وسكر وموسيقىٰ صاخبة، يظلون علىٰ هذه الحال حتىٰ يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. وكانوا إذا ذهب السكر بعقولهم يحطمون الكراسي والزجاج والأطباق في المطبخ، وربما حاول بعض الشباب مداهمة بعض الفتيات ممن لم يشاركن في الحفل في حجراتهن وهن نيام، وقد حدث أن استجارت بي الفتاة المسلمة هذه ذات ليلة ومعها أختها وكانت في زيارة لها، فأجرتهما ممن حاول مداهمتها وكسر باب حجرتهما من فحول السكارىٰ، فقضيتا ليلتهما في حجرتي آمنتين!

وفي إطار هذه الحفلات الأسبوعية التي لا تنتهي، كانت الجهة المانحة دعتنا إلىٰ حفل مجانا بعد وصولي إلىٰ برلين بأيام قليلة، فسعد كل من بالبيت بهذه الدعوة واحتشدوا لها، وأصروا علىٰ اصطحابي معهم، لم أسأل عن ماهية الحفل، ودفعني شيء من الملل والشعور بالاغتراب إلىٰ الذهاب معهم، وكنت ظننتها سهرة ثقافية في يوم العطلة الأسبوعية، فالجهة المانحة جهة علمية، ولا يظن بها أن تدعونا إلا إلىٰ حفل ثقافي أو نحوه، فلما وصلنا إلىٰ هذا المكان بعد وقت قضيناه في القطار طويل، فإذا هو صالة ديسكو! زحام شديد وتدافع عند الباب! دفعني الفضول إلىٰ معاينة ما يحدث بالداخل، فلما دخلت وجدت صخبا شديدا ورقصا من غير ضوابط ولا حدود، والمسئولون عن الصالة يوزعون علىٰ الحضور أعلام الدول، ليعلقوها علىٰ صدورهم ليسهل التعارف فيما بينهم، أخذت العلم المصري، لكنني لم أعلقه! وهالني ما في الصالة من أسرَّة وأرائك يرقد عليها الشباب والفتيات في فاصل راحة من الرقص، وهم في حال من المضاجعة تكاد تكون تامة! فلم أصبر علىٰ ذلك وانصرفت خلال دقائق لم تتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة . . استغرقتها في

محاولة الخلوص من الزحام! وعدت إلىٰ البيت بصعوبة شديدة، قبيل الفجر لصعوبة المواصلات في الليل في أيام العطلة بخاصة، ولم أعد إلىٰ مثلها، ولصقت العلم المصري الذي حملته معي من الديسكو علىٰ باب حجرتي من الخارج!

بعد مضىٰ سبعة أشهر من بداية الرحلة إلىٰ برلين اضطرتني إدارة السكن للانتقال من هذا البيت إلىٰ بيت آخر، لأن هذا البيت مخصص للضيوف الذين يقيمون مدة قصيرة من الزمن لا تزيد عن ستة أشهر. انتقلت من مبنىٰ ١٦ إلىٰ مبنىٰ رقم ٣، ما كان أصعب الحياة في هذا المبنىٰ الجديد، وكنت ظننته أهون من سابقه! إنك إذا جن عليك الليل فيه ذابت منك العظام لفرط ما تسمع في جلاء، من غير حائل، صوت اعتمال المراود في المكاحل!

إذا كنت مسلما شرقيا محافظا فحياتك بين الجميلات جحيم! لا تكاد تصبر علىٰ البعد عنهن ولا تطيق نفسك الاقتراب منهن! لكنَّ الحالَ تُؤْلَفُ بعد حين! ظل الحال كذلك حتىٰ وقعت عيني علىٰ صناديق البريد الخاصة بسكان المبنىٰ، وقد لصق علىٰ أحدها اسم فتاة جديدة، قدمت إلىٰ هذا المبنىٰ. كان اسمها عربيا وأغلب الظن أنها مصرية، حرك فيّ الاسم الشوق إلىٰ مصر، وتاقت نفسي إلىٰ التعرف عليها، فهي ابنة بلدي، دين واحد وخلق واحد وطباع واحدة، جوهرة مصرية عربية مسلمة بين الأجنبيات! وقد يكون في التعرف إليها واللواذ بها نجاة من هذا الجحيم، من غير أن يقع مكروه؛ لا بد من وقوعه عند الاقتراب من الأجنبيات! هكذا سولت لي نفسي!

دخلت حجرتي، وجلست علىٰ المكتب، أمسكت بالقلم، وسحبت ورقة بيضاء، كتبت فيها ترحيبا بالوافدة الجديدة، وعرفت فيها بنفسي، وتركت فيها رقم هاتفي ورقم الحجرة، وألصقت الورقة علىٰ باب حجرتها في الطابع العلوي، وانصرفت . .

في المساء كان اتصال منها وزيارة . . كانت هيئتها علىٰ عكس ما توقعت، لكنني أعددت لها فنجانا من القهوة اقتضاه كرم الضيافة، أخبرتني أنها علمانية ملحدة لا تؤمن بالأديان، وأن الحرية المطلقة هي قانون الحياة . . تبخرت أحلامي في أن أجد من آنس إليها في هذا العالم الملتهب!

لم تمض أيام قليلة حتىٰ سبقت المصرية الأجنبيات في هذا النمط من الحياة . . رأيتها تتعلق بذراع ألماني تارة وفرنسي تارة أخرىٰ، ثم عربي وفارسي . . كنت أشعر

بالخجل حين أراها فأدير وجهي حتىٰ لا تراني؛ فيصيبها الخجل! لكن يبدو أنها لم يكن يصيبها شيء! في الهزيع الأخير من الليل . . أذهب إلىٰ المطبخ أعد شيئا خفيفا من الطعام أسد به جوع الشتاء قبل النوم، أراها عالقة بذراع أحدهم تصحبه إلىٰ حجرتها في الطابق العلوي! ثم تدعو الفتيات في صفحتها علىٰ فيس بوك إلىٰ التخلص من غشاء البكارة . . هذا القيد القبيح الذي يحول بينهن وبين الحياة الحقيقية التي أرادتها الطبيعية للبشر . . .

ولم يكن هذا السلوك من الفتيات فحسب، فقد قدم بعد أشهر إلىٰ المبنىٰ شاب مصري، يدرس الفيزياء . . ما زال يغامر . . يحاول الإيقاع بإحدىٰ الصينيات دون جدوىٰ! ويتهمني حين لمته في ذلك بالتحجر الفكري وعدم فهم الحضارة الغربية، وأنني مستمسك بالتراث العربي والثقافة العربية البائدة، وأخذ يردد كلاما ذائعا مثل ضرورة القطيعة المعرفية مع التراث، والتحلل من القيود الشرقية الرجعية، وتطبيق كل ما تدعو إليه الحضارة الغربية المتقدمة . . كم هو عجيب أن تختزل الحضارة الغربية في حرية اعتمال المراود في المكاحل!

هل نحن حقا مجتمع يعاني من الكبت، ويبحث عن متنفس في بلاد الحرية؟! يبدو أن الأمر كذلك فعلا، ولا أقول ذلك تعليقا علىٰ الشهوة الجنسية والسعي إلىٰ إشباعها بكل سبيل فحسب، وإنما لاحظت هذا في ترك بعض أركان الدين كذلك، فكثير من المصريين الذين سافروا إلىٰ برلين، كانوا يفطرون في رمضان، من غير مرض ولا سفر ولا علة ظاهرة، فقد كانوا جميعا في شرخ الشباب، ويبدو أن صيام كثير من الناس في بلادنا عادة لا عبادة! ولولا خشية اللوم أو نظرة المجتمع لأفطر كثير من الناس، غير محتفلين بحرمة الشهر الكريم!

والحق أن طول العيش في هذه البلاد يخلع علىٰ المرء أخلاقها وعاداتها وتقاليدها، ويخلخل ما في نفسه من العقائد الرواسخ أو يذهب بها جميعا، حتىٰ إذا تدبر المرء نفسه بعد مدة من العيش هنا وجدها لم تعد تنكر شيئا مما كانت تنكر في بداية الأمر، وذلك بسبب من الإلف والعادة!

لست بصدد الحديث عن الدين، ولست في مقام الوعظ والإرشاد، ولكنها فكرة عرضت عن حال كثير من الشباب العربي في هذه البلاد فأردت الإلماح إليها، لكنني

أواصل الحديث الذي بدأته فأقول إنني لاحظت في هذه البلاد كثرة محال تجارة الأعضاء الجنسية Sex shop، أعضاء ذكرية وأخرىٰ أنثوية، وعرائس صينية مختلفة الأحجام والأشكال والألوان كأنها طبيعية، ويتردد عليها الناس من مختلف الأجناس والأعمار . . كان الأمر مدهشا في بداية الأمر! ورحت أتساءل: وما حاجة المرء إلىٰ هذه المحال في بلد لا يضع قيودا علىٰ ممارسة الجنس، اللهم إلا أن تداهم امرأة في مكان عام فتفجر بها! كما فجر إساف بنائلة، قبل أن يُمْسخا حجرين في الجاهلية! فهذا أمر غير مقبول هنا وغير مصرح به في القانون! ثم عزوت شيوع هذه المحال إلىٰ الملل والسأم . . ونار الجنس لا تخبو ولا تتوقف عند حد، والملل من كثرة العلاقات الطبيعية قد يذكي الرغبة في التغيير وارتياد آفاق جديدة مع هذه الأعضاء الصناعية والدُّمَىٰ!

آفاق جديدة!! أي آفاق جديدة هذه! أي لغة هذه؟! هل تظن نفسك تكتب محاضرة في النقد الأدبي! ينبغي لك أن تختار لكل موضوع اللغة التي تناسبه! نعم ولكن مناقشة هذا الموضوع بلغة تناسبه قد توردك الموارد، فثمة مسكوت عنه، وثمة أشياء يستقبح ذكرها، وأنت تكتب لقارئ شرقي؛ يعشق اعتمال المراود في المكاحل، لكن لا يحل له أن يبوح!

إن الأمر لا يتوقف في هذا المقام عند محال الأعضاء الجنسية فحسب، وإنما تجد مظاهرات كثيرة تدافع عن هذه الحقوق. والحق أنه لم تعد هناك مظاهرات للدفاع عن حقوق المثليين، فقد صدر القانون الذي يسمح بتزويجهم، ولهم اليوم خانة في الأوراق الرسمية، تعبر عن حالتهم الاجتماعية. لكن من أطرف ما رأيت خلال تجوالي في برلين مظاهرة أمام إحدىٰ الكنائس للاعتراض علىٰ قرار اتخذته الكنيسة تحرم فيه علىٰ المرأة أن تجهض نفسها إذا هي حملت سفاحا. فذلك قتل لخلق الله. وذوات الأحمال يرون أن هذا الأمر من الحريات الخاصة ولا دخل للكنيسة فيه، فإن شاءت المرأة أن تحتفظ بجنينها أبقته، وإن لم ترد فلها أن تجهض نفسها ولا إثم عليها. حقا . . كل يغني علىٰ ليلاه!! وما أعجب أمر هذه المظاهرة إذا ما قورنت بمظاهرات مصر التي لا تهدأ تطالب بالتوظيف ورفع الرواتب، وخفض الأسعار! ترىٰ هل يأتي علىٰ مصر يوم تطالب فيه فتياتها السلطات الدينية بمثل ما تطالب به الألمانيات المنعمات!!

الحق أن مثل هذا النوع من المظاهرات، بعيدا عن المحاكمات الأخلاقية، قد يبدو ضربا من الرفاهية الزائدة إذا ما قورن بالمظاهرات وما تطالب به في بلادنا، لكنه لا يخلو من دلالة علىٰ أن حقوق الجنس عند القوم من أولىٰ الحقوق بالرعاية، فلا يتخذون الحرمان منه وسيلة للعقاب، أو لزيادة العذاب، وذلك أن المسجونين بتهم جنائية هنا، لا يحرمون من ممارسة الجنس، وإنما يسمح لهم بلقاء أسبوعي، في أماكن داخل السجن معدة ومهيئة لذلك، لا ينغص صفو العلاقة فيها شيء، بل زادوا علىٰ ذلك أن أتاحوا لمن يجد في نفسه حاجة للمزيد من اللقاءات الجنسية خلال الأسبوع أن يتقدم بطلب يذكر فيه ذلك، والاستجابة لمثل هذا الطلب واجبة! لأن في رفضه إيذاء للإنسان وضياعا لحقوقه وقتلا لإنسانيته! ذكرت لي ذلك صديقة سُجِنَ خالها لاشتغاله بتجارة المخدرات! فقلت لها لو كان السجن في بلادنا علىٰ هذا النحو، لتاجر الناس جميعا في المخدرات، لينعموا فيه بالحياة!

في هذا الإطار، بعيدا عن السجون والمظاهرات والحقوق الجنسية، قد نعلم أن الزواج هنا هو الصداقة، صداقة تستلزم العيش في بيت واحد ويترتب عليها الإنجاب، يظل الصديقان علىٰ هذه الحال مدة تطول أو تقصر، يعيشان معا منفردين أو مع أطفالهما، حتىٰ يتفقا علىٰ الزواج أو الانفصال إذا لم تستقر حالهما ولم يحدث الوفاق. وقد دعاني صديق ألماني مقرب لشهود حفل زفافه علىٰ صديقته التي أنجب منها طفلين في التاسعة والسابعة من عمريهما، فلما أبديت العجب من هذا الزواج المتأخر وداعبته متسائلا إن كان طفلاهما سيحضران حفل الزفاف، ليرفعا ذيل فستان أمهما الأبيض، حتىٰ لا يمسسه سوء! كما تفعل صديقات العروس وأخواتها في بلادنا، ضحك وقال إن اصطحاب الأطفال لحفل زفاف أبويهما أمر غير محبب، ثم إن ابنتيه تفضلان النوم مبكرا، ولذا تركهما في صحبة جدتهما.

ومن طريف ما عرفت أن اللغة الألمانية لا تستخدم اليوم الفعل «زَوَّجَ» شخصا ما، "verheiraten" من بين ما تستخدم من اشتقاقات أفعال الزواج ومصطلحاته؟! إذ ليس من سلطة أحد أن يزوج أحدا، فليس للأب أن يزوج ابنته أو ابنه، ولا للأخ أن يزوج أخته أو أخيه، إنما لكل أن يزوج نفسه فحسب! لقد أخبرتنا المعلمة في كورس تعلم اللغة أن الألمانية حذفت هذا الفعل من قواميسها! فلما حاججتها بأنني وجدت هذا

الفعل في القواميس الألمانية العربية، ضحكت وقالت: إن هذا من أثر ثقافتكم عند صنع قواميسكم، أما في قواميسنا الألمانية المعاصرة فلن تجد لهذا الفعل أثرا!

ويستغل الشباب العربي هذه الحرية فيلجأ كثيرا إلىٰ التزوج بألمانيات؛ ليسهل عليهم الحصول علىٰ الإقامة، ولتتوافر لهم فرص عمل مناسبة، غير أن هذه الزيجات سريعا ما تبوء بالفشل، فطبيعة المرأة الألمانية المنعمة تميل إلىٰ التغيير مدفوعة بالملل، ولا تجد حرجا في أن تضحي بزوجها العربي وبأولادها منه إن هي أنجبت، إذا ما راقها بعل جديد. وهي لا تجد حرجا كذلك في أحيان كثيرة في أن تُبْقِي علىٰ علاقتها الرسمية ببعلها العربي الأول وهي تعيش مع غيره عيشة الأزواج؛ لا لشيء إلا لتحفظ عليه إقامته ووظيفته، لقاء راتب شهري ينقدها إياه! ولما انتشرت هذه الظاهرة وشاعت اتخذت بعض النساء منها وسيلة للكسب والتجارة، وذلك بأن يعقد الشاب علىٰ المرأة عقدا رسميا في الظاهر، صوريا في الباطن! فهو يتزوجها ولا يجتمعان أبدا، وربما لا يراها مرة أخرىٰ إلا إذا علما أن جهات رقابية تراقب علاقتهما للتأكد من الاستمرار والمعاشرة. وهو يحول لها المبلغ الشهري المتفق عليه إلىٰ حسابها البنكي، وهي في تعيش في كنف رجل غيره. أدهشني شيوع الظاهرة بحيث تفطن إليها النساء وصرن يتخذن منها وسيلة للكسب بلا جهد ولا عناء! وآلمني حال العربي الذي مال، وأصبح يدعو للرثاء! وإن لم يخل من انتهازية وانعدام مروءة! غير أن تلك الظاهرة علىٰ ذيوعها لا تنفي وجود علاقات زوجية ناجحة بين عرب وألمانيات.

والحق أن الأمر لا يقتصر علىٰ الزواج بين العرب والألمانيات فحسب، فالزواج بين الألمان كذلك كثرت مشكلاته لصرامة قوانين الطلاق، فالقانون الألماني يقضي -فيما علمت- بأن يترك الراغب في الطلاق نصف ماله للطرف الآخر، وعند الاتفاق علىٰ الطلاق يترك كل من الزوجين نصف ما يملك للآخر، وفي ذلك في نظرهم مضيعة كبيرة للمال، وبخاصة إذا كان أحد الزوجين أشد غنىٰ من الآخر، فيرفض الانفصال، خشية ضياع المال، وقد علمت والحال هذه أن هناك من الأزواج من يعيشون في بيت واحد مع أولادهم علىٰ كره منهم، مع أن العلاقة الزوجية بينها انتهت في الواقع، حتىٰ إن كل منهما يستقدم شريكا لحياته جديدا، تستقدم الزوجة صديقا لها في بيت زوجها وتعاشره معاشرة الأزواج، ويستقبل الزوج صديقة له كذلك يعاشرها

معاشرة الأزواج، وهما يبقيان علىٰ عقد الزواج من غير فسخ، ويحافظان علىٰ عش الزوجية من غير هدم!!

وقد توحي هذه الحكايات التي رويتها بالحرية الجنسية المطلقة في هذه البلاد، والحق غير ذلك فلم تزل هناك أماكن ريفية في الجنوب الألماني لها من التقاليد والقيم ما يمنع ذلك، فقد روىٰ لي صديق ألماني نشأ نشأة ريفية، أنه حين صادق فتاة للمرة الأولىٰ في حياته كان صحبها إلىٰ بيت أمه وأبيه، فغضبت أمه أشد الغضب ورفضت أن تصافحها، وسمحت لهما بقضاء الليل علىٰ أن يغادرا في الصباح! وأخبر كذلك أن ممارسة الجنس بغير زواج محظورة في الريف عند الأسر التي تستمسك بالدين والأخلاق، وأنه كان يضطر إلىٰ قفز الأسوار ويدخل إلىٰ بيت الجيران من النوافذ ليعاشر ابنتهم التي أحبها وأحبته، فلما افتضح أمره حين رآه بعض الجيران ووشىٰ به، كانت الطامة الكبرىٰ ولما ينصلح ما بين الأسرتين حتىٰ اليوم!

يبدو أن طلبا للثأر نشب بين هاتين العائلتين الألمانيتين علىٰ عادة أهل الصعيد! الذين هم أحرص الناس علىٰ الشرف بهذا المفهوم! حقا .. ماذا لو أن بعض أهل الصعيد طالع هذه الحياة المتحررة إلىٰ أقصىٰ مدىٰ! كيف يكون رد فعلهم مع بناتهم وأبنائهم![١] يبدو أن أهل الصعيد عاشوا طرفا من ذلك كذلك! ألم تروا أن النت في الصعيد خرب الواد والبت! نعم «النِّتّ .. خَرَّب الوادْ والبِتّ!» مثل صعيدي سمعته لأول مرة في برلين من صديق مصري صعيدي! جاء إلىٰ برلين في مهمة علمية لمدة عام ونصف، وبعد انقضاء شطر المدة رأىٰ أن يسافر إلىٰ مصر ليزور أهله، فزراهم وعاد إلىٰ برلين سعيدا منتشيا يخبرنا بخطبته السعيدة من فتاة جميلة، تعمل في مهنة عظيمة براتب يفوق راتبه. تقلب صاحبنا في الغرام أياما مع محبوبته التي لم يعرفها إلا منذ بضعة أسابيع فصارت مخطوبته، اتصالات وشات وغراميات شأن ما يكون علىٰ البعد

(١) من الطريف أن القانون الألماني يحرم علىٰ الوالدين عقاب أطفالها بالضرب أو نحوه من أنواع العقاب القاسية غير الآدمية!! ويعلمون الأطفال في الحضانة وفي المدرسة أن يتقدموا بشكوىٰ إلىٰ البوليس ضد الأب أو الأم إذا استخدم أحدهما أو كلاهما هذا النوع من العقاب!!

ترىٰ كيف يكون حال الآباء والأمهات في مصر لو أن هذا القانون معمول به في بلادنا؟!

بين الخاطبين والمخطوبات، والفتىٰ منطلق يجوب الأرض يتيه علىٰ أقرانه بفتاته التي رزقه الله إياها!

ظل علىٰ هذه الحال من الانطلاق حتىٰ رأيته يوما مغتما كاسف البال، ثم صار طريح الفراش! عبثا حاولنا أن نعرف السبب لكن الفتىٰ أبىٰ! فلما طال إلحاحنا عليه في معرفة السبب أخبرنا أنه فسخ خطبته!! فحاولنا التخفيف عنه بأن الله سيرزقه خيرا منها، وأن فسخ الخطبة ليس نهاية العالم! فدمعت عين الفتىٰ، الذي عشق الفتاة، وأوحىٰ إلينا أن المصيبة ليست في الفسخ، وإنما هي في سببه! وذلك أن علاقته توطدت بمحبوبته، حتىٰ راحت تقسم له علىٰ إخلاصها ونقائها وطهرها وعفافها، وبراءتها من كل سوء، وأنها لم تعرف أحدا من البشر قبله، ولن تعرف أحدا بعده، إلىٰ الحد الذي راحت تلح عليه في أن يأخذ كلمة السر لحسابها الشخصي علىٰ فيس بوك، ليتفحصه ويتأكد من صدقها، وهو يرفض -في إصرار- ثقة بها، هي تلح -في حزم- تبرئة لنفسها، ويكاد المريب يقول خذوني، وظل الحال علىٰ ذلك بين رفض وإصرار حتىٰ وافق ففتح حسابها، وكانت بلا شك أمنت نفسها بحذف كل ما يشينها! اللهم إلا محادثة واحدة غفلت عنها في الأرشيف، فوقع عليها الفتىٰ فكانت كل كلمة فيها خنجرا مسموما يطعن في قلبه!

وكذلك طريق المرأة الآثمة .. أكلت ومسحت فمها وقالت ما عملت إثما .. أقسم لها أنه يثق بها لكنها أصرت إلا أن تطلعه؛ ليقضي الله ما كان!! وراح صاحبنا يردد هذا المثل الشائع في بلدته: النِّتّ .. خَرَّب الوادْ والبِتّ!

كم هو عجيب أن تروىٰ حكايات عن الشرف بمفهومه الشرقي، وأنت تسمع صوت اعتمال المراود في المكاحل في حجرة مجاورة! بين طلاب وطالبات، توزع عليهم في ساحات الجامعة حقائب في بداية كل فصل دراسي، فيها سلع للدعاية والإعلان، كراريس وأقلام، وماكينات حلاقة وشامبوهات، وواقيات ذكرية!

وأنت ما فعل الله بك في هذه الأجواء أيها الدرعمي؟!

مالت الشمس نحو المغيب، فألقت أشعتها الذهبية الحانية علىٰ وجنة الدنيا فاحمر الشفق .. سحبته قدماه إلىٰ شاطئ الراين، يتهادىٰ في مشيته، ذاهلا عن كل شيء .. لا يكاد يرىٰ الناس من حوله .. يعبر الشوارع ذاهلا .. يتخطىٰ الإشارات غائبا ..

تأخذه الأحوال . . يترقىٰ في المقامات . . أعياه طول المسير، فأسند ظهره إلىٰ أريكة خالية، تحت شجرة عظيمة صَوَّحَتْ أغصانها من أثر الشتاء . . البرد يحصد أوراق الشجر! في البرد تذوي القلوب . . تذبل الأرواح . . تتهدج الأصوات . . تظلم الدنيا!

جلس علىٰ الأريكة في مواجهة النهر . . مد ساعديه علىٰ مسندها يمينا وشمالا . . بسط رجليه منفرجتين . . أخذ جرعة شهيق عظيمة ثم زفرها ببطء . . نظر إلىٰ النهر . . لاحظ تكسر صفحة وجه الماء من أثر نسمة رقيقة داعبتها . . فافترَّت شفتاه عن ابتسامة حزينة . . هذا الموج الدقيق يشبه تجاعيد قلبه الحزين . .

قطع بصرَه الممتدَّ في وجوم إلىٰ صفحة النهر مرورُ شاب وفتاة تشابكت أصابعهما. يمشيان الهويني . . باطن كفها الغض يرقد في باطن كفه الحاني . . لا شك أن نبض قلبها يصل من أصابعها البيضاء الرقيقة الدافئة إلىٰ أصابعه المتشبثة بيدها في حرص شديد. الكفان تميلان يمنة ويسرة وهما متشبثتان. الكفان تتجاوبان مع وقع الخطوات . . تتحركان إلىٰ الخلف وإلىٰ الأمام. الكفان محضونتان بين جسدين هما روحان يمشيان . .

غابت صورة العاشقَيْن عن عينيه، فسمحت لنظره أن يعود إلىٰ تجاعيد قلبه المرسومة برفق علىٰ صفحة النهر . . حدق بقوة في تجاعيد النهر، فرأىٰ وجها ملائكيا، يتماوج مبتسما، تتهادىٰ قسماته فوق الماء، يفتر ثغره عن ابتسامه بريئة، كشفت عن أسنان شهية كاللؤلؤ، خشي أن تزيد انفراجة الشفتين، فيزداد اللمعان، فيفطن إليها الناس، فينكشف سرهما، وهو يود أن يستبقيها لنفسه . . أرسلت إليه أشعة دافئة من بريق عينيها، أدفأت جسده المضنىٰ وربتت علىٰ شقاء روحه المعذبة . . دبت فيه الروح . . تسارعت ضربات قلبه، وهو ينظر إليها، وهي ترنو إليه . . شعر أن قلبه يسكن إلىٰ جوار قلبها تحت الماء . . إنهما يتماسان . . يتناوبان النبضات! رحماك يا رب! إنهما يتعانقان في شوق . . في لَهَفٍ يتبادلان القبلات . .

قطع بصرَه عن الوجه الملائكي السابح في الماء شابٌ وفتاة . . حالا بينه وبين معشوقته . . أسلما نفسيهما فجأة إلىٰ السور الحديدي علىٰ الشاطئ . . يترنحان عشقا . . شفاه ألمانية وردية رقيقة . . يأكل بعضها بعضا . . ترىٰ هل رأيا حال الجالس

علىٰ الأريكة مع فتاة الموج؟! هل افتضح سرهما؟ إنهما يصنعان صنيعهما . . إنهما يتقنان الغزل . . إنهما يحترقان في جحيم من القُبَل . . إنهما يرتفعان عن الأرض . . يرتفعان . . برزت لهما أجنحة صغيرة . . أجنحتهما آخذة في النمو . . أجنحة عظيمة . . حلقا في السماء . . اختفيا . . غابا عن الأنظار!

رجع بصره إلىٰ النهر في ذهول . . يتفرس تجاعيد قلبه تتثنىٰ علىٰ صفحة الماء . . غابت فتاة الموج . . حدق بقوة علها تظهر . . عله يراها من جديد . . ازداد تحديقه . . جحظت عيناه . . تحول ماء النهر إلىٰ اللون الأصفر . . لقد مات الماء . . غاضت فيه الحياة . . قام ببطء يتوكأ علىٰ مسند الأريكة . . جَرَّ ساقة المجهدة . . ألقىٰ بنفسه في أول حافلة مرت علىٰ الطريق . .

ما أقسىٰ هذه الحياة! لقد حاولت لم شمل الأسرة، لكن السفارة الألمانية في القاهرة رفضت منح التأشيرات بحجة أن راتب المنحة لا يكفي لحياة الأسرة في برلين، ولما استعنت بالمستشار الثقافي المصري، الذي ولي الوزارة فيما بعد، رحب بي في مكتبه، وطلب لي كوبا من الشاي! لكنه رفض مساعدتي في الأمر، وقال إن الوضع السياسي في مصر مضطرب كما ترىٰ، وفي كل يوم يرفع وزير ويؤتىٰ بوزير جديد، وأخشىٰ أن أساعدك في ذلك فينال مني المتربصون! ثم إن راتبك اليوم أكبر من راتبي حين كنت أعد الدكتوراه هنا قبل سنين، حتىٰ إنني اضطررت إلىٰ العمل وقتذاك في الأعمال الشاقة حتىٰ تتيسر لي المعيشة، وأتمكن من الانتهاء من إعداد الدكتوراه!! شعرت بعدم ارتياح لطريقته في الكلام، فشكرته وانصرفت، ولم ينس أن يعطني «كارت» سيادته الشخصي، لأتصل به عند الحاجة!!

تذكرت ما كتبه الدكتور محمد البهي وزير الأوقاف الأسبق في سيرته، من أنه حين جاء مبعوثا إلىٰ ألمانيا، أرسلت برقية عاجلة من مصر إلىٰ مكتب البعثات في برلين تطلب منه أن يلقاه عند وصوله، لكنه لم يفعل شيئا! وعلق ﷺ علىٰ ذلك بأنه من المؤسف أن المكاتب الرسمية للحكومة المصرية في الخارج تهمل إهمالا شديدا في حق المصريين القادمين. وأن المصالح الخاصة من تغيير النقود ومشتريات الموانئ الحرة، ومن التفتيش عن المتع والملذات هي الهدف الأول والأخير لمن نسميه برجل السلك الدبلوماسي المصري، أو موظفي المكاتب الأخرىٰ المحلقة بالسفارة

المصرية، واستطرد رحمه الله، وهو مُحقٌّ، يقول: ولا أظن أن هذا الوضع قد تغير الآن إلىٰ أحسن!

ألا قاتل الله القانون الألماني، والاضطراب السياسي المصري، وتغيير الوزراء والحكومات، والخوف علىٰ المناصب، الذي يجعل فتىٰ مصريا جلدا في شرخ الشباب، يعيش في بيت واحد مع فتيات حسان، يسمع في جنح الليل شهقات وصرخات، وأطيط أسرة وتنهدات من أثر اعتمال المراود في المكاحل، وهو لا يملك من الأمر سوىٰ أن يردد الأبيات التي ترو ىٰ عن المرأة التي غاب عنها زوجها:

ألا طال هذا الليل وازْوَرَّ جانبه وليس إلىٰ جنبي خليلٌ الأعبُه
فوالله لولا الله تخشىٰ عواقبه لحرك من هذا السرير جوانبُه
ولكنّني أخشىٰ رقيبًا موكّلًا بأنفسنا، لا يَفْتُرُ الدَّهْرَ كاتبُه

(٣٥)

هجاي إيرلش وسد النهضة

تعلمون أنني لا أحب الخوض في أحاديث السياسة، وقد ذكرت ذلك مرارا في طي هذه اليوميات، لكن السياسة تمثل جانبا من الحياة التي عشناها في برلين، ولا بد من رصد بعض جوانبه، وبخاصة إذا كانت مهمة وجوهرية! وذلك أن جامعة برلين دعت البروفيسور هجّاي إيرلش Haggai Erlich أستاذ ورئيس قسم تاريخ الشرق الأوسط بجامعة تل أبيب بإسرائيل، ليلقي محاضرة في معهد الدراسات السامية والعربية في الحادية عشرة من صباح الثلاثاء ٢٢ يوليو ٢٠١٤، وكان أهم ما جاء في هذه المحاضرة:

إنني أستاذ في دراسة تاريخ الشرق الأوسط، ولي اهتمام كبير بتاريخ إثيوبيا، والعلاقات بين إثيوبيا والشرق الأوسط، وهي علاقات متعددة الأبعاد، ومن أهم قضاياها مسألة المياه ونهر النيل. إن ٨٦% من المياه التي تصل إلىٰ مصر تنبع من إثيوبيا، أما النهر الأبيض الذي يمر في السودان فيزود مصر بـ ١٤% فقط من المياه. إنهم يقولون إن «مصر هبة النيل»، لكنني أقول إن مصر كذلك هبة إثيوبيا!

تعلمون أن نهر النيل العظيم عليه سد واحد فقط هو السد العالي في أسوان ومن خلفه بحيرة ناصر. أما الآن فالإثيوبيون يبنون سدا آخر علىٰ النهر يسمونه سد النهضة، وسيفرغون من بنائه خلال عامين تقريبا. وسيكون خلف هذا السد أكبر خزان للمياه علىٰ نهر النيل كله. والإثيوبيون يقطعون بأنهم لن يدخروا من الماء فوق حاجتهم، ومن ثم فإن مصر لن تهلك، ولن يصيبها مكروه، ولكن السد سيعود بالنفع علىٰ إثيوبيا، حيث ينتج من الكهرباء ما يكفي حاجتها، وحاجة دول الحوض كله ومنها مصر.

أما عن موقف المصريين من السد من الناحية السياسية فإنهم يخشونه ويأخذهم قلق عظيم بسببه؛ فهذه هي المرة الأولىٰ في التاريخ التي يفقد فيها المصريون سيطرتهم علىٰ نهر النيل. فالنيل لن يكون نهر مصر بعد اليوم، وإنما سيكون النهر الأكبر في إفريقيا يشارك فيه السودان، وكينيا، وبروندي، وتنزانيا، الكونغو وغيرها من البلدان.

لا توجد قوانين دولية تتعلق بتقسيم حصص المياه علىٰ البلاد، ولكن هناك مبدأين يحكمان عملية تقسيم المياه الدولية أولهما الحقوق التاريخية، فالأمم التي أقامت حضارتها علىٰ جانبي النهر لها الحق في التصرف في مائه كيف تشاء بوصفه ملك لها وأن لها الحق التاريخي فيه. أما المبدأ الآخر فهو ضرورة تحقيق الحصة العادلة من المياه لكل دولة من الدول المحيطة بالأنهار، وهذا المبدأ أكثر قبولا واتساقا مع النفس من مبدأ الحقوق التاريخية.

لكن المصريين حتىٰ الآن يزعمون أنهم أصحاب النيل ومالكوه، ولن يرفعوا أيدهم عنه أبدا، أما باقي الدول فينبغي أن تحصل علىٰ إذن أو تصريح من مصر للتعامل مع النهر؛ حتىٰ إثيوبيا التي تنتج ٨٦% كما ذكرت آنفا، ليس من حقها التعامل مع مياه النيل قبل تأذن لها مصر.

لكن بناء السد اليوم غدا حقيقة واقعة، وينبغي أن نتعامل مع هذا الأمر الواقع.

يحسن بي الآن أن أعود قليلا إلىٰ التاريخ، لنرىٰ ماذا سيخبرنا عن الوضع الحالي، لعله يضيء لنا المستقبل.

لقد بني السد العالي في عهد عبد الناصر، وسط صخب عظيم وزهو كبير بأن النيل مصري وأن السد العالي الذي بني في أعقاب الثورة سيحقق الرخاء والتفوق الاقتصادي لمصر وللعالم العربي كله، وهو من إنجازات الثورة، وقد حضر وقت افتتاح السد ضيفا شرف هما ملك المغرب ورئيس سوريا، وقد كان الزهو العربي كبيرا بأن السد سدهم وأن النيل نيلهم، ولم يكن لإفريقيا أو لأثيوبيا ذكر علىٰ الإطلاق، بحجة أن لمصر وحدها الحقوق التاريخية في نهر النيل.

أما في ٢٠١١ فقد شرع الإثيوبيون في التخطيط لبناء سد النهضة، ولو أننا نظرنا إلىٰ هذا السد بشيء من الموضوعية فسنرىٰ أنه «السد الصحيح في المكان الصحيح».

ثم كان حديث طويل عن العلاقات التاريخية بين مصر وإثيوبيا، والمسيحية

والإسلام، وعن ارتباط الكنيسة الإثيوبية بالكنيسة الأرثوذكسية المصرية. ثم عن الفتح الإسلامي لمصر، وإسلام النجاشي، وارتداد الإثيوبيين عن الإسلام، وغيرها.

بعد هذه الخلفية التاريخية، نقول إن سد النهضة يتم بناؤه الآن، ولو أننا تتبعنا وسائل الإعلام، فسنرىٰ أنهم يقولون إن بناء السد كارثة كبرىٰ، هولوكوست، مصيبة كبيرة، كارثة لا يمكن تخيل أبعادها، إنهم شديدو القلق، ولهم أسبابهم الكامنة وراء هذا القلق بلا شك، إنهم يرون أن العالم كله سيتغير بسبب هذا السد، سينقلب رأسا علىٰ عقب. هذا عن الإعلام أما عامة الشعب المصري فيتكونون من ثلاثة قطاعات مختلفة، أولها الليبراليون والمثقفون والمفكرون وهم الذين قام علىٰ أكتافهم الربيع العربي، هؤلاء كيف ينظرون إلىٰ إثيوبيا؟ إنهم يرونها بأعين إسلامية من وجهة نظر حداثية، إنهم يريدون صالح مصر، يريدون خلق مصر العظمي، لكنهم يحافظون كذلك علىٰ العلاقات الدبلوماسية مع إثيوبيا.

أما القطاع الآخر فهو قطاع الإسلاميين، وهو قطاع قوي وله تأثير كبير في المجتمع المصري، فقد وصل الإخوان إلىٰ الحكم بالانتخابات، وقد كان مرسي لطيفا في حديثه عن إثيوبيا، وقد زار إثيوبيا، لكن الجلسة الذي أذيعت علىٰ الهواء مباشرة كان فيها هجوم إسلامي كبير علىٰ إثيوبيا، ودعوة إلىٰ إعلان الحرب عليها، وهذا هو غالبا موقف الإسلاميين.

أما القطاع الثالث والأخير فهو قطاع السياسيين العسكريين الذي بناه ناصر والسادات من بعده، ويواصله السيسي اليوم، إنهم لا يتحدثون كثيرا عن النيل بسبب الصراعات الداخلية حول مستقبل مصر؛ إن السيسي يريد تهدئة الأوضاع وبناء الاقتصاد المصري.

إن مصر هي حجر الزاوية في الوطن العربي كله، وأظن أنها لم تمر بأزمة حقيقة منذ عهد النبي محمد كتلك التي تمر بها الآن. إن عودة الإسلام للظهور بقوة، وعودة تركيا وإيران، وما يجري في سوريا والعراق، كل ذلك هو ما خلق تلك الفوضىٰ الحالية، والكل ينتظر استقرار مصر، فهي الشقيقة الكبرىٰ لأخواتها العربيات، ومهم جدا أن ينجح السيسي في العبور بمصر إلىٰ بر الأمان. وقد عقدت لقاءات بين وزراء الخارجية المصرية والإثيوبية، ومصر لن تعاني من بناء السد، وإثيوبيا ستحقق بهذا السد أول

ثورة عظيمة في تاريخها، ولا يمكن أن تتراجع أبدا. رغم أن المشهد مليء بالمشكلات ودواعي القلق؛ لكن المستقبل سيكون أفضل من الماضي.

إنني لا أخفي رأيي، إن مصر مع السيسي تحولت إلىٰ الليبرالية والعلمانية الحديثة التي يتمناها الإنسان.

❁ ❁ ❁

سئل هجاي إيرلش عن رأي الإسرائيلين فيما يجري حول نهر النيل، فأجاب بأن الشعب الإسرائيلي لا يعبأ بذلك، ولا يلقي له بالا. لكن العلاقة اليوم بين إسرائيل وإثيوبيا علاقة وثيقة ليس فقط في النواحي الاقتصادية والسياسية، ولكن الإثيوبيين اليوم يشكلون جزءا كبيرا من الشعب الإسرائيلي. ١٤٠ ألف مواطن إسرائيلي من أصول إثيوبية، إنهم جزء أصيل من الثقافة والمجتمع في إسرائيل، والعلاقات الاقتصادية والأمنية بيننا علىٰ ما يرام، وبيننا التقاء كبير من ناحية الدين.

ولإسرائيل كذلك علاقات قوية صلبة متينة «خرسانية» مع مصر في ظل حكم السيسي، صحيح أن العلاقات مع مصر ليست منفتحة كما هي مع أثيوبيا؛ فما زال التاريخ يلقي بظلاله، والشعب المصري لا يحب إسرائيل. ولكن الحكومة المصرية تتفهم طبيعة العلاقة بيننا تماما، وتبقىٰ اتفاقية كامب ديفيد الأكثر أهمية بالنسبة لإسرائيل. انظروا إلىٰ الأزمة الآن في غزة، ومحاربة الإرهاب في سيناء وخصوصا حماس في غزة. إن مصر وإسرائيل بينهما تعاون من أجل محاربة هذا الإرهاب.

أما العلاقات الدبلوماسية المصرية الإثيونية فإن إسرائيل تتمنىٰ أن تكون علىٰ ما يرام لكنها لن تتدخل في اللعبة الدبلوماسية هذه وستتركها لأمريكا وأوروبا. ونحن شديدي الثقة في السيسي.

وفي إجابته عن مصير مصر فيما يتعلق بالمياه قال إن المصريين يهدرون المياه، فنظام الري عندهم قديم، ترع وقنوات من أيام محمد علي، كما أن مشروع توشكي الذي بناه مبارك ضيع كثيرا من المياه وفشل فشلا ذريعا، ولا تنسوا أن السادات كذلك عمل علىٰ إهدار المياه وأراد أن يبيعها لإسرائيل.

وقد طرح صديقي مازن عكاشة عدة أسئلة أولها عن مدىٰ تأثر الإثيوبيين بالغضب المصري تجاه السد، وبخاصة بعض لقاء جَمَعَه مع حمدين صباحي أخبره فيه أنه عاد من إثيوبيا بشعور طيب، وسأل مازن بوصفه مصريا عن إمكانية إيجاد بديل للطاقة في إثيوبيا كالطاقة الشمسية مثلا، حفاظا علىٰ حصة مصر في المياه. وهل يكمن السر في تأييد الإسرائيلين للسيسي في أنه يتبع نهج مبارك، فقد دعا قبل أيام إلىٰ مواصلة العمل في مشروع توشكىٰ رغم ثبوت فشله، وأردف يقول إنك إذا كنت تهاجم مرسي، فأنت تعلم أنه كان من أرق الناس حديثا في حق أثيوبيا والذين دعوا إلىٰ حربها في جلسة البث الحي الشهيرة هم حزب النور الذين هم الآن من أنصار السيسي .. فرد المحاضر علىٰ السؤال الآول بأن أحال مازن إلىٰ حوار صحفي أجراه صحفي مصري مع أحد المسئولين الإثيوبيين، فيه تفصيل كل شيء، ونسي الرجل الإجابة عن السؤالين الأخيرين!

ثم تحدث السفير الإثيوبي في كلمة ختامية أكد أن إثيوبيا ماضية في طريقها، وأنها لا يمكن أن ترجع في بناء السد خطوة واحدة إلىٰ الوراء فهذا حق لها ولا نزاع فيه.

هذا مجمل ما حصلته من أفكار المحاضرة، وأغلب الفقرات ترجمة حرفية، وبعضها فيه تصرف يسير. لكن لي ملاحظة واحدة مؤلمة وهي الغياب المصري الكبير عن المحاضرة، فلم يشهدها من المصريين سوىٰ صديقي مازن عكاشة الباحث بمعهد الدراسات العربية وأنا، وقد بلغت نسبة الحضور من الإثيوبيين ٩٠% وعلىٰ رأسهم السفير الإثيوبي في ألمانيا ومعه وفد كبير من الدبلوماسيين. وكأن القضية لا تعنينا في شيء، وأن ضرر سد النهضة سيقع علىٰ أثيوبيا وليس علىٰ مصر.

لماذا لم يحضر السفير المصري .. أو المستشار الثقافي أو المحلق العسكري؟!

لا أدري!

(٣٦)

من عادات القوم وأخلاقهم

لكل شعب من الشعوب مطبخ خاص، ينفرد بصنع مأكولات يتميز بها عن غيره من الشعوب. فتجد المطبخ الإيطالي والمطبخ الصيني والمطبخ الفرنسي والمطبخ السوري والمطبخ اللبناني والمطبخ الهندي وغيرها، غير أنك لا تكاد تسمع عن «المطبخ الألماني»، إلا فيما ندر؛ حتىٰ تظن أن القوم لا مطبخ لهم. قد تكون لهم بعض الأكلات اليسيرة المميزة لهم، ولكنها ليست شهيرة وليست شهية كذلك، فلا أذكر أنني استستغت منها شيئا قط، ويكفيك أن تعرف أن الخيار المخلل عندهم طعمه سكري!! وهم من عشاق البطاطس، يتفننون في أصنافها وأشكالها وألوانها، ويتندرون علىٰ أنفهسم بذلك، حتىٰ إن ألمانيا لتقيم بطولة لتقشير البطاطس، ولا تزال تحصد لقب هذه البطولة وتحافظ عليه منذ ٤٢ عاما. أما أشهر المأكولات والمطاعم في ألمانيا فهي «تركية». فقد غزا الأتراك ألمانيا قبل سنين للعمل والتجارة، وهم اليوم يمثلون نسبة كبيرة من نسيج المجتمع الألماني، ولذا تجد مطاعمهم وأكشاكهم في كل مكان، وأشهر ما يقدمونه «دونر» وهي ساندوتشات الشاورمة بنويعها لحم أو دجاج. ويحضر العرب كذلك، وهم يمثلون نسبة كبيرة من المجتمع تأتي بعد الأتراك، يحضرون بأطعمتهم الشهيرة، فيقدمون المحشي والفول والفلافل المصرية، والفلافل السورية التي تصنع من الحمص، وتجد هذه المأكولات رواجا كبيرا بين الألمان وغيرهم.

قد يفسر البعض عدم وجود مطبخ ألماني شهير بأن الألمان قوم عمليون، فلا وقت لابتكار أنواع المأكولات، أو ربما لأنهم لا يحبون الطعام، والحقيقة عكس ذلك؛ فألمانيا واحدة من أكبر دول العالم من حيث معدلات السمنة!

وإذا كنت لاحظت أن الألمان لا يحفلون كثيرا بالمطبخ، فإنهم من أشد الشعوب نهما في شرب الخمور، ومن أشد الناس شراهة في التدخين. ورائحة تبغهم من أشد أنواع التبغ كراهة. وكأنهم يأبون إلا أن يتقنوا كل شيء صنعا. فلا يخلطون التبغ عندهم كما يفعل منصور الدخاخني بما يشبهه من نشارة الخشب ونحوها، فتبغهم متقن الصنع منضبطة فيه نسبة النيكوتين والكربون والقطران! ولما كان التدخين محرما في المواصلات العامة والأماكن المغلقة، ويدفع المخالف لقاء مخالفته غرامة كبيرة؛ فإنك ترىٰ سحب الدخان تنبعث من محطات الأتوبيس والقطار وغيرها، يشعلون التبغ بشراهة في الهواء الطلق وهم في انتظار الأتوبيس، ويسرعون بالانتهاء قبل وصوله، فيزكمون بقبيح الريح أنوفنا، ويكتمون مسام صدورنا. وهم لا يحتالون للتدخين في القطارات والحافلات كما يصنع المصريون، فإذا ركبنا المواصلات تراهم يلقون بالسجائر، ولا ترىٰ أحدا يشغل سيجارته ويخرجها من نافذة الحافلة ليوهم نفسه ويوهم الركاب بأنه لم يصنع شيئا كما هو الشأن في بلادنا! فتنسرب رائحة التبغ رغم حرصه علىٰ إبعادها إلىٰ الحافلة فيضج الناس، ويسعل الأطفال ويطالبونه بإطفائها، ثم هو يصيح بهم وقد أمن العقوبة، ويأبىٰ إلا أن يتم سيجارته.

ومن عجب أنك ترىٰ كثيرا منهم يصنعون سجائرهم بأنفسهم، يحملون كيسا ممتلئا بالتبغ، ومعه ورق السجائر الرقيق «ورق بفرة»، وهذه ظاهرة أعرفها جيدا عند كبار السن من فقراء مصر وفلاحيها، يلجئون إليها لغلاء أسعار السجائر، أما هنا فإن صنع لفافات التبغ يدويا لا يقتصر علىٰ كبار السن فحسب، وإنما تجده أكثر شيوعا بين الشباب والفتيات في الجامعة وغيرها، وقد يكون السبب في ذلك ارتفاع أسعار السجائر الآلية كذلك «سجاير مكنة». ولما كان التدخين ممنوعا في الأماكن المغلقة كالأتوبيسات والقطارات وغيرها، فترىٰ أكثرهم يستغلون مدة الركوب في صنع هذه اللفافات، وما إن تأتي محطة الوصول، حتىٰ يشرعوا في إشعال لفافاتهم وإطلاق أدخنتها. كم هو مضحك ومثير للشفقة في آن أن ترىٰ فتاة شقراء حسناء بهية تمسك بكيس التبغ فتلتقط بعضا منه بمهارة وتبرمه في ورق السجائر لتصنع لفافات دقيقة رقيقة محكمة الصنع. أصابعها الغضة الشهية خلال العصر والبرم تثير شهيتي نحو طبق رائع من المحشي تعده بيدها بدلا من هذه السجائر، فما ألذ المحشي من هذه الأيدي

الناعمة الشهية الماهرة، وسحقا للفافات التبغ الكريهة! هذه الأصابع الرقيقة تجلب إلىٰ الذاكرة أصابع فقراء مصر الذين أدمنوا دخان «الحناوي» و«البطة»، بنوعيه الحامي والبارد، وكان كثير من الأطفال في الحقول يقلدون آباءهم في صناعة لفافات التبغ! لكن أنّىٰ لهم بالتبغ وورق البفرة . . لقد كانوا يعبثون . . يستخدمون الأوراق القديمة من كراسات المدرسة التي امتلأت صفحاتها بالكتابة، ثم يعمدون إلىٰ روث الماشية الجاف، وروث الحمير بخاصة، لأنه أشبه شيء بالتبغ، فيتخذون منه تبغا، يصنعون منه لفافاتهم في أوراق الكراريس. وفي الوقت الذي كان يتفنن فيه جار لنا في الحقل في صنع ما أسماه «مبسم» وهو أسطوانه قصيرة من الغاب «البوص» ونحوه، تشبه الناي، يثبت فيها السيجارة التي صنعها ويصلها بفمه لتحمي أسنانه وشفته من أثر الاسوداد والاصفرار، فإن بنات الفرنجة وشبابهم يصنعون ذلك كذلك فلهم اسطوانات صغيرة رقيقة من الورق المقوىٰ توضع في السيجارة لتصلها بالفم. غير أن جارنا المصري كان أشد حذقا فهو لم يكن يرضىٰ إلا بـ «مبسم كهرمان»!

ما أشد الشبه بين عادات المدخنين، فإنك لا تعدم هنا في برلين من يستوقفك في الشارع يسألك سيجارة لأنه «خرمان»، أو يسألك عن كبريت أو ولاعة، وقد حدث ذلك معي مرات كثيرة فأعتذر بأنني لست من المدخنين. غير أننا ننفرد نحن المصريين ببيع السجاير «الفرط»، وهم لا يبيعون إلا العلب كاملة، وهي غالية الثمن، وعليها نسبة كبيرة من الضرائب، حتىٰ إنهم يمنعون دخولها إلىٰ ألمانيا في المطارات والموانئ، لأن ذلك قد يضر بالاقتصاد القومي.

هل الألمان قوم كرما أسخياء! ينفقون علىٰ طعامهم وخمرهم وتبغهم وجميع ملذاتهم كل كيف شاء؟! الحق أن فيهم كرماء، لكن أكثرهم شديدو الحرص مقترون! وقد يرجع ذلك إلىٰ ما يتسمون به من الدقة والانضباط في كل شيء. وإذا كان الجاحظ قد صور في كتابه «البخلاء» من قابلهم وتعرف إليهم من البخلاء في بيئته الخاصة في بلدة مرو عاصمة خراسان، صورهم تصويرا حسيا ونفسيا فكاهيا بارعا. فإنني شهدت في هذه البلاد من مظاهر البخل عند بعض أهلها ما يكاد يصل إلىٰ ما صوره الجاحظ في كتابه. حتىٰ إنني وددت لو عاش الجاحظ ليزور هذه البلاد فيصور لنا ما فيها. ومن ذلك أنني دعيت مرة إلىٰ الاحتفال بعيد ميلاد أحد الأصدقاء وكان كريما، وحدث أن

شاركت طفلته المرح وشاركتْ معي امرأةٌ من الضيوف، وكانت الطفلة تلبس علىٰ رأسها (توكة) Haarreifen، ظننتها لها، فالتقطتها في لحظة لعب فانكسرت، فإذا بها توكة هذه المرأة، كانت ألبستها الطفلة، فبدا الامتعاض علىٰ وجهها وكشرت عن أنيابها، وتحول صوتها الرقيق زئيرا، وقالت كلاما غريبا، عجبت له، وإذا بها تطلب مني ثمن «التوكة» معللة ذلك بأن التوكة عزيزة عليها، وأنها تريد شراء أخرىٰ بدلا منها، فشعرت بحرج شديد، ليس من أجل المبلغ الذي طلَبَتْهُ وكان كبيرا في مقابل التوكة (١٥ يورو)، ولكن الحرج كان لعدم توقعي رد فعلها، فنحن لم نعتد ذلك في ثقافتنا! ولا نقبل العوض!

نقدتها المبلغ! وتحدثت إلىٰ صاحب البيت، فأسف لذلك واعتذر لي كثيرا، وقال لا عليك، هو موقف قبيح، لكنه فردي، فليس كل الألمان كذلك، وهو أهون مما حدث معي علىٰ كل حال، فقد دعاني زوج هذه المرأة، وهو صديقي، بعد زفافي، إلىٰ الغداء في أحد المطاعم، وحدث أن حضرت أختي لزيارتنا، فاتصلت به أستأذنه في اصطحاب أختي معنا للغداء، فلا يليق أن نتركها وحيدة في البيت، فقال لا بأس بحضورها شريطة أن تدفع لنفسها ثمن ما ستتناوله من طعام!

وهنا بلغ بي العجب مبلغه، حتىٰ وردت إلىٰ ذهني أبيات هجاء منكرة في ثقافتنا العربية -الحافلة بالكرم والكرماء- تذم البخل والبخلاء. يقول أحدهم يذم قوما من البخلاء:

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأضيافُ كلْبَهُم قالوا لأمهم بولي علىٰ النار
فتُمْسِكُ البَوْل بُخلا لا تجود به ولا تبول لهم إلا بمقدار

وقول الشاعر يذم بخيلا اسمه «عيسىٰ»:

يُقَتِّرُ عيسىٰ علىٰ نفسه وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتَقْتِيرِه تنفّسَ من مِنْخَرٍ واحد

وكأني بصاحبي هذا هو وزوجه وأخته علىٰ المنضدة في دعوة الغداء مع هذا البخيل يحكون قول أبي الفتح كشاجم:

صديقٌ لنا من أبدع الناس في البُخْلِ وأفضلِهم فيه وليس بذي فضلِ
دعاني كما يدعو الصديق صديقه فجئتُ كما يأتي إلىٰ مثله مثلي

فلما جلسنا للطعام رأيتُه ... يرىٰ أنه من بعض أعضائه أكلي
ويغتاظ أحيانا ويشتم عبدَه ... وأعلمُ أن الغيظ والشتم من أجلي
فأقبلْتُ أستلّ الغذاء مخافة ... وألحاظ عينيه رقيب علىٰ فعلي
أمُدُّ يدي سرًّا لأسرق لقمة ... فيلحظني شزرا فأعبثُ بالبقلِ
إلىٰ أن جنتْ كفِّي لحتفي جنايةً ... وذلك أنّ الجوعَ أعدمني عقلي
فَجَرّتْ يدي للحين رِجْلَ دجاجةٍ ... فَجَرَّ كما جرّتْ يدي رجلها رِجْلي
وقمتُ لو اَني كنتُ بيّتُّ نيةً ... ربحْتُ ثوابَ الصوم من عدَمِ الأكلِ

ويبدو أن الحرص الشديد ليس سجية عندهم في المحافظة علىٰ المال الخاص فحسب، وإنما تجده كذلك في المحافظة علىٰ الأموال العامة، وقد يبلغون في ذلك حدا من الحذلقة، تحسبهم معه وكأنهم يعبدون القانون! إننا كثيرا ما نسمع عن الدقة الألمانية في الصناعة والالتزام الألماني في المعاملات والإتقان في العمل والالتزام الحرفي بالقانون، وقد شهدت بنفسي شيئا من ذلك في تعاملاتهم في أيامي الأولىٰ في برلين. لكنني لم أكن أتوقع أن أتعرض لموقف أعاني فيه من هذا الالتزام الحرفي بتطبيق القانون والغياب التام لروحه. فقد أرسل إليَّ صديقي الدرعمي الذي يعمل في دولة قطر «ساعة يد هدية» علىٰ عنواني في برلين وأخبرني أنه أرسلها في أسرع أنواع البريد القطرية وأفضلها علىٰ الإطلاق حيث ستصلني خلال أربعة أيام لا أكثر . .

انتظرت الساعة لما يقرب من أسبوعين ولم تصلني، وإنما وجدت خطابا في صندوق البريد الخاص بي يطلب حضوري إلىٰ مصلحة الجمارك الألمانية لتسلم صفقة مرسلة إلي من إحدىٰ الدول، علىٰ أن يكون ذلك خلال ١٥ يوما من تاريخ الخطاب، مع العلم أن كل يوم أتأخر فيه عن الحضور بعد انتهاء هذه المدة، ستحسب علي فيه نفقات للاحتفاظ بهذه الصفقة قدرها خمسون سنتا. بعد انتهاء العطلة الأسبوعية ذهبت للمكان المحدد وفوجئت بأعداد مهولة من البشر قَدِموا لمثل ما قَدِمْت من أجله، فهالني الزحام وما كان مني إلا أن ابتسمت علىٰ غيظ وحنق شديد وانتظرت في الطابور من الثالثة عصرا حتىٰ السابعة والنصف، ولا أكف عن الابتسام المحنق المغيظ لما يحدث من أجل «ساعة يد» مهما كانت قيمتها!. وقد فاتني موعد كورس اللغة الألمانية! وما إن وصلت إلىٰ الموظف المسئول حتىٰ أعطاني «علبة مغلفة»

وطلب مني فتحها أمامه ففتحتها وأخبرته خلال الفتح أنها ساعة هدية من صديق. لم أكد ألمسها حتىٰ التقطها والتقط رسالة مرفقة معها ظنا منه أنها الفاتورة فلما لم يجد السعر مبينا حملق في عيني كأنما يهددني ويشك في نيتي، وطلب مني أن أخبره بالسعر الحقيقي للساعة وإلا فسيبحث عنه علىٰ الإنترنت. فابتسمت وقلت إنها هدية وصديقي بلا شك لم يخبرني بثمنها، وأنا لا أستطيع أن أقيمها علىٰ نحو دقيق. فعمد إلىٰ شاشة الكمبيوتر مدة طويلة يبحث عن الثمن، واستعان بأصدقائه من الموظفين في الجمرك من حوله للاهتداء إلىٰ ثمنها، ولكن هيهات .. الساعة من والواضح أنها جيدة، ماركة عالمية، لكنها سوداء اللون، أقصد أنها ليست ذهبا علىٰ كل حال!

حملق الموظف ثانية وقال: اطلب من صديقك أن يرسل إليك الفاتورة عن طريق الإيميل وهاتها مطبوعة خلال ٣ أيام وإلا سنضطر إلىٰ إرجاع الساعة إلىٰ حيث أتت!

ولما كنت أعلم أن صديقي الآن في زيارة لمصر، ولن أتمكن من الوصول إليه بسهولة؛ لعدم رده علىٰ الإيميلات في عطلته وعدم معرفتي برقم جواله في مصر، ولن يتمكن هو كذلك من العثور علىٰ الفاتورة. شكرت رجل الجمارك المحترم وانصرفت وتذكرت ذلك الموظف المصري الذي إن «طبقت عشرة جنيه في جيب قميصه» في مثل هذا الموقف، شكرك وأعطاك الساعة بعد أن «يضبطها» وربما قام بتوصيلك وهدايتك إلىٰ طريق البيت!

الألمان يتسمون بالدقة والحزم، وربما بالحذلقة، علىٰ هذا النحو، لكن هذه الدقة المبالغ فيها أحيانا، لا تمثل لهم قيدا يضيقون به، وإنما تجدها فيهم طبعا وسجية، وهم معها ينعمون بالحرية والانطلاق والأريحية .. فالمواطن الغربي إنسان حر .. ولا أقصد بالحرية هنا عدم تعرضه للقهر والقمع والظلم والإيذاء النفسي والبدني الذي يتعرض له الإنسان الشرقي بعامة، فهذا أمر لا جدال فيه ولا حاجة بنا إلىٰ التذكير به، لكن الحرية التي أقصدها هنا حرية من نوع فريد! في أوروبا أنت حر .. تسافر .. تنطلق في أرجاء الأرض كيف تشاء، لا يحول دون ذلك تأشيرات دخول للبلاد المجاورة، ولا يعوقك سوء وسائل المواصلات، ولا تمنعك إمكاناتك المادية. نعم!! هل تعلم أن ضعف إمكاناتك المادية الذي يحول دون تحقيق رغباتك (في السفر والسكن والأكل والشرب و ...) هو نوع من الرق وفقدان الحرية؟! في

أوروبا . . قد لا تسافر . . لكنك تشعر أنك إذا ما أردت السفر فإن شيئا لن يمنعك! هذا الشعور في ذاته -وإن لم يخرج إلىٰ حيز التنفيذ- هو نوع من الحرية!! هل تعلم أن إقامة الأسوار حول الجامعات والمؤسسات، نوع من فقدان الحرية؟! وكذلك طلب البطاقات الشخصية عند الأبواب، والتفتيش الذاتي . . فجامعات الغرب بلا أسوار، وبلا أفراد أمن، وكذلك دخول المكتبات الجامعية والعامة . . حرية . . حرية . . الأسوار للسجون فقط! لماذا نغلق الأبواب الرئيسية لكلياتنا ومعاهدنا، ونلج إليها من أبواب خلفية صغيرة ضيقة . . هل تعلم أن هذا التضييق الذي يبدو ظاهريا؛ له أثر عميق في انسداد الأفق! وضيق الصدر وقتل القدرة علىٰ الإبداع والخلق والابتكار لدىٰ كل من يدخل إلىٰ هذه الأماكن المغلقة . . متىٰ تزال الأسوار، وتنفتح الأبواب، وتصافح أغصان الأشجار وجوه المقيمين من النوافذ . . فعندئذ تنفتح الآفاق . . وينعم الخلق بالحرية والحياة . .

كم هو جميل ذلك المشهد الذي تعابث فيه غصون الأشجار المرتفعة وجوه المقيمين في النوافذ والشرفات! ما أجمل الأشجار في هذه البلاد، ليت الناس في بلادنا أشجار ألمانية!! إن مكاتب الصحة في بلادنا تعنىٰ بتسجيل حديثي الولادة في دفاترها واستخراج شهادات ميلاد لهم، وكان كثير من الناس إلىٰ وقت قريب لا يحفلون بذلك، حتىٰ إذا بلغ الشاب أو الفتاة سن الزواج حملوهما إلىٰ مكتب الصحة للتسنين، حتىٰ يتمكنوا من تسجيل عقد الزاوج. هذه العناية بإثبات هوية الإنسان في بلادنا تتفوق عليها عناية الألمان بإثبات هوية الأشجار. فرغم أن بلادهم غابة كثيفة، فإنك ترىٰ في الشوارع لكل شجرة رقما مثبتا عليها، ولها ملف في الهيئة المسئولة عن الأشجار يحمل هذا الرقم، ويحتوي علىٰ سيرتها الذاتية، فيوضح تاريخ زراعتها، وعمرها، وما استخدم في إخصاب أرضها من أسمدة، وحاجتها إلىٰ التقليم، أو السماد أو غيره، وإذا أصابها مكروه من ريح أو غيره، فيكسرها أو يهشم بعض أغصانها، فحينئذ يُنظر في أمرها إن كان يمكن إصلاحها أو يتعين قطعها وزراعة غيرها!! ولما كان الرقم عرضة للفقد أو التلف بمرور الأيام فإن هذه الهيئة تعيد تثبيت الأرقام علىٰ الأشجار الفينة بعد الفينة، وكأنها بطاقة تحقيق الهوية. عجيب!!

كل هذه العناية بالأشجار في بلاد الألمان! يا ليت لنا نحن البشر من العناية مثل ما

للشجر! يا ليت كل مصري يصير شجرة في برلين!!

كانت تجول برأسي هذه الأمنية العجيبة حين وصلتني هذه الرسالة من شخص لا أعرفه علىٰ بريدي الخاص، يقول:

«السلام عليكم: أنا جمال من الفيوم عمري ٢٠ سنة، وكنت عايز أسافر ألمانيا. فلو حضرتك تقدر تساعدني في السفر لألمانيا أو تعرف حد يساعدني للسفر، وكل اللي إنتا هتطلبوا تحت أمرك، (طبعا إنتا دلوقتي بتقول اللي هطلبوا إيه هو أنا محتاج فلوس)، لكن أنا محتاج فعلا السفر ومحتاج أبني مستقبلي، وعلىٰ فكره أنا الحمد لله شاب محترم. هستنىٰ منك رد، بس يا ريت يكون رد يفرحني إن شاء الله».

ترىٰ هل يريد هذا الشاب أن يكون شجرة في هذه البلاد؟! أو حتىٰ ورقة في بعض أغصانها؟! الحقيقة أن هذه الرسالة ليست الأولىٰ من نوعها، فقد تلقيت كثيرا من الرسائل المكتوبة والمكالمات الصوتية من أشخاص لا أعرفهم، يطلبون إلي المساعدة في إيجاد فرصة عمل في ألمانيا. لكن هذه الرسالة هزت أعماقي بعنف ولذا رأيت نشرها والتعليق عليها، وبخاصة أن صاحبها شخص مجهول لي ولكم، فلن يناله ضرر من ذلك.

شاب في مقتبل العمر، ٢٠ عاما، وهذا يعني أنه لم يلتحق بالجامعة أو أنه لم يتم دراسته بها علىٰ الأقل، يريد السفر إلىٰ ألمانيا للعمل! فما تراه يعمل في هذه البلاد إن هو تيسرت له فرصة السفر، ولا شهادة معه تفيد بأنه درس شيئا ما؟!

الحق أنني لا أدري كيف أساعده! وأعلم علم اليقين أن الفيزا الألمانية صعبة المنال في حالته! بل إن كثيرا من الحاصلين علىٰ الماجستير والدكتوراه لا يجدون فرصة عمل مناسبة هنا؛ ويضطرون إلىٰ العودة إلىٰ بلادهم.

أعلم أن الحياة في مصر صعبة، وضيق العيش يضطر الناس إلىٰ الفرار ولو إلىٰ جهنم! فكثير من المصريين يسافرون بطرق غير شرعية، ويعملون في البناء والمطاعم ويتوارىٰ بعضهم من بعض هنا في المترو والمواصلات العامة حياء وخجلا، حتىٰ لا يُرىٰ أحدهم بملابس مبيض المحارة أو عامل النظافة أو ملابس المطبخ!

الشاب يريد أن يبني مستقبله، ويوافق علىٰ دفع ما أطلبه، لكنه يعقب قائلا: (طبعا إنتا دلوقتي بتقول اللي هطلبوا إيه هو أنا محتاج فلوس)!

عبارته هذه تحمل معنيين كلاهما مر! أولهما أنه شاب مسكين ليس معه ما يدفعه إلىٰ من يساعده في إيجاد فرصة عمل، فبعد أن يعرض المال، ينفي قدرته عليه بطريقة غير مباشرة! والأمر الآخر هو أن هذا الشاب، ومعه كل المصريين الفقراء، يرون أن كل من يسافر إلىٰ الخارج قد انفتح له باب كنز كبير، أو اكتشف منجما من الذهب! وهم معذورون في ذلك! وليس كل ما يعرف يقال!

«هستنىٰ منك رد، بس يا ريت يكون رد يفرحني إن شاء الله»

جملة موجعة! فأنا أريد أن أدخل السعادة علىٰ قلبه، ولكن لا أدري كيف! وأستحيي وآلم أن أرد متعجلا بالرفض! ترىٰ هل يتيسر لهذا الشاب أن يجيء إلىٰ برلين، فيحظىٰ فيها ببعض رعاية كتلك التي تحظىٰ بها الأشجار؟!

كم هو جميل أن يتيسر لك العيش في مكان معشب جميل، كالحي الذي أعيش فيه، فيه أشجار عليها أرقام، تحيط به مياه البحيرات من جميع الجهات، لكن اجتماع العشب والماء في الصيف يخلق الناموس، وليست حقول الأرز في ريفنا منا ببعيد! لقد بلغ الناموس في هذه الغابة التي أسكن بين أشجارها في برلين في الصيف حدا من الشراسة بحيث يلدغ كالأفاعي ويعض كالكلاب! وإن الناموسة لتُعْمِل خرطومها، وإن شئت قلت زَلُّومَتَها، في جسد ابن آدم تاركة أثرا لا يزول. ولديغ الناموس لا يرجىٰ برؤه إلا بعد حين من العلاج بالمراهم والمرطبات التي نحاول بها عبثا تهدئة حر اللدغة، وربما اضطر بعضنا إلىٰ زيارة الطبيب. وحدث ولا حرج عن قدر كبير من الهرش المتواصل غير المجدي يكاد يفتك بالجلود بعد تَكَوّن كرات في الجسم من أثر اللدغة، مختلفة الألوان والأحجام، لكن للهرش لذة علىٰ كل حال!!

إن لدغ الناموس يذكرني بمصر .. ذلك الوطن العزيز الذي شحط مزاره! فغدا قريبا علىٰ بعد بعيدا علىٰ قرب! إنك حين تبتعد عن الهدف تتضح رؤيتك له، تستطيع تحديد أبعاده وتبين معالمه. أزعم أنني حين أنظر إلىٰ مصر، وأنا هنا في أعلىٰ الدنيا، فإنني أرىٰ كل شيء فيها واضحا جليا كما لم أره من قبل. أنظر إلىٰ حدودها الغربية مع ليبيا، ثم تنحرف عيناي شيئا يسيرا إلىٰ الشرق لأطالع سيناء والبحر الأحمر. ثم يجول البصر بين أسوان والإسكندرية، إنني أنظر إلىٰ مصر وكأنها بقعة علىٰ خريطة، لكنها خريطة كبيرة حقيقية .. خريطة بحجم الدنيا.

تبينت أنني من أول يوم جئت فيه إلىٰ برلين، أضع مكتبي بحيث يكون وجهي ناحية مصر وكأنها القبلة! أجدني أحيانا تمتد إليها يدي، من غير وعي مني ولا إرادة، لأجتث ألما من هُنا، أو ينطلق شعاع محبة من قلبي ليداوي جرحا ينزف هناك، أو تمتد ذراعاي معا في لحظات احتضان تطول، لأضم البلاد والعباد في لهفة جميعا بين جوانجي، ثم أميل برأسي عليها قليلا لأتحسسها بصفحة وجهي، وتتشابك أصابعي هناك من خلف السد، تنساب من بينها مياه النهر رقراقا يروي الأحبة.

إن لي قلبا ود لو امتص من مصر آلامها وأوجاعها، واستقبل كل الرصاصات المنطلقة والقنابل المدوية في ربوعها، وأعلم أنه لن يموت، بل سيزداد حبا وسعادة!! لأنه يخلص البلاد مما ألم بها ليحيا الناس في سلام!! إنني أحملها كل يوم في كفي كما يحمل الأب الحنون وليده، وأمد ذراعي بها إلىٰ أصقاع الأرض، ليطلع عليها الناس، ثم أقول في زهو كبير: هل رأيتم بلادي؟!

إلهي يصونك يا أرض العبور . . ويملا ربوعك محبة ونور . . ونزرع في ظلك خمايل زهور . . وبهجة وسعادة ومغنىٰ ونغم . . عظيمة يا مصر يا أرض النعم . . يا مهد الحضارة يا بحر الكرم . . نيلك دا سكر . . جوك معطر . . بدرك منور بين الأمم . . أرض الكنايس . . أرض الجوامع . . أرض الجناين . . أرض المزارع . . أرض المداين . . أرض المصانع . . عشت يا مصر . . يا أم الهرم . .

كل ما هو مصري هنا يأسرك! تتحسس أخبار الوطن في كل مكان! في الصحف . . في نشرات الأخبار . . في المطاعم المصرية . . في المساجد . . في صوت أم كلثوم في المقهىٰ . . حين جاءت ذكرىٰ حرب أكتوبر المجيدة، أقامت الجالية المصرية احتفالا في برلين، كانت ندوة تحدث فيها المحارب المصري بركات محمد بركات، أحد الأبطال الذين شاركوا في حرب أكتوبر، وهو يقيم في برلين منذ عام ١٩٧٧، أمضىٰ في الجيش خمس سنوات، وكان في الحرب جنديا، أحد أفراد طاقم دبابة. ويبدو أنه لم يكن ماهرا في الجندية فحسب، ولكن له قدرة عظيمة علىٰ الحكي وسرد الأحداث، في صدق نادر، بحيث جعلنا نشهد معه الحرب ونراها رأي العين، يحكي أصعب اللحظات، وأخطر المواقف، متىٰ أصابه الخوف، ومتىٰ

ارتفعت المعنويات، كل ذلك في ثوب إنساني خالص بعيد عن المبالغات أو ادعاء البطولات.

سئل في آخر الندوة أن يحكي لنا قصة استشهاد بعض من استشهدوا من زملائه، فروىٰ عدة حكايات، منها حكاية مؤثرة للشهيد عبد المعطي حامد، مدرس تربية رياضية من الإسكندرية، وكان زميلا له في سلاح الدبابات، كان له ولع كبير بتفتيش الدبابات الإسرائيلية بعد تدميرها، للحصول علىٰ ما بها من متعلقات الإسرائيليين، مثل شارات الرتب العسكرية للضباط، أو العلم الإسرائيلي والنجمة السداسية، أو طلقات رصاص أو طبنجات إسرائيلية! يقول الحاج بركات، كنا نعجب له ونسأله: لماذا تُعنىٰ بمثل هذه الأشياء الصغيرة فتجمعها؟ ما حاجتك إليها؟ فقال إن ابنته «رباب» طلبت منه ذلك، طلبت منه أن يحمل إليها من أرض المعركة ما يدل علىٰ أنه شارك فيها، فهو يجمع هذه الأشياء تلبية لرغبتها! ليثبت لها أنه شارك في الحرب! وبينما هو في طريقه إلىٰ تفتيش إحدىٰ الدبابات جاءه صاروخ اقتلع الأرض من تحته وفرق أشلاءه!!

ما هذا الذي ترويه لنا أيها الدرعمي؟ إنك تطوف بنا في كل مكان، تنتقل من مصر إلىٰ ألمانيا، ثم تعود من ألمانيا إلىٰ مصر .. تروي عن البخل والكرم، عن الطعام والشراب، عن الناموس والأشجار، عن حب مصر والشهادة في الحروب! نعم نعم أيها الأعزاء .. وما ظنكم برجل مغترب قلبه مرجل يغلي ولا يقر له قرار! دعوني أزيدكم فأقول:

صدمتان ثقافيتان كبيرتان هزتا أعماقي بعنف، وكان لهما في نفسي أبلغ الأثر! الأولىٰ: حين انتقلت من القرية إلىٰ القاهرة! والأخرىٰ: حين سافرت من القاهرة إلىٰ برلين! كان أشد ما هزني فيهما: «المرأة» .. فرق كبير بين بنت الريف، وبنت القاهرة، وبنت أوروبا! ثم السياسة .. فلا سياسة في الريف، وهي محرمة في القاهرة، ومباحة حرة في أوروبا![1] ثم الدين .. فهو فطري نقي روحي في الريف،

---

(١) مظاهر الحرية السياسية في ألمانيا معروفة ومتعددة، ويطول بنا المقام لو رحنا نعددها ونصف مظاهرها، لكن يكفي أن تعرف أن طالبا في كورس اللغة الألمانية، طلب إليه المعلم وضع بعض الأفعال في جمل، فقال عبارة ترجمتها: إنه يريد أن يمارس الجنس مع ميركل! قالها باللفظ القبيح! لأنه يعترض علىٰ بعض سياساتها! قال ذلك .. ولم يشِ به أحد!! مثل ما حدث مع «صاحبي حسن» في قصيدة أحمد مطر!!

تعليمي متعدد المذاهب والأيديولوجيات في القاهرة، ولا دين في أوروبا!

هزتني كذلك الجامعة والمؤسسات العلمية وأخلاق من فيها، ثم هزني رغيف الخبز وسعة العيش والأمان .. والضمير والنظافة والنظام .. وكرامة الإنسان، وأشقتني شبكة المواصلات في برلين رغم أنها من الجنة؛ لأنني فيها لا تكاد تغيب عن عيني وحشية مواصلات القاهرة، وعربات الريف المهشمة!

ومن المفاجآت التي هزتني كثيرا في الجامعة أننىٰ رأيت مصر لا تحتل محور الدراسات الأدبية هنا كما هو الشأن عندنا، فنحن في أطروحاتنا ندرس الأدب العربي في مصر، ندرس الشعر والسرد، وندرس كتاب مصر وشعراءها، ونغفل جهود الأدباء والشعراء العرب في البلاد العربية الأخرىٰ في الشرق والغرب إلىٰ حد كبير، وكأننا لا نراهم، وكأن مصر قد خصت بإنتاج الأدب والفكر دون غيرها من بلاد الله! لكنك في ألمانيا تجد الاهتمام موزعا بين البلاد العربية كلها وربما جاء الأدب في مصر في زاوية بعيدة عن الاهتمام مقارنة بالأدب في لبنان والعراق وسوريا وفلسطين والمغرب!! تشهد بذلك حلقات البحث الأسبوعية وأرفف المكتبات العامة والجامعية. ويكفي أن تعرف أنني ذكرت «العقاد» لصديق ألماني نابه مشتغل بالأدب العربي، فأنكره ولم يعرفه! صحيح أن مصر أم الدنيا لكن يجدر بنا أن نتخفف من حدة الإحساس بالمركزية الثقافية، وبأننا وحدنا محور العالم، ولننظر إلىٰ إنتاج غيرنا نظرة المتأمل المنصف طالب الحق، فعندها تتسع الآفاق وتتضح الرؤية ويستقيم الميزان!

والجدير بالذكر أن الألمان يولون اهتماما كبيرا بالقضايا والموضوعات المطروحة في الإنتاج الأدبي العربي، يستخلصون منها صورة الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري عند العرب، ولا تحظىٰ تقنيات الكتابة وأدواتها الفنية من البحث والدرس بمثل ما تحظىٰ به تلك الموضوعات وهذه القضايا، ولذا تروج عندهم الكتب التي تعبر تعبيرا صارخا عن واقعنا الأليم، تعبيرا يصدم القارئ ويبدد الرؤىٰ المثالية والواقعية جميعا، ويحز عنق المنطق من غير رحمة .. وقد كتب بعض النقاد هناك عن «الفضح» أو «أدب الفضيحة» حتىٰ صار مصطلحا! وكتب بعضهم عن «أدب الكفاية»! يتلقف الألمان وغيرهم الكتب التي تقدم هذا النمط من الفكر بكلتا اليدين،

ويعكفون عليه بالقراءة والتحليل، ولذا تجد أكثر الأعمال الأدبية رواجا عندهم «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني، و«يوتوبيا» لأحمد خالد توفيق، و«تاكسي» لخالد الخميسي، وقصص زكريا تامر القصيرة، وأعمال صنع الله إبراهيم، والروايات التي تعالج الحرب الأهلية في لبنان، والصراع العربي الإسرائيلي، وغيرها!

وإذا كانت الدراسات الأكاديمية تتسم غالبا بالجفاف والبعد عن الخيال والمجاز في صياغة محتواها واختيار عناوينها. فإنني لمست في عناوين بعض الكتب والدراسات الأجنبية عن الأدب والثقافة العربية، شيئا من الطرافة والجاذبية، حيث يختارون لها عبارات بديعة طائرة الصيت في ثقافتنا؛ دالة علىٰ المحتوىٰ، ومن ذلك كتاب روبرت إرون عن تاريخ الأدب العربي القديم؛ فقد جعل عنوانه «الليل والخيل والبيداء» Night & Horses & The Desert مستلهما بيت المتنبي الشهير. ومن ذلك أيضا رسالة دكتوراه ألمانية رائقة قامت فيها كاترين مولر بإحصاء طرائق العرب في التعبير عن الفكاهة والضحك في تراثهم الأدبي، وقد اتخذت الباحثة لدراستها عنوانا هو عبارة دالة ذائعة هي: «وضحك الخليفة حتىٰ استلقىٰ علىٰ قفاه»

Und der Kalif lachte, bis er auf den Rücken fiel.

وهي عبارة كثر ذكرها في كتب الأدب والتاريخ القديمة، في «الأغاني» و«العقد الفريد» و«البخلاء» وغيرها. ترىٰ هل يمكننا صنع ذلك يوما في كتبنا وبحوثنا؛ لجذب القراء وللتخفف من جفاف البحوث الأكاديمية؛ دون أن نفرط في جودتها أو أن نأتي علىٰ رصانة محتواها؟!

(٣٧)

مناقشة الدكتوراه

كانت الأستاذة أنجيليكا نويفرت، وهي أستاذة طائرة الصيت في العالم كله في الدراسات العربية بعامة والدراسات القرآنية بخاصة، كانت المشرفة الرسمية علىٰ بحثي للدكتوراه، لكنها أخبرتني في أول لقاء معها أن هناك مشرفة أخرىٰ هي تلميذة لها ستتولىٰ متابعة بحثي والإشراف عليه معها، لأنها متخصصة في النقد الحديث، وأنها قبلت الإشراف علىٰ رسالتي بناء علىٰ مشاركة هذه الأستاذة، فقلت لا بأس!

هذه الأستاذة الشابة لم يكن في ذرعها الإشراف رسميا، فلم تكن قد حصلت علىٰ درجة الأستاذية بعد، وكانت هي التي أرسلت إليَّ الموافقة علىٰ الإشراف قبل السفر، ولم أكن أدري وقتها أنها حاصلة علىٰ الدكتوراه فقط! وأدركت أن في الأمر مجاملة من الأستاذة نويفرت لتلميذتها الشابة، فلما فوجئت بهذا الأمر في برلين كنت بين خيارين: أما أن أواصل العمل مع هذه الأستاذة الشابة بصفتها مساعدة للأستاذة نويفرت، وإما أن أعود إلىٰ مصر مرة أخرىٰ! وحين أخبرت الجهة المانحة بذلك انزعجوا بشدة، وقالوا إن رئيسة القسم حتما ستجد حلا! قبلت هذا الحل من الأستاذة نويفرت، فهو أفضل من الرجوع بلا دكتوراه علىٰ كل حال!! وعقيدتي أن دور المشرف مهما بلغ من الأهمية فهو محدود وأن العبء كله واقع علىٰ كاهل الباحث! لكنني أحب كبار الأساتذة من الشيوخ، وفي نفسي أشياء من الشباب، تعود إلىٰ قلة الخبرة وقلة العلم في كثير من الأحيان، فالأستاذ الجامعي حين يتقدم به العمر وتزداد خبرته بمجال عمله -عادة- يتسع أفقه وتزداد أريحيته ويتخلص من حَرْفِيَّتِهِ، ويشعر شباب الباحثين بالأنس والراحة حين يأوون إليه ويعيشون في كنفه. وعندئذ يترك في تلامذته أثره، بل يترك فيهم مع علمه بعض نفسه. هذا ما خبرته في كبار شيوخ دار العلوم وعلمائها، وهذا ما لا تجده عند كثير من شباب الأساتذة الذين تكاد تفتك بهم

الحرفية والشكلية. تلك الحَرْفِيَّة التي ترجع إلىٰ شيء من عدم الثقة بالنفس وعدم رسوخ القدم في العلم. وقد حدث ما توقعته، فقد وجدت في هذه الأستاذة الشابة التي لا تكبرني إلا بسنوات قليلة، كل ما كنت أتخوف منه من الحرفية المقيتة، والانغلاق، والاعتداد غير المستحق بالنفس، والإيمان بطريق واحد للوصول إلىٰ الهدف، وهو الطريق الذي تعرفه هي! ساءني ذلك منها كثيرا، لكنها لم تكن تثبت طويلا عند النقاش الموضوعي، لا تكاد تقنع برأيي، ولا هي تستطيع الدفاع عن رأيها! ولذا كانت تتراخىٰ كثيرا في قراءة فصول الرسالة، حتىٰ إن الفصول الثلاثة الأخيرة اجتمعت عندها لمدة عام كامل أو يزيد! وكلما حدثتها في ذلك اعتذرت عن التأخير ووعدت بلقاء قريب.

وفي المرات التي التقيت بها فيها لمناقشة الفصول التي قرأتها، لم تكن تسلمني نسختها التي سجلت ملاحظاتها في هوامشها لأتمكن من دراستها وتنفيذها . . كانت ترفض ذلك بقوة، ولا أدري لماذا! وقد عزا ذلك بعض الأصدقاء الألمان ممن خبروها في المحاضرات إلىٰ عدم ثقتها بنفسها، وأنها تخشىٰ أن يقع الناس منها علىٰ خطأ في هذه الملاحظات! فتهتز صورتها أمامي وأمام الناس، فالأمان كل الأمان ألا يقرأ لها أحد شيئا، وألا تقع عين أحد علىٰ شيء خطته بقلمها! حتىٰ لقد بحثت بين أوراقي عن شيء مكتوب بخط يدها تكون لي به ذكرىٰ فلم أجد!

وقد أدهشني منها أنها أخبرتي في يوم مناقشتي أنها حصلت علىٰ شهادة الدكتوراه الخاصة بها من مكتب الدراسات العليا قبل ثلاثة أشهر فقط، وذلك لأنها تأخرت كثيرا في نشر رسالتها للدكتوراه، والنشر شرط أساسي للحصول علىٰ الشهادة، ومن ثم تأخر حصولها الرسمي علىٰ الدرجة عدة أعوام بعد المناقشة، من أجل التعديل والتنقيح والتصويب!

الحق أن الأستاذ الشاب حين يعيش في كنف أستاذه الكبير فإنه يكون كالطفل في حضن أمه وأبيه، يرتع ويلعب ويمرح، ولا يخشىٰ شيئا ما دام لم يخرج من عباءتهما، كذلك حال الأستاذ الشاب الذي ما زال في طور التدريب علىٰ الإشراف، فقد كانت هذه الأستاذة الشابة لا تلقي بالا لأمر رسالتي لعلمها بثانوية دورها من الناحية الرسمية، وأنها ستكون في المناقشة مع أستاذتها الكبيرة المشرفة الرسمية علىٰ

المنصة، ولا خوف عليها حينئذ إذا ما صحبت الكبار وأمنت مكرهم. والشرف كل الشرف أن تثبت في سيرتها الذاتية أنها أشرفت علىٰ رسالة دكتوراه لباحث عربي! لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد خرجت الأستاذة نويفرت إلىٰ المعاش، ولم يعد لها الحق في الإشراف علىٰ الرسالة بصفة أساسية، وكانت الجامعة قد أسندت رئاسة قسم الدراسات العربية إلىٰ الأستاذة بياتريس جروندلر، التي عملت ربع قرن من الزمان في جامعة ييل الأمريكية، إلىٰ أن وصلت إلىٰ رئاسة قسم الدراسات العربية هناك . . . تركت الأستاذة جروندلر أمريكا وعادت إلىٰ موطنها الأصلي ألمانيا، لتتولي رئاسة قسم الدراسات العربية في جامعة برلين، ولتكون رسالتي للدكتوراه هي أول رسالة تحت إشرافها رسميا خلفا للأستاذة نويفرت.

كان هذا التحول صاعقة كبرىٰ، علىٰ الأستاذة الشابة، وعلىٰ الأستاذة نويفرت، وعلىٰ صاحبكم صاحب الرسالة كاتب هذه الصفحات!

فأما الأستاذة الشابة، فقد فقدت الأمان الذي كانت تنعم به مع الأستاذة نويفرت، التي كانت تعاملها وكأنها ابنتها، تسعىٰ من أجلها في الخير بكل سبيل وتدعمها بكل ما أوتيت من قوة. توجست الأستاذة الشابة خيفة من المشرفة الجديدة، وراحت تقرأ الرسالة بحذر شديدة وبدقة لا حدود لها، بعد طول إهمال وانشغال، وكأنها أفاقت من سكرة استمرت ثلاث سنوات! وكنت تحدثت مع الأستاذة جروندلر في ذلك الوقت بشأن الإشراف علىٰ رسالتي خلفا للأستاذة نويفرت فأبدت موافقتها المبدئية شريطة أن تطلع علىٰ الرسالة لتنظر إن كان موضوعها يتفق مع خبراتها العلمية والبحثية أو لا. وقد اطلعت الأستاذة علىٰ الرسالة واتصلت بي بعد أربعة أيام تعلن عن سعادتها البالغة بفكرة البحث، وببراعتي في اختيار النماذج والتحليل، كما أثنت علىٰ لغتي الإنجليزية خيرا، وإن أخذت عليها بعض الملاحظات الهينة، كان أغلبها في إطار استبدال بعض الكلمات والأفعال، مما يدخل في دائرة الفصيح والأفصح، أو البليغ والأبلغ، كما هو الشأن في اللغة العربية، وقد مكنها من ذلك خبرتها العريضة في الإنجليزية، فهي وإن كانت ألمانية الأصل فقد عاشت في أمريكا ودرست في جامعاتها وتدرجت في الوظائف هناك حتىٰ وصلت إلىٰ رئاسة قسم الدراسات

العربية في جامعة ييل، وهو الأمر الذي مكنها من معرفة الإنجليزية كما يعرفها الأمريكيون أو أشد!

خلال قراءة الأستاذة جروندلر للرسالة، كنت أخبر الأستاذة الشابة بما يجري بيني وبينها، وأخبرتها بالموعد الذي ضربته لي كي أتلقىٰ ملاحظاتها، فأوصتني بأن أطلعها علىٰ كل ما يجري في اللقاء فوعدتها بذلك! ولكن أدهشني أن الأستاذة الشابة اتصلت بي قبل الموعد المضروب مع الأستاذة جروندلر بيوم واحد تخبرني أنها قرأت مقدمة رسالتي وخاتمتها ولها عليهما ملاحظات كثيرة، وسوف ترسل إلي هذه الملاحظات غدا قبل موعدي مع الأستاذة جروندلر، فدهشت لذلك، وعلمت أنها تخشىٰ الأستاذة الكبيرة وتريد أن تثبت أنها علىٰ علم بما قد تبديه الأستاذة الكبيرة من ملاحظات، وأنها قد سبقتها إليها في محاولة لإثبات الذات! لقد فات الأوان يا سيدتي! تكتبين ملاحظاتك اليوم بعد ثلاث سنوات كاملة! كان موعدي مع الأستاذة جروندلر في الساعة الثالثة من يوم خميس، فوصلني إيميل من الأستاذة الشابة في الثانية عشرة تطلب إلي ألا أترك جهاز الكمبيوتر الخاص بي قبل أن أتلقىٰ منها ملاحظاتها، فوعدتها بذلك شريطة ألا تتأخر عن الموعد في الثالثة. كنت قلقا بشأن ملاحظات الأستاذة جروندلر؛ فانصرفت، ولما اقتربت من مكان اللقاء مع الأستاذة وصلتني رسالة إلكترونية من الأستاذة الشابة وكنت في الأوتوبيس، فيها مقدمة الرسالة وخاتمتها وعليهما مئات الملاحظات الشكلية وغير الشكلية في كل سطر وفي كل كلمة! فأزعجني ذلك كثيرا، لكنني حين عرفت رأي الأستاذة جروندلر في البحث هدأت نفسي!!

بعد الفراغ من لقائي بالأستاذة جروندلر، قابلت الأستاذة نويفرت قدرا في قاعة المكتبة، فسألتني عن حالي ومجريات الأمور بعد تركها الإشراف، فأخبرتها أن الأمور بخير، وأن الأستاذة جروندلر سعيدة بالبحث، فهنأتني، واعتذرت عما جرىٰ من نقل الإشراف، وعن التأخير الشديد وكثرة النفقات من غير طائل، ووجهت لي دعوة إلىٰ بيتها في المساء لحضور احتفال أقامته في ذكرىٰ مولد أحد طلابها المقربين، فقبلت الدعوة شاكرا، وهناك في بيت نويفرت التقيت بأصدقاء وأساتذة كثيرين، كان أهمهم بالنسبة لي في تلك اللحظة هي الأستاذة الشابة، التي سألتني عما جرىٰ مع

الأستاذة جروندلر، فأخبرتها بما كان، وبحسن رأي الأستاذة في الرسالة، فتنفست الأستاذة الشابة الصعداء، وقالت الآن هدأت نفسي، وقرت أمعائي في بطني، لقد كنت شديدة أشد القلق من رأيها! لأنه تقييم لعملك الذي هو من المفترض عملي معك طوال هذه السنوات! فقلت لها الآن اطمأن قلبك وقلبي معك! ولنشرع في إجراءات المناقشة.

قالت الأستاذة جروندلر إن الرسالة صالحة للمناقشة علىٰ الصورة التي هي عليها، وأنها لن تطلب تعديلات جوهرية، لكنها منحتني مهلة قصيرة كي أجري بعض التعديلات اليسيرة، ونصحتني بحذف بعض مواطن الإطناب والتكرار، وبخاصة حين أتناول إحدىٰ الروايات في موضعين مختلفين من الرسالة، ففعلت ذلك، ولم تزد الأستاذة الشابة في هذه الأثناء علىٰ قراءة المقدمة والخاتمة، وعليهما حمل بعير من الملاحظات المضنية، التي لا تستطيع هي تنفيذها، وقد تأكدت من ذلك بنفسي، حين سألتها مرة:

كيف أنفذ كذا من ملاحظاتك؟

فقالت: لا أدري، لعل طبيعة الموضوع لا تسمح بذلك!!

لقد عانيت من هذه الحرفية كثيرا، وإني وإن كنت أراها أكثر انتشارا بين شباب الأساتذة فإنك لن تعدم بين الأساتذة الكبار سنا من كبرت معهم هذه الحرفية، وازداد ضيق أفقهم حتىٰ بلغ حدا لا يطاق، ثم تراهم يظنون أنفسهم علىٰ شيء. ومن كانت هذه صفته، فلن ينتج فكرا ولن يقدم علما، وسيقضي عمره بين أخطاء اللغة وعلامات الترقيم لن يتجاوزها، ولن يعرف إلىٰ الأفكار الكبرىٰ سبيلا أبدا، ولن يسدي إلىٰ البشرية شيئا من العلم يعزىٰ إليه ولو بعد حين!

وإن جاز لي أن أضرب مثالا علىٰ ذلك فلن أجد غير ذلك الأستاذ الذي نال درجة الأستاذية بعد أن بلغ من الكبر عتيا، فلما أتيح له أن يشرف علىٰ الرسائل والباحثين، لم يكن يقدر علىٰ اتخاذ قرار بصلاحية هذه الرسالة أو تلك للمناقشة، رغم أنها هو المشرف عليها وقد أرهق تلميذه فيها سنين عددا، كان هذا الأستاذ الحرفي لا يستطيع اتخاذ قرار المناقشة إلا بعد أن يستشير هذا الأستاذ أو ذاك من أرباب الصناعة المشهود لهم برسوخ القدم وعلو الكعب في الميدان، فإن أقر له بصلاحية الرسالة

ناقشها وإلا لبث الباحث في سجن أستاذه المطبق إلىٰ يوم يبعثون! ولذا رسخت في قلبي عقيدة ثابتة هي أن:

الأستاذ أستاذان: أستاذ مُدَرِّس، وأستاذ مَدْرَسَة!

فأما الأستاذ المُدَرِّسُ فيعيش ليموت، وأما الأستاذ المَدْرَسَةُ فيموت ليعيش!

والأمر فيما يبدو لي ملكات وهبات ربانية، يدعمها شيء عظيم من الكسب والاجتهاد!

لما ضاق صدري بالأستاذة الشابة سألت صديقي الألماني كريستيان يونجىٰ ذات مرة، وهو أقرب أصدقاء هذه الأستاذة الشابة كذلك، أخبرته عما أعانيه معها؛ فضحك وقال لي هذا هو حالها علىٰ الدوام، وأقسم لي أن صداقة قوية تجمعهما منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة، وأنه يعرض عليه كل ما يكتب من بحوث ومقالات قبل أن ينشرها، فكانت سيئة الرأي في كل ما كتب، ولها علىٰ كل منها ملاحظات شكلية دقيقة كثيرة، وأنه لم يسلم من نقدها طيلة هذه السنوات سوىٰ مرة واحدة!

كان هذا هو أثر نقل الإشراف علىٰ الأستاذة الشابة، أما أثره علىٰ الأستاذة نويفرت، فقد كان أثرا بالغا، ذلك أن الخروج إلىٰ المعاش له أثر بالغ السوء علىٰ من اعتادوا العمل والنشاط والرئاسة والسلطة . . نفرت الأستاذة نويفرت من هذا المعاش أشد النفور، وظلت حقبة من الزمن وكأنها لا تصدق ما يجري، فقد احتلت حجرة مكتبها أستاذة أخرىٰ، ورفعت اللوحات القرآنية عن الجدران، وغيرت المناهج والمقررات الدراسية في المعهد، فألغت كل ما كان مخصصا للدراسات القرآنية من حصص ومحاضرات، وهو المجال الذي تعنىٰ به الأستاذة نويفرت، ورأت أن هذا المعهد للدراسات العربية، فينبغي أن يكون النصيب الأكبر للأدب العربي شعره ونثره قديمه وحديثه، وأن تنتقل الدراسات القرآنية إلىٰ مقرها الأنسب في معهد الدراسات الإسلامية.

وبذلك تم إلغاء الأستاذة نويفرت إلغاء يكاد يكون تاما، وكان لهذا التغيير المفاجئ أبلغ الأثر في نفس الأستاذة نويفرت، وبخاصة بعد أن أساءت إدراة الجامعة معاملتها، ولم ترد علىٰ رسائلها التي تطلب فيها استبقائي تحت إشرافها، لأن الرسالة جاهزة للمناقشة، فردت الإدارة بعد تجاهل طويل برفض طلبها في حق مواصلة

الإشراف علىٰ رسالتي وعلىٰ عدد من الرسائل الأخرىٰ . . أصرت الجامعة علىٰ أن يأخذ القانون مجراه! ولم تعرف للأستاذة العظيمة قدرها وثقلها العلمي في الأوساط الأكاديمية، لم تعبأ بعدد كبير من الجوائز والدكتوراه الفخرية. وكانت الأستاذة جروندلر قد أضافت الأستاذة نويفرت عضوا سادسا شرفيا إلىٰ لجنة المناقشة تقديرا منها لدورها في الإشراف طيلة ثلاث سنوات فقبلت الأستاذة ذلك من أجلي، لما رأته من حرصي عليها وتمسكي بها من الناحيتين العلمية والأدبية. لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فقد سافرت الأستاذة نويفرت إلىٰ بيروت لشهود مؤتمر في الدراسات العربية هناك، فانكسرت ساقها ولازمت الفراش شهرا، وعادت إلىٰ برلين في أوائل يناير ٢٠١٥، فحملت نسخة من الرسالة إليها ومعي باقة زهور يانعة، فأحسنت الأستاذة استقبالي في بيتها وشكرتني علىٰ شدة تقديري لها، وأخبرتني أنها مسافرة إلىٰ القدس ولن تعود قبل نهاية يناير، ونصحتني أن أعجل بالمناقشة وألا أنتظرها، فهي عضو شرفي ولن يكون لها دور في تقدير الرسالة أو الحكم عليها! ألححت عليها طويلا وأكدت لها رغبتي في انتظارها حتىٰ تحضر المناقشة، لكنها أبدت رغبتها في أن تنتهي المناقشة من غير حضورها!! أدركت ما يدور في نفسها من هواجس، ومن عدم رغبتها المشاركة في المناقشة بوصفها عضوا شرفيا ثانويا، بعد أن كانت المشرفة الأساسية، صاحبة الأمر والنهي؛ فشكرتها وانصرفت بعد أن ودعتني وطبعت قبلتين علىٰ جانبي وجهي اعتدت عليهما منها عند كل لقاء!!

كنت سلمت نسخ الرسالة لأعضاء لجنة المناقشة الخمسة، قبل شهر تقريبا من لقائي الأخير هذا بالأستاذة نويفرت، مشرفان أستاذان: الأستاذة جروندلر، والأستاذة الشابة وكانت قد حصلت علىٰ درجة أستاذ مساعد، ومناقشان أستاذان: الأستاذة ريناتا ياكوبي وهي أستاذة عظيمة للأدب العربي القديم، والأستاذ شابو تالاي، وهو رئيس قسم الدراسات السامية، ألماني من أصل سرياني، والدكتورة مونسرات ربضان كاتبة الجلسة، وهي إسبانية تحمل الدكتوراه وتعمل محاضرة في المعهد. تسلموا جميعا النسخ وأبدوا ترحيبهم بالمشاركة في المناقشة، لكن موقف الأستاذ شابو تالاي عند تسلم النسخة كان غريبا أشد الغرابة.

ذهبت إليه في مكتبه، وكان يعرفني معرفة سطحية، فقد التقينا مرات في قاعة

المكتبة وعرفته بنفسي، فسلمته نسخته من الرسالة وشكرته علىٰ قبول المشاركة في المناقشة، فتسلمها مني شاكرا مهنئا، وقال بحسم لا تشكرني، فهذا عملي، ويجب علي أن أقوم به، وكل ما يعنيني أن تكون علىٰ دراية بما تحويه هذه الرسالة!! فتعجبت من كلماته!!

ماذا تقصد أن أكون علىٰ علم بما فيها؟ إنها رسالتي!

لقد كتبتها بيدي كلمة كلمة سطرا سطرا فقرة فقرة صفحة صفحة!

فابتسم وقال: كلهم يقولون ذلك، وعند الامتحان لا يثبتون!

كنت أفهم ماذا يعني .. ومن يقصد ..، فاستطردت قائلا:

يا سيدي، هذه رسالتي كتبتها بيدي، وشاركت ببعض قضاياها العلمية في ثلاثة مؤتمرات دولية في ألمانيا وفي غيرها!

ثم سلمته نسخة من سيرتي الذاتية، وطلبت إليه أن يقرأها؛ ليزداد معرفة بي. فرحب بذلك ثم شكرته وانصرفت مندهشا!

الحق أن هذا الأستاذ كان وما زال مستاء شديد الاستياء من الباحثين العرب، فأغلبهم ترك لديه انطباعا بالغ الغاية في السوء، من الإهمال والعجلة وعدم الإتقان، والرغبة في الانتهاء من البحث بكل سبيل .. وكان ناقش قبل أشهر قليلة من مناقشتي طالبا عربيا، كتب رسالته بالإنجليزية، لكنه عند المناقشة لم يكن يفهم كثيرا من الأسئلة التي يطرحها عليه المناقشون، فيحاولون إفهامة بكل السبل لكن الأمر يستعصي عليه، فيضطرون إلىٰ ترجمة السؤال بالعربية عساه يفهم فيجيب! فتأتي إجابته ضربا من الشعوذة، بكلمات غير مفهومة، وربما كانت بعيدة كل البعد عن مناط السؤال!

والحق أن ضعف الطلاب العرب في الجامعات الغربية أمر شائع هناك ومعروف، إلا من رحم الله، وبخاصة في معرفة اللغات، وقد ساءني ما سمعته من الأستاذ شابو تالاي في لقائي معه من أن الباحث العربي في أوربا كل ما يعنيه هو أن يحصل علىٰ الدكتوراه بأقل تكلفة ممكنة، وأن تحصيل العلم والحصول علىٰ الدرجة العلمية، يأتيان في المرتبة الثانية بعد رغبته الملحة في التوفير من راتبه وادخار أكبر قدر ممكن من المال ليستفيد به حين يعود إلىٰ بلده العربي الفقير مزهوا بالدكتوراه الأوروبية

العظيمة. ساءني كلامه كثيرا، لكنني كنت أعلم أنه صحيح! وقد عرفت كثيرين هناك من العرب والمصريين بخاصة، دأبهم جمع المال علىٰ حساب العلم، فيكفي أن أخبرك أن أحدهم أمضىٰ هناك أربع سنوات ونيفا في بعثة مصرية حكومية كتبت خلالها رسالته في موضوع تقليدي في مائتي صفحة باللغة العربية، ولما أوشكت مدة البعثة علىٰ الانتهاء أرسل هذه المائتين إلىٰ أحد مدرسي اللغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية في مصر، فترجمها له إلىٰ إنجليزية رديئة، جعلت مشرفه ينفر منه ومن بحثه ومن حقله المعرفي ومن بلده كلها، وقرر التنازل عن الإشراف عليه!

والعجيب أن هذا الباحث المصري شكا لي غلاء سعر الترجمة في مصر، فقد دفع عشرة جنيهات مقابل كل صفحة!! فسخرت منه وقلت: لقد ترجمت الرسالة كلها مقابل ٢٠٠ يورو أي راتب عدة أيام من بعثتك هذه التي استمرت أربع سنوات ونيفا!!

وإذا كان هذا الأمر معروفا هناك، فهو مجهول لدىٰ كثيرين؛ وبخاصة الذين لم تتح لهم فرصة السفر إلىٰ أوروبا، لكنني تأكد لدي الأمر حين قرأت سيرة الدكتور عبد الرحمن بدوي ﷺ، فقد أخبر أنه عمل أستاذا في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس مدة من الزمن، وتحدث عن تجربته هناك فقال إن الطلاب العرب كان شغلهم الشاغل -من الناحية العلمية- الحصول علىٰ الدكتوراه بأقل جهد وأيسر طريق، طال هذا الطريق (إن كان من مبعوثي الحكومات) أو قصر (إن كان علىٰ حساب أهلهم)؛ ولهذا كانوا لا يختارون إلَّا موضوعات عربية أو إسلامية، ويسعون أن يكون المشرف عليهم أبعد ما يكون في اختصاصه عن الموضوع الذي يختارونه، حتىٰ يكون التعامل معه شكليًّا إداريًّا محضا، وقد يسر لهم هذا السلوك قلة عدد الأساتذة المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية هناك، وقد استفحلت هذه الظاهرة الشاذة الفاضحة في السنوات التالية حتىٰ وصلت اليوم إلىٰ أبشع درجة! وذلك بسبب ما يدأب عليه الطلاب العرب من الإلحاح واستجداء عطف الأساتذة بأساليب مختلفة، مما يحمل الأساتذة علىٰ التخلص منهم بأي ثمن.

والذي تعجب له أيضا أن يعمد بعضهم إلىٰ التسجيل في موضوعات درست من قبل بالعربية، فيسجلون في هذه الموضوعات نفسها، ثم يترجمون جهد السابقين من غير عزو ولا إشارة، والأستاذ الأوروبي لا شك أنه لم يحط بكل شيء خبرا، فهو لم

يطلع علىٰ كل ما كتب بالعربية حول هذه القضية أو تلك، فيبدو الباحث العربي السارق لجهد غيره ملكا متوجا مبدعا، والحق أنه ليس له من الأمر شيء!

هذا ديدن كثير من الطلاب العرب هناك، لكنك تعجب لأكثرهم بعد العودة إلىٰ أرض الوطن، يتيهون علىٰ خلق الله بهذه الدكتوراه الأوروبية، ويتظاهرون بأن ألسنتهم قد اعوجت عن لغة الأهل، بل إنني سمعت بعضهم يلوون ألسنتهم ويتظاهرون بنسيان العربية، يضرب أحدهم جبهته ليتذكر ما يقول المصريون في تسمية هذا الشيء أو ذاك، وكأنه قد بلغ في معرفة اللغة الأجنبية درجة تفوق معرفته باللغة العربية التي أمضىٰ عمره في دراستها، وهذا ضرب من تغيير الجلد ممقوت، وهو أمر لا فخر فيه ولا شرف، بل إنه يثير الغثيان! وبعد تجربتي في هذا الشأن أقول: للمرء أن يقول إنني «أعرف» لغة أو لغات أجنبية، وليس له أن يقول إنني «أتقنها»، فإن إتقانها لا يتحقق له إلا حين يقف علىٰ أطياف المعاني الكامنة في الألفاظ وإيحاءات الأساليب والفروق الدقيقة بينها. أقصد أن «يحس» باللغة، وهو أمر ليس باليسير! وبخاصة خلال سنوات قليلة هي مدة البعثة الدراسية . . أقول هذا القول في اللغات الأجنبية، بل إنه قد يصدق علىٰ اللغة الأم نفسها!

ومن الطريف الفريد في جامعة برلين أنه لا يحل للباحث أن تعقد مناقشته قبل أن تودع نسخة من رسالته في مكتب الدراسات العليا الذي يعلن في أرجاء الجامعة ويخطر جميع الباحثين في الأقسام القريبة من الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه الرسالة، بأن رسالة عنوانها كذا، كتبها الباحث فلان، معروضة الآن في مكان ظاهر مخصوص، ليطلع عليها من أراد، تعرض الرسالة علىٰ الملأ لمدة أسبوعين كاملين إن كان ذلك خلال الفصل الدراسي، أو لمدة أربعة أسابيع إذا كان العرض خلال العطلات الدراسية، وكأني بهم يصنعون ذلك ليتصفح المهتمون الرسالة، ويقفوا علىٰ دقائقها لتنتفي شبهة السرقة أو نحو ذلك! ويحل للباحث أن يُناقَش في رسالته بدءا من اليوم التالي لانقضاء هذه المدة القانونية للعرض!

انتهت مدة عرض رسالتي، وكنت تلقيت من الأستاذة جروندلر رسالة أسعدتني تقول فيها إنها استمتعت كثيرا بقراءة أطروحتي، وأنها عالجت كنزا ثمينا من الروايات الممتعة، وأنها تعملت من خلالها الكثير عن الروايات المصرية، وبخاصة أن أغلب

الروايات التي تناولتها في البحث مجهولة عند القارئ الغربي، لأنها غير مترجمة إلىٰ الإنجليزية أو غيرها من اللغات، وعدت الأستاذة ذلك من أهم مميزات رسالتي، وشجعتني علىٰ نشر الرسالة في أقرب وقت ممكن، وقالت إنها ستتولىٰ أمر نشرها متىٰ أردتُ ذلك.

سعدت برسالة الأستاذة المشرفة، لكنني ظللت قلقا مثقلا بكثير من الهموم، محبطا بهذه الانطباعات الراسخة في أذهان بعض الأساتذة عن الباحثين العرب، حتىٰ إذا جاء يوم المناقشة تبدد القلق، وذهب الخوف، وأبليت بلاء حسنا، في الدفاع عن نفسي، وعن أطروحتي، وعن شرف شعرت أنه يوطأ هناك بالأقدام!! ومن عجب أنهم يسمون المناقشة هناك «الدفاع»! "Defense" وكأنك في قاعة المحكمة محام تدافع عن قضيتك! فإما أن تكسبها وإما أن تكون من الخاسرين!

أجبت عن كل الأسئلة التي وجهتها إلي لجنة المناقشة خلال «الدفاع» باقتدار طرب له أعضاء اللجنة وجمهور الحاضرين جميعا، وانتهىٰ الدفاع بتهنئات حارة من الجميع، حتىٰ إنني حين جلست علىٰ رأس مأدبة الطعام التي أعددتها لأعضاء اللجنة والحضور بعد الفراغ من المناقشة، وهو تقليد معمول به هناك، جلس إلىٰ جواري الأستاذ شابو تالاي، ذلك الرجل المستاء من أداء الباحثين العرب، فسألني مبتسما سعيدا:

ماذا تريد أن تشرب؟!

فاستحييت منه علىٰ عادة العرب، وقلت حاشا لله! عفوا يا أستاذنا! سأصب الشراب لنفسي! فأبىٰ وأقسم أن يصب لي العصير بنفسه، وقال لي ضاحكا بلسان عربي في حفاوة كبيرة:

«هذا حقك علينا اليوم .. فأنت ستكون أستاذا عظيما»!!

دمعت عيني من وقع عبارته في نفسي! تلك النفس التي عانت طويلا قبل السفر! وكانت تسافر من برلين إلىٰ مصر في إجازات قصيرة، فتلتقي هناك ببعض الأساتذة فيحذرونها أشد التحذير من العودة إلىٰ مصر، وأننىٰ سألعن اليوم الذي أعود فيه، لأن الأساتذة في الأقسام العلمية يكيد بعضهم لبعض، ويحيكون الدسائس والمؤامرات، وأنني لن أسلم من ذلك! فلما قلت له إنني باحث عن السلام النفسي، فلن أدبر مكايد

لأحد ولا أريد أن يدبر لي أحد مكايد! فالتفت إليَّ التفاتة شديدة وقال: «هو أنت هتتحكم في الناس يا أخي؟!» ستدبر لك المكايد وستحاك لك الدسائس شئت أم أبيت!

ذكرتُ المكايد والدسائس المرتقبة . . وذكرت ما كان من أستاذ عظيم، يعقد لقاء علميا أسبوعيا مع شباب الباحثين، حضرته ذات مرة وكنت في إجازة في مصر، فرأيته يَجْلِدُ الحاضرين جلدا عنيفا، لتكاسلهم علىٰ السفر إلىٰ الخارج، وعن السعي في طريق البعثات العلمية وتعلم اللغات الأجنبية، فتجاسر أحد الحاضرين من أصدقائي الشباب يحاول كف السياط عنه وعن زملائه، وأشار إلي؛ يخبر الأستاذ أنني أدرس الدكتوراه في برلين، فسعدت بإشارة الزميل، وتوقعت أن يسألني الأستاذ عن موضوع رسالتي أو يناقشني في بعض القضايا فأفيد منه، وبخاصه أنه من أصحاب البعثات القدامي، لكن شيئا من ذلك لم يكن . . وما زاد علىٰ أن قال، وقد انفثأت حماسته في الدعوة إلىٰ البعثات: «عموما البعثات الخارجية سلاح ذو حدين، فمن الناس من يفيد منها ومنهم من يذهب إليها ويعود وقد ضيع وقته دون أن يحقق شيئا، ولذا لن أحكم علىٰ زميلكم هذا إلا بعد عودته!» فطويت صدري علىٰ مرارة بحجم الدنيا، حين أسمع هذا الرد من أستاذ أحبه وأجله! وكنت توقعت منه الحث علىٰ العمل والتشجيع علىٰ المضي في الطريق!

ما الذي جاء بهذا الكلام الآن؟! ما الذي ألقىٰ بهذه المنغصات في قلب الأفراح؟ دعوني أسعد بإنجاز الدكتوراه بعد سفر واغتراب ومعاناة، وليكن في مصر ما يكون، ولن يكون إلا الخير بإذن الله!

(٣٨)

وداعا برلين

ما كنت أخبرت أحدا من الناس بموعد المناقشة إلا أقرب الأقربين، هيبة من هذا الموقف الجليل، وترقبا لنتيجته، فلما تمت المناقشة نشرت نبأ حصولي علىٰ الدكتوراه، فتقبله الأصدقاء بسعادة لا مثيل لها، لم أكن أتوقع أن يستقبلوا نبأها بهذا القدر من الحفاوة والاحتفال، فكان شعورهم هذا أثلج لصدري وأسعد لنفسي من الحصول علىٰ الدكتوراه نفسها. وقد زاد من سعادتي أن بعض الشعراء الأساتذة تباروا في كتابة قصائد التهنئة والمديح، مما جعل دموعي أسبق شيء إلىٰ التعبير عن شعوري! وكانت السعادة الكبرىٰ بقصيدة دبجها أستاذي الحبيب الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، ونائب رئيس المجمع اللغوي، الذي تربطني به علاقة تلمذة وصداقة ومودة خالصة، نشر القصيدة علىٰ صفحته في فيس بوك، وكانت صفحته ذائعة رائجة بين الناس، لقربه من القلوب! فطارت بها الركبان، وطافت أرجاء الأرض، وغمرني بفضله وفضلها سيل من الدعوات والتهنئات والأمنيات الطيبات، قال:

تحية لأخي الدكتور محمد متولي لحصوله علىٰ الدكتوراه اليوم:

لك منىٰ تحية يا محمد ... من حنايا الضلوع نحوك تصعد

بعد (دال) تزين اسمك دوما ... لم يعد بعد ذاك الاسم المجرد

أنت أهل لكل فضل وفوز ... وبك الفوز في الحقيقة يسعد

بعد جهد بذلته وجهاد ... في سبيل العلاء والمجد مجهد

أنت شرفتنا وأعليت فينا ... رأس (دار العلوم) في كل مشهد

وبك (النقد) يستعيد قواه ... بعد أن هده العياء وأجهد

سامه كل مفلس وادعاه ... كل من زوق الكلام وأفسد
وبعيد ما بين ذائق نص ... مبدع في الرؤىٰ وآخر مقعد
كل برق يريك من بعد غيثا ... ولقد أبرقت سماؤك ونشهد
سوف تحيا بك الموات وينمو ... كل نبت يرىٰ بك الري يسعد
زرعت (دار العلوم) ووالت ... وهي الآن من ثمارك تحصد
نحن في أرضها نبتنا صغارا ... وكبرنا ومن حماها نمجد
وتناديك بالأماني أقبل ... دونك المجد يامحمد فاصعد
عشت فيها للعلم رمز فخار ... تنشر العلم للورىٰ وتجدد
وتقبل تحية من صديق ... هزه فوزك الجميل فغرد

كتب أستاذي العظيم الدكتور محمد حماسة هذه القصيدة ساعة علم بخبر مناقشتي للدكتوراه، فأبكاني نبله وكرمه، بكاء سعادة لم أذق طعمها من قبل! حتىٰ لقد خَلَّفَتْ هذه القصيدة في نفسي مشاعر مختلطة عجيبة يصعب وصفها، وبخاصة أنها واكبت ما لمسته من حب الناس لي! وهو والله حب نادر؛ لا أكاد أصدق نفسي معه حتىٰ اليوم! لقد جاءت هذه القصيدة تتويجا لهذا الشعور الجميل، من قامة سامقة .. الدكتور محمد حماسة!

لقد كتب إلي في هذه الليلة يروي لي كيف أنه كان آوىٰ إلىٰ فراشه، فراح يقلب الصفحات قبل النوم، فوقعت عينه علىٰ خبر المناقشة والحصول علىٰ الدكتوراه في العاشرة مساء، فشرع في كتابة هذه القصيدة، وقال: «لم أملك نفسي، وجدتني أكتب لك بتلقائية شديدة، وكأنني كنت أحفظها من قبل ... والله عندما ناقشت ابنتىٰ لم أكتب لها حرفا .. أنت أكاد أقول أعز علي من أولادي». وكان لهذه القصيدة أعظم الصدىٰ، فقد جعلت من لا يعرفني من المقربين للدكتور حماسة يتساءلون: من محمد متولي هذا الذي نال شرف أن يكتب فيه حماسة شعرا، ثم ينشره في صفحته! ونحن لا نعرفه! وحماسة لم يصنع هذا الصنيع مع أحد منا من قبل!

لم تكد تهدأ نفسي مما أصابها من دمع السرور الذي خلفته في نفسي قصيدة أستاذي الدكتور حماسة حتىٰ انبري صديقه وابن دفعته أستاذنا الشاعر الدكتور سعيد شوارب، يكتب قصيدة يعارض فيها قصيدته، وجعل عنونها «الشَّوْقُ المُشدَّد ..

د. مُحمَّد متولىٰ!»، وصدرها بقوله: «إهداءٌ إلىٰ الفكر الوضيء، نقدا وإبداعًا، «محمد متولىٰ»، في مناسبة حصوله علىٰ درجة الدكتوراه من ألمانيا، في تخصص «الأدب والنقد»، في ٢٦ يناير ٢٠١٥».

أنتَ أهلكْتَنِيٰ، وعلَّمْتَنىٰ المَدْحَ ... وما كنتُ مَادحًا، يَا «مُحمَّدْ»

فالذىٰ تسْكُن الحُرُوف إليْهِ ... خَالدٌ بالحُرُوفِ، بل هوَ أخلَدْ

كيفَ أقبلتَ تنْفثُ الحُبَّ في الحَرْفِ، ... فَجَاءتْ خُدُودُه تَتَوَرَّدْ

وتُبَاهِىٰ كلَّ الكلام بِعُرْسٍ ... كلُّ عُرْسٍ لِحُسْنِهِ، يَتَودَّدْ

شِدْتَ للحرْف مَعبَدًا مِنْ بَهَاءٍ ... عبْقرىٰ فجَاء صَرْحًا مُمَرَّدْ

حَاكَمُوهُ إليكَ، فاخترْت سجْنًا ... فىٰ هواهُ، واخترْتْ عِشْقًا مُؤبَّدْ

أقْبِلِ الآنَ عَزْمَةٌ مِن شَبابٍ ... إنَّ شَرَّ الآفَاتِ أنْ تَتَرددْ

رُبَّمَا موْجةٌ منَ العِلْم جاءتْ ... بـ «هِلال» في عصرِنَا تتَجَدَّدْ

أطلِقِ «النقدَ»، فالبَرَاكِينُ نقْدٌ ... وجدَ السَّقْفَ حَاجِزًا، فتَمرَّدْ

أدعِيَاءُ الكَلامِ في العِلْمِ كُثْرٌ ... كَمْ حلُمْنَا بعَالِمٍ جَاءَ مفْرَدْ

كلُّ أهل الحروفِ يطمعُ في المجْدِ ... ولكنَّ بعْضَهُم فيهِ أوْحَدْ

كمْ قَصيرٍ خَلا لهُ الجَوُّ ليْلًا ... باضَ في مَعْبَدِ الحُرُوف وزغْرَدْ

فهلكنا في النقْدِ شرحًا عنيدًا ... فإذا نظَّرُوهُ، أصبَحَ أعْنَدْ

يُولدُ النَّصُّ وَجْهُهُ ذو حُدودٍ ... ثم يُمسىٰ في النقدِ غيرَ مُحَدَّدْ

أوْسَعُوا الناسَ بالخَوَاجَاتِ حتىٰ ... «إبنُ جُرْجَانَ» يُوشكُ الآنَ يُجْحَدْ

كلما كان ذكر «بَارْتٍ» زَهَوْنَا ... وخنَسْنَا إنْ جاءَ ذكرُ «مُحمَّدْ»

في جرَاحِ الشُّعُوبِ لا شئَ يُنْسَىٰ ... كل جُرْحٍ في قلبِنَا يتزنَّدْ

يا أخَا «الدار»، غيمتىٰ ألفُ بحرٍ ... ما لبحْرىٰ في ليلتيْن تجَمَّدْ؟

كنْ لـ «دارِ العُلُوم» وجْهًا جَديدًا ... وجْهُهَا الآنَ في الدُّجَىٰ، يَتبَدَّدْ

ساحرٌ جَاءَ منْ خَوَالدِ «بِرْلِينَ» ... ولكنْ، «مُطوبِسٌ» فيهِ أخْلَدْ[1]

---

(١) كتب الدكتور سعيد شوارب حاشية علىٰ القصيدة يقول:

* «هلال» في القصيدة هو المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال، وهو من أبرز رواد الأدب المقارن =

واستطرد الدكتور سعيد شوارب يقول: «هذه القصيدة المهداة للدكتور محمد متولىٰ . . كانت محاولة لمباراة الصديق الحميم، والشاعر الجميل الدكتور محمد حماسة، فهو الذىٰ استدعانىٰ إلىٰ هذا البحر الخفيف وهذه القافية الدالة علىٰ حب عميق فعلا للدكتور محمد متولىٰ، مع أننىٰ وأنا الدرعمىٰ، لم أتعرف علىٰ محمد متولىٰ، إلا عبر ومضاته النقدية ويومياته الرائعة في بلاد الفرنجة، عبر الفيسبوك فقط . . ومن ثم فهو حب عفوىٰ كقلم محمد متولىٰ وروحه المتدفقة الغنية بالشعور، وأتوقع أن يكون له بإذن الله، في دار العلوم وفىٰ مصر دور به تتحول الدراسات النقدية والأدبية إلىٰ ما تتطلع إليه الدار . . د. محمد متولىٰ العزيز . . أنت تستحق الحب فعلا . . وكتابتىٰ للقصيدة هذه صدور عفوىٰ عن شعور عفوىٰ وجدته بلا قيد فعبرت عنه بلا قيد . . دمت لمحبيك ولدار العلوم . . سعيد شوارب».

أبكتني هذه القصيدة كذلك من فرط السعادة، وأثلج صدري هذا الشعور الجميل الصادق النبيل! ثم كانت هناك مقطوعات شعرية كثيرة لبعض الأصدقاء الشعراء يضيق المقام عن إيرادها جميعا، لكنني أختار منها مقطوعة واحدة، أسعدتني، لا لأن النفس تطرب للمديح فحسب، ولكن لأن فيها من إحكام الصنعة الشعرية ما فيها، وهي مقطوعة الشاعر الصديق حمادة عبيد، يقول فيها:

إلىٰ صديقي الدكتور محمد متولي:

قالوا: محمدُنا قد نال «دَكْتَرَةً» ... قلْتُ: هنيئًا «لها» فازتْ بمُثريها
قالوا: لعلَّكَ قدْ أخطأتَ منْ فرَحٍ ... فقلْ: «له» لا «لها»!، والردُّ: أعنيها
بعضُ الرجالِ إذا صارُوا بمرْتَبَةٍ ... كانوا لها شرفًا، تاهتْ بهم تِيها
يا قومَنا مرْحَىٰ إنِّي لمُبْتَهِجٌ ... فالقوسُ قدْ وقعتْ في كفِّ باريها
فاللهُ يحفظُهُ للحقِّ مجتهدًا ... يُوري لأمّتِنا مجدًا خَبَا فيها

= والنقد الأدبي في العالم العربي، كما هو معروف، وقد تعلمنا علىٰ يديه وزملائه الدكتور محمود الربيعي، والدكتور حمدي السكوت، في «دار العلوم» جامعة القاهرة - مفاتيح هذا التخصص.

* «مطوبِسْ»، هىٰ مدينة في محافظة «كفر الشيخ» المصرية، حيث مولد الدكتور «محمد متولىٰ».

كانت هذه الطاقة الإيجابية التي بعثتها مناقشتي في صدور الناس علىٰ مدار سبعة أيام من الاحتفال أو يزيد، من أعظم أسباب سعادتي، وكان من آثار ذلك أن أرسلت إلي إحدىٰ الباحثات تقول:

مساء الخير دكتورنا

كنت بالأمس أستذكر مادة «دراسات عليا»لامتحان اليوم بهمة دنية؛ لظروف أسرية اضطرتنىٰ لتأجيل المذاكرة لليلة الامتحان، وعندما شاهدت حصولكم علىٰ الدكتوراة، علت همتي، وبدلا من أن تكون للنجاح فقط رجعت همتىٰ لسابق عهدها، للحصول علىٰ «ممتاز»!

أشكركم فقد كنتم وما زلتم رافعين لهممنا .. ثبتكم الله!

لم يكن معي أهلي في برلين .. ليسعدوا معي وأسعد معهم بحصولي علىٰ الدكتوراه، فعوضني الله بمثل هؤلاء الأصدقاء والصديقات علىٰ فيس بوك فغمروني بشعور لم أذق مثل حلاوته، قبل ذلك اليوم ولا بعده! وكان مما زاد من سعادتي تهنئة بعض شيوخ العلم الكبار .. ومنهم شيخنا العالم الجليل الدكتور سعد مصلوح، أستاذ اللسانيات بجامعة الكويت، وله في النفس مكان ومكانة، كتب لي تهنئة بالدكتوراه ضاعف من سعادتي بها، أنه كان قد أعلن عزمه علىٰ مغادرة فيس بوك لانشغاله ببعض المهام العلمية، لكنه عاد في اليوم التالي، لا لشيء إلا لكتابة هذه التهنئة، فنشرها قبل أن يغادر، قال:

«أخي الحبيب .. الدكتور محمد متولي:

هنيئا لنا وللعلم ولدار العلوم عودتك الظافرة إلينا متأبطا عملك العلمي الباذخ منطويا علىٰ عزيمتك الماضية الحذّاء في خدمة لغتنا العربية الشريفة وثقافتها. أدام الله عليك نعمة الإخلاص، ووفقك بعد العودة من رحلة جهادك الأصغر إلىٰ سداد الغاية والإنجاز المقدور في مسيرة جهادك الأكبر».

وكنت نشرت غلاف رسالة الدكتوراه بعد تسليمها للجنة الممتحنين، معربا عن قلقي من المناقشة، فعلق عليها أستاذنا الدكتور أحمد درويش، أستاذ النقد الأدبي والأدب المقارن، تعليقا أسعدني وأبهج نفسي، يقول: «موفق إن شاء الله، فرصيدك المعرفي الواسع وثقافتك التي تعلن عن نفسها بكل وضوح وطريقة تفكيرك المنطقية

التىٰ تتضح حتىٰ في كتاباتك العابرة ستكون كلها عونا لك، فضلا عن دعاء الوالدين والمحبين ونحن في صدارتهم . . شد حيلك يا بطل!». وحين تمت المناقشة ومنحت الدرجة بحمد الله علق يقول:

«عزيزي الدكتور محمد متولي، التهاني لك خالصة، والفرحة بك غامرة، والآمال عليك معقودة، وقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن العتيد تمتد عروقه ومسيرته التاريخية التجديدية بك، ووراءك حوافز كثيرة ممن عبروا البحر قبلك وعادوا بالصيد الوفير انطلاقا من حسن توفيق العدل ومرورا بغنيمي هلال وإبراهيم سلامة وعبد الحكيم حسان ومحمود الربيعي ورجاء جبر ووصولا إلىٰ محمد عليوة من أبناء جيلك، فمرحبا بك في قسمك العريق ومرحبا بعلمك وحيويتك وطموحك وتمنياتنا لك بكل الخير».

مَثَّلَت هذه الكلمات الطيبة، زادا روحيا عظيما، ودعما نفسيا لا مثيل له قبل المناقشة وبعدها. والحق أن أجمل شعور أحسست به بعد الفراغ من المناقشة هو «حب الناس»، شعور نادر لا يمكن وصفه! وبخاصة أنني والله لم أكن أتوقع أن يتلقوا الخبر بكل هذا الاحتفال وهذه الحفاوة والفرحة الصادقة منقطعة النظير! واكتشفت أن لي رصيدا عظيما من الحب في نفوسهم؛ رأيت ذلك ممن يعرفونني وممن لم يلتقوا بي من قبل قط! فوجهت لهم الشكر صادقا، ولم أجد أبلغ في التعبير عن شكري وحبي لهم من أبيات حافظ إبراهيم:

شَكَرْتُ جميلَ صُنْعِكُمُ بِدَمْعِي ودمعُ العينِ مِقْياسُ الشُّعورِ
لأَوَّلِ مَرَّةٍ قَد ذاقَ جَفْني، عَلىٰ ما ذاقَهُ، دَمعَ السُّرورِ

وأما الشعور الآخر الذي أحببته فهو «الحرية» بعد التخلص من عبء البحث والكتابة، وإن شئت قلت: «انقطاع الحبل السري»! فإذا كان الحبل السري قيدا يربطك برحم أمك ولا خلاص منه إلا بالولادة، فهناك حبل آخر يربط عقلك بعقول آخرين، ويقيده -أحيانا- بقيودهم، ولا شك أن في قطعه حرية وراحة عظيمة. تدفعك إلىٰ الانطلاق من غير قيود! وكان الحصول علىٰ الدكتوراه هو بداية هذا النوع من الحرية، أو بداية انقطاع هذا الحبل السري، أو ليست الدكتوراه شهادة لك بأنك قادر علىٰ إبداء الرأي في مجال تخصصك بحرية!

ناقشت رسالة الدكتوراه، ومنحت الدرجة، وتسلمت الشهادة . . فتنفست الصعداء! ورحت أطوف شوارع برلين مستمتعا بها كأني أراها لأول مرة! كخيل فتي أطلق في مرج بعد طول انحباس!

ما كان أسعدني في ذلك اليوم حين خرجت مع بعض الأصدقاء لتناول الغداء في أحد المطاعم العربية، وهو أمر اعتدناه ولا شيء فيه، لكن مفاجأة سارة أبهجتني! فقد وجدت كل من عرفت من الأصدقاء في برلين قد اجتمعوا في هذا المطعم الذي يقدم «أوبن بوفيه»، يستقبلونني وقد أقاموا حفلا مهيبا، أعدوا له دون أن يخبروني، بمناسبة حصولي علىٰ الدكتوراه ومغادرة برلين! فكانت مفاجأة مبهجة أسعدتني وأدخلت السرور علىٰ قلبي! وهونت علي لحظات الفراق، وإن صعبتها في الوقت ذاته!

لم يكتفوا بالطعام الشهي الجميل، وإنما أعدوا ألبوم صور رائعا، يحتوي علىٰ أجمل اللقطات التي جمعتنا، وعشناها معا علىٰ مدار السنوات الماضية، وإلىٰ جوار كل لقطة عبارات تهنئة من الصديقة أو الصديق صاحب الصورة تحمل ذكريات جميلة. وتم عرض هذه اللقطات التي تحمل ذكرياتنا الجميلة بعد الغداء علىٰ «داتا شو» في مقر الحفل في المطعم، واستمعوا إلىٰ تعليق مني علىٰ كل لقطة، وتعبير عن مشاعري تجاه أصحابها، وما أكنه لهم من حب ومودة وتقدير، وذكرياتي عن الموقف الذي التقطت فيه الصورة. ومن لم يتمكن منهم من الحضور بنفسه كان حاضرا بصوره وكلماته وقلبه وذكرياته الجميلة! ولا شك أنهم جميعا في قلبي قبل ذلك كله!

ما كان أجمل اليوم، وما كان أجمل المفاجأة . . وما أجمل أصدقائي وما أنقىٰ قلوبهم، وما أسعدني بحبهم الذي ليس يعدله عندي شيء، وأسأل الله إن تفرقت بنا البلاد ألا تتفرق قلوبنا أبدا!

رحت أقلل من ساعات النوم، فقد اقترب موعد الرحيل! شوقي إلىٰ مصر شديد، لكن شوقي إلىٰ برلين شديد أيضا! ما أعظم حنيني إلىٰ الأماكن وما أشد تعلقي بها، وبخاصة إذا لم تحمل لي تلك الأماكن إلا كل جميل . . رحت أملأ قلبي وعيني من شوارع برلين، وأشجارها وطرقاتها ومحلاتها ومحطات القطار والمترو والأتوبيسات، وجدران الجامعة وأبوابها وقاعاتها وساحاتها، وقاعات معهد

الدراسات العربية وشرفاته، ورحت ألتقط صورا لكل شيء! كأنني أريد أن أستبقيه! ولكنه مفارق لا محاولة!

قـد يـهـون الـعـمـر إلا سـاعـة   وتـهـون الأرض إلا مـوضـعـا

لم أكن أدري أن التقاط صور للذكريات، ثم إعادة التقليب فيها بعد مرور سنوات، سيثير الشجون ويطلق العبرات! فعشق الأماكن والحنين إليها أمر يدعو للبكاء حقا! وبخاصة حين تبتعد الأماكن ويشحط المزار! معهد الدراسات السامية والعربية، جامعة برلين (Altensteinstr.34 14195 Berlin-Dahlem) تلك الفيلا عتيقة، التي قضيت فيها ثلاث سنوات ونصف باحثا ودارسا . . . قبل أيام من انعقاد مناقشتىٰ للدكتوراه فيها، كنت أرىٰ أقواما من أهل البلدة يأتون إليها يتفقدونها؛ إذ كانت الجامعة قد أعلنت عن رغبتها في بيع هذا المبني القديم، لتضم الأقسام العلمية جميعا في صعيد واحد في مبنىٰ جديد . . . كم كان قاسيا أن ترىٰ الغرباء الراغبين في الشراء يحومون حول مكان عزيز عليك، يتحسسون جدرانه، ويفتحون نوافذه، ويصعدون سلمه، يختبرون جودته، لينظروا هل يستحق ما يدفعون فيه من أموال! ولم يعلموا أنه عند بعض الناس لا يقدر بثمن! قبل عودتي إلىٰ مصر بأيام . . كانت اللوحات علىٰ الجدران قد أنزلت، أكوام علىٰ الأرض، وقد شرع في إنزال الكتب من علىٰ الأرفف، وأخرجت المكاتب، تمهيدا لنقلها إلىٰ المبنىٰ الجديد . . وأخذ الضوء يشحب في المكان . . . وكأنه دار العلوم القديمة التي لم أر إلا صورها! وتم بيع المكان . . . فما كان أقسىٰ الوادع!

إنني أذكر تعليقا للدكتور الفارس علي، أستاذ العبرية، وقد سبقني إلىٰ الحصول علىٰ الدكتوراه من هذا المعهد نفسه، قال: «أذكر أنني دعوت المغفور له أستاذي الدكتور عبد الصبور شاهين لزيارة برلين، واصطحبته معي إلىٰ المعهد لمقابلة أستاذي الدكتور راينر فوجت، وكنت وجلا من رد فعل أستاذنا عندما يرىٰ المعهد، فتقتحمه عينه [لبساطة المبنىٰ وتواضعه]، وتنالني منه بعض عبارات التهكم والسخرية، لكنه فجأني -يرحمه الله- بقوله إن العلم فكرة رائدها «أستاذ» ثم يأتي «المكان» تاليا أو أخيرا!». وإني إذ أذكر هذا الرأي وأذكر حنيني إلىٰ مبني المعهد وخوفي عليه وتعلقي به، أذكر كذلك رأي الدكتور محمود الربيعي الناقد الأدبي، الذي نعت مبنىٰ

دار العلوم الحالي في الجزء الثاني من سيرته الذاتيه «بعد الخمسين» بـ «المبنىٰ القبيح»!. وذلك حين قال: «لا يحتاج الإنسان إلىٰ خبرة في فن العمارة ليدرك أن هذا المبنىٰ مبنىٰ قبيح . . . فهو مقبض للنفس إذا نظرت إليه من الخارج، ومقبض لها إذا تجولت فيه. إنه يفرض عليك جو السجن «الأسمنتي» أو جو المصالح الحكومية». أذكر كل ذلك وأترك الأمر للقارئ الكريم، يتدبر الآراء ويوفق بينهما أو يختار منهما ما يشاء! فإن مشاعري الآن في لحظة الوداع لا تسمح بالنقاش والأخذ والرد! وإن كانت تتماوج في رأسي الخواطر والأفكار والذكريات!

أثناء تجوالي في برلين في هذه الأيام الأخيرة، تعين علي المرور علىٰ المكتب الثقافي المصري لترجمة شهادة الدكتوراه من الألمانية إلىٰ الإنجليزية، وتوثيقها، دخلت ذلك المبني الفخم الكائن في Charlottenstr 81. وركبت المصعد إلىٰ الدور الرابع، حيث المكتب الثقافي المصري، وضغطت علىٰ الجرس، فكان تصرف الموظف المتعاد، فتح لي الباب شيئا قليلا، وبسط ذراعيه يعترض الطريق، أمسك طرف الباب بشماله وأسد اليمنىٰ علىٰ الحائط، يستفسر عن سبب الحضور! فأخبرته بما جئت من أجله، وفي صدري مرارة من عدم احتفال العاملين بالمكتب الثقافي بمن يقدم إليه من المصريين، ففي تعاملهم جفوة كبيرة، سمح لي بالدخول ولقاء الموظف المختص، رجل بدين يجلس علىٰ مكتبه ويشعل سيجارة! هو مترجم المكتب الثقافي . . يدخن في مكتبه وتلك جريمة توجب العقاب عند الألمان، أما في المكتب الثقافي المصري فلا إثم عليه، والأمر لا يعنيني علىٰ كل حال!

كنت حولت الرسوم المقررة للترجمة واعتماد الشهادات علىٰ الحساب البنكي للمكتب الثقافي، فسلمت الموظف إيصال التحويل، والشهادة الألمانية ونسخا من الرسالة لتوثيقها، وطلب إلىٰ الحضور غدا لتسلم الشهادة المترجمة. فلما ذهبت إليه من الغد، اطلعت علىٰ ترجمته للشهادة فساءني ما بها من أخطاء، في اسم الجامعة وفي تاريخ ميلادي وفي عنوان الرسالة، فأخبرته بهذا ضائقا به فاعتذر، وأبدىٰ خجلا تمثيليا ساذجا، وصحح الأخطاء في نسخة جديدة طبعها أمام عيني، وأخبرني أنني لن أتمكن من تسلم هذه النسخة الجديدة الصحيحة اليوم، لأن سيادة المستشار الثقافي لم

يحضر إلىٰ المكتب اليوم ليعتمدها، ومن ثم يجب علي أن أحضر غدا مرة أخرىٰ لتسلمها!!

انصرفت .. ولما جاء الغد ذهبت إليه، وتسلمت الشهادة، وأخبرت الموظفين هناك بكل ما في نفسي، ونفس بقية زملائي، من سوء معاملة العاملين في المكتب للباحثين المصريين القادمين، وأن هذا المكتب هنا هو بيتنا، بيت المصريين، نجيء إليه لا لنأكل ونشرب، ولكن لنقضي حاجات لنا ضرورية، هي السبب في وجود هذا المكتب في برلين! ولا يليق أن نُستقبل عند الباب علىٰ هذا النحو بوجوه خشبيه تنطق بعدم الرغبة في دخول القادم أو استقباله! وهو أمر لم نعهده قط في أي مصلحة ألمانية حكومية أو غير حكومية.

تظاهر الموظفون أن كلماتي تركت فيهم أثرا كبيرا، وأن سلوكهم سيتغير بدءا من الغد، وأكدوا لي إن أنا جئت في الصباح فسأجد نمطا آخر من المعاملة! فابتسمت، وأخبرتهم أنني قلت ذلك إبراء للذمة وإراحة للضمير، لكنني لن أعود مرة أخرىٰ فلم يبق لي في برلين سوىٰ يوم واحد قبل إقلاع الطائرة!

ذهبت صباح اليوم التالي الخامس والعشرين من فبراير ٢٠١٥ إلىٰ مكتب البلدية Rathaus Steglitz، لتوقيع إخلاء الطرف، وإخبارهم بأنني مفارق غدا إلىٰ أرض مصر .. ليقوموا بشطب عنوان محل إقامتي! ويمحوا اسمي من ملفات المقيمين! أنهيت هذه الإجراءات، وكانت لحظات عصيبة! خرجت من المبنىٰ الوردي الذي طالما طفت به خلال ثلاث سنوات ونصف .. دامع العينين .. أتصفح وجوه المارة، وأقلب عيني في الأشجار والأرصفة والطرقات وواجهات المحلات، ومحطة المترو .. فاض الدمع! .. فاض الدمع! ووجدني أُخرج الآيفون من جيب سترتي، وأكتب وأنا أمشي في الشارع بين الناس لآخر مرة، أكتب أعبر عما يعتمل في صدري .. عما أسال دمعي ساخنا حارا .. شعرت بحرارته علىٰ وجنتي رغم تساقط الجليد ...

أمشي أقلِّبُ وجهي في وجوه السائرين

رجل يهرولُ في الشمال

وهذه حُبْلىٰ

تَبَخْتَرُ في اليمين
والطفل يعبث ههنا مرحا
من غير ما ألم ولا حزن دفين
العمر لا يجري هنا!
والشمس دافئة هنا
تلقي أشعتها علىٰ هذا الجبين
هذي الوجوه عرفتها وألفتها
وعشقت طلعتها الوضيئة من سنين!
برلين!
اليوم أهجر شمسها وضياءها وجليدها
اليوم يُقْطَعُ ههنا حبلُ الوتين!
اليوم يسكب ههنا دمع سخين
لا تهجري، بالله، أنت حبيبة
يسقي الفؤادَ رُضابها في كل حين!
جودي علىٰ قلبي المعنَّىٰ
كفكفي سحب الحنين
ضمدي جرح الأنين!
ها قد أتت تجري مهفهفة
غدائرها تداعب مهجتي،
بنتَ الَّذين!!
برلين أنت مدينة .. بل جنة كبرىٰ!

فهذا حظه بر

وهذا كله لين

اليوم أمشي . . .

اليوم تذبح مهجتي الحَرَّىٰ علىٰ أعتابك

والقلب يهتف صارخا: برلين!

كانت الجامعة قد حجزت لي تذكرة طيران للعودة إلىٰ القاهرة، ولم تكتف بتحقيق رغبتي في حجز التذكرة علىٰ شركتنا الوطنية «مصر للطيران» وإنما بالغت في الكرم فحجزت التذكرة في «درجة رجال الأعمال»!! أقعلت الطائرة ورفعت رأسها تشق عنان السماء في قوة وعزم، شعرتُ بشوق إلىٰ برلين، وحنين إلىٰ مصر، وصلت الطائرة سريعا إلىٰ القاهرة، لم أشعر بالمسافة من فرط الشوق، أخذت الطائرة في الهبوط، شيئا فشيئا، لكنها لم تلمس أرض المطار برفق، ولم يصفق الركاب لقائدها كما صفقوا له في برلين أول مرة، وإنما اصطدمت الطائرة بالأرض صدمة قوية، اضطرب علىٰ أثرها الركاب في مقاعدهم، حتىٰ كادت تضع كل ذات حمل حملها، وتعالت أصوات الناس تلوم القائد علىٰ فعلته! ولم يصفق له أحد . . . وسيذهب القراء ونقاد الأدب في تحليل هذه الصدمة كل مذهب!!

من تعليقات القراء

الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف (نائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة)

- يا محمد لا تضيع هذه المذكرات من أجل أن تنشرها مجموعة في كتاب، وسوف يكون كتابا رائعا بإذن الله. أنت تقدم معلومات وفوائد علمية مفيدة في أسلوب رائع جذاب مشوق، فضلا علىٰ أن حنينك إلىٰ دار العلوم لا يزايلك، ولهجتك تنضح بالصدق متمثلا في مقارنة ما يجد عليك بما رأيته في الدار، كما أن وفاءك لأساتذتك وزملائك واحترامك للجميع يطبع حديثك بطابع الجلال. لك التحية والمحبة والدعاء بالتوفيق. م. حماسة

- أنا معجب جدا يا محمد بأسلوبك وطريقة سردك، ويبدو أنك تكتب القصة أصلا؛ لأنك متمرس. تمنياتي لك بالتوفيق، ولا تدع شيئا يعرقل مسيرتك. لك أطيب الأمنيات. م. حماسة

- الله عليك يا محمد! لقد عقدت النشوة وشدة الإعجاب لساني!

- لن أملّ الإعجاب بك. إنني عندما آخذ في القراءة أخشىٰ مع كل سطر أن ينتهي الكلام ووددت لو طال وطال. لك الحب الدائم والإعجاب المتجدد.

- أصبحت أبحث عنك، فإذا لم أرك اكتأبت، وإذا رأيتك فرحت بك فرح الأطفال بالهدايا. أكثر الله هداياك وأسعدك كما تسعد قلوبا كثيرة. (كل هذا يطلع منك يامحمد؟؟)

تِلْكَ المَعاني بلا جُهْدٍ مُنَظَّمَةٌ ... كأنَّها ذَهَبٌ بالتِّبْرِ مَسْبوكُ
جَوَاهِرٌ أَشْبَهَتْ في الحُسْنِ كَاتِبَهَا ... ياقُوتُها بِنَظِيمِ الدُّرِّ مَسْلُوكُ
محمدٌ دُمْتَ فينا مُبْدِعًا أَبَدًا ... وما سواك وما أَبْدَعْتَ، مَتْرُوكُ

الدكتور سعد مصلوح (أستاذ اللسانيات بجامعة الكويت)

- علىٰ المرء أن يكون أعرف من غيره بإمكاناته وقدراته. وأقول صادقا إنه ليس لي ما لك من قدرة، وإمكانات سردية آسرة، يغبطك عليها محبوك. بيد أن ما أثار شجوني من يومياتك أني لم أحاول ولو مجرد محاولة أن أشرك أصدقائي في همومي وعذاباتي وتأملاتي إبان رحلة الطلب كما فعلت أنت أيها العبقري الجميل، وقد كان فيها ما يستحق الرواية. لقد عوضتني بما سطرت عن عمر طويل تفلت من بين يدي، فلله درك.

- لك التحية والإعجاب فما كان من ترسلك وتحدر كلامك سلسلا عذبا ناقعا للغلة لا يتأتىٰ لكل الناس بمثل هذا اليسر والإسماح. سؤالي أيها العزيز هو أن كثيرا من الأساتذة الذين رويت لهم وعنهم نالوا درجاتهم من بيئات علمية رصينة وجادة، ورأوا ما رأيت من جميل القيم وروائع الممارسات. فلماذا نسي كثير منهم ما ذكروا به قولا واحدا ولا أقول: نسوا حظا مما ذكروا به؟ ولماذا تركوا قيم التنافس الجميل إلىٰ التحاسد البغيض؟ ولماذا تأججت في الأعماق شهوة الانتقام من كل من هو فوق أو دون بحسب ما يتاح من الفرص السوانح. تذكر جيدا أيها الحبيب كل حرف جرىٰ به قلمك الجميل، وذَكِّر به إخوانك ممن يعيشون تجربة كتجربتك؛ فإنما هو حجة علىٰ الكاتب والقارئ جميعا، عسىٰ أن يستيقظ الله به الأبصار والبصائر، فمستقبل العلم والمعرفة أمانة في أيديكم وأيدي تلامذتكم من بعدكم. أعتذر من طول التعليق، ولكن كلامك هيج من الكوامن والنبائث ما حرمني فضيلة الاختصار. مرة أخرىٰ لك التحية والإعجاب.

الشاعر الدكتور سعيد شوارب

- أيها الدرعمي العزيز الأستاذ محمد متولي . . سعدت كثيرا بهذه الأناقة المعجبة في عبارتك الغنية بالأدب، فعندي أن أناقة العبارة، هي الترجمة المعتمدة لأناقة الروح، كما أحييك كثيرا علىٰ هذه الانسيابية التلقائية التي تستولي علىٰ اهتمام القارئ فلا تفلته، فهو يظل مشدودا إليك في تموجات السرد وأنت تبعث أشواقه للمتابعة، بخفة روح لا يخطئها التواضع، ولا يرهقها التكلف، ولا يفجؤها التحول بين زوايا

الالتقاط للأفكار الجديدة . . (باختصاااار . . أنت واد هايل . . أحييك).

دكتور إيهاب النجدي (أستاذ الأدب والنقد المساعد، بالجامعة العربية المفتوحة بالكويت)

- أشد علىٰ يديك وأنت تعيد أدب الرحلة إلىٰ رسالته التنويرية، وتسير علىٰ خطىٰ الدرعمي الرائد حسن توفيق العدل في «رسائل البشرىٰ في السياحة بألمانيا وسويسرا» . .

- ما أجمل أن نراها في كتاب . . عندها ستصير المتعة أضعافا . . وإنا لمنتظرون!

- سرد ممتع حقا، ومما يروق لي فيه هذا المزج الناعم بين الذاتي والموضوعي، وبين البوح والإخفاء، والتنقل بين الأزمنة، وتنوع الخطاب وتعدد ضمائره . . وبه يتجدد بستان السرد المصري في روحه الأصيلة، وكما راده الكبيران إبراهيم المازني ويحيىٰ حقي . . تحاياي.

الدكتور كريستيان يونغى (ألمانيا)

- يا صديقي العزيز: بدأت قراءة اليوميات، التي جعلتني أرافقك رحلتك إلىٰ ألمانيا التي لا أعرفها، ولكنني أكتشفها بعينيك. تترك يومياتك الفريدة انطباعا جميلا في نفسي. وأتمنىٰ أن تنشر ما تكتب هنا في كتاب . . . . مع خالص تحياتي وودي يا طه حسين الجديد. كريستيان

الدكتور أيمن عيسى

- ما أدهشني في هذه اليوميات الرائعة سهولتها المذهلة وعمقها الفريد، وموازنة الكاتب فيها بين خيطين رئيسين يبسط أحدهما ويطوي الآخر ويخالف بين البسط والطي بجلد رفيق للذات العربية تارة وبنقد موضوعي للآخر الغربي تارة أخرىٰ، وهذا دون السقوط في هوة الاستلاب والاغتراب ودون التهوين من شأن الآخر أو تحقيره. وفوق كل ذلك ثمة لغة سلسة معجزة تتشح بجلال التراث وتتحلىٰ بسخرية العصر وفكاهته تخلص فيها متولي من أوضار الركاكة والغموض، ومن أوشاب التقعر والافتعال، فهنيئا لنا وله هذه التحفة الفنية الباهرة!

الشاعر حمادة عبيد

أيـهـا الـحـاكـي الـمـبـيـنُ قـد بـدا مـنّـا الـحـنـيـنُ
نـحـو مـا سـطـرتـمـوه فـهْـو لـلـصـادي مَـعِـيـنُ
هـذه الـضـادُ أراهـا بـيـن فـكّـيـكَ تـلـيـنُ
يـا ابـن مـتـولّـي لـتـعـلـمْ أنـتَ أذْنٌ لـي وعـيـنُ
فـي بـلادٍ لـم أزرهـا كـم أنـا حـقًّـا مـديـنُ

الأستاذة رجاء ميقاتي (إذاعية من لبنان)

– العزيز محمد .. دون إطالة .. أنت كاتب قصة من الطراز الرفيع .. لا أعرف كم نجمة أضعها علىٰ كتفك .. بل كم وساما أضعه علىٰ صدرك، رائع في السرد الأنيق حتىٰ الثمالة.

لديك القدرة علىٰ التحكم في السرد، وجذب الانتباه، ونقل الرسالة الصحيحة.

لغتك هي اللغة الرابحة ... وها نحن نشهد ولادة يراع عربي جديد ينطق فكرا وإبداعا ..

الأستاذة قنوان دانية (باحثة)

– روعة وصدق فني! لم أجد تعليقا سوىٰ قول ميخائيل نعيمة: «ألا بارك الله في مصر، فما كل ما تنثره ثرثرة، ولا كل ما تنظمه بهرجة .. وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام، وتؤله رصف القوافي ... غير أني عرفت اليوم بالحس ما كنت أعرفه أمس بالرجاء» ... دمت متأملا راقيا باعثا للسيرة الفنية في أبهىٰ صورها ...

الأستاذة سهير المهندس

– أعترف بترددي وعجزي عن التعليق عندما يتعلق الأمر باليوميات لاجتماع كثير من الأساتذة الدراعمة؛ فهم يملكون زمام اللغة، وتعليقاتهم تشعرني كأني في صالون أدبي، ولكن شجعني جمال عباراتك؛ فأسلوبك عذب رائق سلس، فضلًا عن إنه تناول كثيرا من الموضوعات كالصداقة ودفئها، وأهمية الكتاب وقيمته، ووصف بعض الأماكن، كل ذلك دون تكلف أو تصنع، بصراحة جعلتني أشعر أني في رحلة مع

كلماتك تمنيت ألا تنتهي أبدا . . . دكتور محمد هذا هو الأدب العربي المصري في أبهىٰ صوره . . بجد أكثر من رائع!

الأستاذة ريمة الفلا (باحثة)

- كلماتك ليست كالكلمات . . بل لوحة بديعة رسمت أماكن وأشخاصا؛ فرأيناهم بعينك، وأكبرناهم بجميل أدبك . . وصف بارع ماتع بأسلوب رشيق أنيق يأخذ اللب ويستهوي القلب. بارك الله فيك وأدام فيض قلمك.

الدكتورة رشأ الخطيب (مدرس الأدب والنقد بجامعة الزيتونة بالأردن)

- رحلة جميلة جدا . . شكرا لك د. محمد لمشاركتنا إياها . . والأجمل اللفتات الناقدة والعين البصيرة التي تلتقط ما بين الشرق والغرب من مفارقات.

الدكتور إبراهيم سعيد

- بلاغة رائقة . . بورك في قلمك الجميل . . أضحك الله سنك يا دكتور إنها خلطة الكوميديا السوداء مع رشاقة الكتابة، ومسحة الإبداع العبقري . . كم نتنفس معك خطواتك وأحاسيسك . .

الأستاذ إدريس أنور (باحث من كردستان)

- أيّ كلام يقال بعد أن نلت مديح أساتذةٍ كبار وأنت من أنت!! في غنىٰ عن المدح والتعريف. فمن يقرأ يومياتك سينبهر ببراعتك في السرد والوصف والمقارنة، واعذرني فمن شدة الاستحياء أمام لغتك ووجود هذا الكمّ الكبير من الدراعمة والأساتذة في صفحتك الأدبية الراقية لا أعلّق كثيرًا بل أكتفي بالتلذّذ بالقراءة والتصفح ووضع الإعجاب فقط. ردّك الله إلىٰ أهلك سالمًا غانما، تحياتي لك ودمت مبدعًا متألقا.

الدكتورة أسماء زيادة

- جعلت أسأل نفسي وأنا أقرأ اليوميات البديعة . . . أقول: كلنا مر بهذه المواقف، ربما بتفاصيلها . . ما الذي يجعل هذا الرائع محمد متولي يمسك بنا

ولا يفلتنا حتىٰ نتم قراءة ما يكتب . .؟ بل حتىٰ يجعلنا نبكي ونضحك معا . . محمد متولي الشخصية الرائقة في سوائها واتساقها مع نفسها . . تحياتي.

الأستاذ محمد السيد عبد الرحمن

- شائق وماتع ومفيد وغريب . . . ربما ضاقت العبارة عن التعبير عن حجم متعتي، لكن في الوصف بتلك الكلمات الأربع الجوامع إشارة متواضعة لبدائع الفوائد المطوية في هذه المذكرات، بورك مداد قلمك!

عمر الأيوبي (أديب وشاعر طبيب من العراق)

- أديب محترف يغوص في أعماق النفس الإنسانية فيصف أصغر تقلباتها . . ما أقرب أسلوبك دكتور لأسلوب طه حسين في «الأيام» . .